

الدكتور أبو القاسم سعد الله

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الثاني

دار البصائر
الجزائر

أبحاث وآراء

في تاريخ الجزائر

الدكتور أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الثاني



دار البصائر
الجزائر

طبعة خاصة

دار البصائر

2007

ردمك : 978 - 9961 - 887 - 30 - 1
الايداع القانوني : 2007 - 3315

دار البصائر
للنشر والتوزيع
50 شارع طرابلس – حسين داي - الجزائر
الهاتف/فاكس : 021 -77 – 36 – 27/25

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا هو الجزء الثاني من (ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، مشتملا على أربعة وعشرين موضوعا تتوزع على مراحل التاريخ الوطني في العصور الحديثة . وبعض هذه الموضوعات مطول ومعمق ، وبعضها قصير لا يعدو ان يكون رأيا في كتاب او استنباطات من وثيقة . وقد أثبتنا تواريخ كتابة ونشر هذه الموضوعات ، وهي في الجملة قريبة العهد اذ أنها جميعا ، باستثناء القليل ، لا تذهب الى أبعد من سنة 1980 . ولم نراع في ترتيب الموضوعات ايه طريقة ، باستثناء القصيرة منها فقد تعمدنا وضعها في القسم الأخير من الكتاب ، وسيكون لهذا الجزء رفيق آخر عندما نصدر الجزء الثالث ان شاء الله .

وهناك ملاحظة أود أن أعلنها بهذه المناسبة ، وهي أن العناية بموضوعات هذا الكتاب وبأمثالها هي التي عاقتني عن متابعة واكمال المشروعين الكبيرين المفضلين وهما : الحركة الوطنية بأجزائها وتاريخ الجزائر الثقافي بأجزائه أيضا . وتتمحور تلك الاعاقة في انعدام الظروف الملائمة للتأليف الضخم الذي يحتاج ، بدون شك ، الى نشر الأوراق وتصنيف المواد والاختلاء الكامل . فلا المنزل ولا الجامعة قد توفرت على الشروط الأولية للبحث . ولذلك فان القارىء سيلاحظ ان معظم موضوعات هذا الكتاب كتبته أثناء العطل الصيفية في بلاد اجنبية حيث كنت احمل أوراقي وبطاقاتي الى مكتبة جامعة اجنبية وأستغرق حوالي خمسين يوما في التحرير والتسويد ، تاركا المراجعة لحين عودتي الى الجزائر ، لأن المراجعة لا تتطلب تفرغا ذهنيا ولا خلوة مطلقة كالتأليف .

ان بعض الناس يكتب التاريخ اليوم من وجهة نظر حزبية ، وبعضهم يكتبه بمنظار الطرقية ، وبعضهم يكتبه بلون الحركة الاصلاحية ، وبعضهم يكتبه في ضوء الايديولوجيات العالمية ... واود أن اقول هنا بأني ، في اعتقادي ، لست من هؤلاء ولا من أولئك . والمؤرخ الحق ، في نظري ،

هو الذي يفرق بين ميوله الشخصية ومهمته الوطنية والقومية والانسانية. اننا لا نكتب التاريخ حسب اهوائنا وميولنا ولكن حسب منطوق ومفهوم الوثائق ، مع الأخذ في الاعتبار جميع معطيات القضية التي نعالجها . ورائدنا في كل ذلك خدمة التاريخ نفسه وخدمة الأجيال في ضوء العلم الحديث والتقدم البشري ، ومع اخضاع جميع الأبحاث الى تحكيم العقل الواعي . ذلك أن تاريخنا العربي والاسلامي ، والجزائري على الخصوص ، مليىء بالخرافات الفليظة التي لا يقبلها العقل ولا العلم ولا نظرية التقدم في اوسع معانيها .

واني لأتمنى أن يكون هذا الجزء مفيدا كسابقه .

أبو القاسم سعد الله

الجزائر (ابن عكنون) ، 25 نوفمبر 1985 .

(*) ـ ننبه القارىء الى أنه لأسباب فنية وضعت الصور في آخر الكتاب . وقد حاولنا أن نحيل كل صورة على مكانها من الكتاب .

عن الكتابة التاريخية

الكتابة هواية وصنعة (*) . وهي على كل حال تبدأ كهواية فردية ، فاذا تكاثر أصحابها في المجتمع الواحد تصبح هواية جماعيـــــة ـ او اجتماعية . لذلك فان بعض الشعوب هوت الكتابة وبرزت فيها فخلفت آثارها ، غثة وسمينة ، وبعض الشعوب عزفت عن الكتابة فأهملت آثارها وذرت الضباب على نفسها .

والجزائريون من الشعوب التي عزفت عن الكتابة كهواية ، ومن ثمة لم يحذقوها صنعة . ولا نستثني من ذلك عصرا من عصور تاريخهم . فبينما نجد لهم مواقف بارزة في البطولة والدفاع عن النفس وأدوارا في الحضارة ، فانهم لم يكونوا يهتمون بتسجيل ذلك لأحفادهم فيضيع خبرهم ويدركه النسيان ويتراكم عليه الضباب وتعمل فيه يد المسخ والتشويه من طرف أعدائهم .

ويعود سبب هذا العزوف عن الكتابة كهواية وصنعة الى عدة أسباب . منها في نظرنا الحساسية المفرطة عند الفرد الجزائري . فهو لا يقبل ان يطعن في كفاءته أو ينتقد في سلوكه . والأولى له في هذا المجال ان لا يقال فيه شيء البتة من أن يقال فيه أنه غير مجيد أو غير كفء . وهو يفضل ان يتواضع لدرجة أن يعدم نفسه ويهمل آثاره التي قد تكون محل نقد أو انتقاص . وبناء عليه فان كل ناقد له يعتبره خصما : والنقد ، مهما كان نزيها ، هو في نظره نوع من السباب والشتم . والجزائري يفضل ان لا يكون ناقدا حتى لا يكون منقودا .

ان ما يقال عن حرية التعبير وحرية النشر اليوم هو تعلة فقط ، في نظرنا ، يتعلل بها العازفون عن الكتابة . ذلك ان الحرية ، كما قلت في غير ما مرة ، تؤخذ ولا تعطي . فاذا كانت موجودة فهي نعمة على الشعب عموما والكاتب خصوصا ، واذا لم تكن متوفرة فما على أنصارها وعشاقهاالا

* ـ نشر في مجلة (الثقافة) عدد 66 ، نوفمبر ـ ديسمبر 1981 .

أن يعملوا من أجلها ضد السلطة المستبدة الظالمة سواء كانت هذه السلطة استعمارية او غير استعمارية . ومن جهة أخرى فان الكتابة كهواية ، تمارس ولو على أسنة الرماح وفي غياهب السجون وأمام كل صنوف الحرمان والارهاق . أما نشر المكتوب في هذه الظروف فليس بالضرورة آنيا ، فقد يتأخر بعض الوقت أو حتى بعض السنين . ذلك أن المهم هو تسجيل الرأي والموقف للأجيال القادمة . وذلك هو فخر الفرد وفخر الشعب .

هذا عن ممارسة الكتابة عموما . ولا نعتقد أن الكتابة التاريخية تختلف كثيرا عما كنا نقول . فقد وجدنا الجزائريين ، بالقياس الى شعوب أخرى ، مقلين في تسجيل حوادثهم واخبارهم ، وهذا في جميع العصور كما لاحظنا . فبينما تكتب بعض الشعوب الأخرى عن الحادثة الصغيرة في بلادها فتضخمها وتعظمها حتى تصبح حادثة دولية أو قضية انسانية لا تنسى ، نجد الأحداث الجسام في الجزائر تهمل فتتضاءل حتى تضيع من ذاكرة الشعب الذي صنعها فما بالك بذواكر الآخرين . وبينما تخلد بعض الشعوب الأخرى زعماءها (في العلم والسياسة والحرب والفن .. الخ) فتجعل من القائد الصغير بطلا مغوارا ومن العالم المتواضع مخترعا بارعا ، وهلم جرا بالنسبة لرجل السياسة وانفن وغيره ـ نجد الجزائريين لا يحتفون بأبطالهم العظام ولا برجال العلم والسياسة والفن عندهم . فلا تعرف الأحفاد ما صنع الأجداد ، ولا تطلع الشعوب الأخرى على مساهمتهم في الحضارة ورقي الانسانية .

واذا كان هذا الاهمال الفاضح ينطبق على مراحل التاريخ عندنا فانه بالنسبة لتاريخ الثورة أكثر وضوحا واشد الحاحا . ودعنا نقل انه لو حدثت ثورة كثورة الجزائر في بلد آخر يهوى أهله الكتابة لكتب عنها اهلها (وليس الأجانب) المجلدات ، ولفاخروا بها الشعوب الأخرى كتابة وليس قولا ، ولساهمت في الكتابة عنها كل الفئات المثقفة ، كل في ميدانه واختصاصه ، من مؤرخين وسياسيين وصحافيين وفنانين واجتماعيين وادباء .. الخ . ولكن ثورة الجزائر عند الجزائريين ما تزال حادثة تتردد حولها الشعارات فقط مثل ((ثورة المليون شهيد)) و ((الثورة من الشعب وللشعب)) و ((ثورة تحرير العالم الثالث)) . واذا لم تساند الكتابة هذا الادعاء فستبقى شعارات جوفاء لا حياة فيها .

والكتابة عن تاريخ الثورة ـ بل وعن التاريخ الوطني عموما ـ ليست مهمة المؤرخ وحده . فكما ان المؤرخ بالأمس يرجع الى المذكرات والاشعار وكتب التراجم والروايات ونحو ذلك من المواد التاريخية ، كذلك يستلزم تاريخ اليوم مساهمة جميع العناصر المنتجة ثقافيا كمذكرات رجال الدولة ،

والمناضلين القدماء في الحركة الوطنيـــــة ، والعسكريين والصحافيين والكتاب وأساتذة العلوم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية واضرابهم . ذلك أن أعمال هؤلاء جميعا ستصبح ذات يوم مادة تاريخية هامة . فالقول بأن كتابة التاريخ من عمل المؤرخين وحدهم هو قول خاطىء في نظري . ان الكتابة التاريخية قدر مشترك بين جميع المواطنين ، ولكن كل فئة منهم لها دورها وتفسيرها وموقفها من الأحداث . وهذا هو الفرق بين المؤرخ وغيره .

وعندي أن الدولة ومؤسساتها لها مهمة خطيرة في جمع مادة تاريخ الثورة والحفاظ عليها وتوفيرها للباحثين والاشراف على فريق منهم ليقوم بوضع اطار عام لهذا التاريخ . وهذا ما دعوناه في احدى المناسبات بالكتابات الرسمية . ان هذه الطريقة معمول بها اليوم في معظم الدول المتقدمة . والمعروف أن التاريخ في الأزمنة السابقة كان تاريخا رسميا ، أو هو تاريخ سير الملوك والوزراء ومؤسسات الدولة . ونحن لا ندعو اليوم الى هذا النوع من التاريخ . فالثورة الجزائرية ليست من عمل بطـل واحد ولا هيئة واحدة ولا مؤسسة واجدة . والفريق الذي سيكلف بكتابة تاريخها رسميا يجب أن يأخذ في اعتباره كل هذه المعطيات حتى لا يتحول تاريخ الثورة الى تاريخ (أو تقراطية) معينة أو (أو ليقاركية) بعينها ، أو سيرة لزعيم من الزعماء .

وبالاضافة الى الدولة ومؤسساتها الخاصة ، هنالك الفئات الاجتماعية المثقفة التي أشرنا اليها . ان كل المثقفين يمكنهم ، بل الواجب عليهم ، الاسهام في كتابة تاريخ الجزائر ، كل في ميدانه واختصاصه . فعـلى المناضلين أن يسجلوا مذكراتهم وانطباعاتهم عن الأحزاب التي كانوا فيها ، وسير الثورة التي اشتركوا فيها ، ودورهم فيها ، والمشــاكل التي تعرضت لها . وعلى السياسيين والصحافيين من الجيل المخضرم أن يؤلفوا أعمالا توضح مواقفهم وتوقعاتهم ومكانتهم في الأحداث التي عاشوها . وعلى رجال الدين ، مصلحين وتقليديين ، أن يصفوا علاقتهم بالشعب وبالسلطة الحاكمة ومدى استجابة الناس للثورة ، وتفسيرهم لانفعالاتهم. وعلى الأدباء كتابة الروايات والأشعار المستمدة من واقع التـاريخ المليء بالنماذج الحية من بطولات وأحداث بارزة ومواقف انسانية وتضحيات في سبيل الوطن أو الدين أو الحب . بل أن من الأدباء من يكتب تاريخ الأدب فيدرس فيه مدى ارتباط الأدب بالشعب وعلاقة الأديب بأحداث بلاده . وهكذا بقية الفئات المثقفة . ان أعمال هؤلاء جميعا جزء لا يتجزأ من عملية الكتابة في التاريخ عموما وكتابة الثورة خصوصا . وهي الأعمال التي أطلقنا عليها الكتابة الشعبية ..

ومن الطبيعي أن يبقى للمؤرخ مكانه البارز في هذا التصنيف . فهو المؤهل وظيفيا ومنهجيا وعلميا لكتابة التاريخ . واذا كانت هذه هي مؤهلات المؤرخ فانها في نفس الوقت تصبح حواجز أحيانا دون اقدامه على عملية الكتابة . فالمؤرخ يحرص على وضع قدميه على ارض صلبة وعلى عدم اصدار أحكامه قبل توفر شروط معينة ، كالحرية والوثيقة والموضوعية ، وهو يشعرأنه اذا أخل بأحد هذه الشروط فانه يكون قد أخل بأبسط قواعد البحث العلمي ، ومن ثمة يكون ذيلا لحاكم ظالم أو لحزب معين أو لدولة أجنبية . ان المؤرخ يريد أن يصدع بالحقيقة متى اقتنع أنه وجدها عن طريق البحث في الوثائق والمصادر المتنوعة ، سواء كانت هذه الحقيقة حلوة أو مرة ، مفيدة أو مؤذية . وكلما اقترب المؤرخ من أحداث عصره كلما تضببت أمامه الحقائق ، ولذلك يريد أن يبقى على مسافة معينة بينه وبين العصر الذي يكتب عنه .

ونحن لا ندعي أن جميع الامكانيات قد توفرت الآن أمام المؤرخ ليكتب حسب القواعد التي وصفنا . ولكن هذا لا يمنع في نظرنا من البداية . أن الجامعات الجزائرية أصبحت تتوفر على نخبة طيبة من الباحثين في هذا الميدان ، وان جيلا من طلاب الدراسات العليا اخذ يتخرج كل عام . وجميع هؤلاء ، باحثين وطلابا ، مطالبون بالكتابة عن تاريخ بلادهم ، في مختلف العصور ، واذا وجدوا صعوبة في الاصداع بالراي فليبقوا آراءهم محفوظة ، ولكن مكتوبة ، لكي يطلع عليها الجيل اللاحق . اننا نخشى أن يكون صمت بعض المؤرخين الآن عن الكتابة في انتظار توفر الشروط هو تغطية فقط للظاهرة التي انطلقنا منها ، وهي الحساسية المفرطة ، والكسل العقلي في ميدان الكتابة ، وجزء من المرض الذي يصيب بعض الشعوب وهو العزوف عن الكتابة كهواية وصنعة .

قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843
موقف المفتي الكبابطي من الأوقاف واللغة

القضايا الثقافية بين الجزائر وفرنسا كثيرة ، ومنها ، بدون شك ، قضية الدين واللغة • وقد يعتقد البعض ان هذه القضية وليدة النهضة السياسية أو الحركة الاصلاحية أو حتى وليدة الاستقلال • والواقع انها (أي قضية الدين واللغة) قديمة قدم الاستعمار فى بلادنا ، فهي تعود الى أوائل سنوات الاحتلال • واذا كان الاصطدام السياسي والعسكري قد أخذ حظه خلال العشرية الأولى للاحتلال وكان واضحا للعيان فان الاصطدام الثقافي (الديني واللغوي) قد أخذ شكلا رسميا واضحا منذ 1843 ، حين وقف المفتي المالكي مصطفى بن الكبابطي ، مؤيدا من أهل البلاد ، ضد قرارين رسميين فرنسيين ، الأول ضم الأوقاف الاسلامية الى أملاك الدولة ، والثاني ادخال اللغة الفرنسية فى المدارس القرآنية • واذا كان الطغيان الاستعماري قد تغلب فى النهاية فحكم بالنفي على المفتى المذكور وضم الأوقاف (الأحباس) الى أملاك الدولة وفرض لغته على الجزائريين (ولكن فى غير المدارس القرآنية) ، فان موقف المفتي والأهالي عندئذ بقى رمزا للتحدي الوطني ورغبة شعبية لم تبرزها من جديد الا نصوص الحركة الوطنية ومواثيق الثورة •

وفى هذه المقالة نود أن نلقي الضوء على هذه القضية من خلال النصوص التاريخية التي عثرنا عليها فى المدة الأخيرة • وكل من ألم بتاريخ الجزائر يعرف أن فرنسا عزمت ، منذ 1841 ، على بسط نفوذها على الجزائر بالقوة ، بل بجميع الوسائل الشرعية وغير الشرعية ، بعد أن اعجزتها ، حتى الى ذلك الحين ، المقاومة الوطنية ، وفى مقدمتها مقاومة

---

* نشرت فى مجلة (عالم الفكر) بالكويت ، المجلد 16 ، العدد الاول ، (أبريل – مايو – يونيو 1985) •

الأمير عبد القادر . ولتحقيق ذلك الهدف أرسلت فرنسا الجنرال بيجو سنة 1841 الذي اصطحب معه جيشا جرارا ومعدات متفوقة وتبني سياسة « الأرض المحروقة » التي لا تبقى ولا تذر للعدو ما يمكن أن يأكل منه أو يحتمي به . وهكذا أخذ جيشه يطارد قوات الأمير ، وفى أثناء ذلك كان يحرق المحاصيل ، ويتلف مطامير الزرع ، ويثير الرعب في الأهالي فيأسر ويقتل وينفي بدون الرجوع الى قانون عرفي أو دولي . كما كان يجمع الناس فى محتشدات وتجمعات يجعلها تحت وصاية جيشه ويعزلها عن الثوار وعن بعضها حتى لا تعود خطرا عليه .

هذا بالنسبة لأهل الريف حيث كانت المقاومة مشتعلة . اما فى المدن فقد سلك بيجو سياسة تجعل كل شيء تحت الرقابة الفرنسية ولفائدة الاستعمار الاقتصادي والاستيطاني . وفى هذا الصدد نظم الادارة تنظيما جديدا يجعل « الشؤون العربية » كلها تحت أنظاره ، وأراد أن يوفر لخزانة الدولة الفرنسية (التي اقتطعت نصيبا كبيرا لجهود الحرب الدائرة) رصيدا جديدا تعوض به ما تقدمه للجيش ، وكانت ميزانية الأوقاف الاسلامية ، ولا سيما أوقاف مكة والمدينة ، كبيرة يسيل لها لعاب الطامعين ، فأمر بيجو بقرار صادر فى 23 مارس سنة 1843 ، بضم هذه الأوقاف الى ادارة الدومين لكي تكون تحت سيطرة موظف فرنسي سام . ولم يكن الهدف من ضم الأوقاف ماديا فقط بل كان ايضا سياسيا ذلك ان قطاعا كبيرا من العلماء ورجال الدين والمثقفين كانوا يعيشون من الأوقاف وبعيدين عن أعين السلطة فى تفكيرهم وتصوراتهم للحياة ، وبعبارة أخرى فقد كانت مؤسسات الأوقاف خلايا سياسية وثقافية ودينية وقلاعا تضم أصحاب الرأي المعادي للفرنسيين . فكان قرار بيجو بضم الأوقاف الى أملاك الدولة يخدم هدفين معا : اقتصادي وهو الزيادة فى رصيد الميزانية الفرنسية ، وسياسي وهو السيطرة على أصحاب الرأي المضاد للوجود الفرنسي .

ولكن الجزائريين قاوموا هذا القرار الجائر ، وكانت مقاومتهم تمثل أولا صطدام ثقافي (ديني ولغوي) بينهم وبين الفرنسيين . وكانت هذه المقاومة تعتمد على ركيزتين : الأولى ان القرار كان ضد مباديء

الدين الاسلامي ، الذي يجعل حرمة خاصة للوقف ، والثانية ان القرار كان يشكل انتهاكا لاتفاقية الجزائر سنة 1830 التي التزم فيها الفرنسيون بعدم المس بمقدسات الدين الاسلامي ، ولا شك ان القرار كان يمس أيضا باستقلال العلماء ورجال الدين وبحرية آرائهم •

ولكن بيجو لم يتوقف عند ضم الأوقاف الى أملاك الدولة ، بل تجاوزه الى محاولة فرض اللغة الفرنسية على الصبيان المسلمين فى الكتاتيب (المدارس القرآنية) بحيث يأتي أحد المعلمين الفرنسيين الى الكتاب (المدرسة) ويعلم اللغة الفرنسية والرياضيات للصبيان مدة ساعة • وكما وقف الجزائريون ضد القرار الأول للأسباب المذكورة وقفوا أيضا ضد القرار الثاني • فقد رأوا فى هذا مسا بمقدساتهم الدينية ، لأن أغلب الكتاتيب متصلة بالمساجد ، ومسا بشخصيتهم الوطنية ، لأن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة فى نظرهم التي يجب أن يتعلم بها الصبي القرآن الكريم فى هذه المرحلة ، ولا تزاحمه فيها أية لغة أخرى • كما فسروا تعليم أحد الفرنسيين لأولادهم الرياضيات بأنه وسيلة لتحريف شخصية الأطفال وتوجيه التعليم نحو حضارة الغالب التي يرفضونها • وهكذا وقع التصادم حول قرار تعليم اللغة والرياضيات الفرنسية في المدارس القرآنية مثل ما وقع التصادم حول ضم الأوقاف الاسلامية الى أملاك الدولة الفرنسية •

وقد كان رمز هذه المقاومة والمتحدث باسم الجزائريين فى هذه القضية الثقافية الهامة هو مصطفى بن الكبابطي ، مفتي المالكية عندئذ • فهو الذي كان الواسطة بين الفرنسيين والأهالي اذ كان الفرنسيون يبلغونه بأوامرهم وهو يبلغها للأهالي ثم يقوم هو بتبليغ رأي الأهالي الى الفرنسيين مع ابداء رأيه طبعا أمام هؤلاء وأولئك • ورأيه هو ليس رأيا بسيطا ، ولكنه رأي يمثل وجهة نظر الدين فى جميع القضايا المعروضة • فما رآه متماشيا مع التعاليم الدينية قبله وحاول اقناع غيره بقبوله وما رآه مخالفا للتعاليم الدينية رفضه وحاول اقناع غيره برفضه • ولكن ليس كل الناس كانوا يرضون أو يرضخون لقبوله أو رفضه • ومن هنا بدأ التصادم بين الطرفين • وبالنسبة لقضيتنا فان المفتي الكبابطي

كان غير مقتنع بالقرار الفرنسي فى الحالتين ولذلك عارضه أشد المعارضة على أسس دينية ووطنية ، ورأى فيه جورا وتعديا على حرمة الدين ورجاله (الأوقاف) وعلى لغة القرآن والكرامة الثقافية (التعليم الفرنسي) • ولكن ما دامت المسألة عندئذ كانت مسألة قوة وجبروت وتعسف فان الفرنسيين حكموا بعزل المفتي الكبابطي وسجنه ثم نفيه من الجزائر • ثم خلا لهم الجو بعده فتصرفوا كيف شاؤوا •

* * *

فلنتتبع اذن بشيء من التفصيل حياة المفتي الكبابطي ومن خلالها نلقي الضوء على هذه القضية الثقافية الهامة • ان النصوص التي تجمعت لدينا الآن تساعدنا على فهم حياته أوضح مما كتبناه عنه سابقا (1) • تعود عائلة ابن الكبابطي الى أصول أندلسية • ولعلها كانت عائلة غنية جاءت بثروتهامن الأندلس (2)•فقد كان الكبابطي يملك دارا بمدينة الجزائر تسمى « دار الكبابطي » ، ولكنها خربت بعد الاحتلال (3) • ولد مصطفى بن محمد بن عبد الرحمن المشهور بابن الكبابطي ، فى مدينة الجزائر فى شهر شوال من سنة 1189 هجرية • وقد نشأ بهذه المدينة فى وقت كانت تشهد فيه تكالب الدول الأروبية على تجارتها وموانيها • ولكنها من الناحية الثقافية كانت تظل علماء بارزين من أمثال أحمد بن عمار ، ومحمد بن الشاهد ، وكان فى أطراف القطر أسماء لامعة من أمثال أبي راس الناصر

---

1 ـ انظر : مقالتنا عنه (قصيدة في رثاء المفتي الكبابطي) ، الثقافة ، عدد 44 سنة 1978 •

2 ـ أقدم اشارة الى أسرة الكبابطي وجدناها في وثيقة تتحدث عن أن سليمان الكبابطي قد ولاه خضر باشا أوقاف الجامع الذي بناء أواخر القرن العاشر (16 م) • والمعروف أن خضر باشا هذا تولى الحكم في الجزائر عدة مرات أولاها سنة 997 ، وآخرها سنة 1013 • أنظر (رحلة ابن حمادوش) وهي بتحقيقنا نشرت سنة 1983 ، ص229 • وتذكر بعض المصادر أن أسرة الكبابطي كانت من غرناطة وهاجرت الى الجزائر بثروة طائلة •
أنظر : بول أوديل (المصوغات الجزائرية والتونسية) ، ص 350 ـ 351 • وكان للاندلسيين بالجزائر جمعية خاصة بهم تعتني بفقرائهم تأسست سنة 1033 (1623) ، أنظر ديفوكس (المجلة الافريقية) ، 1868 ، ص 279 •

3 ـ أقدم اشارة الى هذه الدار كانت سنة 1185 ، وكانت تسمى (دار أولاد الكبابطي) ، أنظر الأرشيف الوطني الفرنسي (168) 31 ـ MI 228 • أنظر كذلك بول أوديل المشار اليه •

فى الغرب وأحمد العباسي فى الشرق • وكانت حلقات درس الجامع الكبير والجامع الجديد وجامع سفير وجامع سيدي رمضان هي التي يقصدها الطلاب بعد أن ينهلوا من الزوايا ومن المدارس القرآنية •

ومن أشهر شيوخ مصطفى بن الكبابطي بمدينة الجزائر نذكر علي بن عبد القادر المعروف بابن الأمين ، الذي تولى فتوى المالكية مدة طويلة بالمدينة المذكورة والذي كان قد حصل على ثقافة واسعة بالأزهر الشريف وتتلمذ هناك على شيوخ مصريين ومشارقة وأدى فريضة الحج ، ومنهم بالجزائر على المانجلاتي ، الذي تولى أيضا فتوى المالكية بمدينة الجزائر وكان من عائلة قدمت للبلاد علماء وشعراء عرفهم العهد العثماني أمثال عمر المانجلاتي وأحمد المانجلاتي • وقد رثى الكبابطي شيخه علي المانجلاتي بشعر سنذكره فى آخر هذا البحث • كما درس الكبابطي على محمد بن موسى الذي تولى أيضا الفتوى المالكية بالجزائر ، وعلى محمد المعروف بأخو السفار فى الجزائر أيضا • وكان محمد أخو السفار هذا من العلماء المعتدين بأنفسهم والمتمسكين بالدين حتى انه رفض القضاء حين عرض عليه ، وقال حين هدد بغضب الباشا عنه « غضبه أهون علي من غضب الله » •

ونجد فى ترجمة الكبابطي انه تتلمذ أيضا على محمد الزرواري الفاسي الذي كان يدرس فى جامع القرويين • فالظاهر ان الكبابطي قصد أيضا فاس للتعلم لأننا لا نعرف ان الزرواري قد جاء الجزائر أو درس بها • ولعل الكبابطي قد أخذ العلم أيضا على أحمد بن عمار ، ولا سيما الحديث الشريف • ومهما كان الأمر فالظاهر ان الكبابطي انتهى من تعليمه حوالي سنة 1227 بعد أن حصل من شيوخه على علوم « المعقول والمنقول » كما يقول بعض مترجميه ، وأخذ الكبابطي بعد ذلك يستعد لبث العلم هو أيضا • وقبل أن تتركه تلميذا وطالبا نذكر انه تتلمذ أيضا ، وهو بالاسكندرية ، على الشيخ محمد الرضوى البخاري (4) الذي جاب

4 — عن حياة محمد الرضوي ورحلته الى الجزائر والمغرب ، أنظر (تاريخ عبد الحميد بك) مخطوط ، وكان عبد الحميد بك من تلاميذ مصطفى الكبابطي في الاسكندرية ، وقد نوه بشيخه وترجم له في كتابه المذكور . ولعل ما جاء به من أخبار عن الكبابطي في الجزائر قد أملاها عليه الشيخ الكبابطي نفسه .

المشرق والمغرب وزار الجزائر ، ولكن بعد نفى الكبابطي منها • ونحن نعرف أن الرضوي قد أجاز الكبابطي في المصافحة والسبحة وغيرهما من الأمور الصوفية المشتهرة عند علماء الوقت •

تشير أقدم وثيقة لدينا الى أن الكبابطي كان متوليا للتدريس فى الجامع الأعظم (الكبير) سنة 1240 • ويبدو انه كان قد مارس التدريس قبل ذلك أيضا ، ابتداء من سنة 1227 ، سنة تخرجه ، ولكن ليس فى الجامع الكبير بل فى مساجد أخرى أصغر منه ، كما جرت العادة • ويذكر مترجموه انه كان يدرس لتلاميذه العلوم الآتية : الفقه والحديث والنحو والمنطق وبعض المتون ، وبعبارة أخرى فقد كان يجمع بين تدريس العلوم المعقلية (النحو والمنطق) والنقلية (الحديث والفقه) • وقد اشتهر ، كما سنرى ، بين معاصريه برواية حديث الصحاح ، ولا سيما البخاري • وقد تخرج عليه تلاميذ كثيرون ما دام قد أفنى عمره كله تقريبا فى التدريس ، سواء فى الجزائر أو فى الأسكندرية • ونذكر من تلاميذه الجزائريين حميدة العمالي المتوفى سنة 1273 بعد توليه فتوى المالكية بالجزائر ، وله اجازة منه • ومصطفى الحرار ، وعبد الرحمن الامام (ت 1292) الذي حضر الكبابطي درس ختمه لعقيدة السنوسي ونوه به (5) • أما فى الأسكندرية فيقول مترجمه وتلميذه عبد الحميد بك بأن أغلب علماء الاسكندرية رووا عنه صحيح البخاري ومسلم • ومن تلاميذه المغاربة أحمد بن الطالب ابن سودة المري الذي أخذ عنه العلم بالاسكندرية وأجازه (6) • ولا شك أن هناك آخرين •

وتبدأ حياة الكبابطي فى الوظائف الادارية منذ سنة 1243 هجرية • ففي هذه السنة تولى القضاء على المذهب المالكي بتعيين من الداي حسين باشا ، آخر دايات الجزائر • ولم يكن هذا المنصب سهلا ، ولا سيما فى

5 — عن تلاميذ الكبابطي في الجزائر أنظر الحفناوي (تعريف الخلف) 123/2 ، 538 ، 548 •

6 — أنظر عبد الرحمن بن زيدان ، أتحاف أعلام الناس 461/1 •

تلك السنوات التي بدأ فيها حصار فرنسا للجزائر تمهيدا للاحتلال (7) • وقد استمر الكبابطي في منصب القضاء خلال السنة الاولى من الاحتلال أيضا (أي سنة 1246 هـ) • واذن فقد شهد كقاض ، هذا التحول الاداري الخطير ، وكانت الأوامر تصدر له من جهة اسلامية ، فها هي الآن تصدر له من جهة فرنسية محتلة • وقد كثرت الدعاوى والقضايا المعقدة خلال سنة الاحتلال الأولى ، وكثر فيها الظلم والتعسف ولم يعد للقاضي الا شكل رمزي • وغادر عدد من رجال العلم والدين مدينة الجزائر اثر الاحتلال هروبا بدينهم ظنا منهم أن الموقف سينجلي لصالحهم بعد وقت قصير • وحكمت السلطات الفرنسية خلال السنة الأولى أيضا بالنفي على المفتي الحنفي ، محمد ابن العنابي ، الذي سينزل الكبابطي عنده بالاسكندرية بعد أن يدور القدر دورته ، ويحكم الفرنسيون عليه هو أيضا بالنفي ، كما سنرى •

بعد سنة اذن في القضاء تحت الحكم الفرنسي طلب ابن الكبابطي اعفاءه منه • ويبدو ان طلب الاعفاء منه كان للأسباب التي ذكرناها ، وهي صعوبة الجمع بين مباديء القضاء الاسلامي والأسلوب الاداري التعسفي الذي جاء به الفرنسيون • فقد كانوا يريدون من القضاة أن يكونوا أدوات لهم على تنفيذ رغائبهم الاستعمارية ولو كانت ضد دين القضاة وضمائرهم • ولم يكن الكبابطي من هؤلاء فاستعفى • غير ان الفرنسيين رفضوا طلبه وأجبروه على البقاء في وظيفته الا اذا وجد لهم بديلا عنه • ولم يكن الفرنسيون عاجزين عن ايجاد هذا البديل بأنفسهم لو أرادوا ولكنهم لم يشاؤوا أن يجعلوا ذلك سابقة للقضاة فيقبلون الوظيف ويستعفون منه متى شاؤوا ، كما انهم بدون شك أرادوا توريط الكبابطي أكثر فأكثر معهم واختبار نواياه نحوهم • ولذلك قبلوا الشخص الذي

7 — يذكر السيد بول أوديل المشار اليه ، أن الكبابطي تولى ايضا منصب « الامور الخارجية » في حكومة حسين باشا ، وأنه شارك في معركة سيدي فرج ضد الفرنسيين ثم انضم اليهم . ونحن نشك في هذه الاخبار لان الشؤون الخارجية كان لا يتولاها العرب ، ولم تجر العادة أن القضاة يخوضون المعارك ، والصحيح أن الفرنسيين وجدوا الكبابطي في وظيفة القضاء فأبقوه فيها حوالي سنة ، كما جاء في ترجمته في (تاريخ عبد الحميد بك) ، انظر ما سيأتي .

اقترحه عليهم ، وهو الشيخ عبد العزيز (7) الذي كان أحد علماء الوقت بالجزائر ، بينما ولوا الكبابطي نفسه منصبا أعلى وهو منصب الفتوى • واذن فان الكبابطي بقى فى هذا المنصب من حوالي 1247 الى عزله منه ونفيه من الجزائر سنة 1259 • فكيف كانت علاقته مع الفرنسيين أثناء هذه الفترة الحرجة من الاحتلال ؟ وكيف استطاع أن يجمع بين روح الشريعة الاسلامية « والولاء » للسلطات الفرنسية ؟

يمكن أن نقسم الفترة التي بقيها الكبابطي مفتيا الى مرحلتين : الأولى من 1831 الى 1841 والثانية من 1841 الى 1843 • ففي المرحلة الأولى كان المفتي الكبابطي يمارس سلطته على الشؤون الدينية بما فى ذلك الأوقاف والمساجد والأضرحة والتعليم وموظفي هذه المؤسسات على اختلاف مستوياتهم • وكان على صلة بادارة المكتب العربي (8) فى الشؤون الاهلية يتراسل معهد فى كل ما يتعلق بمهمته • وكان لا يقبل هو من مقترحاتها وتدخلاتها الا ما لا يمس القيم المتوارثة وتعاليم الشريعة ومصالح المسلمين • وكان الفرنسيون فى هذه المرحلة لم يهتدوا بعد الى أهمية الأوقاف المالية ولا دورها السياسي والديني كما لم تكن لهم سياسة تعليمية واضحة نحو الأهالي • فقد مضت العشرية الأولى للاحتلال فيما سمي بسياسة التردد وفى الرد على المقاومة السياسية (لجنة المغاربة) والعسكرية بشقيها الرسمي (خصوصا) الحاج أحمد باي قسنطينة) والشعبي (خصوصا مقاومة الأمير عبد القادر) • ونحن وان كنا لا نملك وثائق عن دور المفتي الكبابطي فى هذه الأحداث فالذي لا شك فيه انه لم يكن

---

7 (كرر) — لم نجد نسبة أو لقبا لهذا الشيخ ، وقد بقى في وظيفة القضاء الى ان وقعت (حادثة عائشة) سنة 1834 ، وهي المراة المسلمة التي اعتنقت المسيحية وطلبت حماية القانون الفرنسي بعد أن طلقها زوجها ، عندئذ عارض هذا القاضي وكذلك المفتي الكبابطي ما حدث واتهما الكنيسة والسلطة الفرنسية بالتواطوء والتورط في القضية ، فاستقالا ، واذا كان الكبابطي قد رجع عن استقالته خوفا فان القاضي عبد العزيز قد هاجر الى المغرب ساخطا . أنظر تفاصيل ذلك في مراسلات الجنرال فورول ، ص 788 ، ومراسلات الجنرال الكونت ديرلون ، ص 122 — 128 .

8 — (المكتب العربي) مؤسسة فرنسية كانت تقوم بدور البلدية اليوم كما كانت لها سلطات قضائية وكان على رأسها عقيد له معاونون وتراجمة وشواش الخ . وكانت (المكاتب العربية) منتشرة في كامل القطر الجزائري ودام العمل بها في اناطق المدنية الى حوالي سنة 1870 . أما في المناطق العسكرية فقد بقيت الى حوالي 1947 .

بعيدا عنها ، وان كان غير ممثل رئيسي فيها (9) • وتذكر تقارير الفرنسيين عنه ان مقاومته لهم وعداءه نحوهم كان قديما وانما أخذ شكل تأزم حاد فى المرحلة الثانية فقط •

وتبدأ المرحلة الثانية بتولي الجنرال بيجو الولاية العامة فى الجزائر ، وافتتاحه عهدا جديدا للسياسة الفرنسية شعاره قطع دابر المقاومة ضد الوجود الفرنسي وتثبيت قواعد السيادة الفرنسية فى الجزائر مهما كان الثمن والوسائل • وقد شملت هذه السياسة السيطرة على الشؤون الدينية الاسلامية بالاستيلاء على مصدرها المالي الرئيسي وهو الأوقاف ، وبذلك تمتد السيطرة أيضا الى جميع المستفدين منها والعاملين باسمها ، ولا سيما رجال الدين والعلماء والقضاة والمفتيون والمعلمون والمؤسسات التابعة لهم • وهذا الموقف من الأوقاف هو الذي فجر الوضع وكشف عن نوايا الطرفين • وقبل أن نذكر ذلك بالتفصيل نشير الى أن تطور الأحداث الوطنية شجع المفتى الكبابطي على موقفه • فالجزائر سنة 1842 — 1843 كانت فى غليان كبير ، فكانت المقاومة فى الغرب والوسط على أشدها ، وكانت بلاد القبائل (زواوة) ما تزال غير محتلة وكانت أنظار الفرنسيين قد أخذت تتوجه نحوها ، بينما زارها الأمير عبد القادر زيارته الثانية لتجنيدها الى جانبه • وأما فى الشرق فان مقاومة الحاج أحمد وان انتهت رسميا بسقوط قسنطينة سنة 1837 الا أنه كان ما يزال طليقا في مناطق الأوراس وكان وجوده هناك يثير الرعب فى قلوب الفرنسيين • ومن جهة أخرى فان الباب العالي كان ما يزال لم يعترف بالسيادة الفرنسية على الجزائر ، وكان حمدان خوجة وأضرابه من المطرودين الجزائريين يقومون بنشاطهم من أجل استعادة الحكم الاسلامي فى الجزائر • فلماذا لا يكون المفتي الكبابطي جزءا من هذه الصورة الكبيرة للمقاومة

---

9 — ظهر الكبابطي سنة 1833 أمام اللجنة الافريقية التي أرسلتها الحكومة الفرنسية الى الجزائر للتحقيق ، وقد أدلى برأيه بخصوص الأحوال الشخصية والقضاء . أنظر كتابنا (**محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث**) ط 3 ، ص 102 ، وقد أخبر عنه الجنرال **فوارول في مراسلاته** ، ص 788 أن الكبابطي « رجل يضمر نحونا حقدا عنيفا » واقترح على وزير الحربية التخلص منه .

الوطنية ؟ألم يختلف مع قدور بن رويلة (10) ، كاتب الأمير عبد القادر ، في الهجرة عندما رأى ابن رويلة (على لسان الأمير طبعا) ان الواجب على المسلمين الجزائريين الهجرة من الجزائر بعد أن تغلب عليها الكافر الفرنسي ، بينما أفتى الكبابطي بوجوب البقاء مع ذلك ؟

ومهما كان الأمر ، فان الأزمة بين المفتي الكبابطي والفرنسيين تفجرت على جبهتين ، جبهة دينية (الأوقاف) وجبهة علمية (اللغة) • ولنعالجهما الواحدة بعد الأخرى •

ا ــ الجبهة الدينية :

لقد بدأ تدخل الفرنسيين فى الشؤون الدينية الاسلامية منذ 1830 حين أصدر كلوزيل بعض الاجراءات فى ذلك • ولكن عهد كلوزيل لم يطل (سنة واحدة) ولم يحسم من جاء بعده فى الموضوع الى أن جاء بيجو ، كما أسلفنا (11) •

يقول السيد أوميرا Aumerat أن قرار بيجو بضم مؤسسات الوقف الى أملاك الدولة صدر في 23 مارس سنة 1843 ، وأن الكبابطي عارضه عندئذ (12) • والظاهر أن التحضير لهذا الضم قد بدأ منذ مجيء بيجو وان الاتصالات مع المفتي بشأن هذا الموضوع قديمة وان رأيه معروف من قبل السلطات الفرنسية ، وان اصدار القرار فى مارس 1843 ، انما

10 ــ رسالة قدور بن رويلة الى علماء الجزائر (سنة 1834؟) توجد مخطوطة في المكتبة الوطنية بالجزائر ، رقم 2083 ، وقد نحى فيها باللائمة على المفتي الكبابطي . انظر أيضا (حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية) تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ، 1981 . فقد رأى بعض العلماء أن الجزائر بعد استيلاء الفرنسيين (الكفار) عليها أصبحت «دار كفر» تجب الهجرة منها ، بينما رأى آخرون (ومنهم الكبابطي) أن الجزائر ما تزال ، رغم ذلك ، «دار اسلام» ومن ثمة لا تجب منها الهجرة ، وكان لكل فريق حججه التاريخية والدينية . انظر كذلك فتوى احمد الونشريسي (أسنى المتاجر) التي نشرها حسين مؤنس في (صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية) ج 5 ، ص 129–191 مع تحليل ونقد ودراسة .

11 ــ يشير ايمرت أن المفتي الكبابطي كتب مذكرة سرية عن الأوقاف وجهها الى القائد العام الفرنسي بالجزائر . ولكنه لم يذكر تاريخها ولا اسم القائد . ويقول ايمريت أن المذكرة موجودة بالأرشيف الوطني رقم F. 80/1672 انظر : مقالته (الحالة العقلية والمعنوية في الجزائر سنة 1830) في R.H.M.C. (1954 ، ص 199 ، هامش 1) .

12 ــ انظر المجلة الافريقية ، 1899 ، ص 189 .

هو نوع من التحدي لارادة المفتي وارادة من يمثلهم (الأهالي) ، حتى تثبت عنه تهمة المقاومة للوجود الفرنسي وتصبح القضية سياسية بكل وضوح • ويقول السيد ديفوكس Devaulx ان الكبابطي كان « متهما بالمقاومة المكشوفة لأوامر الحكومة (13) » ويضيف ان الادارة الفرنسية بالجزائر اغتنمت هذه الفرصة وأخضعت الاوقاف والموظفين بالجامع الكبير الى التنظيمات العامة (الفرنسية) ، وكان ذلك بقرار صدر فى 4 يونيو (جوان) 1843 • وفي مكان آخر يذكر نفس المصدر أن الحكومة الفرنسية استولت على ارشيف الجامع الكبير (أي ادارة المفتي الكبابطي) وعزلت وطردت المفتي المالكي الذي كان فيه (14) •

ويبدو أن الفرنسيين كانوا يخشون عواقب هذه العملية ، ولذلك كانوا يتقدمون نحوها بحذر وبالتدرج • وقد اختلقوا للمفتي ظروفا جعلته يظهر فى موقف العصيان والتمرد • وبذلك خاف من كان الى جانبه ، وطمع فى منصبه ضعاف النفوس ، ودس له الفرنسيون من يتجسس عليه وينقل اليهم أخباره وآراءه • وقد صدر اعلان (منشور) من مطبعة الحكومة بالجزائر يعلن للناس ان المفتي قد عصى أمر وزير الحربية ، وهو الأمر الذي لم يكن الا فى منفعة المسلمين (15) • ويقول السيد أوميرا ان بيجو قد أصدر بعد نفي المفتي ، اجراء سياسيا جاء فيه : « ان الاملاك التابعة للجامع الكبير ، وكل الموظفين التابعين لـه ، هم تحت سلطة (الدومين) ، وان كل المدخولات والمصاريف التابعة لهذه المؤسسة أصبحت ملحقة بالميزانية الاستعمارية ، وان كل المصاريف المتعلقة بموظفي الجامع ، والصيانة ، والشؤون الدينية ، وكذلك كل المساعدات والصدقات التي تقوم بها هذه المؤسسة ستصبح من اختصاص الادارة • ويرى أوميرا ان أوقاف الجامع الكبير كانت المؤسسة الوحيدة التي ضمت الى (الدومين) قبل سنة 1848 » (16) •

---

13 ـ المجلة الافريقية ، 1866 ، ص 381 •

14 ـ المجلة الافريقية ، 1863 ، ص 104 •

15 ـ صورنا هذا المنشور من ارشيف ايكس رقم 1 H 1

16 ـ أوميرا ، المجلة الافريقية ، 1899 ، ص 139 ، والمعروف أن قرار ضم بقية الأوقاف صدر سنة 1848 في عهد الجنرال شارون • انظر أيضا ديفوكس ، المجلة الافريقية ، 1863 ، ص 183-187 •

ويثبت مترجم المفتي الكبابطي ان سبب نفيه من الجزائر يعود الى أنه « كان يعظم أمر المسلمين ويخالف ما يأمره به الفرنسيون مما هو مخالف للشرع • » (17) أما السلطات الفرنسية فقد فسرت هذا الموقف بأنه تمرد وعصيان ومقاومة وعداء لها • فالتقرير الذي رفعه رئيس مكتب الولاية العامة الى وزير الحربية يؤكد ذلك بقوله ان المفتي الكبابطي : « كان يواجه باذن صماء كل الاجراءات التي اتخذها الحاكم العام ومساعدوه ، وكان يعارض « الاصلاحات » التي كانت لها صلة به ، وكذلك معارضته فى ادارة الشؤون الدينية (الأوقاف) • » (18) ولذلك اقترح التقرير على الوزير « تأديب » الكبابطي بعزله ثم طرده من الجزائر خوفا من شغبه واثارة المسلمين •

ب ـ الجبهة العلمية (اللغة) :

والظاهر ان الفرنسيين قد اختلقوا هذه القضية لتغطية نواياهم حول القضية الأولى (الأوقاف) ، ذلك أن الجزائريين لم يعترضوا في الماضي على تعليم أبنائهم اللغة الفرنسية فى مدارسها • ولكن اعتراضهم كان منصبا على تعليمها أولا في المدارس القرآنية الملحقة عادة بالمساجد ، وثانيا تعليمها على يد معلم فرنسي بالذات ، كما أوصى بذلك المفتش ارتو Artaud • ذلك أن اختلاق هذه القضية هو الذي أدى الى رفض المفتى الكبابطي وجماعة المعلمين والأهالي لتعليمة وزير الحربية والتي كانت القشة التي حطمت ظهر البعير ، كما يقولون • ونحن نرجح (الاختلاق) لأن غرض الفرنسيين الأساسي هو ضم الأوقاف لما لها من أهمية سياسية ودينية ومالية أكثر من اهتمامهم بتعليم أطفال المسلمين اللغة الفرنسية • والدليل على ذلك أن هؤلاء الأطفال بقوا حتى بعد نفي المفتي الكبابطي على جهلهم بهذه اللغة وبمعارفها ، بينما ازدهر الاقتصاد الاستعماري وسيطرت الادارة على مصائر رجال الدين بعد الاستيلاء على الأوقاف • ومن جهة أخرى فان موقف المفتي الكبابطي من الأوقاف

---

17 ـ تاريخ عبد الحميد بك ، مخطوط .

18 ـ تقرير مرفوع الى وزير الحربية بشأن الكبابطي بتاريخ 13 مايو ، 1843 ، ارشيف ايكس رقم 1 H 1

يعود الى بداية الاحتلال بينما موقفه من اللغة الفرنسية يعود الى أواخر سنة 1842 فقط .

وعلى أية حال ، فان مترجم المفتي الكبابطي يقول (وربما كان قوله من املاء الكبابطي نفسه ، كما أشرنا) : ان الفرنسيين أمروه أن ينبه على مؤدبي (يسميهم فقهاء) المدارس القرآنية الأهلية بأن يرسلوا أولادهم الى المدارس الفرنسية ليتعلموا لغة الفرنسيين هناك والرياضيات . فصار المفتي الكبابطي يعد الفرنسيين فى ذلك ويخلف وعده معهم « خوفا على ذهاب الأطفال من الرياضيات وخروجهم عن الاسلام . » ولما علم الفرنسيون منه المماطلة واعيته هو الحيلة فى التخلص من هذا المشكل ، « رضي بقضاء الله » واستدعى الناس في مشهد عام وعرض عليهم الموضوع فلم يقبلوه وقالوا له : « نحن رعاياهم في المعاش لا في الديانة . » وعاد المفتي الكبابطي الى الفرنسيين وأخبرهم بنتيجة الاجتماع فقالوا له : ان هدفنا هو تعليم الأطفال اللغة الفرنسية وليس الديانة المسيحية وفى هذه الحالة يمكن لمعلمي اللغة الفرنسية أن يتوجهوا الى المدارس القرآنية لتعليم الأطفال المسلمين حصة معلومة كل يوم . وأخبر الكبابطي مؤدبي الصبيان برأي الفرنسيين فرفضوه ، ولكنهم لم يكونوا يملكون حولا ولا قوة فى ذلك ، فسألوا المفتي أن يقترح عليهم حيلة فأشار عليهم بأن يسمحوا للمعلمين الفرنسيين بالمجيء الى الكتاتيب وعندما يحضرون يأمرون الأولاد بالمغادرة دون اشعار المعلمين الفرنسيين بذلك . وهكذا كان الاتفاق . غير أن الفرنسيين علموا ، عن طريق الوشاية ، بهذا الاتفاق والتحايل ، فألقوا القبض على المفتي الكبابطي وزجوا به في السجن واسترخصوا وزيرهم للحربية في عزله وطرده فأذن لهم (19) .

ولكن رأى المفتي الكبابطي الأكثر وضوحا هو ذلك الذي أبداه فى رسالته التي وجهها الى وزير الحربية عند تأزم الوضع بينه وبين السلطات الفرنسية فى الجزائر . والرسالة بتاريخ 1843 (بدون تحديد اليوم والشهر) ، ومنها نعرف أنه ، بناء على الأوامر ، طلب مهلة لعرض

19 – تاريخ عبد الحميد بك ، مخطوط .

الموضوع على المؤدبين والآباء والتلاميذ • وأراد الفرنسيون الضغط عليه وتخويفه فزجوا بابن أخيه (أحمد بن عاشور) فى السجن لأنه كان يدير مدرسة الجامع الكبير ، وكان قد أهان المعلم الفرنسي الذي جاء لزيارته فى المدرسة بل أهان (كما يقول أحد التقارير) السلطة الفرنسية نفسها • ومع ذلك استمر المفتي الكبابطي فى مهمته ، فاستدعى المعلمين (المؤدبين) وابلغهم نوايا الوزير وأوامره ، وهو تعليم اللغة الفرنسية مدة ساعة فى مدارسهم القرآنية • ولكن المعلمين رفضوا ، ونقل المفتي الكبابطي الى الوزير أن الآباء لا يرغبون فى تعليم أطفالهم سوى القرآن الذي لا يتماشى تعليمه مع أي تعليم آخر ، ذلك أن الأطفال فى هذه السن (الابتدائي) ما يزالون لا يعرفون العربية التي هي الوحيدة المفيدة لهم في دينهم ، فكيف تضاف اليهم الفرنسية التي هي ليست فقط غير مفيدةلهم بل هي مضرة • واقترح المفتي الكبابطي ضمنيا أن يفتح الفرنسيون المدارس ، اذا شاؤوا ، لتعليم لغتهم : فمن شاء من المسلمين ارسال أولاده اليها فلا مانع من ذلك • وأخبره أنه مفتي فقط لا يستطيع أن يجبر أحدا على تعليم أبنائه الفرنسية • ثم أن سجن قريبه قد حطم قيمته المعنوية فى أعين الناس وأضر بسمعته • أما رأيه الشخصي فهو المعارضة التامة لأي اجراء يشغل أطفال المسلمين عن تعليم القرآن والاعتراض على أي تعليم غير التعليم العربي (20) •

بهذا يتضح أن الفرنسيين قد وجهوا حملة من الضغط على المفتي الكبابطي لكي يضعف ويلين لا بالنسبة لقضية التعليم فقط ولكن بالنسبة لقضية الأوقاف التي قلنا انها أكثر أهمية في نظرهم • فقد زار المعلم الفرنسي مدرسة الجامع الكبير بدون انتظار ، ولما سمع ما لا يرضيه جعلت السلطة من ذلك حادثة وموقفا سياسيا أبلغته الى الوزير فى تقريرها كما سجنوا قريب المفتي تهديدا له وارعابا ، واهانة أمام الناس • ثم نصبوا له الوشاة لمعرفة ما يدور فى مجالسه واتصالاته • وبذلك مهدوا الطريق للحكم عليه بالعصيان والتمرد والمقاومة السياسية ثم بالعزل من منصبه والطرد من البلاد •

---

20 ـ خلاصة رسالة المفتي الكبابطي الى وزير الحربية ، ارشيف ايكس 1 H 1 وسنذكر ترجمتها •

وتبدأ قضية التعليم هذه منذ أكتوبر 1842 • ففي 24 من هذا الشهر أصدر وزير الحربية أمرا بتعليم اللغة الفرنسية للأطفال العرب فى المدارس الأهلية (21) وكان ذلك القرار وليد اقتراح تقدم به السيد ارتــو المفتش العــام للــدراســات والمكلف بمهمة تتعلق بالتعليم العمومي فى الجزائر • وتشير التقارير ان هدف الوزير من القرار هو استفادة الأطفال العرب من الحضارة الفرنسية • وكان هدف الحاكم العام (وهو بيجو) من وراء نشر « لغتنا » اللغة الفرنسية ، بين الأطفال العرب هو استفادة فرنسا منهم واستفادتهم من معارفها • ولكن القرار الوزاري المذكور لم ينفذ • وذلك راجع الى المعارضة الشديدة التي بدأها ضده المفتي الكبابطي • وتؤكد ذلك برقية مدير الداخلية المؤرخة فى 15 أبريل 1843 وبرقية الضابط مسؤول اقليم الجزائر بتاريخ 30 أبريل 1843 •

وهذا العصيان يجب أن يقابل بردع شديد لأنه لو بقى صاحبه بدون عقوبة لترتب على ذلك عواقب وخيمة • فبعد أن أشار التقرير الى أن معارضة المفتي الكبابطي للقرار الوزاري تجبر الولاية العامة فى الجزائر اما على التخلي تماما عن تنفيذ أوامره ، واما على تأجيلها الى أجل غير مسمى (وفى كلتا الحالتين تراجع لا يليق بكرامة السلطة الحاكمة) — طلب من الوزير الموافقة على المقترحات المقدمة اليه بردع المفتي وتلقين غيره ، من خلاله هو ، درسا قاسيا ، ذلك « اننا لو تركنا هذه المعارضة للقرار الوزاري بدون عقوبة لترتب على ذلك نتائج وخيمة » ، ولكان المفتي مثالا لغيره فى العصيان والتمرد على السلطة الفرنسية • وأضاف التقرير « ان الظروف التي أحاطت بعصيان المفتي وأتباعه تجعل من الضروري اتخاذ ردع فوري ضده • » ذلك ان المفتي كان دائما « يصر على رفض المحاولات التي قدمت له » كما أن قريبه ، مدير مدرسة الجامع الكبير ، قد أهان شخص المفتش الذي ذهب لتنصيب معلم اللغة الفرنسية فيها ، وهو فى الواقع انما أهان بذلك السلطة الفرنسية نفسها لأنه تفوه ضدها بعبارات مهينة • وأخيرا فان المفتي كتب رسالة الى الوزير « عبر

---

21 — في تقرير آخر بتاريخ 13—5—1843 ، ان تاريخ القرار الوزاري هو 24 ديسمبر 1842 .

فيها بكل صراحة عن نواياه السيئة (ضد الفرنسيين) ومعارضته المعادية لهـم » •

ولذلك اقترح التقرير على الوزير الأخذ برأي الجنـرال دي بـار De Bar ، الذي أيده المجلس الاداري فى الجازئر بالاجماع ، وهو الاقتراح الذي يقضي بعزل المفتي الكبابطي من منصبه • ثم أن « مواصلة هذا المفتي الاقامة فى الجزائر ، بعد عزله ، من طبيعتها أن تثير شغبا لدى المسلمين ضد الفرنسيين • ومن الأحسن أن تتفادى ذلك » • وتتضح نوايا أصحاب التقرير عندما اقترحوا على الوزير ، من بين ما اقترحوا ، أن يأذن للحاكم العام «بافتعال» أمر يجعل المفتي الكبابطي يغادر الجزائر من تلقاء نفسه • ولا ندري ما الذي كان يدور فى رؤوس أصحاب التقرير عندئذ ، ولكن يبدو أنهم كانوا سيلصقون به تهمة ما يحبكون خيوطها ، وقد يحضرونه للمحاكمة ، وقد يصدرون ضده حكما مزورا يجعله يطلب العفو والخروج من بلاده • وقد يفعلون به غير ذلك ، وما أكثر ما فى جعبة الاستعمار عندئذ من حبائل ومكائد يعجز عنها الشيطان • وكم قاسى أبناء الجزائر المخلصين من هذه التهم «المفتعلة» فذهبوا ضحية الواجب والاخلاص لوطنهم ودينهم (22) •

ويبدو أن أصحاب التقرير أحسوا بأن اقتراحهم قد يعارضه الوزير ، لأسباب سياسية ، ولذلك قدموا له اقتراحا بديلا ، اذا أراد ، وهو أنه « اذا رأى من اللياقة السياسية توجيه المفتي ومعلم المدرسة الذي شاركه فى الرفض ، الى جزيرة سانت مارغريت ، فله ذلك • والمهم هو أن يوجه الوزير الى الحاكم العام تعليماته بذلك • وتدلنا الوثائق ان الوزير وافق على الاقتراح الأخير ، كما وافق بالطبع على عزل المفتي • وترك لبيجو حرية التصرف فى ارساله الى جزيرة سانت مارغريت لمدة محددة ، اذا رأى ان اقامته فى الجزائر لا تخدم المصلحة الفرنسية (23) •

---

22 ـ من ضحايا هذه التهم المفتعلة ابن العنابي في بداية الاحتلال والطيب العقبي سنة 1936 •

23 ـ أنظر : هذا التقرير في أرشيف ايكس ، رقم • وقد وقعه هيلمان (؟) Helleman رئيس المكتب ، وكذلك شاهده ووقعه المتصرف العسكري • وفي نهايته موافقة وزير الحربية المنفصلة •

وبناء على ذلك ، أصدر بيجو الأمر بعزل الكبابطي من منصبه كمفتي المذهب المالكي • وقد ألقى عليه القبض وزج به فى السجن ، ثم صدر قرار نفيه الى جزيرة سانت مارغريت خوفا من أن ابقاءه في الجزائر معزولا يثير الاضطراب ، ولا سيما انه ثبت ان له أتباعا من بين الأهالي ، وان السلطات كانت تشتبه فى اتصالاته بالأمير عبد القادر (24) • فقد قال تقرير قنصلية فرنسا بالاسكندرية ان المفتي الكبابطي قد نفى أن تكون له علاقة بحركة الأمير عبد القادر التي كانت عندئذ على أشدها • ومع قرار العزل طبعت السلطات الفرنسية منشورا جاء فيه بلغة المستشرقين الركيكة « اعلم ان الشيخ المفتي المالكية بمدينة الجزائر قد انعزل من وضيفته ومنتفى بامر الحاكم بجزيرة يقالها سانت ماركريت ، وهي من بلد فرنصة وبقرب مدينت طلون ••• وكذلك انعزل وانتفا الشيخ المسيد امتاع الجامع الكبير ••• فالاجل ذلك الحكام ينطرون بالحين فى واحد الراجل طالب وعالم ليتسمى فى منصب مفتي سادات المالكية •• (25) » •

وفى الحين اجتمع مجلس من بعض ضعاف النفوس ، تحت المظلة الفرنسية ، واختاروا لمنصب مفتي المالكية ، بطريقة أصبحنا نعرفها من ممارسات النظام الاستعماري فى الجزائر بعد ذلك ، شيخا هرما قارب الثمانين من عمره يقال له مصطفى القديري ، خلفا للمفتي مصطفى بن الكبابطي ، وذلك سنة 1259 للهجرة • وقدمت ادارة بيجو هذا الاختيار الى وزير الحربية فوافق عليه بقرار صادر فى 26 يونيو سنة 1843 • كان راتب الشيخ القديري ستة آلاف فرنك سنويا • وأعطى ختما مؤرخا بسنة 1259 هـ ، ولكبر سنه وعجزه الجسماني طلب تعيين ابنه ، الذي كان يتكلم اللغة الفرنسية ، وزار باريس ، خوجة (مساعدا) له ، فوافقت الادارة على ذلك بعد أقل من شهرين من تنصيبه مفتي المالكية (26) • وكان راتبه 360 فرنكا • وقد وصف السيد ديموراينكور (27) فى تقريره

---

24 ـ أنظر : تقرير قنصل فرنسا في الاسكندرية الى وزارة الخارجية ، بتاريخ 4 أغسطس 1843 ، أرشيف ايكس ، رقم 1 H 1

25 ـ أرشيف ايكس ، رقم 1 H 1

26 ـ صدر قرار تعيين ولده في شهر اغسطس ، 1843 .

27 ـ أرشيف ايكس ، 1571 ، F 80 صاحب التقرير هو Demoyencour وهو الذي عينه وزير الحربية للاشراف على التلاميذ العرب (الجزائريين) الذين جيىء بهم الى فرنسا .

لسنة 1843 الشيخ القديري الذي رآه رأي العين ، بقوله : انه كان كبير السن يعاني الضعف ولا يستطيع المشي الا بصعوبة ، ولذلك كلف أحد أبنائه بالجولان به في الجامع الكبير ، فأخذه هذا الابن الى الصومعة . وأخبر عنه انه كان زار باريس ويعرف شيئا من الفرنسية ، وان والده قد عبر له عن رغبته في أن يذهب ابنه من جديد الى باريس ، وانه لا يمانع من تعليم أطفال المسلمين على يد الفرنسيين وأنه ممنون للوزير على موقفه من التعليم الخ . وماذا يريد الفرنسيون عندئذ أكثر من ذلك ؟ ان كل « الافتعالات » التي اختلقوها للكبابطي كانت تهدف الى الوصول الى هذه النتيجة .

وقد اطلعنا على عدة رسائل مكتوبة على لسان المفتي الجديد (القديري) تدل على ضعف في اللغة والتعبير . وهي رسائل ذات موضوعات دينية تخص مهمة المفتي المالكي مثل قضايا الوقف وعزل بعض الموظفين وتعيين البعض وتحديد الرواتب ، ونحو ذلك . وكان المفتي المالكي يوجه رسائله الى السيد مدير الداخلية بالادارة العامة التابعة للوالي العام بالجزائر ، وهي نفس الجهة التي كان يتراسل معها المفتي الكبابطي أيضا قبل عزله (28) .

* * *

وتنفيذا الأمر بيجو نفي الكبابطي وولده وابن أخيه من الجزائر وحملوا على ظهر باخرة الى مرسيليا تمهيدا لنقلهم منها الى منفاهم ، جزيرة سانت مارغريت التي تقع بالقرب من طولون . ولم نستطع الآن ضبط تاريخ خروج الكبابطي من الجزائر ولكنه على أية حال كان في آخر شهر مايو 1843 . وعند نزولهم في مرسيليا في أول يونيو ، سلموا الى الشرطة كما يفعل بالمجرمين ، وشددت عليهم الرقابة ، وكان مرافقهم ومترجمهم هو السيد بالير Ballir ، وكان مصروفهم أثناء ذلك 336 فرنكا . ويبدو أن المراسلات بين المصالح الفرنسية انتهت الى أنه من الأفضل للمصلحة الفرنسية عدم توجيه المفتي السابق الى الجزيرة المذكورة ، بل الأولى تركه يذهب الى المشرق بناء على طلبه . وفي هذا المعنى يقول عبد

28 – عن هذه الرسائل أنظر أرشيف ايكس ، رقم 1 I 22

الحميد بك عنه « واستأذنوا (أي السلطات الفرنسية في الجزائر) عنه سلطات باريس فأخبرتهم بتوجيهه حيث يريد فاختار الاسكندرية فحضر اليها فى السنة المذكورة (1259 هـ) • » وقد وجدنا نحن ثلاث رسائل يبدو أنها جميعا بخط الكبابطي ، موجهة الى وزير الحربية الفرنسي من مرسيليا ، تستعطف وتلح فى الاستعطاف، لكي يسمح الوزير لــه بالتوجه الى المشرق بدل النفي الى سانت مارغريت • واثنتان من الرسائل مؤرختان بـ 5 يونيو و 11 منه ، أما الثالثة فليس عليها تاريخ ولكن يبدو أنها كتبت فى أول يونيو ، من نفس السنة •

في الرسالة الأولى (مجهولة التاريخ) يخبر الكبابطي وزير الحربية بوصوله الى مرسيلية منفيا من الجزائر ، حسب أوامره ، ويطلب منه السماح له بالتوجه الى بلد من بلاد المسلمين ،مثل اسكندرية أو اطلابس (طرابلس) أو تونس لكي يقدم عليه أولاده ويتوجه معهم ، من هناك ، الى الحجاز لأداء فريضة الحج التي لم يؤدها رغم كبــر سنه • وهذه في الواقع رغبة معظم الجزائريين الذين وقعوا فى قبضة الفرنسيين خلال عهد الاحتلال ، بما فى ذلك الأمير عبد القــادر والحاج أحمد ، بــاي قسنطينة • وفي نفس الرسالة يطلب الكبابطي بطاقة تعريف يتقدم بها الى القناصل فى البلدان التي سيمر بها حتى لا يواجه مشاكل السؤال عن هويته ومصيره • ويبدو من الرسالة أن الكبابطي لم يكن على علم بما كان يدور بشأنه من مراسلات في الدوائر الفرسية • ولعل المترجم بالير هو الذي كان يحثه على استعطاف الوزير باطلاق سراحه الى المشرق • ومهما كان الأمر فان بالير هو الذي كان ينقــل رغبات الكبابطي الى السلطات الفرنسية ويترجم رسائله ويراقبه باسمها • ولعل ما فيها من مبالغة فى الاستعطاف كان أيضا من وحي هذا المترجم امتحانا لصدق الكبابطي •

أما الرسالة الثانية (5 يونيو ، 1843) فلا تختلف عن الأولى سوى فى المبالغة في الاستعطاف،والشعور بالقلق من غضب الفرنسيين والخوف من المصير المجهول • ذلك أن الكبابطي لم يكن يعرف حتى الى ذلك الحين ماذا سيفعلون به بعد أن عزلوه ونفوه من الجزائر • وقد كرر الطلب من الوزير « بالتسريح الى بلد من بلاد الاسلام غير الجزائر » والتوجه

بعائلته ، بعد أن تلتحق به ، نحو المشرق (وهو يعني الحجاز فيما يبدو) واخباره بأنه كثير الأولاد وكبير السن ، فمثله من يستحق العفو والشفقة. كما طلب منه أنه ، في حالة الموافقة ، يرسل بذلك الى حاكم مرسيليا (المسمي دوبول) •

وليس في الرسالة الثالثة (11 يونيو ، 1843) سوى شكر الوزير على استجابته لطلبه وتسريحه الى الشرق ، « حيث سرحتنا وأذنت بذهابنا الى الاسكندرية لنجتمع مع أولادنا هناك • » ولم يكن الكبابطي يعلم أن الوزير قد سرحه لأن سجنه ونفيه ــ حسب اقتراح فرنسي ــ لا يخدم المصلحة الفرنسية ، وأن الأفضل نسريحه الى مصر ، وليس لأن وزير الحربية الفرنسي قد فعل ما فعله معه « شأن الملوك والوزراء الذين ينتظم بحسن سياستهم العالم » كما كان الكبابطي يعتقد خطأ (29) •

وبذلك انفرج جزء من هموم الكبابطي فغادر مرسيليا في نفس اليوم (11 يونيو) على باخرة تابعة لشركة المشرق Levant الفرنسية كانت متوجهة الى الاسكندرية • وكان يرافقه فيها ابنه (الذي لا نعرف اسمه) وابن أخيه (أحمد بن عاشور) الذي كان معلم أولاده ومدير مدرسة الجامع الكبير والذي عامله الفرنسيون بقسوة لاهانته لهم ، كما سبق • ولكن قبل اطلاق سراح الكبابطي أخذوا عليه تعهدا بأن لا يعود الى الجزائر أبدا (30) •

وصل الكبابطي الاسكندرية يوم 24 يونيو 1843 ، ونزل ضيفا على مواطنه ورفيقه في المحنة محمد ابن العنابي ، الذي كان الجنرال كلوزيل قد نفاه من الجزائر بعد شهور فقط من الاحتلال ، وكان ابن العنابي حينئذ يشغل وظيفة مفتي الحنفية بالاسكندرية بتعيين من محمد علي والي مصر • وسرعان ما أرسل قنصل فرنسا بالاسكندرية برقية الى الخارجية

29 ــ أنظر الرسائل الثلاث في أرشيف ايكس رقم 1 H 1 . وسنوردها بنصوصها
30 ــ أنظر ارشيف ايكس رقم 1 H 1 في آخر البحث .

الفرنسية (أول يوليو،1843) يخبر فيها بوصول الكبابطي ونزوله عند ابن العنابي الجزائري وتفيه أن تكون له علاقة بحركة الأمير عبد القادر ورغبته في التوجه ، بعد وصول عائلته ، الى الحج •

***

استقر الكبابطي اذن فى الاسكندرية بعد امتحان عسير ورحلة مثيرة • ومنذ هذا التاريخ (24 يونيو ، 1843) بدأ ، فى الواقع ، حياة جديدة وقديمة فى نفس الوقت ، حياة المهاجرين المنقطعين عن أوطانهم ظلما وعدوانا • ومن سخريات القدر أن الكبابطي هو الذي كان قد افتى بعدم الهجرة من البلاد الاسلامية اذا تغلب عليها الكفر ، فاذا به يجد نفسه مهاجرا مراغما الى قطعة أخرى من أرض الاسلام بارادة الكافر الذي رفض الهروب منه •

ومن حسن حظه انه وجد فى ابن العنابي صديقا وفيا جرب النفي والهجرة والغربة (31) • فقد سعى لدى محمد علي من أجله لكي يجري عليه معاشا ويحسن مقامه • ويقول عبد الحميد بك عن هذه الظروف : عندما جاء الكبابطي الى الاسكندرية اجتمع بمفتيها محمد الجزائري (ابن العنابي) وأخبره بما حصل له ، فأخبر هذا محمد علي باشا بذلك فرتب له رزقا كافيا ، وأقام فى الاسكندرية مشتغلا برواية الحديث فى جميع الأوقات • وكان فى كل سنة يروى البخاري ومسلما فى جامع تربانة الواقع على الميناء الشرقي • وقد روت عنه الحديث أغلب علماء الاسكندرية • وكان الكبابطي كثير الفتوى على مذهب مالك (32) •

ورغم ترجمة عبد الحميد بك لحياة الكبابطي فى المشرق باختصار ، فان هناك جوانب كثيرة ما تزال غير معروفة من حياته • فقد أقام فى الاسكندرية حوالي ثماني عشرة سنة ، كلها فى سن النضج ، بل الهرم • فماذا فعل ؟ وماذا ترك ؟ وهل تكفي عبارة وكان « مشتغلا برواية الحديث

---

31 ـ انظر عنه كتابنا : المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الاسلامي ، الجزائر ، 1978 .

32 ـ تاريخ عبد الحميد بك ، مخطوط .

فى جميع الأوقات » لتغطية كل نشاطه البدني والعقلي ؟ كيف وصلت عائلته وأولاده الكثيرون اليه من الجزائر ؟ وهل أدى فريضة الحج كما وعد ؟ وأي البلدان زار غير الاسكندرية ؟ وهل فكر فى الجزائر وأهلها بعد هجرته منها ؟ وهل كان لقنصلية فرنسا فى الاسكندرية عين ساهرة عليه ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها تظل بدون جواب •

ان جالية المهاجرين الجزائريين بالاسكندرية كانت تكبر وتتفرع • فبالاضافة الى ابن العنابي وابن الكبابطي نعرف ان بعض أعيان الجزائر قد توجه اليها بعد الاحتلال طوعا أو كرها • ومن أولئك حسين باشا ، آخر دايات الجزائر ، وحسن باي ، آخر بايات وهران ، ومصطفى بومزراق ، آخر بايات التيطري • ولا شك ان هناك غيرهم ممن لا نعرفهم اليوم ، وقد ترك هؤلاء أبناء وأحفادا اختلطوا بأبناء وأحفاد ابن العنابي والكبابطي • وكان هؤلاء يتجاوبون مع عائلة الامير عبد القادر التي اختارت دمشق ، وعائلة ابن رويلة التي اختارت الحجاز وعائلة حمدان خوجة التي اختارت اسطانبول وعائلة بوضربة التي اختارت المغرب الأقصى ، وهكذا توزع أعيان الجزائر ومثقفوها على خريطة العالم الاسلامي • فما مكانة الكبابطي بين هؤلاء ؟

فنحن لا نتصور ان الكبابطي قد حصر كل نشاطه فى رواية الحديث الشريف ، كما يقول تلميذه عبد الحميد بك • اذ لا شك فى أنه كانت له نشاطات أخرى أدبية ودينية واجتماعية لم يذكرها المترجم له • فالانسان يعيش فى دنياه كأنه لن يموت أبدا ، كما يقول الحديث • ومهما كان الأمر فان تلميذه الآخر ، وهو محمد عاقل ، يتفق مع زميله فى أن الكبابطي كان متفرغا لرواية الحديث حتى اشتهر فى ذلك بين الناس • ولما عجز عن الخروج الى الجامع المذكور (جامع تربانة) اعتكف فى داره ابتداء من سنة 1270 هـ ، ولكنه بقى يروي الحديث فى بيته لمن حضر اليه • وقبل وفاته بحوالي ثلاث سنوات اجتمع به ، عبد الحميد بك (سنة 1274) فى بيته وأخذ عنه حديث المسنسل بالأولية ، كما أخذ عنه حديث المصافحة • وكان الكبابطي قد أخذ هذا عن شيخه محمد الرضوى البخاري عند مرور هذا بالاسكندرية • وممن أخذ عنه

الحميد بك عنه « واستاذنوا (أي سلطات فرنسا فى الجزائر) عنه العلم أيضا بعض علماء الاسكندرية وأدبائها ، ومنهم الشاعر محمد عاقل صاحب ديوان (لسان الشباب) الذي خص شيخه بمرثية مناسبة اثر وفاته وقرأها على جثمانه المسجي • كما أخذ عن الكبابطي العلم بعض علماء المغرب ، كما سبق • وقد توفي الكبابطي عن سن متقدم ، سنة 1277 هـ ودفن بمقبرة أبي العباس أحمد المرسي (33) •

* * *

ذلك هو مصطفى الكبابطي العالم الديني الذي شغل وظائف القضاء والفتوى والتدريس فى الجزائر والاسكندرية • وذلك هو الرجل صاحب الموقف الذي هز الادارة الاستعمارية بتصلبه فى رفض ضم الأوقاف الاسلامية الى أملاك الدولة الفرنسية وفرض اللغة الفرنسية على الأطفال المسلمين فى مدارسهم بدل لغة القرآن ، والذي رفع مبكرا شعار الثقافة الوطنية وهو استقلال الدين الاسلامي عن فرنسا وتعريب التعليم فى الجزائر ، قبل أن ترفعه الحركة الوطنية الجديدة بأكثر من سبعين سنة • فمن هو الكبابطي الأديب والمؤلف ؟

ان الذين تحدثوا عنه لم يذكروا له تآليف معينة في أي فرع من فروع المعرفة • فلم ترد فى قصيدة محمد عاقل فى رثائه الا اشارة الى أنه ألف : « ولكم أجاد بما أفاد وألفا • » أما عبد الحميد بك فلم يذكر انه كان من المؤلفين وانما ركز على وصفه بأنه كان « راوية » للحديث الشريف • ونحن لا نتصور الكبابطي الا أنه ترك « تقاييد » على الأقل فى الحديث وغيره من العلوم التي كان يدرسها فى الجزائر وفى الاسكندرية ، وقد وصف نفسه ذات مرة للفرنسيين بأنه مشتغل بالفتوى وبالتعليم العالي • ولكن تآليف الكبابطي ، اذا كانت ، لم تصل الينا ولم يذكرها أحد بالاسم حتى الآن •

33 — انظر تاريخ عبد الحميد بك ، مخطوط ، وفيه ان وفاة الكبابطي كانت سنة 1278 . وديوان لسان الشباب لمحمد عاقل ، مخطوط رقم تيمور / شعر 1264 ، وفيه ان الوفاة كانت سنة 1277 ، وقد رجحناه لانه أرخ ذلك بحساب الجمل وحضر الجنازة ، انظر كذلك مقالتنا : قصيدة في رثاء المفتي الكبابطي ، في مجلة الثقافة ، عدد 44 ، سنة 1978 .

أما الشعر فيبدو أنه ترك منه مجموعة في أغراض شتى • وهو وان لم يكن من فحول الشعراء أمثال محمد بن الشاهد ، وأحمد بن عمار ، فانه كان يقول القريض سجية ، وكان يجيد بحوره وقوافيه ، ألم يكن هو من نسل أولئك الأندلسيين الذين ملأوا الدنيا أشعارا وموشحات ؟ وقد عثرنا له حتى الآن على قطع هنا وهناك ، ولا نعتقد أن شعره مجموع فى مكان ما ، اللهم الا أن يكون فى مكتبات الاسكندرية وعند خاصتها • وقد أورد له عبد الحميد بك بعض القطع من شعره الذي قال عنه : « ان المقام لا يتسع لذكره » • ويا ليت المقام سمح لعبد الحميد بك بايراد الكثير من شعر الكبابطي حتى لا يضيع هدرا ، فهو ثروة أدبية للجيل المعاصر الذي يبحث بشغف عن آثار قومه • وأما قول عبد الحميد بك عن الكبابطي « وله شعر لا بأس به » فلا يعتد به ، لأن عبد الحميد بك هنا ليس من نقاد الشعر الذين يحتكم الى آرائهم فيه • ومع ذلك فهو صادق اذا كان يقصد انه شعر متوسط الجودة • أما أغراض شعر الكبابطي المذكور ، فى القطع التي اجتمعت لدينا فهي : الشكوى ، والغزل ، والرثاء ، والاخوانيات • وسنورد هذه القطع بعد قليل •

أما النثر الأدبي فليس لدينا منه له سوى الرسائل الثلاث التي وجهها لوزير الحربية الفرنسي فى شأن اطلاق سراحه • وهناك الرسالة التي وجهها الى الوزير نفسه عن طريق مدير الداخلية فى الجزائر • ولكننا لم نجد منها سوى ترجمتها الفرنسية ، أما نصها العربي فغير مذكور معها • وقد ذكر ايمريت ان الكبابطي كتب مذكرة عن الأوقاف الاسلامية الى السلطات الفرنسية وحدد ايمريت موقع هذه المذكرة وهو الارشيف الوطني الفرنسي ، ونحن فى الواقع لم نطلع عليها • ومما لاشك فيه ان سنوات وظيفة القضاء والفتوى والغربة والتدريس قد انتجت عددا من التقارير والرسائل والمحاضر ونحوها مما يكون الكبابطي قد صاغه فى الأغراض المختلفة المذكورة • كما أن العلاقات الشخصية والانسانية تحمل صاحبها على كتابة الرسائل وغيرها • ومن الصعب أن نحكم مثلا على أسلوب الكبابطي النثري من الرسائل الثلاث التي بين أيدينا • فهي رسائل رسمية جدا ، وفى غرض محدد وهو الاستعطاف • ولذلك لا نجد فيها السجع الذي اشتهر به أدباء ذلك الوقت ولا طول الديباجة ، بل هي

رسائل مختصرة ومباشرة ، تشبه الرسائل الادارية المعاصرة • ونحن نورد هذه الرسائل الثلاث ، ونضيف اليها ترجمة رسالته الرابعة ، كوثيقة •

وكم نكون سعداء لو عثر الباحثون بعدنا على آثار هذا الرجل الأخرى لتضيء جوانب حياته التي ما تزال خفية • أما الآن فحسبنا أن نقول ان الكبابطي كان بموقفه ذلك شمعة فى ليل الاستعمار الدامس المهول ، وقد ترك للجيل الحاضر مثلا يحتذى به فى قول الحق أمام الجبارين ولو كانوا هم بيجو وزبانيته •

جامعة ميشيقان (آن آربر) امريكا
يوم 26 يوليو 1984

أ ـ الملاحق الشعريه

ـ وصف حالته في السجن .

ـ وصف محنته .

ـ رثاء شيخه علي المانجلاتي .

ـ في زواج ابن صديق له .

ـ تعاريف المنطق .

ـ من غزله .

ـ في التوسل .

وصف حالته في السجن :

حصرت رجائي في الخبير بحالتي | ولذت بخير الخلق فهو وسيلتي (1)
غرست بقاع القلب شوق احبتي | ولا زلت اسقيه بوابل عبرتي
فان قدر المولى جنيت ثماره | وحزت بفضل الله افضل لذة
فمن ذا الذي يقضي سواه تفضلا | بيسر قريب بعد عسر ومحنة
فان الهي عالم بسريرتي | غيور قدير فهو سؤلي وعمدتي

وصف محنته :

اشاب عذارى حيث شبت صبابتي | صروف الليالي باعتقال مطيتي (2)
وكان غزير الدمع يهمي بمقلتي | فصبر جميل لا وثوق بحالتي
صرفت عناني للخبير بحالتي | حليم كريم لا يبالي بذلتي
ولذت بخير الخلق فهو وسيلتي | عليه سلام الله في كل لحظة
وكنا على الآل الكرام احبتي | بحبهمو أرجو وفور شفاعتي

رثاء شيخه علي المانجلاتي :

سهام المنايا علام تميل عن الغرض | فلو تقبل الابدال كنت انا العوض(3)
ولكنها تجني نفوسا زكية | فلم يثنها عنها بديل اذا افترض

---

1 ـ من (تاريخ عبد الحميد بك) ـ مخطوط ، وكذلك القطع الثلاث التالية . وقد قدم له بقوله : « ومن قوله وهو في الحبس » .

2 ـ نفس المصدر ، وقد قدم لها بقوله « وقال في حال محنته » .

3 ـ نفس المصدر ، وقدم لها بقوله : « وقال يرثي شيخه على الجلاسي » وهو يعني المانجلاتي ، لأنه ذكره كذلك في مكان آخر . ووردت كلمة مربع «أربع» ، وكلمة اتعظ «اتمض» ، وكلمة فاله (من اللهو) «فالهي» .

فكـم اقفـرت من مربع بات أهلـه، عـلى الأمن ثم أصبحوا مع ما انقرض
هو الموت فاحذر نبــله متفوقــا فوجـــدانه وعــظ كفى لمـن اتعظ
وقـل للذي أضحى المشيب نذيـره لقـد حان منك الأمر فاله عن العرض

في زواج ابن صديق له :

لقد لاح فجر السعد غـر نجـومـه فتحرسه رجما على كل شيطان (4)
فماست غصون الروض في حسن بهجة مفتحـة الأزهـار تزهـو بـألـوان
تزخرفت الألـــوان والطير أفصحت بصــوت رخيــم من غريب وزيدان
يفــوق ربابا بين عودين عنــدما يحـركـه قـــوس بجس بنـــان
فاكرم به سعـــد بشير شفـــاؤه تملكـه (؟) لـدن يسمى بحمدان

تعاريف المنطق :

أيا معشــر الخـلان جولوا بفكركـم نهيب اشتياقي هل يرى فصل حده(5)
فان حبيبي قد شــجاني بصــده وما جـاد لي يـوما بطيـف خياله
ســروري جــــزئي لكلي وصلــه أيدرك سلواني بـلا جنس قــربـه
قضيــة صبري بالضروري توجهـت وعكس انتظــاري قد مضى لي بنقضه
فــلا زلت أحيي الليل بالدمع والبكا لعــلي أرى صبحــا يضيء بوجهــه
فتنبسط الأفراح كالشمس بيننـــا وتفنى ظــلال البـــين خوفا لحسنه
هو الحســن الاسنى سمي محاسن وقــاه الالــه مــن حســود وشره

من غزلـــه :

سقــاني مدام الحــب ساحر لحظه أراني ورود الــروض تندا بخده (6)
يفــوق على الياقوت باســم ثغــره حــلا جيده مســـك تراه بنحــره
دوائي بـــرقي ريقــه عنــد مــزه مليــح جميل الفعــل حتى بشجره
يمـين عـــلي لا أزال بحبـــــه دنيف ، ولـــو جـاد الحكيم بطبه

---

4 ـ نفس المصدر ، وقد قدم لها بقوله : « ومنه هذا الشعر الذي أرسله الى صاحب له يريد زواج ابن له يسمى حمدان » . كما وجدنا معه تعليقا عن عبارتي غريب وزيدان ، نصه هكذا « الغريب في اصطلاح أهل المغرب نغم يشبه الحسيني ، والزيدان يشبه الحجازي » هذا ولم نستطع قراءة كلمة «تملكه» أو نحوها ، فهي غير واضحة في النص .

5 ـ يقول عبد الحميد بك الذي أورد هذه الأبيات « ومنه (أي الكبابطي) هذا الشعر الذي ذكر فيه تعاريف المنطق » ، أنظر : (تاريخ عبد الحميد بك) ـ مخطوط .

6 ـ وجدنا هذه الأبيات في كناش لمجهول ، رقم 16511 بالمكتبة الوطنية التونسية ، ص13 . ومعها هذه المقدمة « وللشيخ مصطفى بن الكبابطي القاضي بالجزائر كان ، يتغزل فيمن يستخرج اسمه من الحرف الأول من مصارع الأبيات » . ـ أي سيدي أحمد ـ

في التوســـــل :

هــال النوى كل قلب كان يانســـه   والصبر شـــرده مر الفراق جلى(7)
ما مثلها دهشـــــة قد فتتت كبدي   وفجعة القبــــر هالتني من الوجل
والعبد ان يرتجي مــن الكــريم قرى   حاشا الكريم بأن يكون ذا بخـــــل
هو الحكيم الكــريم الوافي بما يعد   سبحانه غـــافــر للذنب والزلــل
يا رب حقق لنــــا الرجاء واغفر لنا   بجــاه من جــاءنــا بأفضل الملــل
هــو الشفيــع غــدا في كل امتــه   صــلى عليــه المجيب في كل محتفل

7 ـ عثرنا على هذه الأبيات في مجموع رقم ك 1233 بالخزانة العامة بالرباط ـ المغرب ، ص 425 ، وأولها «' من كلام الشيخ مصطفى بن الكبابطي » مع ملاحظة أن الوجل مكتوبة « الوجلي » وأن بخل مكتوبة « بخلي » .

ب ــ الملاحق النثرية

ــ رسائل الكبابطي الى وزير الحربية الفرنسي :

1 ــ رسالة أولى .

2 ــ رسالة ثانية .

3 ــ رسالة ثالثة .

ــ اعلان الحاكم العام عن عزل المفتي الكبابطي وشغور منصب .

ــ رسالة الكبابطي الى وزير الحربية (مترجمة) .

ــ تقرير عن موقف الكبابطي (مترجم) .

رسالة من الكبابطي الى وزير الحربية

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين •

الى سعادة الوزير الأعظم الحليم الأفخم سنيور منيشطروا (1) الدولة الفرانسوية أدام الله حياته •

بعد السلام التام عليك والتكريم العام

فهذا كتاب من الفقير مصطفى بن محمد الذي أمرت باخراجه من الجزائر فتراه وصل الى مرسيليه وهو يطلب فضلك وجودك واحسانك أن تمن عليه وتأذن له أن يذهب الى بلد من بلاد المسلمين مثل اسكندرية أو اطلابس أو تونس ليسهل عليه قدوم أولاده وعياله ليذهب بهم معه الى أرض الحجاز مكة والمدينة لأني كبير السن ولم أحج • وان زاد فضلك علي وانعامك تكتب لي ورقة الى قناصر (كذا) البلد الذي أذنت لي فيها ليكونوا في عوني ، والله يعينك ويزيد في عمرك ولا زائد الا طلب فضلك•

1 — هو وزير الحربية الذي كان المسؤول على الجزائر في الحكومة الفرنسية . وكلمة (سينيور) معناها السيد . ويبدو التأثر بالاسبانية واضحا ، أما كلمة (منيشطروا) فتعني الوزير (مينيستر) ، وهكذا في الرسائل الثلاث ، وقد كان الكبابطي يوقع اسمه : مصطفى بن محمد ، كما هو الرسمي أيضا . واطلابس (طرابلس) ، وقناصر (قناصل) .

رسالة أخرى منه الى الوزير المذكور

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

الى سعادة الجناب الأعظم وزير الدولة الفرانسوية سنيور المانيشطروا ذي القرة (1) الافخم أدام الله مسرته وأطال حياته •

وبعد السلام التام الائق (كذا) بالمقام والاستعطاف والاعظام المبلغ للمرام فهذه ورقة من الحقير الضعيف مصطفى بن محمد ، كان مفتي مالكي بالجزائر ، واليوم تحت قهرك بمرسيليه يستعطفك ويطلب حنانك وشفقتك وعفوك وسماحتك فان شان الملوك اذا غضبوا سمحوا واذا استعطفوا فرحوا وسرحوا •

وانا نطلب من جودك واحسانك وسطوتك وامانك ان تجود علي بالتسريح الى بلد من بلاد الاسلام غير الجزائر لنبعث الى أهلي وأولادي يأتونني ونجتمع معهم ونذهب بهم الى ناحية المشرق ويزول حزنهم ، فاني كثير الاولاد وأنا شيخ كبير قريب الى الموت والنفاد ، وهذه مزية عظيمة لا يفعلها الا من هو مثلك •

واذا انعمت علينا بالتسريح ، ومثلك من يرجى منه ذلك ، نطلب من فضلك جوابا يصل الى يد مسيو ليوتنان جنيرال دوبول حاكم مرسيليا ودمتم في سعادة وسرور •

في خامس يونيو سنة 1843

---

1 – (ذي القرة) أي الحرب بالفرنسية ، وهي كلمة شائعة في اللهجة العامية ، وتنطق القاف فيها معقوفة .

رسالة اخرى منه الى الوزير المذكور

الحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله

حضرة سعادة صدر الدولة الفرانسوية الاعظم سنيور المنيشسطروا ، صانه الله وأيده وأطال عمره وأيده ءامين •

والسلام التام عليه وعلى أهل حضرته

وهذا كتاب مني اليك نشكر مزيتك بعفوك واحسانك حيث سرحتنا واذنت بذهابنا الى بلد الاسكندرية لنجتمع مع أولادنا هناك ، فالله يجمع شملك ويعلى شانك وينفذ أمرك ، فهذا شأن الملوك والوزراء الذين ينتظم بحسن سياستهم العالم ، وهذا ما يمكن من العبد الحقير مصطفى بن محمد مفتي كان بالجزائر •

11 يونيو سنة 1843

نسخة من الرسالة آلتي كتبها المفتي
المالكي
الى ادارة الداخلية بالجزائر

رسالة الكبابطي الى مدير الداخلية بالجزائر

لقد طلبت مني أن آمر التلاميذ المسلمين بتعلم اللغـــة الفرنسيـــة فى مدارسهم خلال ساعة • وقد قبلت ذلك وطلبت الوقت للتفاهم مع المعلمين والآباء والتلاميذ • ولم يكد يحين الوقت الذي أوفي فيه بوعدي حتى سارعتم بسجن قريب لي ، وهو معلم أولادي والذي يقوم الى جانبي فى الجامع الاعظم ، بل انكم أوصيتم الحارس بوضعه فى السجن المضيق • وأنا أشكرك على ذلك •

لقد اجتمعنا عدة مرات ، وطلبنا منك العفو عنه ، فأجبتني بقولك : انني سأطلق سراحه هذا المساء •

ومع ذلك فانك لم تطلقه الا صباح اليوم التالي • وأنا أشكرك مرة أخـــرى •

ثم انني استدعيت المدرسين وبلغتهم نواياك وأوامرك • وكلهم رفضوا قائلين : اذا تحققت هذه الاجراءات بطاعتنا ورضانا وبقبولنا ، فانه لا أحد منا يقبلها • واذا كان العكس ، وهو اعتمادهـــا عـــلى القـــوة والعنف والاحتقار ، فان السيد المدير له حق فى أن يفعل ما يشاء •

ان الآباء يرغبون فى تعليم أبنائهم القرآن ، وتعليم القرآن لا يتماشى مع تعليم آخر • فاذا كان أطفالنا ما يزالون لا يعرفون العربية التي هي

الوحيدة التي تفيدهم فى دينهم ، فكيف يمكنهم تعلم الفرنسية التي هي أبعد من أن تكون مفيدة لهم بل هي مضرة لهم • وقد لاحظت ان أغلب من يعرف الفرنسية كانوا فى أغلب الأحيان مخمورين ، ولا يؤدون الصلاة ولا يصومون • ومن الواضح أن هذا شر جد محسوس • ولا يريد حضرة الوزير أن يسيء الى أحد • واذا اتخذ اجراء فلكي يكون فى صالح رعاياه وبرضاهم حتى يجلب مودتهم ــ أطال الله فى عمره •

ان من يرغب فى تعليم أطفال المسلمين يجب عليه أن يبقى فى مكانه • فالذين يحبونه يذهبون اليه ، والذين لا يحبونه يبتعدون عنه • أما أنا فليس لي الحق ولا القدرة على اجبار أي أحد • فأنا مفتي وليس لي قوة الا فى الأحكام المستمدة من الشريعة والمسائل الدينية والتعليم العالي • ومن جهة أخرى فان نفوذي قد انهار الآن وليس لكلمتي وزن بعد سجن قريبي الذي يدرس لأطفالي بحضوري •

وأخيرا فاني أول من يعارض أي اجراء يشغل الاطفال عن تعليم القرآن • وأعترض على أي تعليم الا التعليم العربي • وأما الآخرون فلا أمنعهم ولا آمرهم بالتعلم •

لقد هددتموني بابلاغ كلامي الى السيد الوزير • فها أنا أقدمه مكتوبا بخط يدي فارسلوه اليه كما هو بدون زيادة ولا نقصان •

وأنا العبد الضعيف

التوقيع : مصطفى المفتي المالكي

سنة 1843

ترجمة طبق الأصل : الكاتب ترجمان ادارة الداخلية

التوقيع : دو لا بورت Delaporte

نسخة طبق الأصل : مدير الداخلية ــ التوقيع

قرار عـزل المفتي الـكبابطي

اعلم ان الشيخ المفتي المالكية بمدينة الجزائر قد انعزل من وضيفته ومنتفى بامر الحاكم بجزيرة يقالها سانت ماركريت وهي من بلد فرنصه وبقرب مدينت طلون •

وسبب ذلك القضية هو ان الشيخ المفتي المزكور قد عصا عن امر الذي كان اعطاه له سعادة وزير الحرب وهذا الامر ما كان الا فى منفعت ساير المسلمين •

وكذلك انعزل وانتفا الشيخ المسيد امتاع الجامع الكبير بحيث ان كمثل الشيخ المفتي المذكور عصا عن أمر سعادة وزير الحرب •

واما البايلك لا يريد الا حسنة ومنفعت دين الاسلام • فالاجل ذلك الحكام ينطرون بالحين فى واحد الراجل طالب وعالم ليتسمى فى منصب مفتي سادات المالكية ويعينوا له شهريت تكون مناسبة مع الفضل وتكريم الوضيفـــة •

(*) — تركنا هذا النص كما هو بصيغته التي وجدناه بها مطبوعا •

تقرير الى وزير الحربية بتاريخ 13-5-43

مصلحة شؤون الجزائر

اقتراح للوزير بالترخيص بطرد المفتي المالكي لمدينة الجزائر وذهابه من الجزائر ، وربما حتى ارساله الى جزيرة سانت مارغريت •

1842/12/24 قرر الوزير تعليم اللغة الفرنسية للتلاميذ الأهالي فى المدارس الأهلية فى مدينة الجزائر • ولكن برقية مدير الداخلية المؤرخة فى 43/4/25 ، وكذلك برقية الضابط مسؤول اقليم الجزائر بتاريخ 1843/4/30 اثبتتا ان ذلك القرار الوزاري قد واجه مقاومة شديدة من جانب المفتي المالكي لهذه المدينة ولذلك فان القرار المذكور لم يطبق الى حد الآن •

كان ذلك القرار الوزاري قد تم بناء على اقتراح السيد ارتو Artaud المفتش العام للدراسات المكلف بمهمة التعليم العمومي فى الجزائر ، لقد كان هدف الوزير من ذلك القرار هو فائدة هؤلاء الشبان لصالحهم وللاستفادة من الحضارة الفرنسية •

وكان الحاكم العام يأمل فى أن التلاميذ الأهليين ، بعد تعرفهم على « لغتنا » يمكن ، فيما بعد ، أن تستفيد منهم فرنسا وأن يستفيدوا هم أيضا من المعارف •

وهذه المعارضة تجبرهم اما على التخلي تماما على تنفيذ القرار ، واما تاجيله الى أجل غير مسمى • ولو تركنا هذه المعارضة للقرار الوزاري بدون عقوبة لترتبت عليها نتائج وخيمة •

والمحرك الرئيسي لهذه المعارضة هو المفتي المالكي مصطفى الكبابطي ، الذي كان يواجه بأذن صماء كل الاجراءات التي اتخذها الحاكم العام ومساعدوه ، وكان يعارض الاصلاحات التي كانت لها صلة به ، وكذلك معارضته فى ادارة الشؤون الدينية (الأوقاف) •

هذه المرة كان الكبابطي قد عصا أمر الوزير ، الذي كان قد قبله في أول الأمر ، وهو الأمر الذي كان الهدف منه تحسين أوضاع مواطنيه •
ان الظروف التي أحاطت بعصيان المفتي وأتباعه تجعل من الضرورة اتخاذ ردع فوري • ان المفتش المذكور الذي ذهب لتنصيب معـلم اللغة الفرنسية ، ذهب حتى الى باب المدرسة (بالجامع الكبير) وقد استقبـل من طرف معلم العربية ليس فقط بعبارات الرفض ولكن بعبارات مهينة للسلطة نفسها أيضا • وأثناء مقابلته لمدير الداخلية حول نفس الموضوع كان المفتي دائما يصر على رفض المحاولات التي قدمت له • وأخيرا كتب المفتي نفسه رسالة الى مدير الداخلية موجهة الى الوزير أكدت نواياه السيئة ومواقفه المعادية •

وأمام هذا الوضع فانه يبدو وأنه لا يمكن عدم متابعة اقتراح الجنرال دي بار De Bar وهـو الاقتراح المدعم بالرأي الجمـاعي للمجلس الاداري والذي يقضي بعزل الكبابطي • ونقترح اذن الى الوزير بالسماح للحاكم العام فى الجزائر باصدار هذا العزل •

وان مواصلة هذا المفتي الاقامة فى الجزائر بعد عزله من طبيعتها أن تثير شغبا لدى المسلمين ضد الفرنسيين • ومن الأحسن أن تتفـادى ذلك •

ونقترح على الوزير أيضا أن يأذن للحاكم العام اما أن يفتعل ما يجعله (المفتي) يغادر الجزائر ، واما اذا رأى من اللياقة السياسية ، أن يوجهه هو ومعلم المدرسة الذي شاركه في الرفض ، الى جزيرة سانت مارغريت واذا رأى الوزير ذلك فما عليه الا أن يوجه تعليماته الى الحاكم العام •

رئيس المكتب هيلمـان (؟) Helleman

شوهد من قبل المتصرف العسكري

(توقيع)

(رأي الوزير)

ان عزل المفتي قد صودق عليه وكذلك معلم المدرسة • اذا كان الحاكم العام يرى عدم اقامتهما فليوجههما الى جزيرة سانت ماغريت لمدة محددة•

عريضة الأمير خالد الى الرئيس الأمريكي ويلسون 1919

نقدم فيما يلي ترجمة كاملة للعريضة التي قدمها وفد جزائري برئاسة الأمير خالد الى الرئيس وودرو ويلسون الأمريكي سنة 1919 (*)•وقد صورنا هذه العريضة من الميكروفيلم المأخوذ عن الأصل الموجود فى أوراق الرئيس ويلسون المحفوظة بمكتبة الكونغرس الأمريكي •

فقد صورنا تلك الوثيقة من مكتبة جامعة ميشيقان بآن آربر ، ميكرو فيلم رقم 18232 ، بكرة رقم 407 • وكان الأستاذ شارل روبير آجرون قد نشر الوثيقة من نسخة قدمها له أحد أصدقائه الفرنسيين كما قدم لها بدراسة حول ردود الفعل التي لقيتها الوثيقة من قبل الفرنسيين والجزائريين (1) ، ولكن الأستاذ آجرون لم يصف الوثيقة ذاتها ولا كيف وصلت الى الرئيس ويلسون ، وقد عثرنا على الوثائق الأخرى التي تولدت عليها وهي :

1 ــ رسالة من نوبل Noble الضابط الأمريكي الذي قدم اليه **الأمير خالد العريضة ، الى كاوز** Close

2 ــ رسالة من كلوز ، كاتب سر الرئيس ويلسون ــ الى نوبل •

3 ــ رسالة من كلوز أيضا الى الأمير خالد •

وقد رأينا ترجمة هذه الرسائل الثلاث عن الانكليزية لأنها تؤكد تقديم العريضة وتوضح طريقة وصولها الى السلطات الأمريكية

(*) ــ نشرت فى (مجلة التاريخ) ــ النصف الثاني من سنة 1981 . انظر الصور فى آخر الكتاب .

1 ــ المجلة التاريخية المغربية 19ــ20 ، أكتوبر 1980 ، ص 199ــ206 .

ففي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر مايو 1919 ، قدم وفد جزائري من خمسة أعضاء برئاسة الأمير خالد الحسني الى باريس ، واتصلوا (باللجنة الأمريكية للمفاوضة على السلام) بفندق كريون Corillon وهناك تقدموا بالعريضة الى الملازم جورج ب نوبل ، ضابط المشاة باللجنة ، وقد امتنعوا من توقيع العريضة ومن ذكر أسمائهم خوفا من متابعة السلطات الفرنسية لهم ، الا الأمير خالد فانه أعلن اسمه للضابط الأمريكي ، وطلب منه توصيل العريضة الى الرئيس ويلسون ومنحه وصلا يثبت اتصال الرئيس بها قبل مغادرة الوفد باريس يوم السبت بعد الظهر •

وفعلا قام الضابط نوبل بارسال العريضة الى السيد كلوز كاتب سر الرئيس ويلسون رفقة خطاب (انظر الرسالة الأولى) شرح له فيه ظروف العريضة وحالة الوفد ومطلبه ، فما كان من السيد كلوز الا أن كتب فى اليوم التالي (السبت) رسالتين قصيرتين احداهما موجهة الى الضابط نوبل يخبره أنه كتب حسب طلبه الى الأمير خالد عن طريقه (انظر الرسالة الثانية) والثانية الى الأمير خالد الحسني ، بناء على طلبه ، يخبره أنه اتصل بالعريضة وأنه سيطلع عليها الرئيس ويلسون (انظر الرسالة الثالثة) ولم نجد نحن ، رغم تتبعنا للمجلدات التي تضم أوراق الرئيس ويلسون ، ما يدل على رأي الرئيس ويلسون نفسه فى العريضة ولا على ما يدل على موقف الوفد الأمريكي من قضية تطبيق تقرير المصير على الجزائر ولا نعتقد ــ كما أننا لم نجد ما يدل عليه ــ ان الوفد الأمريكي سلم العريضة أو نسخة منها الى الوفد الفرنسي فى مؤتمر الصلح ، ولكن هذا لا يمنع من معرفة المخابرات الفرنسية للاتصال الذي تم بين الوفد الجزائري والأمريكي • غير أن هذه المعرفة ليست بالضرورة من الوفد الأمريكي ، فقد تكون من مصادر أخرى •

أما الوفد الجزائري الذي قدم العريضة فلا نعرف عن تركيبه الآن أي شيء • ويبدو من وصف نوبل أن الوفد قد حضر بين يديه بكامل أعضائه الخمسة • ولكن أربعة منه امتنعوا عن تقديم أسمائهم للسبب الذي ذكرناه • وقد رجح الأستاذ آجرون أن يكون من بين الأربعة قايد

حمود (2) ، أما الأسماء الأخرى فلا نعرف عنها في الوقت الراهن شيئا • وعلى كل حال فان تزعم الأمير خالد للوفد واضح ، وأن التصريح باسمه الى الضابط الأمريكي يدل على جرأة قوية فى تلك الظروف لأنه يعلم أن الفرنسيين لن يرفقوا به اذا ما أطلعوا على محاولته • فقد حدث ذلك فعلا يوم أن قرروا نفيه سنة 1923 ، وسلطت عليه صحافة اليمين وصحافة الكولون جام غضبها لموقفه المعادي لفرنسا ، ولا ندري الآن أيضا كيف ولماذا جاء الوفد الى باريس ما دام تقديم العريضة والاتصال بالوفد الأمريكي ليس من أغراضه المعلنة •

أما العريضة نفسها فيغلب على الظن أنها من تحرير الأمير خالد نفسه لأنها تتفق مع روح كتاباته الأخرى (3) ، وهي مكتوبة بالفرنسية على الآلة الراقنة ، وتقع فى أربع صفحات كاملة • وفيها بعض السطور مضيقة فى آخر الصفحة الرابعة حتى لا تضاف صفحة خامسة • كما وجدنا عليها بعض الشطب والاضافة بالقلم ، وهو قليل • وذلك مثل اضافة عبارة « وأبقاها المحتلون الجدد » فى الصفحة الثانية • وتشطيب كلمتين فى الصفحة الثالثة ، ومثل وضع سطر تحت عبارة « الرجوع القهقري » فى الصفحة الثالثة أيضا • كما أن عبارة « احترامنا » فى آخر الصفحة الرابعة مضافة بالقلم •

وبعد أن ذكرت العريضة بالمقاومة الجزائرية للاحتلال طيلة سبع عشرة سنة (لاحظ أن ذلك هو تاريخ مقاومة الأمير عبد القادر) واستعرضت العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال 89 سنة ، وهي علاقات تتميز بعدم الوفاء بالوعود من جانب الفرنسيين ، واجلاء السكان عن الأراضي الخصبة ، واستيلاء الفرنسيين على الأحباس ، واهانتهم للمقدسات ، واثقال كاهل السكان بالضرائب والقوانين الاستثنائية ، واهمال حاجاتهم ، وفرض التجنيد الاجباري عليهم ، وهبوط الأخلاق

---

2 ـ كان قائد حمود فعلا مع الوفد وقد أكد لي ذلك شخصيا (هذا التعليق وضعه الشيخ أحمد توفيق المدني رحمه الله عندما كان مسؤولا على مجلة التاريخ التي نشرنا فيها هذه المقالة لأول مرة •)

3 ـ عبارات كاملة منها توجد في La situation des Musulmans en Algérie الذي حرره الأمير خالد من منفاه سنة 1924 ، طبع بالجزائر 1924 •

العامة فيهم ، بعد ذلك طالبت العريضة « بارسال نواب مختارين بحرية من طرفنا لتقرير مصير مستقبلنا تحت اشراف عصبة الأمم » وذلك بناء على التصريح الذي أعلنه الرئيس ويلسون نفسه فى مايو 1917 والذي جاء فيه أنه « لا يجبر شعب من الشعوب على العيش تحت سيادة لا يرضي بها » وقد أشارت العريضة الى أن الوفد الجزائري قد جاء يستنجد بالمشاعر النبيلة للرئيس ويلسون « باسم مواطنينا » الذين كمت الادارة الفرنسية أفواههم وجعلتهم يعيشون فى حالة بائسة من الذل والفقر ، كما أصبحوا عاجزين عن المطالبة بحقوقهم نتيجة للخوف والقهر •

ان العريضة تعتبر ادانة للاحتلال الفرنسي وربطا لحاضر المقاومة الجزائرية بماضيها ، وفتحا في تطور الشعور الوطني • فالوفد وان لم يذكر كلمة الاستقلال بالحرف فانه ذكر معانيها ، كما طالب بتطبيق حق تقرير المصير على الجزائر تحت اشراف عصبة الأمم ، وتطبيق مبدأ عدم اجبار الشعوب على العيش تحت سيادة لا ترضى بها • ان موقف الأمير خالد الجرىء هو الذي جلب عليه نقمة الفرنسيين ولكنه جلب له احترام وتقدير الشعب الجزائري الذي رفع صوته بعد أن حرمته السلطات الاستعمارية من التعبير عن نفسه •

ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية قد دخلت الحرب سنة 1917 اثر انسحاب روسيا منها ، وكان دخولها قد قلب ميزان الحرب لصالح الحلفاء ، وكان الرئيس ويلسون قد أعلن نقاطه الأربع عشرة الشهيرة • ومنها نقطة تتعلق بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وقد فهمت شعوب أوربا وغيرها أن ذلك التصريح يعنيها جميعا ، ولذلك تقدم زعماء من شعوب آسياوافريقيا يطالبون بتطبيق هذا الحق على شعوبهم، ومن هؤلاء زعماء المغرب العربي الملتفين حول (مجلة المغرب) التي كانت تصدر بالفرنسية بجنيف • ولكن الرئيس ويلسون وجد معارضة شديدة لمبادئه ، وخصوصا مبدأ حق تقرير المصير ، من زعماء الدول الاستعمارية مثل بريطانيا وفرنسا — ومن بينهم جورج كليمنصو الفرنسي.ولويد جورج الانكليزي • كما أن الرئيس ويلسون نفسه قد هزم فى الانتخابات

الرئاسية فى بلاده ومات بعد ذلك بقليل (4) • وقد خاب أمل العديد من زعماء شعوب آسيا وأفريقيا فى عدالة الأقوياء وفى مؤتمر الصلح الذي انعقد بفرنسا • ومن بين من خاب أملهم سعد زغلول من مصر والأمير فيصل بن الحسين من الجزيرة العربية ثم الشام ، والأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر من الجزائر ، وتمتليء أوراق الرئيس ويلسون بالعرائض والرسائل والبرقيات والكتيبات وغيرها التي تقدمت بها الشعوب الى ذلك الرجل الذي حرك الآمال فى الحرية والاستقلال ولكنها آمال سرعان ما تبخرت •

وفيما يلي نص العريضة والمراسلات المصاحبة لها :

الجزائر فى 25 مايو 1981

4 ـ كان الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية ، أصيب في سبتمبر 1919 بشلل نصفي ، وانتهت رئاسته سنة 1921 ، وتوفى سنة 1924 •

نص الوثيقة الجزائرية التي قدمها الامير خالد

الى السيد ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

السيد الرئيس :

يشرفنا أن نقدم الى انصافكم السامي وانى روح العدل فيكم عرضا موجزا عن الوضع الحالي للجزائر الناتج عن احتلال فرنسا لها منذ 1830 .

فأثناء معركة غير متساوية ، ولكنها رغم ذلك كانت مشرفة لآبائنا ، ناضل الجزائريون طيلة سبعة عشر عاما بمثابرة وقوة لا مثيل لهما بهدف رد المعتدي والعيش فى استقلال ، ولكن حظوظ السلاح لم تكن ، للأسف ، فى صالحهم .

ومنذ الـ 89 سنة التي عشناها تحت السلطة الفرنسية ازددنا فقرا بينما ازداد المنتصرون غنى على حسابنا .

ان الاتفاق الموقع فى 5 يوليو 1830 بين الجنرال دوبورمون وداي الجزائر قد ضمن لنا احترام قوانينا وعاداتنا ودينا . وان قانون 1851 (1) قد اعترف بحق الملكية والتمتع بها كما كانت ابان الاحتلال .

وقد أعلن نابليون الثالث (2) عند نزوله بالجزائر فى 5 مايو 1865 بيانا موجها الى السكان المسلمين « ان فرنسا عندما وضعت قدمها على

1 — هو قانون 16 جوان 1851 حول الأملاك العقارية . فقد أعلن عن ضرورة احترام الملكية سواء كانت أهلية أو فرنسية أو غيرها .

2 — زار نابليون الثالث الجزائر مرتين الأولى في سبتمبر 1860 والثانية هي التي تشير اليها العريضة .

الأرض الافريقية منذ 35 سنة ، لم تأت لتدمير جنسية شعب ، ولكنها بالعكس جاءت لتحرير هذا الشعب من قهر طويل المدى ، انها أبدلت السلطة التركية بحكم أكثر لينا وعدلا وتنويرا ••• »

اننا كنا نتوقع أن نعيش فى سلم جنبا الى جنب وبالاشتراك مع المحتلين الجدد ، معتمدين على هذه التصريحات الرسمية المهيبة •

ولكن تبين لنا فيما بعد — ويا للأسف — أن تلك الوعود المعسولة لم تكن سوى كلام أجوف ، والواقع أن الفرنسيين أجلوا المهزومين تدريجيا ، كما فعل الرومان قبلهم ، وامتلكوا هم الأراضي الخصبة وأغنى المناطق • وهم الى يومنا هذا مستمرون على انشاء مراكز جديدة باغتصاب الأراضي الجيدة التي بقيت عند الأهالي ، تحت غطاء « المصادرة لفائدة الصالح العام » •

كما استولى الفرنسيون على الأحباس التي تقدر بمآت الملايين من الفرنكات والتي كانت تستعمل فى صيانة المؤسسات الدينية وتساعد الفقراء ، ووزعوها على الأوروبيين • وهذا أمر في أقصى الخطورة نظرا الى الغرض الديني والبين الذي نص عليه المحبسون لهذه الأملاك •

والى الآن ورغم قانون فصل الدين عن الدولة فان البقية القليلة من هذه الأحباس مسيرة من طرف الادارة الفرنسية تحت ستار هيئة دينية اختير أعضاؤها الطيعون من طرف الادارة الفرنسية نفسها ، ولا حاجة الى الاضافة الى أنه ليس لأولئك الأعضاء سلطة •

والادارة الفرنسية تغتنم كل فرصة ، وخصوصا أثناء هذه الحرب لتنظيم مظاهرات سياسية فى مساجدنا ومن أماكننا المقدسة الأخرى ، خلافا لتعاليم ديننا ، بحضور جماهير مكونة خصوصا من موظفين • وفى تلك المظاهرات تلقى خطب أعدت مسبقا للمناسبة من رجال الدين ، ويتمادى هذا التعدي على الحرمات الدينية لدرجة اشراك الموسيقى العسكرية فى هذه المظاهرات المهينة للروح الدينية عند المسلمين •

ذلك هو ما أصبحت عليه تصريحات القائد بورمون فى 5 يولية 1830 وقانون 1851 •

وقد أثقل كاهل الانسان الأهلي مدة 89 سنة باحمال الضرائب : ضرائب فرنسية وضرائب عربية كانت موجودة قبل الاحتلال وأبقى عليها المحتلون الجدد •

واذا قابلنا ميزان الدخل والخرج فاننا نرى بسهولة أن الأهالي قد أرهقوا بضرائب فوق طاقتهم • كما أن توزيع الميزانية لا يأخذ فى الاعتبار متطلباتهم الخاصة • وكثير من الأعراش بدون طرق مواصلات وأغلبية أطفالنا بدون مدارس •

وبفضل تضحياتنا ، استطاع الفرنسيون أن يوجدوا جزائر فرنسية مزدهرة حيث زراعة الكروم تمتد على مدى البصر • وقد مدت عبر البلاد السكك الحديدية والطرق بين القرى الأروبية • وغير بعيد عن العاصمة نجد أعراشا بأكملها تعيش على أراضي آهلة بالسكان ، وفقيرة ووعرة المسالك ، وليس لهذه الأعراش طرق مواصلات ، وهناك تجمعات سكنية هامة محرومة من كل شيء ، وما يزال السقي عند هؤلاء بالقرب وبطريق الأحواض والآبار غير المصونة مثلما كان الحال فى عهد ابراهيم (عليه السلام) ، وخلاصة القول أن حصة الأغلبية هي الأضعف وأن حمل الأشد فقرا هو الأثقل •

وتحت نظام يسمى جمهوريا يخضع أغلبية السكان الى قوانين خاصة يندى لها جبين البرابرة أنفسهم • وان من ميزات هذه القوانين أن بعضها قد نص على المحاكم الاستثنائية (مثل المحاكم الزجرية والمجالس الجنائية) الصادرة فى 29 مارس 1902 ، و 30 ديسمبر 1902 • فنحن نرى الرجوع القهقري نحو الحريات (3) • (التسيطر موجود فى الأصل) •

ولكي لا نتهم بالمبالغة نرفق بهذه العريضة كتيبين كتبهما فرنسيان من الجزائر وهما السيد فرنسوا مارنار F. Marneur المحامي بمجلس الاستئناف بمدينة الجزائر ، والسيد شارل ميشيل Ch. Michel المستشار العام وشيخ بلدية تبسة • فهما مؤلفان مبنيان على فظاعة وظلم هذه القوانين •

3 ــ هذه العبارة موجودة برمتها في كتيب الأمير خالد الذي سبق ذكره .

وهنالك مثال آخر يدل على عدم الوفاء بالعهد وهو :

كان الجنود الأهالي قبل 1912 يلتحقون بالجيش الفرنسي عن طريق التطوع مقابل بعض المنافع للمتطوعين • ولكن هذه المنافع قد ألغيت بالتدرج ، وبدخـول 1912 أصبـح التجنيـد الاجباري في أول الأمر جزئيا (وهو 10 ٪ من مجموع الجيش) ، ثم أصبح شاملا ، وهذا رغم الاحتجاجات الصارخة من الأهالي •

ان ضريبة الدم قد طبقت علينا خرقا للمبادىء الأولية للعدالة • ورغم فقرنا وذلنا واهانتنا بحكم قانون الحق للأقوى ، فاننا لم نكن نتصور أبدا أن عبئا كهذا ــ وهو خاص بالمواطنين الفرنسيين المتمتعين بجميع الحقوق ــ يقع ذات يوم على كاهلنا •

ان مئات الآلاف قد سقطوا منا فى مختلف ميادين القتال ، محاربين رغم أنوفهم ، ضد شعوب لا مطمح لهم فيها ولا فى أموالها •

ان الأرامل واليتامى ومعطوبي هذه الحرب يتلقون أجورا أو معونات أقل مما يعطي للفرنسيين الجدد • وكثير من الجرحى الذين أصبحوا عاجزين على العمل انضموا الى صفوف البؤساء الذين تضج بهم المدن والأريـاف •

ومن السهل على الملاحظ المنصف أن يرى البؤس الفظيع الذي يعيشه الأهالي ، ففي مدينة الجزائر نفسها يجر مئات الأطفال من الجنسين بؤسهم في الشوارع وهم في أسمال بالية وكسحاء يتسولون من العامة•

وأمام هذه الأوضاع المؤسفة بقيت الولاية العامة للجزائر فى حالة مطلقة من اللامبالاة •

وأمام التمويه بعدم التدخل فى الحريات ، فان الموقف العام هو ترك الحبل على الغارب • كما أن المشروبات الكحولية قد أصبحت تغـدق فى المقاهي على الأهالي •

وقد تحملنا هذه المآسي ، كمهزومين مستسلمين ، منتظرين وآملين أن تشرق علينا أيام أسعد مما نحن فيه •

ان التصريح الرسمي التالي والقائل بأنه « لا يجبر شعب من الشعوب على العيش تحت سيادة لا يرضى بها » والذي صرحتم به أنتم فى مايو 1917 ، فى كلمتكم الموجهة الى روسيا ، يجعلنا نأمل بأن هذه الأيام قد أقبلت فى النهاية

ولكن الأهالي ، تحت الوصاية الجائرة للادارة الجزائرية قد أصبحوا على حالة من الأذلال بحيث أصبحوا عاجزين عن المطالبة ... ان الخوف من القهر الذي لا يرحم يكم كل الأفواه .

ورغم هذا فاننا جئنا باسم مواطنينا نستنجد بالمشاعر النبيلة لسيادة رئيس أمريكا الحرة ، اننا نطالب بارسال نواب مختارين بحرية من طرفنا لتقرير مصير مستقبلنا تحت اشراف عصبة الأمم .

يا سيادة الرئيس : ان نقاطكم الأربع عشرة للسلام العالمي المقبولة من طرف الحلفاء والقوات المركزية يجب أن تؤخذ كقاعـدة لتحرير الشعوب المستضعفة المقهورة دون تمييز عرقي أو ديني .

انكم تمثلون فى نظر العالم بأكمله الانسان الشريف الحامل للواء الحق والعدالة ، فأنتم لم تدخلوا هذه الحرب الضخمة الا لتعمم تلك المباديء على جميع الشعوب . ولنا ايمان عميق فى كلمتكم المقدسة . ان هذه العريضة قد كتبت لتنوير عقيدتكم والفات نظركم الكريم الى وضعنا الشـاذ .

وتقبلوا ، سيادة الرئيس ، فائق احترامنا (*) .

(*) ـ جاء في تقرير كتبه السيد بارون Baron عن الوضع في تونس أن الآتية أسماؤهم قدموا أيضا الى الرئيس الأمريكي ويلسون عريضة بتاريخ 2 يناير (جانفي) 1919 ، تتضمن مطالب الشعبين الجزائري والتونسي ، وقد طبعوا العريضة في جنيف :

الشيخ صالح الشريف التونسي ـ الشيخ محمد الخضر بن الحسين ـ الشيخ محمد مزيان التلمساني ـ محمد الشيبي التونسي ـ محمد بيراز الجزائري ـ حمدان بن علي الجزائري ـ محمد باش حانبه .

أنظر : (المجلة التاريخية المغربية) عدد 27–28 (ديسمبر 1982) ص 336 .

اللجنة الأمريكية للمفاوضة على السلام

23 مايو 1919 :

عزيزي السيد كلوز ...

انني أرسل اليكم العريضة التي قدمها الي خمسة ممثلين لعرب الجزائر ، وقد طلبوا مني أن أقدمها مباشرة الى الرئيس ، وأن أحصل على اعتراف باستلامها (منه) .

انهم يخشون الاشهار ، ولم يجرؤوا على وضع توقيعاتهم على الوثيقة ، ولكن زعيم الوفد ــ وهو الأمير خالد الحسني ــ قد كشف لي عن اسمه ، وطلب أن يرسل اليه اعتراف بالاستلام بواسطتي .

وهو (الأمير خالد الحسني) يغادر المدينة غدا بعد الظهر ، وهو يرغب فى الحصول على هذا الاعتراف قبل المغادرة ، وبناء عليه اذا كنتم تستطيعون توجيه رسالة فى هذا المعنى ــ تخبرون فيها أن العريضة قد قدمت فعلا الى الرئيس ، فان ذلك سيكون موضوع تقدير عظيم .

واني أرجو أن يكون فى امكانكم ارسالها الي غدا (السبت) صباحا .

وتقبلوا فائق احترامي .

جورج ب . نوبل (والتوقيع)
ملازم اول مشاة
الولايات المتحدة الأمريكية
فندق كريون (باريس)

باريس ، 24 مايو ، 1919 :

عزيزي الملازم نوبل :

ها أنا أضمن هذه الرسالة كلمة (Note) للأمير خالد الحسني كما طلبتم فى رسالتكم المؤرخة فى 23 مايو .

المخلص
كاتب سر الرئيس

الى الملازم جورج ب . نوبل
فندق كريون ــ باريس

(التوقيع في اعلى الورقة)

باريس : 24 مايو 1919 :

سيدي العزيز :

انني أكتب اليكم لأعترف باستلامي العريضة المقدمة من قبل ممثلي عرب الجزائر الخمسة ، هذه العريضة التي أرسلت الي من قبلكم بواسطة الملازم نوبل ، واني سأكون سعيدا أن ألفت اليها نظر الرئيس •

المخلص

كاتب سر الرئيس

الى الأمير خالد الحسني

عن طريق الملازم جورج ب • نوبل

فندق كريون (باريس)

(التوقيع في اعلى الورقة)

أزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سبتمبر 1954

عن طريق الصدفة عثرت على وثيقة هامة من وثائق الجزائر المعاصرة ، وهي محضر الجلسة وخلاصة المقررات التي اتخذها المجلس الاداري (لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين) فى الجلسة التي عقدها بمدينة الجزائر فى نهاية سبتمبر 1954 ، أي قبل شهر واحد من اندلاع الثورة • وقد عثرت على هذه الوثيقة طي كتاب من بقايا مكتبة المرحوم الفضيل الورتلاني ، عضو جمعية العلماء ، بالقاهرة • وكانت الوثيقة موجهة في شكل خطاب ، من قبل أحمد توفيق المدني ، الكاتب العام لجمعية العلماء الى المرحوم محمد البشير الابراهيمي ، رئيس الجمعية ، الذي كان عندئذ مقيما فى القاهرة • وهي مكتوبة بخط أحمد توفيق المدني فى الثاني من أكتوبر سنة 1954 ، ومرسلة بالطائرة ومسجلة برقم 8741 ، وعليها علامة البريد المستعجل ، ويحمل تاريخ الظرف 7 أكتوبر 1954 ، أما مطار القاهرة فقد أرخها 9 أكتوبر 1954 • ولكن طوابع البريد منزوعة من قبل أحد هواة الطوابع • وعلى الظرف عنوان الابراهيمي بالقاهرة ، وهو نفسه عنوان المكتب الرسمي لجمعية العلماء بهذه المدينة : شارع شريف رقم 36 الدور 7 شقة 51 • والعنوان مكتوب بالعربية والحروف اللاتينية بخط أحمد توفيق المدني أيضا • وكان يوجد على الغلاف ختم جريدة البصائر • (أنظر صورة الظرف) • وفى المكتب المذكور التقيت شخصيا ولأول مرة بالابراهيمي أواخر أكتوبر 1955 (1) •

(*) — نشر في (مجلة التاريخ) ، النصف الأول من سنة 1980 . أنظر الصور فى آخر الكتاب .

1 — وكان أحمد توفيق المدني قد حملني من الجزائر رسالة الى الابراهيمي بالقاهرة . ولكن الشرطة الفرنسية قد نزعتها مني في مطار تونس .

ويبدو أن الوثيقة قد انتقلت من مكتبة الابراهيمي بالقاهرة الى مكتبة الورتلاني للصلة الوطيدة التي كانت بين الرجلين ، ولأن الموضوع يهمهما معا، حيث جاء فيها اسم الورتلاني أيضا • وقد يكون الابراهيمي سلمها الى الورتلاني للاطلاع عليها فوضعها هذا فى طيات أحد كتبه ونسيت هناك ، وهو الكتاب الذي وجدتها أنا فيه • وما أكثر ما تضم طيات الكتب من أسرار يعتقد أصحابها أنها قد ضاعت منهم ! ورغم أنني خرجت من القاهرة فى بعثة سنة 1960 ، فقد حاولت المحافظة على الوثيقة الى هذه الساعة ، لاعتقادي فى أهميتها التاريخية • غير أنني أصبحت أشعر بالخشية عليها من الضياع • فالعمر يتقدم وايدي العبث قد تمتد اليها فيحرم منها المهتمون بتاريخ الجزائر المعاصر • وهذا الشعور هو الذي حملني على نشرها ، رغم ما فيها من حديث عن بعض الأحياء بشيء قد لا يحبونه ، وعن بعض الأموات الذين قد لا يحب أبناؤهم وأحفادهم نشر ما جاء فيها •

ولكن قبل الأقدام على نشرها شافهت ، حوالي سنة 1975 ، أحمد توفيق المدني أستأذنه فى نشرها ، باعتباره هو الذي حررها ووقعها باسمه ، فاذن لي مشافهة • ثم كاتبته فى نفس الموضوع للتأكد فاذن لي كتابة أيضا • ومما جاء فى رسالته (انظر صورة الرسالة) بعد الديباجة : « تلقيت اليوم رسالتكم الكريمة المتعلقة بنشر الوثيقة التي تحمل امضائي ، وفيها بيان الاصلاح الذي أدخلناه على منهاج سير جمعية العلماء المسلمين • ولقد كنت أذنت لكم شفويا ، والآن آذن لكم كتابيا فى نشرها كما تشاؤون » • وهذه الرسالة غير مؤرخة ، ولكن ختم البريد عليها هو الثاني من مارس سنة 1976 • ومع ذلك فان ظروفي الخاصة لم تسمح لي بنشرها الا فى هذه السنة (2) •

والوثيقة ، كما ذكرت ، مكتوبة بخط أحمد توفيق المدني على الورق الرسمي لجمعية العلماء (انظر صورة الصفحة الأولى للوثيقة) ، وهو

---

2 ـ كانت بعض المجلات الأجنبية قد رغبت مني نشر الوثيقة فأبيت ، وقلت في نفسي أن هذه وثيقة وطنية فلا تنشر الا في مجلة وطنية .

خط نسخي متطور وواضح وبمداد أسود • والأرقام التي فيها هي الأرقام العربية الهندية • وتغطي أربع ورقات في ثماني صفحات مركزة • وفيها بعض الكلمات المشطوبة • وقد وضعت كلمة (كذا) أمام الكلمات التي تحتاج الى تنبيه • وتوجد فيها سطور سوداء للفصل بين عنوان وآخر ، وسطور حمراء تحت العناوين الرئيسية ، وتحت الفقرة (ج) من رقم 15 في (مقررات عامة تتعلق بالنظم واللجان الخ) ، وهي الفقرة التي طالب فيها المجتمعون الابراهيمي بتقديم بيانات عن « الاشاعات الكاذبة » التي نسبت اليه • فالخطوط الحمراء هنا لتأكيد أهمية القرار الذي اتخذه المجلس وابرازه • وفي هذا النطاق نود أن نقف قليلا عند تطور جمعية العلماء في بداية الخمسينات •

لقد أصاب جمعية العلماء في هذه الفترة ما أصاب حزب الشعب الجزائري من خصومة على الزعامة ومزاحمة الجيل الجديد للجيل القديم وركود في الهياكل والتوجيه العام • غير ان انقسام حزب الشعب أصبح معلنا عنه ومعروفا ، بينما ظل ما أصاب جمعية العلماء في الخفاء لانه لم يصل الى درجة الانقسام العلني • ولولا الثورة التي لم تسمح ظروفها بعودة الابراهيمي من مصر ، ولا بعقد الاجتماع العام المشار اليه في الوثيقة ، لكان من الممكن أن يحدث للجمعية ما حدث لحزب الشعب • وانعقاد المجلس الاداري ، الذي نقدم اليوم محضر جلسته ، يعد خطوة في هذه الطريق • حقا ان أعضاء جمعية العلماء ، ولا سيما الجيل القديم منهم ، كانوا ما يزالون يشعرون بالولاء لبعضهم ، وبالتضامن الديني والعقائدي ، وبنوع من الحذر الأخلاقي ازاء ما يمكن أن يصيب الجمعية في علاقتها مع الشعب الذي كان غالبه ينظر اليهم نظرة احترام ديني وأخلاقي • ولم يكن الحال كذلك مع أعضاء حزب الشعب الجزائري الذين كان العامل السياسي هو المحرك لهم بالدرجة الأولى في علاقتهم مع بعضهم وفي علاقتهم مع الشعب •

وأول ما نلاحظه هو انعقاد المجلس الاداري (أو اللجنة المركزية) في ظروف خاصة ، رغم ان الجلسة كانت معلنة على انها جلسة سنوية عادية •

فالابراهيمي كان متغيبا عن الجزائر منذ سنة 1952 (3) • وكان من المفروض انه ذهب الى فرنسا والمشرق فى جولة لصالح الجمعية ثم يعود لقيادتها فى ظروف صعبة فرضتها حوادث المغرب وتونس وثورة مصر والتوتر الداخلي الذي كانت تعيشه الجزائر منذ فشل العمل « بالدستور الجزائري » • ولكن الابراهيمي لم يعد الى الجزائر • وبدأت الاشاعات تحوم • فمن قائل أنه قرر ادارة الجمعية من الخارج لأنه فى المشرق يجد لصوته وحركته التأييد والدعاية ، ولأنه سيفيدها بذلك أكثر مما يفيدها فى الداخل • ومن قائل انه قد دخل (مكتب المغرب العربي) بالقاهرة وأصبح نشاطه فيه وعلاقته بعبد الكريم الخطابي وأمثاله ستجعل فرنسا تلقي عليه القبض لو رجع الى الجزائر • ومن قائل انه قد دخل ، بتأثير من الفضيل الورتلاني ، فى بعض الجمعيات الاسلامية بالمشرق ، وان بعض هذه الجمعيات كانت ، سياسيا ، مشبوهة فى بلادها ، وانه بدخوله فيها جلب على نفسه نقمة بعض النظم السياسية العربية والاسلامية التي لا تتعايش مع تلك الجمعيات • بل ان هناك من قال عندئذ ان الابراهيمي قد « عاد الى أصله » فاستمرأ الحياة الشرقية وجعل مكتب جمعية العلماء ملتقى زعماء الحركات السياسية والدينية والأدبية فى العالم العربي والاسلامي • وبذلك ابتعد عن واقع الجزائر ابتعاد مصالي الحاج ، مع اصرار كليهما على قيادة حركته من المنفى أو من الخارج • ومن الذين صرحوا لي شخصيا بمؤاخذة الابراهيمي على بقائه فى المشرق واهماله شؤون الجمعية المرحوم العربي التبسي ، النائب الأول لرئيس جمعية العلماء (4) •

والعربي التبسي ، رغم تدينه واخلاصه لفكرة جمعية العلماء ، لم يكن محل تقدير كل أعضاء الجمعية • فقد كان شديد الغيرة على اختصاصاته وشديد الحساسية لشخصه • ولم يكن يتمتع لا بأدب الابراهيمي ولا بدبلوماسية خير الدين • وكان له مع الجيل القديم للجمعية حرمة لاخلاصه وتفانيه وتدينه ، ولكن الجمعية قد دخلها جيل جديد من الشبان المتفتحين

3 ــ كتبت هذا التمهيد وأنا خارج الجزائر فلم أتمكن من مراجعة التواريخ وضبطها •

4 ــ لدي منه رسالتان في هذا المعنى وسأنشرهما ان شاء الله في وقت لاحق •

العصريين فكان التبسي لا يقنع أكثرهم لقيادتها • وكانوا يرون فيه « شيخا » فوضويا فى عمله ، مع شيء من الغفلة والدروشة فى تصرفه • ذلك ان اتساع رقعة عمل الجمعية وتشابك القضايا التي أصبحت تعالجها ، سياسيا وتربويا واجتماعيا ، لم يعد يكفيها الرجل المخلص المتدين فقط • وفى هذه الأثناء (سنة 1954) سافر التبسي أيضا لأداء فريضة الحج والتجول فى المشرق ولقاء الابراهيمي ، كما سافر لنفس الغرض أحمد بوشمال أحد أعضاء الجمعية العاملين غير الظاهرين • وهكذا أصبح أربعة رجال من قادة الجمعية في المشرق ، وهم الابراهيمي ، والورتلاني، والتبسي ، وبوشمال ، كل ذلك والجزائر تعيش فى الظروف الصعبة التي أشرنا اليها •

وبذلك خلا الجو لنائب الرئيس الثاني ، وهو محمد خير الدين ، لقيادة الجمعية • والظاهر ان خير الدين ، الذي لم يكن يصرح بنواياه وخططه ، قد شعر بأن الجمعية سيصلها الانقسام والفشل اذا لم يتداركها رجالها المخلصون بعملية حقن دم واجراء تعديلات واصلاحات فى نظمها وهياكلها • وقد استجابت هذه الخطة لتساؤل الكثير من أعضاء الجمعية عن مصيرها ، ولا سيما الشبان ، اذا لم تجر عملية لانقاذها • وأمام تغيب الابراهيمي الذي طال ، وتغيب التبسي الذي كان فرصة لتفادي المواجهة بينه وبين زميله من جهة وبينه وبين الجيل الجديد من أعضاء الجمعية من جهة أخرى ، قام خير الدين فى السنة المذكورة بما أسماه بعضهم عندئذ « بانقلاب » داخل الجمعية • فعلى خلاف عادته قام بجولات فى أنحاء القطر يخطب ويعظ ويزور ويتفقد ويفتتح المؤسسات ، ثم توج كل ذلك بدعوة المجلس الاداري للجمعية للانعقاد أواخر سبتمبر فى غياب الرئيس ونائبه الأول ، وفى غياب عشرة أعضاء من أصل سبعة وعشرين عضوا (5) • ونلاحظ من الوثيقة انه رغم التعديلات الجذرية التي أدخلها المجلس الاداري على هياكل الجمعية فانه لم يضف أعضاء جددا من الشبان الذين كانوا يشكون من احتكار الرعيل الأول لشؤون الجمعية ، مكتفيا بالدعوة العاجلة والملحة لعقد الاجتماع العام وصياغة دستور جديد للجمعية •

5 ـ لاحظ من الوثيقة أن الغائبين عن الاجتماع كانوا بأعذار ما عدا أربعة .

ونلاحظ من الوثيقة أيضا مدى التوتر الذي كان سائدا عندئذ والذي أشرنا الى بعضه (مع ملاحظة ان الوثيقة لا تمثل سوى خلاصة المحضر) . من ذلك تألم المجتمعين « الألم العميق من حديث الافك » المنقول الى الابراهيمي من الشيخين (6) ، وتذمر المجتمعين أيضا « التذمر المر عن اشاعات ومفتريات » جاءت فى تقرير الابراهيمي . ومن ذلك « مطالبة الرئيس ... باعطاء بيانات عن هذه الاشاعات الكاذبة ... وعن ناقليها ، بالتدقيق ، ومع بيان سائر الأسماء ليتخذ المجلس موقفه من محاكمة هؤلاء الكاذبين ... » والنص على « وجوب » رجوع الابراهيمي الى الجزائر . ونلاحظ أيضا من صيغة المحضر الاتجاه الى التشدد والصرامة من المجلس. فبالاضافة الى وقف الجيلالي الفارسي عن العمل تقرر تكليف المكتب الدائم (الهيئة العليا للجمعية) « بارسال لوم وتوبيخ الى المقصرين من أعضاء الجمعية » ، مع ملاحظة ترداد عبارة التأديب والمحاكمة والمراقبة ونحوها فى المحضر . وعلى كل حال فان التركيز على ضرورة عقد الاجتماع العام وصياغة قانون أساسي جديد ومطالبة الابراهيمي بالعودة والطعن فى بعض ما جاء في تقريره واعادة تنظيم هياكل الجمعية — كل ذلك بداية ثورة داخل الجمعية قام بها الجناح الشاب بزعامة محمد خير الدين . وهذا الوضع هو الذي جعلنا نشير الى المقارنة بين ما وقع فى حزب الشعب وما وقع فى جمعية العلماء من تحولات داخلية .

وعلى المستوى الشخصي نلاحظ عدم الاشارة الى قيام الابراهيمي بأي عمل فى نطاق الجمعية ، ما عدا تسميته من بين المقترحين لصياغة القانون الأساسي الجديد . وكان من المفروض أن شيد رئيس الجلسة بدور الابراهيمي لصالح جمعية العلماء فى المشرق وتحيته على مواقفه ، كما جرت العادة ، ولكن ذلك لم يشر اليه المحضر الذي ننشره اليوم الا اشارة عابرة . وكان التقرير الذي بعث به الابراهيمي حول البعثات مثار تعليقات أيضا ، لأن الابراهيمي ، ربما بتدخل من الفضيل الورتلاني (7) ، حاول

6 — الغالب أن المقصود بهما العربي التبسي واحمد بوشمال .

توجيه البعثات توجيها دينيا عقائديا تحت رعاية بعض الجمعيات والمنظمات الاسلامية الشرقية التي تتعاطف مع جمعية العلماء ، بينما نظام تعليم جمعية العلماء فى الجزائر كان يسير على قاعدة دينية علمانية أو على الأقل كان لا يخضع لعقيدة اسلامية بعينها وانما يتبع أصول تعاليم ابن باديس والطريقة السلفية • وهذا التوجيه الجديد هو الذي سبب توترات فى المشرق بين طلاب البعثات ورئيس الجمعية (الظاهر أن ذلك كان أيضا بتصرف من الورتلاني) • وكان لهذه التوترات صداها فى الجزائر أيضا • ومن جهة أخرى نلاحظ أن المحضر قد أشار الى أن المكتب الدائم هو الذي يتولى العلاقات الخارجية ، بما فيهلم من اتصال بالجمعيات الاسلامية الكبرى ، وتوحيد الحركة الاسلامية • ولم يشر فى هذا الصدد الى دور الابراهيمي الذي ذهب الى المشرق ، كما سبق أن قلنا ، لنفس الغرض •

ونكاد نلاحظ غياب التبسي من ميدان العمل أيضا • فهو لم يذكر فى ذلك الا مرة واحدة ، وهي رئاسته للجنة ادارة معهد ابن باديس • غير أنه ، خلافا لرؤساء جميع اللجان الأخرى ، نص هناك بأن رئاسة اللجنة يتولاها أيضا نائبه ، محمد خير الدين ، فى حالة غيابه ، وتكون قرارتها « نافذة حالا بمجرد اتخاذها ، أيا كان الرئيس • » وفى ذلك اشارة الى أن العمل فى المعهد لا يتوقف على حضور التبسي • كما نلاحظ عدم تكليف الفضيل الورتلاني بأي عمل ، ما عدا المشاركة فى صياغة القانون الأساسي المقترح • وفى ذلك دعوة غير مباشرة له بالعودة أيضا الى الجزائر التي كان قد غادرها منذ أمد بعيد •

ونود أن نلاحظ فى النهاية اهتمام المجتمعين ببعض القضايا المحلية فى التنظيم الجديد • من ذلك اعطاء لجنة الدعاية والتنظيم أهمية خاصة ولا سيما فى تنظيم « حركة الشبان » وفى القيام بالوعظ والارشاد ، وفى مقاومة « خصوم » الجمعية • والتركيز على معهد ابن باديس معنويا وبشريا • والنص على الاتصال بالأحزاب والمنظمات والجهات المسؤولة • ومن جهة أخرى نرى المركزية الادارية تظهر واضحة كجزء من الصرامة والشدة التي تميز بها الاجتماع • ذلك أن كل اللجان (وعددها ست)

كان مقرها العاصمة ما عدا واحدة (لجنة ادارة المعهد) • كما أن أهمية خاصة أعطيت للجنة المالية سواء في ابتكار « الطرق التي تنمي موارد الجمعية علاوة على الميزانية المقررة» أو في تفاصيل توزيع المرتبات وزيادتها • ولا شك أن لجنة التعليم قد حظيت أيضا بأهمية خاصة • ولا غرابة في ذلك ما دام نشر التعليم هو مبدأ أساسي من مبادىء الجمعية • وقد أعطيت لجنة الطبع والنشر أيضا امتيازات وصلاحيات كبيرة رغم نشاطها مع اللجنة المالية •

ولاعتقادنا فى أهمية هذه الوثيقة فى تاريخ الجزائر المعاصر قدمناها للنشر • ولعل غيرنا واجد فيها من الأفكار ما لم نهتد اليه منها •

5 نوفمبر 1978

جامعة ميشيقان (امريكا)

بســم الله الــرحمــن الــرحيــم

ملخص المحضر (*)ومقررات المجلس الاداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بالجزائر أيام 25 ، 26 ، 27 ، 28 ، 29 سبتامبر 1954 (1) •

باستدعاء شخصي من الكاتب العام (2) لسائر الشيوخ أعضاء المجلس الاداري (3) ، وباستدعاء عمومي نشر على صحيفة البصائر (4) ، عقد المجلس الاداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين جلسته السنوية العادية بمركز الجمعية (5) أيام 25 ، 26 ، 27 ، 28 ، 29 سبتامبر 1954 تحت رئاسة الشيخ محمد خير الدين ، النائب الثاني للرئاسة •

الحضور ، الشيوخ السادة : محمد خير الدين ، أحمد توفيق المدني ، عبد اللطيف سلطاني ، حمزة بوكوشة ، أحمد حماني ، أحمد سحنون ، العباس بن الشيخ الحسين ، أحمد حسين ، نعيم النعيمي (6) ، باعزيز بن عمر ، علي بن المغربي ، محمد الشبوكي ، المولود النجار ، الهبري المجاوي ، السعيد صالحي ، عبد القادر الياجوري ، محمد الصالح بن عتيق •

الغائبون في سفر ، الشيوخ الســادة : محمد البشير الابراهيمي ، العربي التبسي ، أحمد بوشمال •

المعتذرون ، الشيوخ السادة : عبد الوهاب بن المنصور (مسافر) ، السعيد الزموشي (جريح) •

المتخلفون دون عذر : أبو بكر الأغواطي ، الجيلالي الفارسي ، عبد القادر محداد ، محمد الطاهر الجيجلي •

(*) — أنظر التعاليق في آخر التقرير •

مستقيل : عبد الرحمن اليعلاوي •

على الساعة التاسعة والنصف افتتح الشيخ محمد خير الدين الجلسة بخطاب مسهب عن أعمال الجمعية وآمالها ، وحيى الرئيسين المتغيبين عن الجلسة (7) ، وقال ان أمامنا أعمالا عظيمة يجب أن نتمها فى صبر وحكمة وسداد • ثم أقسم سائر الحاضرين على حفظ أسرار الجلسات •

ثم أعطى الكلمة للكاتب العام فتلى (كذا!) تقريره المفصل عن حالة الجمعية من ناحيتها الأدبية وما قامت به من أعمال فى سائر الميادين خلال السنة وما تريد أن تقوم به خلال السنة المقبلة •

وبعد الانتهاء اقترح الكاتب العام أن يشكل المجلس لجانا تبحث كل لجنة مسألة من المسائل الهامة الموضوعة على بساط البحث ، ثم تقرر فى شأنها قرارا يعرض على المجلس لمناقشته والمصادقة عليه أو رفضه • وبعد مذاكرة فى الموضوع قبلت الفكرة وانتخب المجلس من بين أعضائه هذه اللجان :

اللجنة الأولى : لجنة اطار الموظفين والوظائف فى الجمعية : رئيسها الشيخ السعيد صالحي ـ المقران : حمزة بوكوشة وأحمد حماني ـ الأعضاء الشيوخ : النعيمي ، علي بن المغربي ، المولود النجار ، أحمد حسين •

اللجنة الثانية (تحديد المسؤوليات والاعمال) الرئيس : خير الدين ـ المقرر : محمد الشبوكي ـ أعضاء : عبد القادر الياجوري ، العباس بن الشيخ الحسين ، محمد الصالح بن عتيق ، الهبري المجاوي ، أحمد توفيق المـدني •

اللجنة الثالثة (الطباعة والنشر) رئيس : أحمد توفيق المدني ـ مقرر : باعزيز ـ أعضاء : أحمد سحنون وعبد اللطيف •

ثم اشتغلت كل لجنة بمناقشة المواضيع المعروضة عليها واعتكف على دراستها • وحرر كل مقرر تقريره وعرضه على المجلس • فنوقشت التقارير جملة وتفصيلا مناقشات عميقة ونقح بعضها وقبل بعضها الآخر • وأخيرا صودق عليها فى النص النهائي كما يلي :

المقررات المأخوذة من تقرير لجنة الاطار (الكادر) المصادق عليه

(بعـد المقـدمة) :

1 ـ المعلمـون :

أ ـ يجب أن يكون المعلم فى المعهد محصلا على شهادة العالمية من الزيتونة أو ما يعادلها من القرويين أو معاهد الشرق ، بشرط مباشرة التدريس أو الادارة أو العمل فى سلك جمعية العلماء مدة عامين قبل المناظرة ـ أو محصلا على شهادة التحصيل من الزيتونة أو ما يعادلها • ويشترط فى الأخير أن يكون قد علم أو أدار مدرسة تابعة للجمعية أو عمل فى سلك الجمعية مدة لا تقل عن 4 سنوات • ويشترط فى الجميع أن يكونوا ممن انخرط فى سلك الجمعية من قبل وكافح فى سبيلها مستقيما فى سيرته الدينية والاخلاقية •

ب ـ انما يكون الدخول للتدريس بالمعهد ، بمناظرة بين من توفرت فيهم الشروط السابقة • يعلن عن موادها وتاريخ وقوعها قبل مدة لا تقل عن شهرين •

ج ـ لا يرتقي معلم من درجة الى أعلى منها الا بمناظرة بالشروط السابقة • ولا يرتقي من درجة الا الى التي تليها • ولا يجوز ذلك الا بعد قضاء ثلاثة أعوام فى الرتبة •

د ـ يثبت كل المعلمين الحاليين فى درجته (كذا)المعينة • ولا يطبق عليه ما سبق من اشتراط المناظرة الا من فقد شرط الشهادة العلمية مع سنتين أو التحصيل مع الأربع سنوات ، وثبت قصوره بتقرير من اللجنة العلمية فعندئذ يحال على المناظرة (8) •

2 ـ الـدرجات :

أ ـ يحصل على الدرجة الأولى من سبق له التعليم بالمعهد مدة لا تقل بحال عن ست سنوات وفاز فى مناظرة على أقرانه • ولا تسوغ المشاركة فى المناظرة الا لأهل الدرجة الثانية •

ب ـ الدرجة الثانية ، يحصل عليها من سبق له التعليم بالمعهد مدة لا تقل عن ثلاث سنوات • وفاز فى المناظرة • ويشترط أن يكون من أهل الدرجة الثالثة •

ج ـ الدرجة الثالثة ، يحصل عليها كل من فاز فى منـاظرة التدريس وتوفرت فيه الشروط المبينة فى البند الأول من الفصل الأول •

3 ـ المعـاونون :

أ ـ تستعين ادارة المعهد ـ اذا اضطرت للاستعانة ـ بمن لم يشارك فى مناظرة ، وتوفرت فيه الشروط السابقة ، فى البند 1 من الفصل الأول ولا يجوز بحال أبقاؤه بعد سنتين دون مناظرة ـ وللادارة أن تستغني عنه قبل ذلك متى شاءت •

ب ـ وللادارة أن تستعين فى تعليم بعض الفنون كالرياضيات أو اللغات الأجنبية ، حسب اتفاقات خاصة •

4 ـ الموظفون بالادارات التي تشرف عليها الجمعية مباشرة :

أ ـ لما كان للمعهد هيكل أقرب الى النظام القار تقرر تنظير الموظفين فى غير التدريس بالمدرسين في الطبقات •

ب ـ يسوي بأهل الدرجة الأولى من مدرسي المعهد كل من توفرت فيه شروط المعلم بالمعهد ، من الشيوخ موظفي ادارة المعهد ولجنـة التعليم ، والمركز (9) ، ومحرري البصائر وادارة المطبعـة (10) بشرط أن يكون الموظف قد سبق له الانخراط فى الجمعية والثبات على مبدئها والعمل لها مدة لا تقل عن عشر سنوات ورشحه المجلس الاداري ووافق عليه •

ج ـ المدرسون من الطبقة الأولى فى المعهد حالا ، هم الشيوخ السادة : العباس بن الشيخ الحسين ، عبد القادر الياجوري ، نعيم النعيمي ، أحمد حسين ، عبد الرحمن شيبان ، أحمد حماني ، جغري •

د ـ المدرسون حاليا من الدرجة الثانية فى المعهد هم الشيوخ السادة : أحمد بوروح ، الطاهر السعدي ، محمد الابراهيمي الميلي ، أحمد بن ذياب ، محمد العدوي •

هـ ـ المدرسون من الدرجة الثالثة حاليا هم الشيوخ السادة : محمد الحفناوي ، علي الساسي ، محمد الزاهي •

و ـ المعاونون حاليا هم الشيوخ السادة : سليمان بشنون ، مصطفى بوغابة ، أحمد زوزو •

ز ـ يلحق بمدرسي الدرجة الأولى من المعهد الشيوخ السادة : عبد اللطيف سلطاني ، السعيد صالحي ، أحمد توفيق المدني ، باعزيز بن عمر ، حمزة بوكوشة ، السعيد الزموشي ، محمد الصالح بن عتيق ، علي بن المغربي •

ح ـ يلحق بمدرسي الدرجة الثانية الشيوخ السادة : الحفناوي هالي ، ابراهيم مزهودي ،محمد الصالح رمضان ، أحمد رضا حوحو ، عبد الحفيظ الجنان ، أحمد بوشمال •

5 ـ المرتبـــات :

أ ـ خارج الاطار من حيث المرتبات : الأستاذ الأكبر الرئيس الشيخ محمد البشير الابراهيمي 100 000 فرنك شهريا ، الأستاذ الشيخ محمد العربي التبسي 60 000 فرنك ، الأستاذ الشيخ محمد خير الدين 50 000 فرنك • وتدخل فى هذه المرتبات منحة السكني •

ب ـ الدرجة الأولى ـ مرتبها : 40 000 شهريا مع منحـة السكني 3000 المجموع 43000

ج ـ الدرجة الثانية ـ مرتبها : 35000 شهريا مع منحة السكني 3000 المجموع 38000

د ــ الدرجة الثالثة ــ مرتبها : 000 30 شهريا مع منحة السكني 3000 المجموع 000 33

هـ ــ درجة المعاونين ــ مرتبها : 000 26 شهريا مع منحة السكنى 3000 المجموع 000 29 •

و ــ ويزاد كل من رئيس لجنة الدعاية ورئيس لجنة المالية ، ورئيس لجنة الطبع والنشر مبلغ 000 15 فرنك شهريا على المرتب الأصلي • داخل فيها منحة السكنى •

ز ــ يفوض للمكتب الدائم (11) أن يعطى منحة خاصة لكل شخص يرى وجوب مكافأته عما قام به من عمل عظيم لفائدة الجمعية أو مؤسساتها داخل القطر أو خارجه •

المقررات المأخوذة من لجنة تحديد المسؤوليات والأعمال :

1 ــ تتشكل من أعضاء المجلس الاداري ست لجان ، تختص كل لجنة منها بشعبة من شعب نشاط الجمعية :

وهي أولا : لجنة التعليم ــ ثانيا : الطباعة والنشر ــ ثالثا : المالية ــ رابعا : الدعاية والتنظيم ــ خامسا : **الاتصالات** الخارجية ــ سادسا التأديب والمراقبة • ولا يجوز أن يقع **أي عمل في** الجمعية الا بعد مصادقة اللجنة المختصة **عليه** •

2 ــ وظائف لجنة التعليم :

تباشر هذه اللجنة وضع برامج التعليم والاشراف على تنفيذها • وترشح المفتشين لمصادقة المكتب الدائم حسب الشروط المنصوص عليها في الفصل 3 الموالي • وتباشر تسميات المعلمين والاشراف على مناظراتهم • وتعيين أوقات الراحة والعطل • وبداية السنة الدراسية ونهايتها • وتصادق على الاحتفالات المدرسية وتأذن ــ حسب المناسبة ــ في الاحتفالات المدرسية الغير العادية التي قد تدخل على برنامج الدراسة خلالها ــ وتشرف على اجراء امتحانات الشهادة الابتدائية العربية • وتباشر تهيئة البعثات الى الخارج بالاشتراك مع ادارة المعهد • وتباشر عقد المؤتمرات التعليمية للمعلمين • وتتصل

بهم وبالجمعيات المحلية بواسطة المفتشين والرسائل والمنشورات الدورية ـ وتقوم بالدفاع عن المدارس المحلية والمعلمين والجمعيات المحلية كلما طرأ عليها طارىء من المضايقات والمظالم (12) ، والمشاكل الداخلية ، باحالتها الى المكتب الدائم .

3 ـ يشترط في المفتش نفس الشروط التي تشترط فيمن تقدم لمناظرة التدريس بالمعهد :

انما يزاد على المفتش أن يكون قد باشر التعليم أو الادارة لمدرسة تابعة لجمعية العلماء مدة لا تقل بحال عن ستة أعوام . ويستثني من هذه الشروط كل من باشر التفتيش بالفعل قبل هذا التاريخ بتكليف من لجنة التعليم .

4 ـ وظائف لجنة ادارة المعهد :

تشرف هذه اللجنة على كل ما له علاقة بالمعهد من كتب وبرامج وتعيين ابتداء السنة الدراسية فيه وانتهائها . وتحديد المواسم والعطل واسكان واطعام التلاميذ ـ وتشكل اللجان الفرعية التي تحتاج اليها . وتضع النظم والقوانين اللازمة لتسيير نظام المعهد ـ وترشيح الشيوخ لمناظرة التدريس وترشح الموظفين ـ وتعلن عن شروط المسابقة ـ ولها مطلق النظر فى كل ما له اتصال بتسيير المعهد . والمكتب الدائم هو الذي يملك وحده حق المصادقة على الترشيحات أو رفضها .

5 ـ وظائف لجنة الطبع والنشر :

تباشر ادارة صحف الجمعية وطبع نشرياتها باللسانين ـ وتسيير المطبعة حسب القوانين المتعلقة بنظام الطباعة . وتتولى توظيف العمال ، وعزلهم ، وتعين أجورهم . ولهذه اللجنة عقد الاتفاقات التجارية كالمطبوعات والاعلانات ، وما شاكل ذلك . وعليها شراء ما يلزم للمطبعة من ورق وأدوات مختلفة ، وعليها أن تضع ما تقبضه من مال فى حساب الجمعية الجاري بالبريد . ولها أن تأخذ ما تحتاجه منه من اللجنة المالية . وعليها أن تقدم حساباتها شهريا الى اللجنة المالية .

6 ـ وظائف لجنة الدعاية والتنظيم :

تتولى هذه اللجنة فى صحف الجمعية وغيرها نشر وتحرير المقالات ، والكتب ، والرسائل والنشريات التي تخدم الجمعية ومصالحها فى الداخل والخارج ـ وتتولى تنظيم الشعب ، وتحديد أعمالها ، ومراقبة سيرها ، وتتولى أيضا تنظيم حركة الشبان وتسييرها ، وتنتقي الرجال الأكفاء ذوي المواهب الصالحة لتدريبهم واعدادهم اعدادا خاصا لتحمل أمانة جمعية العلماء ـ وترشح المعتمدين للوعظ والارشاد للموافقة من طرف المجلس الاداري ـ وتراقب الناحية الاخلاقية لكافة المعلمين ورجال الشعب وسائر العناصر الاصلاحية ـ وتكل الحكم فى ذلك الى المكتب الدائم ـ وتتصدى لتوزيع الوعاظ والمرشدين فى شهر رمضان مع وضع برنامج محكم يشتمل على توصيات وتوجيهات تساعد على توحيد موضوعات وأساليب الوعظ لمقاومة خصوم الجمعية ، وتمثيلها فى الاحتفالات والاجتماعات ، وتصلح ذات البين بين الناس •

7 ـ وظائف لجنة المالية :

تتولى ايجاد الوسائل لجمع الميزانية ، وتراقب صرفها دخلا وخرجا ـ وتبتكر الطرق التي تنمي موارد الجمعية علاوة على الميزانية المقررة • وذلك بانشاء مشاريع اقتصادية كنشر وطبع الكتب والكراريس والدفاتر وسائر المواد الكتابية التي تحتاج اليها المدارس ـ وتتصل بالشعب والجمعيات المحلية من الناحية المالية •

8 ـ وظائف لجنة الشؤون الخارجية والمراقبة والتاديب :

تقرر أن تكون هي نفس المكتب الدائم الذي يتولى الاتصال بالرسميين (13) والهيئات والاحزاب والمنظمات والجمعيات الاسلامية الكبرى ، فيما يتعلق بمباديء الجمعية وتحقيق أغراضها • ويتولى مراقبة البعثات (14) ، والسعي فى توحيد الحركة الاسلامية العامة بين سائر أقطار العالم الاسلامي • ويضطلع بمهمة النظر فيما يرفع ويحال اليه من المخالفات التي تصدر عن رجال الجمعية من معلمين وأعضاء

عاملين واداريين ومسؤولين ، وينظر فى قضاياهم ويصدر أحكامه بما يراه صالحا من نقل أو توبيخ أو ايفاف أو عزل .

9 ـ وعلى المكتب الدائم حين نظره فى المخالفات أن يشكل لجنة تتولى بحث حالة المتهم وتبدي رأيها فى محاكمته ان رأت وجوب ذلك .

10 ـ (أ) جميع اللجان المتقدمة مسؤولة لدى المكتب الدائم ، يراقبها ويحاسبها على أعمالها ويوجهها .

(ب) على كل لجنة أن تقدم فى آخر كل شهر الى المكتب الدائم تقريرا مفصلا عن حالتها .

(ج) يراعى فى أعضاء كل لجنة المقدرة الكافية على القيام بما وضعت لـه .

اعضاء اللجان :

1 ـ أعضاء لجنة التعليم هم سائر الذين عينهم المجلس الاداري سنة 1951 ، أما مكتب اللجنة الدائم فيشرف عليه الشيوخ السادة :

ابراهيم مزهودي ، الحفناوي هالي ، محمد الصالح رمضان ، عبد القادر الياجوري ، ورئيس هذه اللجنة هو الشيخ عبد القادر الياجوري .

2 ـ تتركب لجنة ادارة المعهد من الشيوخ : المدير العربي التبسي ـ نائبه : محمد خير الدين ، أحمد حماني ، أحمد حسين ، نعيم النعيمي ـ ويرأسها : المدير ان كان حاضرا بالمعهد . وفي حالة غيابه يرأسها نائبه . وتكون مقررات اللجنة نافذة حالا بمجرد اتخاذها . أيا كان الرئيس .

3 ـ لجنة الطباعة والنشر تتألف من الشيوخ : أحمد توفيق المدني ، باعزيز بن عمر ، أحمد سحنون ، حمزة بوكوشة ، ورئيسها أحمد توفيق المدني .

4 ـ لجنة الدعاية والتنظيم . مؤلفة من الشيوخ السادة : العباس بن الشيخ الحسين ، محمد الصالح بن عتيق ، السعيد صالحي ، السعيد

الزموشي ، محمد الشبوكي ــ ورئيسها هو الشيخ العباس بن الشيخ الحسين •

5 ــ اللجنة المالية تتألف من الشيوخ السادة : عبد اللطيف سلطاني ، أحمد بوشمال ، علي بن المغربي ــ ويرأسها : الشيخ عبد اللطيف •

مراكز اللجان :

1 ــ تكون مراسلة كل لجنة باسم رئيسها المسؤول • ومراكز اللجان هكذا :

2 ــ لجنة التعليم : مركزها جمعية العلماء بالعاصمة •

3 ــ اللجنة المالية : مركزها جمعية العلماء بالعاصمة •

4 ــ لجنة الدعاية : مركزها جمعية العلماء بالعاصمة •

5 ــ لجنة المعهد : دار المعهد بنهج ابن الفقون بقسنطينة •

6 ــ لجنة الطبع والنشر : المطبعة الجديدة • شارع تويليبي رقم 4 بالجزائر •

7 ــ ينقل الى مقر لجنة الطبع والنشر كل ما يتعلق بتحرير البصائر والشاب المسلم (15) • أما ما يتعلق بالمالية فيبقى فى ادارة المركز حيث اللجنة المالية •

مقررات عامة تتعاق بالنظم واللجان وغير ذلك :

1 ــ المديرون والمعلمون المتازون الذين لم يلتحقوا بالاطار (الكادر) يحال أمرهم للمكتب الدائم ، بتفويض من المجلس الاداري ، ليقرر لهم درجة امتياز حسب استحقاقهم •

2 ــ لا تعطى منحة للسكن الا لمن هو ساكن بالأجرة فقط • ولا يأخذها من سكن بمحلات الجمعية ، أو محلات غير مكتراة •

3 ــ تصرف المرتبات الجديدة للمدرسين والمنظرين بهم ، ابتداء من غرة أكتوبر عام 1954 •

4 ـ انتخبت لجنة مشتركة للبحث فى مسألة أعضاء البعثات الجديدة ، لتكون مطابقة تمام المطابقة للشروط التي جاءت فى تقرير الشيخ الأستاذ الرئيس عنها • وتشكيل لجنة البعثات لهذه السنة هكذا :

عن المجلس الاداري : أحمد حماني ، نعيم النعيمي ، أحمد حسين ، عبد اللطيف سلطاني ، العباس ، محمد خير الدين •

وعن لجنة التعليم : عبد القادر الياجوري ، ابراهيم مزهودي ، الحفناوي هالي •

5 ـ تجتمع هذه اللجنة بقسنطينة • وقد أخذ الشيخ خير الدين سائر الأوراق والتقارير وبيانات الرئيس ، معه الى قسنطينة لأجل هذا الغرض •

6 ـ تقرر أن يغادر الشيخ السعيد الزموشي عمالة وهران • وان ينتصب للتدريس فى المعهد •

7 ـ صادق المجلس على مشروع بلاغ عرضه الكاتب العام يتعلق بكفالة أيتام الأصنام (16) • واذن بنشره فى البصائر •

8 ـ عرض الكاتب العام مشروع البيان النهائي الذي يصدره المجلس الاداري والمتعلق بشتى المشاكل التي تحيط بالجمعية أو التي يجب عليها ابداء الرأي فيها • وقد نوقش ذلك البيان فصلا فصلا • وأقره المجلس باجماع ، واذن بنشره فى البصائر (17) •

9 ـ بعد المداولة فى موضوع تعمير المراكز الكبيرة برجال الجمعية ، وهل الأوفق وضع الرجال فى مراكز قارة مع تحديد دائرة لهم ، أو تعيين متجولين فى مناطق معينة يكونون موظفين فى الجمعية ، مباشرة : قرر المجلس الاداري أنه نظرا للتجربة التي لم تكن ايجابية فى مسألة المتجولين ، فان الجمعية قد عدلت عن ذلك النظام • ويكون العمل فى المستقبل باقرار رجال الجمعية فى مراكز كبرى ، مع تحديد مناطق لهم • والاتفاق مع الجمعيات المحلية على أن عمل المعتمد فى الدائرة المحددة شرط أساسي فى تسميته بها •

10 ــ الشيخ محمد الصالح بن عتيق ينتقل من الميلية الى مركز البليدة ، حسب الفصل السالف ، ويستقر فى مركزه الجديد ابتداء من غرة جانفي المقبل 1955 •

11 ــ عندما حلت النكبة بالأصنام ، بادر وفد مؤلف من الشيوخ : أحمد توفيق المدني ، عبد اللطيف ، حمزة ، وممثل لشعبة العاصمة بالذهاب للأصنام لمواساة أهلها ، والسؤال عن رجال الحركة ومعتمديها ومدرسيها • فكان الشيخ الجيلالي الفارسي أول من اقتبله ، وشكره الشكر الحار البليغ ، وطاف معه البلدة ، وزار معه المنكوبين ــ وفى اليوم الموالي زار الأصنام الشيخ محمد خير الدين وقام بعمل الواجب • وتفاوض مع المسؤولين في كيفية توزيع الاغاثات السريعة •

لكن الشيخ الجيلالي الفارسي بعث للمجلس أثناء انعقاده رسالة مضمنة ، فيها شتم وسب الأعضاء الجمعية ، واهانة لرجالها ، وافتراء عليهم • وقد شاهده جماعة من أعضاء المجلس فى العاصمة أثناء انعقاد الجلسات ولم يلتفت للجمعية • وبعد بيانات طويلة فى مواقفه قرر المجلس :

« نظرا لمواقف الشيخ الجيلالي الفارسي السابقة من الجمعية ورجالها • ونظرا للاهانات التي كثيرا ما لحقت الجمعية ورجالها من الافتراء عليهم ، رغم قيامهم بواجبهم في قضية الزلزال منذ اليوم الأول ، ونظرا لتقصيره الفاضح في تمثيل الجمعية أمام منكوبي الزلزال مع رجال الجمعية المحلية ، فالمجلس الاداري يقرر :

1 ــ يوقف الشيخ الجيلالي الفارسي عن كل عمل في دائرة الجمعية ابتداء من يوم التاريخ •

2 ــ يحال على المحاكمة أمام لجنة التأديب في أي فرصة تناسب •

3 ـ نظرا للظروف الحاضرة (18) ، تبقى هذه المقررات سرية في دائرة المجلس • الا اذا حدث منه ما استوجب نشرها • (*)

12 ـ قرر المجلس الاداري تكليف المكتب الدائم بارسال لوم وتوبيخ الى المقصرين من أعضاء الجمعية ، وخصوصا أعضاء المجلس الاداري • كما قرر أن يحيل الى لجنة التأديب كل من اتهم بما يستوجب محاكمته •

13 ـ كل من شملهم اطار «كادر» موظفي جمعية العلماء ، تحت التصرف المطلق لما يقرره المجلس الاداري أو المكتب الدائم • بحيث اذا عين لأحد منهم عمل أو عين له مركز ، وجب أن يقوم به وينتقل اليه • وعلى المجلس أو المكتب ألا يهملا الأعذار الشرعية التي تجب مراعاتها بعد الادلاء بها • واقتناعهما بوجاهتها وأحقيتها •

14 ـ قرر المجلس باجماع أنه يلتزم التزاما شرعيا باحترام سائر مقرراته الحاضرة والدفاع عنها والعمل على تنفيذها والوقوف اجماعيا في وجه كل من يحاول الحد منها أو مقاومتها • أو معارضتها • والمكتب الدائم مكلف بتنفيذها منطوقا ومفهوما • واذا حدث شيء مما لم يمكن للمكتب التغلب عليه فمن واجبه استدعاء المجلس الاداري لجلسة استثنائية (19) •

15 ـ تلى تقرير الأستاذ الرئيس عن البعثات ونظامها • ثم ختمه بتذمر مر عن اشاعات ومفتريات قيلت فيه ونقلها اليه «الشيخان» حسب تعبيره (20) •

فقرر المجلس باجماع :

أ ـ المصادقة على كل ما جاء في التقرير • ووضعه موضع التنفيذ حالا •

(*) ـ وقع هذا الحادث المؤلم مع الشيخ الجليل الأستاذ الجيلالي الفارسي ، أثر زلزال الأصنام الذي أصاب قلوبنا في الصميم ، واستياء الأستاذ الجيلالي مما خاله تقصيرا من الجمعية نحوه .. وبعد كتابة هذا التقرير ، عاد الشيخ الجليل الى مركزه المرموق بالجمعية وعادت القلوب الى الصفاء والوئام القديم ، ولا يزال الشيخ حفظه الله ، عاملا ، مناضلا حتى يومنا هذا في الميدان الاسلامي الصحيح (هذا التعليق اضافة المرحوم الشيخ أحمد توفيق المدني عند نشرنا للتقرير في مجلة التاريخ التي كان يشرف عليها ، وقد أبقينا على تعليقه هنا لفائدته) .

ب ـ تألمه الألم العميق من حديث الافك المنقول للشيخ •

ج ـ مطالبة الرئيس الجليل باعطاء بيانات عن هذه الاشاعات الكاذبة ، وعن المنسوبة اليه ، وعن ناقليها ، بالتدقيق ، مع بيان سائر الأسماء ، ليتخذ المجلس موقفه من محاكمة هؤلاء الكاذبين •

د ـ تبليغ هذا الى حضرة الرئيس الجليل مع سائر مقررات المجلس •

الاجتماع العام :

1 ـ تقرر أن يؤجل عقد الاجتماع العام (21) الذي يحل أجله هذه السنة ، الى ما بعد رجوع الأستاذ الشيخ الرئيس ، الذي يجب أن يتم خلال سنة 54ـ55 قبل موعد الاجتماع العام • والى أن يتم تحرير قانون أساسي جديد يتفق مع اتساع حركة الجمعية وتعدد ميادين نشاطها •

2 ـ تقرر أن يشترك في وضع هذا الدستور الجديد الشيوخ : محمد البشير الابراهيمي ، الفضيل الورتلاني (22) ، أحمد توفيق المدني ، محمد خير الدين (23) • على أن يكون موجودا لعرضه على المجلس الاداري المقبل قبل الاجتماع العام •

3 ـ بما أن الاجتماع العام المقبل يوافق مرور 25 عاما على وجود الجمعية ، فالاجتماع العام يكتسي صبغة مهرجان احتفال عظيم ، ويستحسن وضع كتاب عن الجمعية وجهادها وآثارها خلال ربع قرن ، بتلك المناسبة •

وبخطاب ختامي من نائب الرئيس الشيخ محمد خير الدين ، ختمت اجتماعات الدورة العادية للمجلس الاداري لسنة 1954 • والحمد لله رب العالمين •

الجزائر يوم 2 أكتوبر 1954 .

الكاتب العام لجمعية العلماء

أحمد توفيق المدني (توقيع)

1 ـ لا ندري أين بقي أرشيف جمعية العلماء بعد 1956 . ولعل الشيخ عبد اللطيف سلطاني ، أمين مال الجمعية عندئذ ، له معرفة به .

2 ـ هو أحمد توفيق المدني الآتي ذكره ومحرر هذه الوثيقة .

3 ـ المجلس الاداري هو ما يسمى في بعض التنظيمات الحزبية باللجنة المركزية .

4 ـ هي الجريدة الرسمية للجمعية ، وكانت تصدر أسبوعيا باللغة العربية ، وقد تأسست حوالي سنة 1935 ثم توقفت خلال الحرب العالمية الثانية ، وعادت الى الظهور سنة 1947 ، وقد توقفت نهائيا سنة 1956 .

5 ـ نهج بوميي رقم 12 بحي القصبة .

6 ـ توفى عدد من الشيوخ المذكورين في هذا المحضر ، وما يزال بعضهم على قيد الحياة . وممن توفوا بالاضافة الى الابراهيمي والتبسي ، نعميم النعيمي ، باعزيز بن عمر ، أحمد بوشمال ، أحمد رضا حوحو ، الحفناوي هالي ، ومنهم من استوطن المغرب مثل عبد الوهاب بن منصور .

7 ـ جرت العادة حين يذكر الابراهيمي أن يشاد بمواقفه وأعماله لصالح الجمعية . ولأسباب أشرنا اليها في التمهيد ، وتشير اليها الوثيقة أيضا ، اكتفى هنا بتحيته مع نائبه التبسي .

8 ـ يعتبر انشاء المناظرة لاختيار أساتذة المعهد اصلاح جديد في سير التعليم ، وكان دخول المعهد قبل ذلك بدون مناظرة مما جعل بعضهم عندئذ يشكون من كون العلاقات الشخصية هي التي كانت تلعب دورا في جلب المعلمين الى المعهد ، ولو مع عدم الكفاءة .

9 ـ المقصود مركز جمعية العلماء بالعاصمة المشار الى عنوانه من قبل .

10 ـ هي مطبعة جريدة البصائر ، وقد كانت في باب الواد ، نهج تويليي رقم 4 .

11 ـ هو الهيئة العليا للجمعية ، وهو يوازي في بعض التنظيمات الحزبية المكتب السياسي .

12 ـ المفهوم من عبارة «المضايقات والمظالم» تلك التي تصدر عن السلطات الفرنسية ضد مدارس ورجال الجمعية .

13 ـ لعل المقصود بهم هنا رجال فرنسا في الجزائر ورجال الدولة وأمثالهم في غيرها .

14 ـ بدأت الجمعية ترسل بعثات طلابية من خريجي معهد بن باديس حوالي 1951 . وكان الهدف تكوين معلمين أكفاء في معاهد الشرق العربي ، ولكن بعض التيارات الدينية حاولت بواسطة الفضيل الورتلاني ، احتواء هذه البعثات ، فنفر بعض الطلاب من ذلك وخرجوا تماما عن سلطة الجمعية في المشرق ، وهذه الأمور هي التي يشير اليها فيما بعد تقرير الابراهيمي في هذا المحضر .

15 ـ جريدة دورية تصدر باللغة الفرنسية يحررها أنصار الجمعية في الدوائر الناطقة بغير العربية ، ومعظم كتابها كانوا من الشبان .

16 ـ أصاب مدينة الأصنام سنة 1954 زلزال مهول سبب خسائر كبيرة . وهو الذي تشير بعض الفقرات التالية الى آثاره .

17 ـ لو كنا في الجزائر لحاولنا مقارنة ما جاء في هذا المحضر بما جاء في (البيان) النهائي الذي صدر عن الاجتماع . ونحن نترك الآن ذلك للقارىء الذي يهمه الأمر

18 ـ لا ندري ما المقصود « بالظروف الحاضرة » : هل هي ظروف الجمعية ، أو آثار الزلزال ، أو غيرها .

19 ـ نلاحظ من الفقرات 11، 12، 13، 14 صرامة مواقف المجلس الاداري .

20 ـ الغالب أن المقصود بالشيخين العربي التبسي وأحمد بوشمال ، وما زلنا لا نعرف محتوى الاشاعات والمفتريات وموضوعها ، ولكن الأمر يتعلق بالأوضاع الداخليـة للجمعية ، لأن الفقرة (ج) تشير الى ذلك .

21 ـ لم يحدد موعد للاجتماع العام الذي هو (الجمعية العمومية) . ويبدو أن ذلك كان مرهونا بعودة الابراهيمي وصياغة القانون الأساسي الجديد . ولكن الابراهيمي لم يعد واندلعت الثورة ، وأصبح من الصعب بل من المستحيل عقد اجتماع الجمعية العمومية سنة 1955 ، وهو الأمر الذي زاد في حرج موقف القائمين على جمعية العلماء خلال تلك السنة وما بعدها ، الى حلها سنة 1956 .

22 ـ لاحظ أن هذه هي أول وآخر مرة يشار فيها الى الورتلاني ، ومعنى ذكرها هنا مطالبته هو ايضا بالعودة بعد أن طالت اقامته في المشرق وورط الجمعية في عدد من القضايا لا شك أنها كانت ترغب في البقاء بعيدة عنها .

23 ـ لا يوجد اسم التبسي ضمن المقترحين لاعداد القانون الأساسي الجديد . وهذا يؤكد ابعاده التدريجي من نشاط الجمعية . وقد قيل أنه غضب من مقررات المجلس وحاول الطعن فيها .

سياسة فرنسا نحو الجزائر في القرن 19 م

بحث مقدم الى الأستاذ الدكتور ، أوتو ، ب ، فلانزي O. Flanze
أستاذ التاريخ الأوربي الحديث ـ خصوصا ألمانيا في عهد بسمارك (*) .
مايو ، 1962 .

المحتـــوى :

- تقـــديم .
- مدخــــل .
- سنوات التجربة ، 1830-1848 م .
- من الحكم الذاتي الى الاندماج 1848 - 1900 م .
- عبد القادر والمقاومة الجزائرية .
- سياسة الاستيطان : أسبابها ونتائجها .
- المؤسسات الفرنسية والتقاليد الجزائرية .
- بيبليوغرافية مختارة .

(*) ـ كان البروفيسور (فلانزي) Otto Fflanze قد اعترض على بعض ما جاء في هذا البحث على أساس أنه غير موضوعي ، وبعد راجعت البحث وقدمته اليه مرة ثانية ، ولا أدري الآن هل النسخة التي ترجمت عنها هي الأولى أو الثانية .
(مع ملاحظة أنه ما دام الموضوع قد كتب قبيل استقلال الجزائر وبعد توقيع اتفاقيات ايفيان ، فان روح تلك الفترة بارزة فيه بوضوح) .

تقـــديم :

بينما تبرز الجزائر الآن كدولة مستقلة من جديد ، رأيت من المفيد أن أقوم ببحث يلقي بعض الضوء على العلاقات الفرنسيـــة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر . وللبحث في هذا الموضوع رجعت الى كل ما يمكنني الرجوع اليه من المصادر ، ومع ذلك يجب القول بأن معظم مصادري كانت فرنسية . لقد رجعت الى بعض المصادر الانجليزية ، ولكنها في الواقع لم تلق أضواء جديدة على الموضوع لأنها في أغلب الحالات تعتمد على الوثائق الفرنسية .

ان موضوع « السياسة الفرنسية نحو الجزائر خلال القرن 19 م » موضوع معقد نسبيا لأنه لم يحدث تغيير جذري في هذه السياسة ، سواء من الداخل أو من الخارج ، خلال هذا العهد . ولقد قسمت البحث الى فصول ، كل منها يتعرض لجانب من السياسة الفرنسية في العهد المدروس . فهناك مثلا فصل عن الاستيطان (الاستعمار) وآخر عن المقاومة الجزائرية ، الخ . وكل ذلك كان محاولة مني تقديم مختلف جوانب الصورة للسياسة الفرنسية نحو الجزائر خلال القرن التاسع عشر (19) .

مدخـــــل :

كان للسياسة الفرنسية في الجزائر ، منذ الاحتلال سنة 1830 ، ثلاثة أهداف : الأول صنع الجزائر الفرنسية بكل ما يعنيه ذلك من أبعاد • ثانيا طمس التاريخ والشخصية الجزائرية وازالتهما من الاعتبار • ثالثا قهر أي نوع من أنواع المقاومة التي يمكن أن تزعج أمن فرنسا في الجزائر واستخدام كل الأساليب والوسائل للوصول الى ذلك الهدف •

وهناك مراحل عديدة مرت بها هذه السياسة • ولكن يمكن حصرها في أربع مراحل اذا نظرنا اليها فقط خلال القرن التاسع عشر • أولها المرحلة الممتدة من سنة 1830 الى 1841 والتي في نهايتها قررت فرنسا رسميا أن توطن نفسها في الجزائر بالوسائل العسكرية مستعملة لذلك « كل الوسائل المتاحة » والمرحلة الثانية امتدت من 1841 الى 1852 وأثناءها ألحقت فرنسا الجزائر بها دستوريا وسياسيا ، وبناء على ذلك أصبحت الجزائر ثلاث مقاطعات (ولايات) فرنسية تخضع مباشرة لوزارة الحربية في باريس ، مع استعمال الوسائل الاضطهادية والاستيلاء على أراضي الأهالي بالقوة •

وتمتد المرحلة الثالثة من 1852 الى 1870 أو عهد الامبراطورية الثانية • وخلال هذه المرحلة أوقف نابليون الثالث هجرة الأوربيين الى الجزائر ، وحد من طرق الاستيلاء على أراضي الأهالي بالقوة ، وفكر في انشاء حكم ذاتي في الجزائر تحت اسم « المملكة العربية » المحمية من قبل فرنسا • أما المرحلة الرابعة والأخيرة فتبدأ من هزيمة فرنسا على يد ألمانيا سنة 1871 وتستمر الى سنة 1900 • وقد تميزت هذه المرحلة باحياء « السياسة القديمة » التي عرفتها المرحلتان الأولى والثانية ، وانتهت بانشاء ما سمي « بالميزانية الجزائرية » سنة 1900 أو الاستقلال

المالي للجزائر الذي طالب به المستوطنون (الكولون) الفرنسيون وأصروا عليه لأنه يعطيهم الحق في مراقبة مالية الجزائر مباشرة بدلا من حكومة باريس •

ان أهمية الجزائر لفرنسا أمر لا يحتاج الى توضيح • ويكفي باختصار أن نقول : ان الجزائر كانت أساسية لفرنسا من عدة وجوه • فمن الجزائر وسعت فرنسا نفوذها الاستعماري في افريقيا ، وقد وجدت في الجزائر سوقا واسعة لبضائعها ، ومتنفسا للضغط السكاني ، ومصدرا للمواد الخام ، ويدا عاملة رخيصة ، وميدانا يتدرب فيه جيشها ، ومواقع استراتيجية مطلة على البحر الأبيض من جهة والصحراء الكبرى من جهة أخرى • الى غير ذلك من الأهميات •

وكان الحكام الفرنسيون والضباط الذين مثلوا بلادهم في الجزائر ، كانوا بصفة عامة رجالا غلاة في المحافظة ، وكانوا متعصبين ومحبين للتسلط والهيمنة الامبريالية • وقد حاول بعضهم أن يمارس نوعا من السياسة الليبرالية نحو الأهالي ولكنهم كانوا واقعين تحت ضغوط المستوطنين الفرنسيين الذين رفضوا كل تغيير قد يؤدي الى التنازل للأهالي أو اشراكهم في شؤون الجزائر • ونتيجة لذلك كان على أولئك الحكام الفرنسيين أن يغيروا رأيهم أو يواجهوا العزل من مراكزهم في الحال •

ان الصراع بين المصلحين الذين كانوا يمثلون السلطة الفرنسية وبين المستوطنين الفرنسيين الذين رفضوا أي شكل من أشكال الاصلاح بالنسبة للأهالي لم يتوقف عند نهاية القرن 19 م ، بل انه استمر أثناء القرن 20 أيضا ، وكان هذا الصراع هو الذي أدى في النهاية بالشعب الجزائري الى اعلان الثورة سنة 1954 باعتبارها آخر حل ممكن •

الفصل الأول :

سنوات التجربة أو سياسة لويس فيليب 1830 – 1848

بين الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830) وبداية القرن العشرين ، هناك مراحل مر بها النظام السياسي في فرنسا نفسها • أولها

عهد لويس فيليب الممتد من 1830 الى 1848 • وثانيهما عهد الجمهورية الثانية ونابليون الثالث ، وثالثهما عهد الجمهورية الثالثة • ولا يمكننا دراسة كل هذه العهود وما جرى فيها من تحولات سياسية على يد مختلف الحكومات نحو الجزائر ، وذلك لضيق المجال ، ولذلك فاني سأكتفي بتناول كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث باختصار كبير ، وسأقتصر في هذا الفصل على التعرض لسياسة لويس فيليب نحو الجزائر والتي أسميتها «سنوات التجربة» •

والواقع أنه لا يوجد ما يدل بوضوح على أن الحكومة الفرنسية بين سنوات 1830 و 1848 كانت لها سياسة جلية نحو الجزائر • ذلك أن عدم استقرار النظام في فرنسا نفسها ، ومقاومة الشعب الجزائري المستمرة والخوف من بريطانيا ومن السلطان العثماني ، ومن مشاكل أوربا (مثل ثورات اليونان ، وبولندا ، وبلجيكا ، وايطاليا) كل هذه الأحداث جعلت الحكومة الفرنسية لا تبت برأي واضح في سياستها نحو الجزائر •

ان الشيء الواضح للسياسة الفرنسية في هذا العهد هو : « دع الجيش حرا » وبناء على هذه السياسة فان القائد العام للجيش الفرنسي في الجزائر كانت له السلطة المطلقة في التصرف ، فالجزائر ، من هذه الوجهة ، لم تكن سوى «منطقة عسكرية» أو ميدان حرب ، حيث لا أحد ينازع الجيش سلطاته •

ولا يوجد في هذا العهد سوى تغييرين رئيسيين : الأول قرار الحكومة الفرنسية سنة 1841 القاضي بقهر المقاومة الجزائرية بالقوة والعنف • والثاني القانون الدستوري لسنة 1848 القاضي بالحاق الجزائر بوطن فرنسا • ولكي نوضح سياسه الحكومة الداعية الى هذا التغيير دعني أضيف بعض التفاصيل •

ان الفرنسيين استولوا على الجزائر في 5 يوليو 1830 بعد معارك عنيفة وخسائر في الأرواح من الجانبين (1) • وكان دي بورومون ، وهو وزير الحربية في وزارة دي بولينياك أثناء حكم شارل العاشر ، قد هرب من الجيش الفرنسي أثناء معركة واترلو ، ولكن سرعان ما حصل على عصا المارشالية نتيجة انتصاره في الجزائر • غير أن دي بورومون لم يتمتع بانتصاره طويلا نظرا لتطور الأحداث في كل من الجزائر وفرنسا •

ففي الجزائر طبق دي بورومون طرقا ارهابية ضد سكان مدينة الجزائر وأعطى يدا حرة للجنود الفرنسيين ليعيثوا فسادا في المدينة من 5 يوليو الى 23 منه • وقد كتب السيد فرنسيس بولسكي F. Pulszky مؤلف كتاب (العلم المثلث فوق الأطلس) يقول : « ان الجيش (الفرنسي) بقي في هدوء بجوار مدينة الجزائر الى الثالث والعشرين من يوليو • ان تخريب الحدائق الفاخرة والمغاني (الفيلات) الجميلة من طرف الفرنسيين وقع خلال هذه الفترة ••• لقد تسللت عصابات الفرنسيين الى المغاني التي هجرها سكانها الفزعين وحطموا حتى الجدران آملين أن يجدوا فيها الكنوز المخبأة (2) » •

وبالاضافة الى ذلك ، فان المارشال الفرنسي (دي بورمون) ترك المدينة في حالة فوضى متناهية • فقد حكم بطرد المسؤولين السابقين (في الحكومة الجزائرية) لأنه اعتقد بأنهم كانوا مصدر القلاقل ، وأصبحت المدينة تحت طائلة القرارات العسكرية التي كانت تخضع للتغيير من يوم الى يوم • وقد أضاف بولسكي يقول : « ان البلاد أصبحت في فوضى • فالرسميون السابقون قد طردوا ، وأصبحت قرارات وقواعد الادارة في حالة من الفوضى بعد الاستيلاء على القصبة • (3) »

---

1 ـ لقد كتبت بحثا آخر بعنوان (الجزائر والحملة الفرنسية ، 1830) عالجت فيه الظروف الدولية والوضع الفرنسي الذي قاد الى هذه الحملة . (نشر هذا البحث في كتابنا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، القسم الأول ، ط 2 ، 1982) .

2 ـ بولسكي ، (العلم المثلث فوق الأطلس) ، ص 232 .

3 ـ نفس المصدر ، ص 235 وكلمة (القصبة) تعني الحصن أو القلعة . وقد كانت (القصبة) هي مقر الحكومة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي .

وقد رأى بعض المؤرخين أن الفرنسيين ، في الواقع ، لم يعرفوا ماذا يفعلون بالجزائر بعد استيلائهم عليها • فقد كانوا سيتخلون عنها لولا أن خوفهم من بريطانيا قد جعلهم يحتفظون بها • بل أنهم فكروا حتى في مجلس أوربي ليقرر مستقبل الجزائر ، وذلك بناء على وعد صدر من فرنسا قبل الاستيلاء عليها (4) •

ومهما كان الأمر ، فان الجيش الفرنسي لم يتوقف أبدا عن توسعه في ضواحي مدينة الجزائر • وقد استمر هذا الحال الى أن تغيرت مجريات الحوادث في فرنسا نفسها وصدر « أمر جديد » الى الجيش بالجزائر

ذلك أن (ثورة يوليو) بفرنسا قد أجبرت شارل العاشر ، أكبر ملك رجعي في وقته ، على التنازل ، وجاءت الى العرش «بالمواطن» لويس فيليب • وسرعان ما أصدر الملك الجديد أمر العزل الى المارشال الشهير دي بورمون ، وعين خلفا له ، الجنرال كلوزيل لقيادة الجيش الذي كان يسمى «جيش أفريقيا» وقد طلب المارشال المعزول سفينة حكومية ليغادر بها الجزائر ولكن طلبه رفض ، فلم يجد سوى سفينة نمساوية حملته الى أسبانيا كلاجيء •

وقد أعلن كلوزيل للجيش صعود سيده لويس فيليب الى العرش ، كما أعلن لهم نيته في متابعة المهمة التي كلفه بها • وعندما وصلت أخبار ثورة يوليو الى آذان الجيش في 11 أغسطس أراد « الشرعيون » التوجه الى فرنسا ليحاربوا من أجل الشرعية ، بينما أراد آخرون مواصلة مهمتهم في الجزائر في انتظار تطور الأحداث في فرنسا • وكان الجنود قد تظاهروا وأجبروا المارشال دي بورمون على رفع العلم المثلث ، رمز النظام الجديد ، بدل العلم الأبيض شعار ملوك البربون ، فلم يسعه الا الامتثال •

لقد كانت مدينة الجزائر في حالة سيئة من الفوضى عندما وصلها الجنرال كلوزيل • وكان عليه ، كما تقول المصادر الفرنسية ، أن

---

4 ـ أنظر : كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية) ص 398 . أنظر كذلك : وزارة الخارجية البريطانية (مراسلات واتصالات مع سفير جلالته بباريس) ، ص 18 .

« يهدىء » السكان وأن يواصل مهمته • وما دامت باريس لا تجد وقتا لتضع سياسة واضحة نحو الجزائر ، فانها قد عينت الجنرال كلوزيل ليبذل ما في وسعه بمعرفته ، أو على الأقل ليحافظ على الجزائر في حالة انتظام قبل أن يتدخل البريطانيون • وكان كلوزيل أيضا من رفقاء نابليون الأول • وكان قد تعلم منه كيف يقود جيشا كبيرا ، لا أمام خرائب الامبراطورية الرومانية المقدسة أو أمام طوفان الثلوج بروسيا ، ولكن تحت شمس البحر الأبيض الحارة وسحر افريقية المثير •

فماذا حقق هذا الجنرال في الجزائر ؟ لقد شرع في برنامج تركيز الاستعمار • فقد استولى على حوش (مزرعة) حسين باشا بضواحي المدينة وأضاف اليها أراضي أخرى وأنشأ فيها ما سمي (بالمزرعة النموذجية) • وأنشأ أيضا نوعا من النظام العسكري ، أطلق عليه اسم جيش الزواف (الزواوي) مؤلفا في أغلبه من متطوعي الأهالي وذلك لتوسيع نشاطه العسكري وسلطته في الجزائر • كما أنشأ نوعين آخرين من المجموعات العسكرية ، وهما مجموعة (الصبائحية) أو الفرسان المؤلفة في أغلبها من الأهالي أيضا • والثانية مجموعة (رماة افريقيا) التي كانت خليطا •

وبمساعدة هذه الفرق المختلفة حاول كلوزيل أن يخرج من دائرة مدينة الجزائر الى جبال الأطلس وما وراءها • وبعد محاولات عديدة لعبور الأطلس استطاع هو وجنوده أن يجتازوه وأن يفاخروا بتبجح كبير أنهم أول من اجتاز الأطلس منذ الرومان • وقد حيوا سلسلة هذه الجبال بـ 25 طلقة وأصدروا بيانا بتلك المناسبة يذكرنا ببيانات نابليون الأول • (5)

ولكن هذا الجنرال (كلوزيل) الذي يعود الى العهد النابليوني ، لم يكن في مستوى سيده قوة • لقد أرسل جنوده هنا وهناك محاولا قهر الشعب الجزائري ووضع أسس الحكم الفرسي ، ولكن كان قد منع

---

5 ـ بولسكي ، ص 238 .

من ذلك وأجبر على التقهقر الى مدينة الجزائر • وقد لجأ الى صياغة معاهدة مع باي تونس يسلم بمقتضاها أقليمي وهران وقسنطينة الى أخ هذا الباي • وأرسل كلوزيل هذه المعاهدة الى باريس للموافقة عليها ، ولكن البرلمان الفرنسي (غرفة النواب) رفضت التصديق عليها على أساس أنها ليست في صالح فرنسا (6) •

وسرعان ما استدعى كلوزيل الى باريس للدفاع عن سياسته في الجزائر أمام البرلمان • وحل محله جنرال جديد • لقد كان كلوزيل محبوبا لدى الجيش لأنه أطلق يده ضد الأهالي الجزائريين • كما أن عزله كان محل أسف المستوطنين الفرنسيين لأنه فتح شهيتهم للاستعمار بانشائه (المزرعة النموذجية) وتوزيع الأراضي عليهم مجانا • أما بالنسبة للجزائريين فان عزل كلوزيل كان راحة لهم ، ولو مؤقتا ، لأنه هدم كثيرا من مساجدهم واستولى على أراضيهم وأجبرهم على مغادرة بيوتهم واللجوء الى المناطق الداخلية •

لقد تحدثت هنا مطولا عن كلوزيل لأنه ، وان كان عهده قصيرا (أقل من سنة) ، كان نموذجا للمستعمر الفرنسي في الجزائر • فكان مؤمنا بالاستعمار Colonisation ومعتمدا في ذلك على الجيش لفرض أهدافه • ولم تكن حكومة لويس فيليب مهتمة بما كان يجري في الجزائر • لقد منحت الجيش رخصة كاملة ليفعل ما يشاء فيها • ويرى بعضهم أن الحكومة الفرنسية فعلت ذلك حتى تتخلص من الجيش الذي قد يعكر عليها الامن والاستقرار في فرنسا نفسها • وقد قال السيد بولسكي : « انه من سوء حظ الجزائر أن حكومة لويس فيليب قد أهملت تماما الشؤون الافريقية » (17) •

ومهما كان الأمر فان هذه الحكومة قد عينت ، كما قلنا ، جنرالا آخر ليخلف كلوزيل في الجزائر ، وهو بيرتزين Berthezene وخلال هذا

---

6 – ا ، ر ، دي كار De Card (اتفاقات الجنرال كلوزيل مع باي تونس) ، ص 39 •

7 – بولسكي ، ص 248 •

العهد استمر الحال كما كان ما عدا أن هذا الجنرال كان من الضعف بحيث سمح للجزائريين أن يهاجموه في عقر داره — مقر قيادته — ان هذا الجنرال الضعيف لجأ الى اتفاق مع الجزائريين تدفع فرنسا اليهم بمقتضاه سبعين ألف فرنك للمحافظة على الوضع القائم عندئذ .

ولم يطل عهد الجنرال بيرتزين اذ سرعان ما خلفه الدوق دي روفيقو ، الذي كان أيضا جنرالا في جيش نابليون ثم وزير الشرطة في حكومته . ولكنه تحول بولائه الى مملكة يوليو (لويس فيليب) . وقد جاء دي روفيقو معه الى الجزائر بشيئين ، عندما حل بها في 25 ديسمبر 1831 : الأول الوسائل التعسفية (البوليسية) ، والثاني العقلية الاستعمارية . وسوف أختصر هذا العهد وأذكر فقط التغيرات التي حدثت في فترة هذا الجنرال الجديد . فقد حول الدوق دي روفيقو قصر الصيف وحديقته ، وهما من مؤسسات حكام الجزائر السابقين ، الى مستشفى عسكري . كما أنه استخدم جميع الوسائل لفرض سلطان فرنسا على كل الجزائر .

وخلال هذا العهد كان رئيس الوزراء الفرنسي هو كازمير بيرييه C. Perier ويذكر له أنه أول من أدخل وظيفة جديدة في الجزائر ، وهي وظيفة المتصرف المدني الذي كان من مهمته التراسل مباشرة مع حكومة باريس دون المرور بالقائد العام للجيش في الجزائر . وكان أول من تولى هذه الوظيفة هو السيد بيشون Pichon وقد أصبح هو والدوق دي روفيقو يمثلان السلطة الفرنسية سواء العسكرية أو السياسية .

ولكي يدعم الدوق وضعه ويجعل الجزائريين يفهمون بأنه كان حقا ذات يوم وزيرا للشرطة قام بفرض اجراءات تعسفية ضدهم . فقد قام أولا باجبارهم على دفع ضريبة من الصوف تقدر بـ 5400 CWT وثانيا لجأ الى هدم عدد كبير من أضرحتهم وقبابهم التي كانت في نظرهم محل تقديس . كما حكم على الذين اشتكوا الى حكومة باريس من هذه الأعمال وأمثالها بالطرد من الجزائر .

الفصل الثاني :

من الحكم الذاتي الى الاندماج ــ أو سياسة نابليون الثالث والجمهورية الثالثة

ان تناولي لهذا العهد سيشمل الأربع سنوات التي بقيتها الجمهورية الثانية ، وفترة الامبراطورية الثانية ، ومدة الجمهورية الثالثة الى سنة 1900 • وخلال هذه الفترة الطويلة (أكثر من خمسين سنة) حدثت تغييرات كثيرة في كل من أوربا والجزائر • فمن جهة هناك تصاعد التيار القومي في ايطاليا وألمانيا وبولندا ، وكذلك الصراع من أجل الهيمنة سواء داخل أوربا أو خارجها ، بين زعماء من أمثال نابليون الثالث وبسمارك وكافور وحزب المحافظين البريطاني • وكل هذه التطورات عكست سياسة فرنسا نحو الجزائر خلال هذا العهد • فتصاعد التيار القومي شجع المقاومة الجزائرية ضد الحكم الأجنبي • كما أن ظهور الطبقة الوسطى في فرنسا شجع أصحاب الصناعة والتجارة في فرنسا على المناداة بسياسة الاندماج assimilation في الجزائر • كما أن عددا كبيرا من المعارضين السياسيين والاشتراكيين وأصحاب الآراء المتطرفة من الفرنسيين قد لجأوا الى الجزائر • أما الصراع من أجل الهيمنة في أوروبا وغيرها ، الذي أشرنا اليه ، فقد جعل الجزائر موقعا حيويا لفرنسا لأنها تقدم اليها المواد الخام ، والموقع الاستراتيجي ، وتسهل لها الاستثمارات الرأسمالية ، كما جعلها ملجأ لسكان اضافيين (مثل سكان الالزاس واللورين الذين نقلوا الى الجزائر بعد الحرب مع ألمانيا سنة 1871) •

ومن الصعب جدا تناول كل ما حدث بالتفصيل خلال هذا العهد الطويل (1848 ــ 1900) ، ولذلك سنكتفي بالاشارة الى التغييرات البارزة في وجهة النظر الفرنسية نحو الجزائر • لقد برزت فكرتان أثناء هذا العهد ، وكلتاهما كانت على درجة من الأهمية بالنظر الى الهدف الذي كانت ترمي اليه • الفكرة الأولى هي فكرة دمج المستعمرات (ومنها الجزائر) في البلاد الأم • وهذا يعني القضاء على الخصائص الطبيعية للمستعمرة واستغلال مصادرها البشرية والمادية لفائدة البلاد

الأم • وكان الجمهوريون ، ولا سيما المتطرفون منهم ، هم الذين تبنوا هذه السياسة بعد سنة 1848 • ولكن ظهور نابليون الثالث أوقف هذا التيار • ثم جاءت الجمهورية الثالثة وأحيت هذه الفكرة (الاندماج) وعملت على تطبيقها بشكل كامل • أما الفكرة الثانية وهي التي نادى بها نابليون الثالث ، فتقوم على اعطاء الجزائر حكما ذاتيا تحت الحماية الفرنسية (أنظر ما سيأتي) •

وهناك تغيير رئيسي حصل خلال هذا العهد أيضا ، وهو فصل السلطة المدنية والسلطة العسكرية في الجزائر • فبعد سنة 1871 تضاعف عدد المستوطنين الفرنسيين وشعروا أن السلطة العسكرية التي كانت الممثلة للادارة الفرنسية حتى الى ذلك الحين ، لا تتلاءم مع آمالهم في الحصول على الحرية والتمتع بالحياة الديمقراطيـــة • وقد أصروا على احـــلال السلطة المدنية محل العسكرية • وبعد مناقشات طويلة قررت الحكومة الفرنسية تعيين سلطة مدنية تمثل وزارة الداخلية وليس وزارة الحربية ، كما كان الحال من قبل • ولكن هذه السلطة المدنية الجديدة لم تمتد الى جميع أنحاء الجزائر ، بل أنها لم تشمل سوى المناطق التي كان يعيش فيها المستوطنون بأعداد كبيرة : مثل المدن الرئيسية والسواحل • أما المناطق الأخرى من الجزائر فقد بقيت تحت الحكم العسكري تقريبا الى اندلاع الثورة الوطنية سنة 1954 •

وبالاضافة الى ذلك حدث تغيير آخر سنة 1900 ، وذلك عندما قررت الحكومة الفرنسية ، بعد مطالبات مستمـــرة وتحـــديات من جـــانب المستوطنين الفرنسيين بالجزائر ، فصل ميزانية الجزائر عن بقية الميزانية الفرنسية • ولم يكن لهذا الاجراء ، في الواقع ، أثر بارز على السياسة الفرنسية نحو الأهالي ، ولكنه اجراء أعطى للفرنسيين بالجزائر ميزانية مستقلة لتطوير صناعتهم وتجارتهم ومراقبة مصاريفهم التي جمعوها من ضرائبهم وضرائب الأهالي •

فاذا عدنا الى تطور الأحداث ، وجدنا أن الحكم الفرنسي منذ سنة 1848 قد امتد تقريبا لجميع أنحاء شمال الجزائر ، بما في ذلك مدن وهران وقسنطينة والجزائر • وقد قامت الحكومة الفرنسيـــة بطريقة

تعسفية ، باصدار قانون يجعل الجزائر جزءا لا يتجزأ من بلاد فرنسا • وازداد عدد الجيش من 60 (ستين) ألفا الى 100 (مائة) ألف جندي • وتضخم عدد فرقة اللفيف الأجنبي أيضا • وقد أشرنا الى انشاء فرق أخرى احتياطية من أهالي المناطق المحتلة • كما أن سياسة تشجيع الاستعمار قد استمرت على قدم وساق •

وقد وزعت الحكومة الفرنسية المناشير والكتيبات في أوربا تستحث الناس ، ولا سيما الشعوب اللاتينية ، على الهجرة الى الجزائر ، وكانت تقدم للمهاجرين منهم القروض والامتيازات ، والأراضي مجانا • وكانت سياسة هذا العهد تقوم على مصادرة الأراضي من الأهالي بالقوة واجبارهم على التراجع نحو المناطق الداخلية •

ولم تكن سياسة « الاندماج » التي استعملها الجمهوريون بعد 1848 قد نجحت في جلب الجزائريين لأنها كانت تعني عندهم التخلي عن أحوالهم الشخصية التي تتحكم فيها الشريعة الاسلامية • اذن فان هذه السياسة «الليبرالية» لم تنجح في الجزائر •

وقد جاء نابليون الثالث ، الذي اشتهر في زمنه بتأييد القوميات في أوربا ، ببرنامج جديد للجزائر رغم أن الليبراليين لم يتحمسوا له • ذلك أنه أيد فكرة الحكم الذاتي فيها • ونظرا الى استمرار المقاومة الجزائرية وانشغال نابليون بمناطق أخرى (المكسيك ، القرم ، رومة ، الهند الصينية والراينلاند) ، وتأييده للقوميات ـ أدخل نابليون الى الجزائر هذه السياسة الجديدة التي أود أن ألخصها في النقاط التالية :

1 ـ نقل شؤون الجزائر من المكاتب العسكرية الى أيدي مدنية (سنة 1858) •

2 ـ انشاء ادارة جديدة باسم (وزارة الجزائر والمستعمرات) على أساس أن يقيم الوزير نفسه في الجزائر بعنوان الأمير جيروم نابليون ، النائب Vice-Roi

3 ـ اعطاء الجزائر الحكم الذاتي وذلك بانشاء مملكة عربية فيها •

4 — وقف موجة الهجرة الأوربية الى الجزائر والتوقف عن مصادرة الأراضي الأهلية •

5 — توفير التعليم للأهالي (8) •

تلك هي أهم نقاط برنامج نابليون الثالث • ولعل المهم هنا ليس هو البرنامج نفسه ، ولكن تنفيذه • فماذا اذن كانت النتيجة من هذا البرنامج ؟

والواقع أنه لم تنفذ أية نقطة من هذه النقاط • ذلك أن الأمير جيروم نابليون رفض الاقامة في الجزائر كل الوقت ، وأصر على الاقامة في باريس على الأقل أربعة أشهر في السنة • وهكذا فان (وزارة الجزائر والمستعمرات) اشتغلت بعض الوقت ولكن في باريس وليس في الجزائر• وبالاضافة الى ذلك فان هذه الادارة الجديدة سرعان ما أعيدت الى أيدي العسكريين ابتداء من سنة 1860 ، وذلك في شخص الجنرال بيليسييه Pelissier الذي اشتهر عندئذ بانتصاره في حرب القرم ، وبارتكابه جرائم كثيرة في الجزائر • وقد تبخر حلم المملكة العربية أو منح الجزائر الحكم الذاتي على اثر الحرب الفرنسية الألمانية وهزيمة الجيش الفرنسي عندئذ • وعادت الجمهورية الثالثة الى السياسة القديمة القائمة على الاندماج والاستعمار والمصادرة والقهر الشديد • وقد صدق السيد تومسون في وصفه الجزائر خلال الثمانينات بقوله : « انها لم تعد فقط ميدانا للتدريب بالنسبة للجيش بل أصبحت مخبرا لتجارب السياسة الاستعمارية التي أطلق عليها خطأ ، في عهد لاحق ، اسم الامبريالية » •(9)

ان هذه السياسة التي سارت عليها الجمهورية الثالثة قد استمرت الى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بدون تغييرات جذرية • (10) بالعكس

---

8 — انظر : ج ، رايت wright فرنسا في العصر الحديث ، ص 257 — 258 ، وكذلك ج ، م ، تومسون : لويس نابليون والامبراطورية الثانية ، ص 212 .

9 — تومسون ، ص 212 .

10 — هناك تغيران هامان حدثا في عهد الجمهورية الثالثة : الاول اصدار قانون تجنيس يهود الجزائر والثاني فصل ميزانية الجزائر عن الميزانية العامة لفرنسا ، ولقد سبقت الاشارة الى الأخير .

أن تلك السياسة قد وقع دعمها وتشجيعها بالتوسع الامبريالي في أواخر القرن التاسع عشر ، ولا سيما بعد ظهور ألمانيا ومنافستها لفرنسا في افريقية • وفي فصل لاحق سأتحدث عن هذه السياسة الجديدة في الاستعمار وأهميتها بالنسبة للسياسة الفرنسيه في الجزائر خلال هذا العهد • وقبل ذلك دعني أتحدث عن المقاومة الجزائرية للحكم الفرنسي •

الفصل الثالث :

عبد القادر والمقاومة الجزائرية

ان التغيير الذي حدث في السياسة الفرنسية خلال القرن التاسع عشر قد جاء في أغلب الأحيان نتيجة للمقاومة الوطنية في الجزائر • ولكي نوضح العلاقة بين السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية ، نشير الى أنه من الضروري على القارىء أن يعرف معلومات عن الجانب الآخر من الصورة، ونعني به الشعب الجزائري ، وردود فعلهم خلال الفترة المدروسة ، ولعله من الصعب اعطاء تفاصيل كثيرة عن الشعب الجزائري الآن • فلنكتف اذن بتقديم خطوط عريضة عن المقاومة الجزائرية وعلاقتها بالسياسة الفرنسية خلال العهد المدروس •

ان الحكومة الجزائرية قد استسلمت سنة 1830 بعد خمسة وثلاثين يوما من الحرب ، لكن الشعب استمر في المقاومة الى ما بعد 1880 • لقد كانت المقاومة الجزائرية من أعظم الصراعات الدامية ضد التدخل الأجنبي من أجل الاستقلال الوطني • وكان رمز هذه المقاومة هو الأمير عبد القادر (11) •

---

11 ـ حوله وحول حروبه ضد الفرنسيين ومعاهداته معهم ، أنظر م.ايمريت (الجزائر في عهد عبد القادر) وكذلك م • ل • قاليبير (الجزائر قديما وحديثا) وقد كتب السيد ب • دي سانت فيكتوار ، الذي كان عضوا في الأكاديمية الفرنسية ، عن الأمير عبد القادر قائلا : « ان المرء يشعر بأن هذا الرجل كان مشحونا بالأخيلة العجيبة وبطاقة أعجزته وأعجزت نفسها ، كما يشعر أن روحه كانت تتقد لهيبا يمكنه أن يشعل حربا ويهز أمة كاملة » .

لقد كان هذا الرجل في حوالي أربع وعشرين سنة من عمره عندما هاجم الفرنسيون الجزائر • وسرعان ما برز كزعيم لشعبه وقاد الكفاح ضد الفرنسيين مدة سبعة عشر عاما • ولم يكن من الرجال الرسميين أو كان عضوا في النظام الجزائري السابق ، ولكنه ظهر زعيما سياسيا في الأقليم الغربي للجزائر ونعني به أقليم وهران • ولكي يتعادل مع الفرنسيين ، وقع معهم معاهدات وجهز جيشا بالأسلحة الحديثة التي اشتراها من الفرنسيين ، الذين قبلوا أن يشتري المعدات العسكرية من بلادهم •

وخلال سنة 1834 ، اضطرت فرنسا الى التوقيع معه على معاهدة اعترفت له فيها بحقه في انشاء امبراطورية جزائرية تضم أقليم وهران والصحراء والوسط — ما عدا مدينة الجزائر — وهذه المعاهدة تسمى معاهدة ديميشال (12) • وفي سنة 1837 وقع مع الجنرال بيجو نفسه معاهدة أخرى تعرف بمعاهدة التافنة ، وبناء عليها فان الأمير حصل لبلاده على قوة أكثر وسمعة أعلى مما سبق (13) •

كانت الجزائر بعد سقوط الحكومة المركزية مقسمة اداريا الى هذه الأقاليم :

1 — اقليم قسنطينة تحت حكم الحاج أحمد باي •

2 — اقليم وهران تحت زعامة الأمير عبد القادر •

3 — المناطق الصحراوية الواقعة جنوب الأطلس والتي كانت تخضع لقيادات ورؤساء عديدين كانوا بدورهم موالين للسلطة المركزية •

4 — أقليم التيطري الذي أعطى حسب معاهدة ديميشال ، الى الأمير عبد القادر •

12 — نفس المصدر •

13 — وحول اللقاء الهام الذي جرى بين الأمير وبيجو ، أنظر : بولسكي (العلم المثلث فوق الأطلس) ص 291—299 •

ولكي يحصل الأمير على ولاء جميع الشعب الجزائري ، قام باتصالات مع جميع الزعماء السياسيين وحصل على ولائهم جميعا ما عـدا باي قسنطينة الذي كان يغار من الأمير والذي اعتقد أنه يسكنه محـاربة الفرنسيين وحده • وعندما قررت فرنسا سنة 1841 أن تستعمل «جميع الوسائل» لقهر المقاومة الجزائرية ، كان الأمير قد وصل الى قمة قوته وسمعته • ولكنه كان محاطا من جهة الشرق بالجيش الفرنسي ، ومن جهة الغرب بالجيش المراكشي ، كما كان محاصرا من الشمال بالبحـر الأبيض (الذي كان تحت نظر الأسطول الفرنسي) ومن جهة الجنوب بالصحراء الكبرى • لقد كان وضعه سيئا للغاية • وكان أغلب رجاله قد وقعوا في الأسر أو قتلوا على أيدي الفرنسيين والمراكشيين • فلم يسعه عندئذ الا الاستسلام للجنرال لاموريسيير Lamorcière سنة 1847 • وقد حمل الى فرنسا ، رغم أن الفرنسيين وعدوه بأخذه الى الاسكندرية ، كما كان قد طلب • فلما جاء لويس نابليون ، الذي كان هو نفسه قد ذاق مرارة السجن ، الى السلطة أطلق سراح الأمير عبد القادر سنة 1853 ، فذهب الى بروسة ثم الى دمشق حيث توفي سنة 1883 م •

ولكن استسلام الأمير لم ينه المقاومة الجزائرية • حقا لقد أصبحت أضعف مما كانت عليه وأقل تنظيما ، ولكنها أبقت الفرنسيين في حالة ذعر يضاعفون من قواتهم في الجزائر ويصرفون الأموال • وليس من غرضي هنا ذكر جميع الانتفاضات التي حدثت ولا ذكر جميع اجراءات القهر التي اتخذت ضدها ، غير أني سأذكر انتفاضتين منها حدثتا خلال القرن التاسع عشر وكانت لهما عواقب هامة•الأولى انتفاضة أولاد سيدي الشيخ التي حدثت سنة 1864 • لقد استفز الجيش الفرنسي هـؤلاء القوم • ورغم أن عددا من زعمائهم قد قتلوا خلال عدد من المعارك ضد الفرنسيين فان أولاد سيدي الشيخ كانوا هم المنتصرين الى سنة 1884 (14) • وتبدو أهمية هذه الانتفاضة أن نابليون الثالث قد زار

---

14 ـ انظر : بروكلمان ، ص 401 •

الجزائر على اثرها وعاد من رحلته بفكرته القائلة بانشاء مملكة عربية في الجزائر أو ما يمكن تسميته بالحكم الذاتي •

أما الانتفاضة الثانية التي أرغب في ذكرها هنا فهي انتفاضة سنة 1871 • ففي هذه الأثناء كانت فرنسا قد انهزمت عسكريا على يد ألمانيا (بروسيا) وتحول نظامها الى نظام جمهوري • ان تلك الهزيمة وهذا التحول كانا علامة ضعف في نظر الجزائريين • ولذلك شعروا بوجود فرصة لحمل السلاح من جديد واخراج الفرنسيين من بلادهم واستعادة حريتهم • ان هذه الانتفاضة قد استغرقت قرابة سنتين وأظهرت كيف أن الجزائر التي كان من المفروض فيها أنها واقعة في قبضة الاحتلال الصارم ، كانت ما تزال قادرة على محاربة محتليها • وقد تحدث كارل بروكلمان عن ذلك قائلا : « فخلال فترة قصيرة قامت بلاد القبائل(سكان الأطلس) الممتدة من البحر الى الصحراء بحمل السلاح والظهور في الميدان ، وكان الثوار قد أصبحوا محيطين بمدينة الجزائر نفسها • » (15)

ان أهمية هذه الانتفاضة تبدو أعمق من أخواتها • ذلك أن الفرنسيين قد لجأوا الى مصادرة أراضي أولئك الذين اشتركوا فيها وأجبروهم على دفع ثمن الحرب • لقد أصبح هذا الاجراء تقليدا يسير عليه الفرنسيون ، فكلما حدثت انتفاضة في الجزائر يلجأون الى تلك الطريقة الى أن وقعت ثورة 1954 • وقد كتب السيد بروكلمان عن عواقب ثورة 1871 قائلا : « بعد قهر الانتفاضة نهائيا كان على أهل القبائل أن يدفعوا ثمن الحرب غاليا ، وألغيت سلطاتهم الادارية البلدية(الجماعة) الذاتية ، وكان عليهم أن يتخلوا عما لا يقل عن 453٫000 هكتارا من الأرض ليحل فيها المستوطنون الفرنسيون • » (16)

ولكي أنهي هذا الفصل عن المقاومة الجزائرية يجب أن أقول بأنه بنهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حل الصراع السلمي والسياسي ضد حكم الفرنسيين محل الانتفاضات المسلحة التي أعطت للفرنسيين العذر في اتخاذ اجراءات قهر مشددة •

---

15 — نفس المصدر ، ص 402 .
16 — نفس المصدر .

الفصل الرابع :

سياسة الاستعمار : أسبابها ونتائجها

لقد كان « الاستعمار » من أبرز العوامل التي أدت الى احتلال فرنسا للجزائر • ثم أن المصالح الاستعمارية هي التي كانت وراء تغيير فرنسا لسياستها في الجزائر من مرحلة الى أخرى ، كما أن هذه السياسة هي التي جعلت الجزائريين يثورون من وقت الى آخر تعبيرا عن سخطهم ، بالاضافة الى أن هذه السياسة الاستعمارية هي التي جعلت فرنسا اليوم في مأزق حرج كلما أرادت ايجاد حل للمشكل الجزائري •

ان هناك أسبابا كثيرة للاستعمار ، ولكن من أهمها التوسع الامبريالي ، والسخط السياسي والتخلص من التضخم السكاني ووجود النزاعات الداخلية • ذلك أن فرنسا وجدت في الجزائر ميدانا لجيشها حيث تستطيع منه أن تتحرك في أي اتجاه قد ترغب فيه • كما أنها أرسلت الى الجزائر السياسيين غير المرغوب فيهم والأفراد المحكوم عليهم لكي يستقروا فيها ويجعلوا منها وطنا • وقد وجد أصحاب رؤوس الأموال ، والتجار ، ومحتكرو الصناعات في الجزائر مصدرا للمواد الخام وسوقا لبضائعهم ومصنوعاتهم ، ونظرا للنزاع بين ألمانيا وفرنسا فان الأخيرة حملت لاجئيها من الالزاس واللورين الى الجزائر حيث يعملون ويستقرون •

ونتائج الاستعمار في الجزائر ذات وجهين ، فمن جهة ساعد الاستعمار على تطوير الاقتصاد الجزائري وتحديث البلاد عموما ، فارتفع مستوى معيشة السكان الأهالي ومستواهم الثقافي واتصالاتهم ونحوها • ومن جهة أخرى لجأ الاستعمار في العادة الى اجراءات رهيبة وتعسفية للوصول الى أهدافه • وسأحاول في الفصل التالي اعطاء بعض التفاصيل عن آثار هذا الاستعمار •

لقد سبق أن ذكرت أن فرنسا وزعت في أوربا المناشير ونحوها عارضة على الأوربيين بمختلف الوسائل الهجرة الى الجزائر • وشجعت على الخصوص هجرة الأوربيين ذوي الأصول اللاتينية كالايطاليين والأسبان

بالاضافة الى أبنائها هي • وكان الناس الذين قبلوا هذا العرض على أشكال : فبعضهم كانوا مجرمين أو سياسيين غير مرغوب فيهم ، وبعضهم كانوا عاطلين عن العمل ، وهناك آخرون جيىء بهم الى الجزائر أثناء فترات الحروب والأزمات ، مثل اللاجئين من الالزاس واللورين أثناء الحرب بين ألمانيا وفرنسا سنة 1870 (17) •

لقد كان في الجزائر عدد كبير من الأوربيين حتى قبل الاحتلال الفرنسي • ففي وهران كان الاسبان قد استوطنوا هناك خلال القرن الثامن عشر • وكان في قسنطينة بعض الايطاليين وفي عنابة بعض المالطيين (18) • وكان طقس الجزائر الشبيه بطقس أوربا قد جذب اليه كثيرا من سكان أوربا ولا سيما سكان ضفاف البحر الأبيض • وكانت مصادر الثروة في الجزائر قد وعدت كثيرا من هؤلاء الناس بمستقبل زاهر في التجارة والزراعة وغيرهما ، وذلك تحت حماية الجنسية الفرنسية • ولكي تجذب فرنسا مهاجرين أكثر وتسهل اليهم طرق الهجرة منحتهم امتيازات حرة وهي المسماة « بالتنازلات المجانية » كما منحتهم رأس المال ونحوه •

وقد اعتاد الفرنسيون أن يقسموا تاريخ الاستعمار الى ما يلي : الاستعمار الخاص ، والاستعمار الرسمي • وهم يعنون بالنوع الأول مبادرة الانسان الأوربي الفردية بالهجرة الى الجزائر وتقديم التسهيلات له من قبل السلطات الفرنسية بعد وصوله • وقد استمر هذا النوع من الاستعمار ابتداء من الناس الذين رافقوا جيش الاحتلال الى سنة 1841، وهو التاريخ الذي أعلنت فيه الحكومة الفرنسية رسميا عزمها على القضاء على أعدائها (الجزائريين) ، وذلك باتلاف محاصيلهم ، والاستيلاء على مواشيهم ، وهدم قراهم ومعسكراتهم •

---

17 ـ خلال عهد لويس فليب ، كثير من الجمهوريين نفوا الى الجزائر ؛ وبعد غلق ما يعرف باسم « المحلات القومية » حل حوالي عشرين ألف مستوطن بالجزائر بمساعدة الحكومة ، وهناك موجة أخرى من الهجرة الفرنسية للجزائر حدثت بعد انقلاب سنة 1852 (استيلاء نابليون الثالث على السلطة) أنظر كتاب رايت ، (فرنسا في العصر الحديث) •

18 ـ أنظر : موريل (الجزائر : فرنسا الافريقية) ، ص 348 ـ 353 •

أما النوع الثاني من الاستعمار ، وهو المسمى بالرسمي ، فقد بدأ بوصول الجنرال بيجو الى الجزائر سنة 1841 واستمر خلال العهد الذي ندرسه (19) • وينقسم هذا العهد الى مراحل طبقا للتغييرات البارزة التي حدثت في السياسة الفرنسية أثناءه سواء في الداخل أو الخارج • ففي المرحلة الممتدة من 1841 الى 1851 أنشأ الفرنسيون مائة وستا وعشرين قرية ، ومنحوا خمسة عشر ألف تنازل مجاني من الأراضي من مجموع مائة وخمسين ألف هكتار • وخلال هذا العهد كان احصاء السكان الأوربيين على هذا النحو :

65ر497 فرنسي •

65ر233 أجانب (غير فرنسيين) •

والمرحلة الثانية من الاستعمار الرسمي استغرقت من 1851 الى 1860 • وخلال هذه المرحلة أنشأ الفرنسيون خمسة وثمانين مركزا استيطانيا ووزعوا مائتين وخمسين (250) ألف هكتار من الأرض • وقد ازداد عدد السكان المهاجرين خلال هذه المرحلة زيادة معتبرة سواء منهم الفرنسيون أو الأجانب ، فأصبحوا على هذا النحو :

103،322 فرنسيون (ويلاحظ زيادة عددهم بعد أن كانوا 65،497 ، فقط) •

76،300 غير فرنسيين (أوربيون) •

وعندما جاء لويس نابليون (نابليون الثالث) افتتح المرحلة الثالثة من الاستعمار الرسمي • فأوقف ، أو بالاحرى خفف الهجرة الى الجزائر ، كما أوقف منح التنازلات المجانية من الأرض • وأدخل سياسة جديدة نحو الأهالي تقوم على الاعتراف لهم بحق الاقامة على أرض أجدادهم التي توارثوها عنهم جماعيا • ويلاحظ ان عدد المهاجرين الفرنسيين خلال هذه المرحلة لم يزدد زيادة ملحوظة ، فكان عددهم قد زاد فقط من 103،322

---

19 ـ لقد توقف بعض الوقت خلال عهد الجمهورية الثانية ، ثم استؤنف بقوة خلال عهد الجمهورية الثالثة

الى 129،898 نسمة ، أما الأجانب (غير الفرنسيين) فلا يلاحظ عليهم الزيادة على العدد المذكور سابقا (وهو 76،300) •

وبعد الحرب الألمانية ـــ الفرنسية سنة 1870 ، والانتفاضة الجزائرية سنة 1871 صادرت الجمهورية الثالثة ما قدره خمسمائة ألف هكتار من الأرض وأجبرت أولئك الذين حملوا السلاح ضد فرنسا على مغادرة أراضيهم • وخلال هذه السنة (1871) أصدرت الجمهورية الجديدة قانونا تمنح بمقتضاه مائة ألف هكتار من الأرض الى المهاجرين الفرنسيين من الألزاس واللورين الذين رفضوا البقاء تحت الاحتلال الألماني • ان هذا العهد اذن قد شهد العودة الى التنازلات الحرة التي عانى منها السكان الجزائريون معاناة كبيرة وخطيرة • ففي سنة 1874 نزلت في الجزائر 877 عائلة فرنسية من الالزاس واللورين • وما دامت هذه العائلات كانت تجهل الوضع بالجزائر ولا تعرف حالة الطقس العام فيها ، فان السلطات الفرنسية قد أعانتها بمختلف أنواع المعونات الاستعمارية على حساب السكان الأهالي • وقد ازداد عدد المستوطنين الفرنسيين خلال هذه المرحلة من 129،898 الى 195،418 نسمة •

وآخر هذه المراحل التي علينا أن نلم بها مرحلة 1880 ـــ 1900 وقد استمرت الحكومة الفرنسية على سياستها القديمة فى منح التنازلات المجانية للمهاجرين واستقبالهم بكل المعونات الأخرى التي تسمح لهم بالاقامة الضرورية • وهكذا انشأت حوالي مائتين وعشرة مراكز استيطانية ، ووزعت حوالي 296•097 هكتارا على المهاجرين • وازدادعددالمستوطنين حتى بلغ 267،672 نسمة •

ويجب أن أنهى هذا الفصل بالقول بأن السلطات الفرنسية بتلك السياسة قد انتهكت كل الحقوق الانسانية من أجل تثبيت القواعد الاستعمارية • ذلك ان فرنسا لم تتورع عن استعمال جميع الطرق الممكنة لاحلال المستوطنين الفرنسيين محل الأهالي ، ولجعل الجزائر بلادا فرنسية ، ولكي تقضي على العناصر الأهلية (20) •

---

20 ـــ عن الاستعمار في الجزائر أنظر : الولاية العامة للجزائر (الاستعمار في الجزائر من 1830 الى 1921) وكذلك ر . دوفرو : (مظاهر الجزائر) ص 159–182 .

ولكن قصة الاستعمار ، كما وصفناها سابقا ، لم تتوقف بسنة 1900 . لقد استمرت بكل وسائلها القهرية الى ثورة 1954 حيث اكتشف الفرنسيون انهم كانوا مخطئين ، ولكن **بعد فوات الأوان** .

الفصل الخامس :

المؤسسات الفرنسية والتقاليد الجزائرية

لعل أول سؤال يخطر على البال هو : ماذا فعلت فرنسا للجزائر ؟ ان أغلب الكتب التي رجعت اليها فى هذا الموضوع تتحدث عن مد الطرق والسكك الحديدية واصلاح الموانيء وبناء المدارس والمؤسسات الخ . ولكن الانسان الذي لا يعرف شيئا عن الجزائر قد يسأل : وهل كانت الجزائر صحراء قبل مجيء الفرنسيين ؟ وهل كان سكانها من القوم الرحل الذين كانوا يعيشون عيشة أهل ما قبل التاريخ ؟ وهل أقدم الفرنسيون على تلك الاصلاحات من أجل أهالي الجزائر أنفسهم ؟ ان جميع هذه الأسئلة قد تطرح عندما يقرأ المرء الكتب الفرنسية عن الجزائر .

ان الجميع يعرفون ان للجزائر ثقافتها ولغتها ودينها وشخصيتها السياسية . وكان لها مدنها ومدارسها وطرقها قبل دخول الفرنسيين اليها . واذن ماذا فعلت فرنسا من جديد ، ومن أجل من ؟ انه من الحق القول ان فرنسا قد أحدثت أشياء جديدة فى الجزائر . فقد جاءت باللغة الفرنسية والذوق والعادات الفرنسية . وبعبارة أخرى انها حاولت أن تغرب الجزائر واعطاءها نكهة فرنسية وخصائص أوربية .

ولكن الجزائر كانت هامة لفرنسا خلال هذه الفترة . فقد وفرت لها اليد العاملة الرخيصة والمواد الخام ، والانتاج الزراعي وموقعا استراتيجيا بالنسبة للبحر الأبيض ولوسط الصحراء في قلب افريقيا . واذن فان فرنسا كانت تبني ما بنت فى الجزائر لنفسها ، من أجل مصالحها الاستعمارية ومن أجل المجموعة الفرنسية فى الجزائر . أما الأهالي فلم يتمتعوا أبدا بهذه المستحدثات لأنهم كانوا معزولين عنها وكانوا مضطهدين اضطهادا شديدا . وقد منع المستوطنون الفرنسيون أي تنازل للأهالي وأي تسامح

نحوهم • وعارضوا الاصلاحات التي شرعها الفرنسيون مثل بناء المدارس للجزائريين أو التمتع بأوضاع سياسية فى البلديات والبرلمان • وقد كتبت السيدة جوان جيلسباي حول هذه النقطة قائلة : « ان هيمنة الأوربيين جعلت الجزائريين المسلمين نوعا من الأقلية ـ الأغلبية فى عقر دارهم وهو ان أغلبية عددية لا تتمتع الا بحق الأقلية المضطهدة » (21) •

حقا ان هناك أشياء كثيرة استحدثت فى ميادين الثقافة والاقتصاد • فبمجرد احتلال الجيش لمدينة الجزائر ، أنشأ الفرنسيون الكنيسة الكاثوليكية • وحولوا بعض المساجد الى كنائس كما انشأوا كنائس جديدة • وانتشرت فى الجزائر ، من وهران غربا الى قسنطينة شرقا ، البعثات التبشيرية لكنيسة روما الكاثوليكية بتأييد قوى من الحكومة الفرنسية ومن البابا فى روما •

وكان لليهود خمسة وعشرون بيعة فى مدينة الجزائر ، وهي البيع التي لا شك انها كانت موجودة قبل الاحتلال • كما كان للكنائس البروتستانتية معبدان فى مدينة الجزائر نفسها •

وقد أولى الفرنسيون اهتماما خاصا بتجفيف المستنقعات ومد الطرق والبحث عن مصادر الماء • كما شغلوا أنفسهم بانشاء المجالس القضائية ومحاكم الاستئناف والسجون والمستشفيات العسكرية والمدارس لأطفالهم هم • واهتموا أيضا بفتح المتاحف والمكتبات وتوفير الكتب والمطبوعات • وقد أنشأت السلطات الفرنسية فى الجزائر صحيفتين واحدة بالعربية باسم (المبشر) ، وأخرى بالفرنسية باسم (مونيتور الجزائر) التي تحولت الى جريدة (الأخبار) (22) •

---

21 ـ انظر : ج • جيلسباي (الجزائر : تمرد وثورة) ص 5 •

22 ـ ان المنشآت الفرنسية تظهر بشكل أوسع خلال القرن العشرين ، ولا سيما بعد اكتشاف الثروات الطبيعية في البلاد •

ولكن الصدمة التي تلقاها الفرنسيون عند أول اتصالهم بالمجتمع الجزائري ربما كانت صدمة قوية (23) • ذلك أنهم قد اتصلوا بثقافة مختلفة عن ثقافتهم وبمجتمع يختلف عن مجتمعهم • وكان عليهم أن يحاولوا فهم هذه الثقافة والمجتمع • فهل فعلوا ذلك ؟ فاذا عدنا الى الحقائق التاريخية التي نعرفها فاننا لا نجد أي اشارة الى أنهم حاولوا ذلك رسميا • غير أن علماءهم وباحثيهم حاولوا أن يفهموا ويترجموا ويصفوا الثقافة الجزائرية (اللغة والمعتقدات والعادات ، الخ •) وقد أحسنوا صنعا فى ذلك ليس فقط من أجل أهل بلادهم بل من أجل الجزائريين أيضا • فهذا الاسكندر دوماس ، الكاتب الفرنسي الشهير فى القرن التاسع عشر سألته حكومته أن يزور الجزائر سنة 1846 • وقد وفرت له حكومة لويس فليب سفينة حربية حاملة للعلم الفرنسي ومنحته حرسا رسميا • ان وزارة التعليم فى ذلك الوقت أرادت من هذه العملية أن تغري دوماس بكتابة رحلة يصف فيها ما أنجزته الحكومة الفرنسية فى الجزائر وأجواء البلاد والفرص التي توفرها للمهاجرين والزائرين الأوروبيين ، كما يبرر الاجراءات العنيفة التي اتخذت ضد الأهالي ، وهي الاجراءات التي كان الجمهوريون والليبراليون عموما فى مختلف أنحاء أوروبا يستنكرونها •

وكان دوماس عند تلقيه الدعوة موجودا فى اسبانيا يكتب رحلته (مغامرات فى اسبانيا) وعند رجوعه من الجزائر الى فرنسا نشر كتابه المشهور (مغامرات فى الجزائر) الذي اعتبر أكثر الكتب رواجا فى تلك السنة • وفي هذا الكتاب وردت العبارات التالية التي تصف بعض الاختلافات بين الفرنسيين والجزائريين • فقد قال عن الجزائريين : « ان دينهم يعد بجنة مثيرة بينما ديننا يعد بجنة روحية • ولا يمكن للانسان الفرنسي الا الزواج من زوجة واحدة فقط ويعاقب القانون على الزنى ، أما المسلم فيمكنه الزواج بأربع زوجات وله أن يأتي بكل الخليلات التي يستطيع جلبهن • ان العربي يمكنه الزواج في أي وقت يشاء ، أما الفرنسي فيؤخر زواجه كلما كان ذلك ممكنا

---

23 ـ كان اتصال فرنسا بالمشرق قديما ، ولا سيما الحملة الفرنسية على مصر ، أما في الجزائر فان الفرنسيين جاؤوا ليعيشوا مع شعب يختلف عنهم كل الاختلاف .

اننا دائما تقريبا محتارون أمام هذا ، ذلك أن العربي ، مهما حدث له ، يرجع كل شيء لارادة الله (24) ••

فكيف واجه الفرنسيون هذا الوضع الذي يبدو لهم متناقضا ؟ لقد كانوا يعلمون أن الدين الاسلامي كان يشل العامل الرئيسي والعنصر الغالب في الثقافة الجزائرية • كما كانوا يعلمون ، مما أخبرهم به علماؤهم المختصون فى الشؤون الاسلامية ، ان الدين الاسلامي كان الدافع وراء كل الانتفاضات التي وقعت فى الجزائر ضد فرنسا ، وانه سيستمر كذلك• ولكي يتفادى الفرنسيون الانتفاضات والثورات والمعارضة السياسية والمعنوية ، عمدوا الى السيطرة على كل المؤسسات الدينية • ولكن هذا الاجراء أثار وغرس سخطا مريرا ضدهم بين رجال الدين الاسلامي في الجزائر •

وقد كتب السيد موريل Morell سنة 1854 قائلا : « منذ الاحتلال الفرنسي لاحظ الفرنسيون ، فى كثير من المدن ، ولاسيما العاصمة ، أن عدد المساجد يفوق الحاجة ، ولذلك حولوا عددا منها الى مستشفيات ، والى مستودعات ، وحتى كنائس كاثوليكية ، وهكذا فانه في مدينة الجزائر وحدها حول الفرنسيون مسجدين ، واحد الى كاتدرائية والآخر الى «نوتردام دي فيكتوار » (25) •

ومن جهة أخرى فان وقع الحضارة الغربية غير كثيرا من مظاهر المجتمع الجزائري • فبالتدرج أخذ الجزائريون يتصلون ويقبلون ، ولاسيما منذ آخر القرن الماضي ، التأثيرات الجديدة الواردة عليهم من هذه الحضارة • وكثير منهم ، مثلا ، اكتشفوا قيمة ماضيهم بحكم اتصالهم بالغرب ، وأظهروا الاستعداد لتقبل الاصلاح ، اذ وجدوا أمامهم نظما مختلفة فى التعليم والادارة والعلاقات (26) •

ولنفرض أن فرنسا كانت قد توصلت الى حل مع الجزائريين قائم على التفاهم ومراعاة المصالح المشتركة • انني على يقين أنها لو فعلت ذلك لتعاون

---

24 ـ الاسكندر دوماس (مغامرات في الجزائر) ، ص 186 •
25 ـ أنظر : موريل (الجزائر أو أفريقية الفرنسية) ، ص 86 •
26 ـ أنظر : ر • لوتورنو (وحدة وتنوع الحضارة الاسلامية) ، ص 238-239 •

الجزائريون معها بعمق وأنشأوا جزائر جديدة تعتمد فى توجهها على الحضارتين الغربية والشرقية معا • ولكن ادعاء التفوق من جانب الفرنسيين وسياسة الاضطهاد الأعمى وفرض الاجراءات الردعية التي لا تعرف الرحمة ـ كلها ساهمت في وجود هذه المأساة (الترجيديا) التي تعاني منها الجزائر اليوم وسوء الحال الذي تعاني منه فرنسا أيضا ، وهو الأمر الذي اعترفت به أخيرا فقط •

تمت الترجمة يوم 24 يوليو ، 1984
بجامعة (ميشيقان) (أمريكا)

SELECTED BIBLIOGRAPHY

1. Gouvernement général de l'Algérie, La colonisation en Algérie 1830-1921, Algérie, 1922.
2. E. R. de Card, Les arrangements par le général Clauzel, Paris, 1927.
3. A. Dumas, Adventures in Algeria, America, 1959.
4. J. Gillespie, Algeria rebellion and revolution, England, 1960.
5. F. Pulsky, The tricolor on the atlas, London, 1854.
6. J. R. Morell, Algeria... of the french Africa, London, 1854.
7. C. Brockelmann, History of the Islamic people, America, 1960.
8. A. Berteuil, L'Algérie française, Paris, 1856.
9. R. Devereux, Aspects of Algeria, London, 1912.
10. A. Berthier, L'Algérie et son passé, Paris, 1951.
11. M. L. Galibert, L'Algérie ancienne et moderne, Paris, 1844
12. M. Emerit, L'Algérie à l'époque d'Abd-El-Kader, Paris, 1951.
13. Mme Prus, A résidence in Algeria, London, 1852.
14. G. Clauzel, Histoire des conquêtes des français en Algérie, Paris, 1846.
15. A. Desjobert, La question d'Alger, Paris, 1837.
16. G. L. Ditson, The crescent and french crusaders, New York, 1858.
17. George W. Cooke, Conquest and colonization in North Africa, London, 1860.
18. G. Wright, France in modern time, London, 1960.
19. A. Guilbert, De la colonisation du Nord de l'Afrique, Paris, 1841.
20. B. Mc Manus, In the Land of mosques and minarets, Boston, 1908.
21. M. Vernon, Sands, palms and minarets, London, 1926.

العثور على النسخة المسروقة من كتاب
(تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر)

1 ـ كيف عثرنا على النسخة ووصفها :

كل من قرأ النسخة المطبوعة من كتاب (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر) (1) يذكر ان المؤلف محمد باشا بن الأمير عبد القادر ، كتب فى مقدمتها ما يلي : « ولما فرغت من ترتيبه ... وسميته (تحفة الزائر ...) فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا ... ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد ، لجمع ما تفرق من المواد ، بعد أن فقد منها الأكثر ... فجاء بحمد الله مطابقا الأصل ... » (2)

ومنذ قرأت أنا تلك العبارات ، حوالي عشرين سنة خلت ، وسؤال يلح علي وهو : أين النسخة المسروقة من هذا الكتاب ، وهي النسخة التي سماها المؤلف (الأصل) ؟ فالأشياء المسروقة عادة لا تعدم ، بالضرورة ولكنها تنتقل من يد الى يد ومن مكان الى آخر . ولم يكن السؤال : من سرقها ؟ أو لماذا سرقت ؟ قضية هامة عندئذ . كما ان الفرق الذي قد يكون بين النسخة الأصل والنسخة الفرع لم يكن مهما أيضا . أما القضية الملحة فى نظري فكانت البحث عن مكان تلك النسخة التي ادعى المؤلف انها سرقت منه بعد الانتهاء منها .

---

1 ـ طبع مرتان : الأولى سنة 1903 بالمطبعة الأهلية (؟) بالاسكندرية (مصر) ، والثانية بمطبعة دار اليقظة ، بيروت سنة 1964 ، وقد عدنا في هذه المقالة الى الطبعة الأولى .

2 ـ من مقدمة الطبعة الأولى من كتاب (تحفة الزائر) .

وقد استمر بحثي عنها فى كل المظان الممكنة : دمشق والاسكندرية واسطانبول وباريس ، وهي البلدان التي تردد عليها المؤلف والتي يوجد فيها من يهمه موضوع الكتاب • وكانت النتائج دائما مخيبة للأمل ، ولكن اليأس لم يتطرق الى البال • وزاد من حماسي للبحث ان الطبعة الثانية للكتاب التي صدرت بعناية الدكتور ممدوح حقي لم تقدم نقدا ما لقضية النسخة المسروقة ، رغم أن المحقق كان قريبا من بيئة المؤلف وقريبا من أسرته الموزعة بين سوريا واسطانبول • (3)

وفى زيارتي الى اسطانبول بتاريخ أغسطس 1970 ، تمكنت من الاطلاع على نسخة مخطوطة من كتاب (تحفة الزائر •••) فى احدى مكتبات اسطانبول • وكان عنوانها هناك (تاريخ الأمير عبد القادر) وقد بادرت الى تصفحها وقراءة مقدمتها ، فاذا هناك فرق بين ما سبقت لي معرفته عن النسخة المطبوعة وهذه • وأول ما لاحظته من فروق بين النسختين هو ان المخطوطة ليس فيها عبارة ، فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا ••• الخ ••• كما ان المخطوطة احتوت على اهداء طويل الذيل الى السلطان عبد الحميد الثاني ، وهو شيء خلت منه النسخة المطبوعة • ثم أخذت ألاحظ بقية الفروق بين النسختين لا على سبيل التحقيق والمقارنة الدقيقة ولكن على سبيل الفضول لان الوقت والظرف لا يسمحان بذلك عندئذ • ولكني سجلت بداية النسخة المخطوطة ونهايتها وبعض الملاحظات على خطها وشكلها ، ودونت كذلك رقمها ، ونويت تصويرها لعقد مقارنة بينها وبين المطبوعة عندما يكون هناك متسع من الوقت • ولكن تمويل التصوير عندئذ كان يعوزني (والمخطوطة فى ألف صفحة) •

واليك ما كتبت فى كناشي عندما رأيت النسخة المخطوطة من هذا الكتاب لأول مرة باسطانبول : (تاريخ الأمير عبد القادر) ، جزآن منفصلان • مخطوط بخط نسخي جميل ، مذهب ومجلد • أهداه المؤلف الى السلطان

3 ــ صدرت الطبعة الثانية بتحقيق الدكتور ممدوح حقي ، سنة 1964 ، وكان يبدو على التحقيق ، رغم حسن النية ، الارتجال الواضح والعمل التجاري وخدمة بعض افراد أسرة الامير عبد القادر أكثر من الخدمة العلمية ، وقد اكتفى الدكتور حقي بقوله عن النسخة المسروقة : « ولو وقع في أيدينا الكتاب الأول لرأينا فيه خيرا كثيرا » ص 2 •

عبد الحميد الثاني • فرغ منه سنة 1307 هـ ، 1890 م • لا يذكر المؤلف في المقدمة انه سرق منه • في الجزء الأول قصيدة منفصلة لمحمد الشاذلي القسنطيني ، أولها :

أيا ذاهبا نحو الخليفة بلغن سلاما •••

وهو يحمل رقم 4788 ، مكتبة الحاج محمود أفندي بالمكتبة السليمانية باسطانبول • ويحتوي الكتاب أيضا على عدة وثائق منفصلة ، منهـا واحدة في « ذكر هيأة المعسكر وترتيبه في السفر » وهي بخط رقعي مغاير للأصل • أول الجزء الأول « الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علما ، وأنفذ في كل مخلوق قضاء أزليا وحكما ••• « ويقع الجزء الأول في 498 صفحة ، والثاني في 503 صفحة » ، انتهى من كناشي المؤرخ سنة 1970 ، اسطانبول •

ولما رجعت الى الجزائر ، طلبت من مكتبة الجامعة تصوير المخطوط على حسابي ، وأعطيتها الرقم والمعلومات الاضافية • ووقعت المراسلة بينها وبين المكتبة التركية ، ولكن هذه المكتبة لجأت الى ما يمكن أن نسميه (بالشانتاج) ، فاشترطت لتصوير المخطوطة ، المبادلة بنسخة من كتاب الدكتور محمد بن أبي شنب عن مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بالجزائر ، وقد وفت مكتبة جامعة الجزائر بالشرط ، وجاءت النسخة المخطوطة من كتاب (تحفة الزائر) على الميكروفيلم • ورغم ان النسخة كما رأيتها وكما سأذكر ، جيدة وكاملة ، فان تصويرها جاء ناقصا ومشوها في بعض الحالات • ثم انشغلت عنها بعض الوقت باعداد كتابي تاريـخ الجزائر الثقافي ، الى أن حانت صدفة رويت فيها ما حدث لي مع هذه النسخة للدكتور عبد الجليل التميمي فأخبرني انه يملك هو أيضا صورة من نفس النسخة على الميكروفيلم وأرسل الي مشكورا نسخته لتدارك النقص وهذا ما تم فعلا • (4)

---

4 ـ تجمدت العناية بتحفة الزائر والتعريف بالنسخة المفقودة منه لانشغالي بمشروع (تاريخ الجزائر الثقافي) ، الذي صدر منه حتى الآن جزآن (الجزائر ، 1981) ولكن تنظيم جامعة الجزائر لسلسلة من المحاضرات بمناسبة الذكرى المائوية لوفاة الأمير عبد القادر جعلتني أساهم فيها بمحاضرة بعنوان (عن النسخة الأصلية من كتاب تحفة الزائر ؟) يوم 4 مايو 1983 ، ومن الخطوط العريضة لهذه المحاضر كتبت هذه المقالة ،

2 ـ حياة المؤلف :

ليس من غرضنا هنا التوسع فى الحديث عن عائلة الأمير عبد القادر بالمشرق واستيطانها بلاد الشام وظروفها وعلاقاتها ، لأن ذلك يخرجنا عن موضوعنا المحدد ، ولأن هناك مصادر أخرى تحدثت عن ذلك ، ومنها كتاب (تحفة الزائر) نفسه • ويكفي هنا أن نذكر بعض المعلومات عن مؤلف هذا الكتاب لعل ذلك يساعدنا على معرفة ظروف نسخته الضائعة ويلقي الأضواء على « سارقها » والهدف من أخذها منه ، وظروف تأليف النسخة الأولى (الأصلية) والثانية (الفرعية) •

ولد محمد لوالده عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن المختار ، فى القيطنة بالجزائر عام 1840 م (1256 هـ) (5) • والقيطنة هي مسقط رأس والده أيضا ، وهي تقع على وادي الحمام ، غير بعيد من مدينة معسكر اليوم (أو أم العساكر) ، عاصمة دولة الأمير عبد القادر• وكان محمد أكبر أبناء الأمير عبد القادر من زوجه ، ابنة عمه ، خيرة • وقد عاش محمد طفولة مضطربة حقا • فقد ولد أثناء تصاعد الكفاح بين الجزائريين بقيادة والده ، وبين الفرنسيين • ففي آخر سنة 1839 استئنفت الحرب بين الأمير والجيش الفرنسي ، بعد معاهدة التافنة التي كانت عبارة عن هدنة • وفي 1841 ، جاء الجنرال بوجو المشهور الى الجزائر وعنده صلاحيات مطلقة لمحاربة الأمير في كل مكان وبكل الوسائل، وهي الحرب التي استمرت الى سنة 1847 ، تاريخ هزيمة الأمير وأخذه أسيرا الى فرنسا • اذن لقد عاش محمد ثماني سنوات من الحرب الضروس

---

5 ـ يقول صاحب (الاعلام) 82/7 ، « ولعله ولد بدمشق » وهو خطأ واضح ، ولا توجد دراسة وافية عن حياة الأمير محمد ، التي ما تزال يكتنفها الغموض رغم قربها ووجود بعض أحفاده ، وأقاربه بيننا ويمكن حصر مصادره في : الاعلام للزركلي 82/7 ، وبروكلمان (الذيل) ، 887/2 ، ومعجم المطبوعات لسركيس ص 694 ، وتآليفه هو الخاصة ، اذ فيها سياقة لأحداث حياته في الطفولة والشباب وقد ذكر صاحب (الاعلام) أن في مذكرات أحمد عبيد أخبارا عنه ، ولكننا لم نطلع عليها . وهناك أخبار مطولة عن حياة عائلة الأمير عبد القادر في امبواز ، أثناء الأسر ، وفيها بالطبع أخبار عن الأمير محمد ، وذلك في الأرشيف الفرنسي الوطني بمدينة ايكس (فرنسا) . وكذلك يوجد عن حياته في كتاب الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي التونسي ولا شك أن أرشيف القنصلية الفرنسية بدمشق خلال القرن الماضي يحتوي على أخبار هامة عنه ، لأن هذه القنصلية كانت تتبع أخبار المهاجرين الجزائريين وتسجل نشاطهم وأفكارهم .

بين بلاده وفرنسا ، ثم خمس سنوات من الأسر فى سجون فرنسا ، وآخرها هو سجن امبواز بنواحي بوردو • وبعد حوالي سنتين فى بروسة نزلت عائلة الأمير بدمشق، حيث استقر بها المقام •

اذن لم يعرف الأمير محمد الاستقرار لا فى الجزائر ولا فى فرنسا ولا في بروسة • لقد فتح عينيه على الحرب والخوف بالجزائر وعلى الأسر والغربة بفرنسا وعلى الزلزال فى بروسة • فلم يتلق تعليما منتظما ولم يعرف حياة اجتماعية هادئة ولا أصدقاء ثابتين • ولا شك أن والده قد تكفل بتعليمه في امبواز ووضعه على الخصوص تحت اشراف صهره مصطفى بن التهامي • ولكن ذلك كان غير كاف لاعطاء الطفل محمد تعليما منتظما • ولاشك أيضا أن الطفل ، وقد دخل مرحلة المراهقة ، قد عوض فى دمشق ما فقده فى موطنه ومهاجره الأخرى ، فاختلف الى مدارسها وتمكن من دروس علمائها ونهل من مكتباتها ، ولكن قاعدة تعليمه تظل فى نظرنا ، واهية على أية حال •

ومهما كان الأمر ، فان الشام ، والمشرق عموما ، قد أخذت تدب فى أوصالها بواكير النهضة الأدبية والسياسية عندما نزلتها عائلة الأمير عبد القادر • ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت الصحافة والجمعيات الأدبية وحركة الجامعة الاسلامية والمنتديات العربية • وكانت أسرة الأمير نهب الرياح تتجاذبها خيوط السياسة تارة نحو فرنسا وتارة نحو الدولة العثمانية وتارة نحو العزلة والانكماش ، وتارة أخرى نحو التيار العربي القومي • ولم يكن الأمير محمد بعيدا عن هذه الأجواء • فهو كبير والده ، يرافقه حيث حل وارتحل ، ويطلع على أسراره وأخباره • لقد رافقه يوم ودع نابليون الثالث بباريس ويوم استقبله السلطان عبدالمجيد باسطانبول • وسافر معه الى فرنسا ثانية والى مصر • ولكننا لا ندري ان كان سافر معه فى رحلته الى لندن (6) • وكان يحضر مجالس والده

6 ـ ذكر في (تحفة الزائر) 12/2 انه سافر سنة 1866 (1283 هـ) الى فرنسا وقصد بوردو ، واستعاد ذكريات سجنه هناك وشربَ في الفنجان الذي شرب فيه والده القهوة وأقام في الفندق الذي أقام فيه والده أيضا ، ووجد ذلك مسجلا هناك ، وقد ذكر الأمير محمد أيضا أن والده كتب له من الحجاز بكل ما جرى له وشاهده من خروجه من بيروت الى الاسكندرية فالقاهرة فالسويس فجدة فمكة ، وهذا يدل على أنه لم يرافق والده في حجته الثانية .

مع أعيان الشام وغيرهم من زعماء العالم الاسلامي . ومن الأوربيين أيضا . وقد أخبر هو عن نفسه أنه كان يلازم والده ومحتذيا حذوه فى جميع أعماله ، وانه قرأ عليه التوحيد والحديث والنحو . وانه استفاد منه ما يهمه فى القديم والحديث .

وهكذا يتضح أن ثقافته ثقافة عصامية ـ اذا صح التعبير ـ تولاها والده ، والمجتمع الشامي ، ثم الحياة العامة وجهوده الشخصية . ويبدو أنه كان مهتما بالأدب والتاريخ . ذلك أن ثقافته التاريخية الاسلامية تبدو غزيرة من كتابه (تحفة الزائر) ومن كتبه الأخرى التي سنذكرها . وأسلوبه الأدبي ، المبني على السجع فى معظمه ، غني ومتنوع مما يبرهن على كثرة مطالعاته ومحفوظاته . كما أن له اهتماما بالقضايا الاجتماعية المعاصرة كما سنرى أيضا . ورغم عيشته فى فرنسا عدة سنوات سجينا وزائرا فانه لم يتعلم الفرنسية ، كما يدل ذلك التجاؤه الى المترجمين فى أسفاره من جهة وفي استحضار مادة كتابه من جهة أخرى .

ويبدو أن الأمير محمد قد اعتنق مبدأ الجامعة الاسلامية ، ولكنه لم يكن نشطا فيها نشاط بعض أنصارها الآخرين . وكأنه فى ذلك كان يتبع سيرة والده الذي لا نجده قد اتخذ مواقف بارزة لصالح هذه الحركة رغم اجتماعه ومجالسته لبعض زعمائها مثل الشيخ محمد عبده ومحمد شمويل (شامل) الداغستاني . وتدل التعزية التي بعث بها محمد عبده الى الأمير محمد وأخيه محي الدين فى والدهما الأمير عبد القادر أنه كان يعرفهما شخصيا أثناء مجالسته لوالدهما . فقد كتب محمد رشيد رضا مقدما هذه التعزية بقوله : « وكتب منها (أي من رسائل التعازي) معزيا عن الأمير عبد القادر الجزائري الشهير ، وكانت صلة المودة بينهما محكمة العرى كما أشير اليه فى بعض المكتوبات الاصلاحية » (7) ومما جاء فى هذه الرسالة قول الشيخ محمد عبده : « وكفى فى مصيبة أهل الايمان أن يقال : أصبحوا بلا أمير ، وحسبهم تعزيه عن مصابهم انكم بنوه وورثة فضله ومعزوزه » وفى رسالة أخرى

7 ـ (تاريخ الأستاذ الامام) 634/2 .

بعث بها محمد عبده الى الشيخ عبد المجيد الخاني طلب منه ابلاغ تحياته الى الأمير محمد وأخيه محي الدين • (8)

وكان ولاء الأمير محمد للدولة العثمانية لا غبار عليه • فهو يكثر من الدعاء الى سلاطينها ، وبعد مبايعة الأسرة جاءه وسام (نيشان) وراتب من السلطان عبد الحميد ، وكان على صلة بوالي دمشق عندئذ ؛ وقد حصل على لقب « الباشا » ، وأصبح فيما يقال ، ضابطا فى الجيش العثماني • ولاشك أن هذا الولاء الواضح للدولة العثمانية قد كلفه غضب ؛ أو على الأقل شك ، الفرنسيين فيه • ومع ذلك لا نجد له عاطفة عداء قوية ضد الفرنسيين فوصفه لهم أثناء كتابه وصف محايد ، أو قل هو وصف تاريخي •

وكما لم نجد له موقفا متحمسا من الجامعة الاسلامية ، لم نجد له أيضا موقفا متحمسا من الوطنية أو من قضية الجزائر ، فرغم أنه عاش الى سنة 1913 (9) ، وهو تاريخ سبقته عدة أحداث تهم القضية الجزائرية فاننا لا نجده قد شارك أو كتب ما يدل على عاطفته الوطنية القومية أو العدائية نحد السلطة الاستعمارية • حقا ان حنينه الى الوطن قوي جدا ، مشيرا اليه فى عدة مناسبات بألفاظ واضحة وأشعار مؤثرة ، ولكن الأمر لم يتجاوز الحنين الى الفعل • ولا نعلم أنه زار الجزائر أو حتى مسقط رأسه الذي طالما حن اليه • فهل حاول ذلك ومنع منه ، أو لم يكن ذلك فى نيته أصلا ؟

ومهما كان الأمر فقد أصبح ، بعد وفاة والده ، هو كبير العائلة على اثر مبايعة اخوته له فى وثيقة وقعوها بذلك • ولم يكن أبناء الأمير العشرة من أم واحدة • وكان الولاء فيما بينهم ضعيفا ، والمصالح الاجتماعية والسياسية تجعلهم فى اتجاهات متعاكسة أحيانا • وكان ولاء أبناء الأمير موزعا بين الدولة العثمانية وفرنسا واذا كان ولاء الاخوة محي الدين ومحمد وعلي واضحا نحو الدولة العثمانية ، فان ولاء عمر والهاشمي

---

8 ـ نفس المصدر ، 613/2 .

9 ـ توفى باسطانبول سنة 1331 هـ (1913) . الاعلام ، 82/7 .

وعبد المالك كان ، على الأقل ، قبل الحرب العالمية الأولى ، نحو فرنسا . ولا نعرف الآن ولاء بقية الاخوة (10) . وقد ترك الأمير محمد بعض الأبناء ، منهم علي زين العابدين الذي ترك أحمد مختار الذي ترك السيدة أمل التي التقينا بها فى الجزائر يوم 25 مايو 1983 (11) .

وبالاضافة الى شؤون العائلة ، كان الأمير محمد (باشا) يشتغل بالتأليف . وقبل أن نتحدث عن مخطوطه (تحفة الزائر) ، نذكر أنه ألف عدة كتب هي :

1 ـ تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، طبع للمرة الأولى فى الاسكندرية (مصر) ، 1903 . وهو فى جزأين بمجلد واحد (12) ، وسنتحدث عنه .

2 ـ مجموع فيه ثلاث رسائل أو أبحاث ، مطبوعة فى مصر (القاهرة)، بدون تاريخ ، وهي :

أ ـ ذكرى ذوي الفضل فى مطابقة أركان الاسلام للعقل .

ب ـ كشف النقاب عن أسرار الاحتجاب .

ج ـ الفاروق والترياق فى تعدد الزوجات والطلاق .

---

10 ـ أبناء الأمير عبد القادر هم : محمد ، محيي الدين ، علي ، أحمد ، عبد الله ، عمر ، عبد الرزاق ، الهاشمي ، عبد المالك ، ومحيي الدين هو الذي حارل المشاركة في ثورة 1871 بالجزائر ، وأصبح علي نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثين باسطانبول ، وقتل عمر في دمشق عشية الحرب العالمية الأولى . ومات الهاشمي الذي كان ضريرا وهو والد الأمير خالد) بالجزائر ، وتولى عبد المالك وظيفة فرنسية في المغرب ثم ثار على فرنسا هناك وقتل سنة 1924 ، وعن المبايعة أنظر : (تحفة الزائر) 249/2 .

11 ـ جاءت للمشاركة في احتفالات الذكرى المائوية لوفاة جدها الأمير عبد القادر ، وقد نفت لنا أن تكون تملك نسخة خطية من كتاب جدها ، الأمير محمد ، (تحفة الزائر) ، عكس ما أكده لنا الأستاذ محمد الطاهر بن عيشة يوم 7 مايو 1983 ، اذ قال أنه شاهد وصور للتلفزة نسخة من مخطوطة (تحفة الزائر) أثناء حديث أجراه مع السيدة أمل عبد القادر الجزائري .

12 ـ أما الطبعة الثانية بتحقيق ممدوح حقي فقد صدرت بعنوان (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر) ، دار اليقظة ، بيروت ، 1964 ، ولم ينبه على ذلك العنوان رغم أنه ليس من وضع المؤلف .

3 ــ عقد الأجياد فى الصافنات الجياد (مطول) ، وهو مطبوع حسبما جاء فى الاعلام (13) •

4 ــ نخبة عقد الأجياد فى الصافنات الجياد ، وهو مختصر من الأول، ومطبوع طبعتين فى بيروت ، الأولى سنة 1293 فى 410 ص • والثانية سنة 1326 ، فى 304 ص • وموضع هذا الكتاب كما يدل عنوانه في أوصاف الخيل وتاريخها وآدابها •

5 ــ نزهة الخاطر فى قريض الأمير عبد القادر . ط المعارف بمصر . بدون تاريخ ، فى 58 ص • والكتاب الأخير جمع فيه بعض ما تفرق من شعر والده ، ولكن لم يأت عليه جميعا (14) •

واذا حكمنا على تفكيره واهتمامه من مؤلفاته فاننا نجد الأمير محمد منسجما مع التيار الاصلاحي الذي ظهر فى النصف الثاني من القرن الماضي فى المشرق عموما وفي الدولة العثمانية على وجه الخصوص • فهو يتحدث عن قضية تعدد الزوجات ويقدم لها الحلول الاجتماعية والشرعية أو « الفاروق والترياق » كما يقول • وهو يكتب عن عقلانية الاسلام ــ اذا صح التعبير ــ أو مطابقة التعاليم الاسلامية لأحكام العقل ، وهو رأي يحاذي آراء المدرسة العبدوية ، وهو من جهة ثالثة يتناول موضوع السفور والحجاب الذي طال فيه النقاش ــ ومايزال ــ في عهد الدعوة الاصلاحية المشار اليه ، وألف فيه كل من قاسم أمين بمصر والطاهر الحداد بتونس ومصطفى ابن الخوجة فى الجزائر • واذا كانت رسائله قد ركزت على موضوعات اجتماعية فان كتابيه المطولين (عقد الأجياد) و (تحفة الزائر) لا يخرجان عن التاريخ والأدب • ويهمنا الآن تفصيل الحديث عن الأخير منهما •

---

13 ــ أعادت طبع هذا الكتاب بـ (دمشق ، 1963 ، ط 2) منشورات المكتب الاسلامي على نفقة الشيخ أحمد ابن الشيخ علي آل ثاني . جعل له الناشر مقدمة ، ورسالة في الخيل أيضا ألفها عبد الله بن الحسين مؤسس الدولة الأردنية ، وعدد صفحات (عقد الأجياد) في هذه الطبعة 376 ص ، وكان المؤلف قد فرغ من تأليفه سنة 1290 هجرية .

14 ــ عن مؤلفات الأمير محمد باشا ، أنظر معجم المطبوعات لسركيس ، ص 694 ، والاعلام 82/7 .

3 ـ **تحفة الزائر وظروف تأليفه :**

ان الظروف التي أقنعت الأمير محمد بتأليف (تحفة الزائر) تذكر المرء بالظروف التي أقنعت أحمد المقري بتأليف (نفح الطيب) رغم فارق ثلاثة قرون بين الرجلين • فكلا الرجلين أجبرته الظروف السياسية على الهـجرة الى دمشـق ، وكلاهما كان يكثر من الحنين الى وطنه الأول ويسترجع ذكرياته ، وكلاهما من غرب الجزائر ، فالمقري من تلمسان والأمير محمد من نواحي معسكر ، وكلاهما له بطل يملأ عليه وجوده الأدبي والتاريخي ، وهذا البطل هو لسان الدين بن الخطيب والأندلس عند المقري ، وهو الأمير عبد القادر والجزائر عند الأمير محمد ، وكلاهما كان يبكي مجدا غاربا وبلدا عربيا اسلاميا ضائعا (الأندلس والجزائر) ، وأخيرا ، وليس آخرا ، فان أهل الشام هم الذين « أقنعوا » الرجلين بالكتابة وأرغموهما بالتدوين بدل البكاء والحنين • ونحن بالطبع لا تهمنا هنا تجربة المقري مع بطله ومع أهل الشام (15) لأن موضوعنا هو ظروف تأليف (تحفة الزائر) •

كان الأمير محمد كثير الشوق الى مراتع صباه ، وكانت مناظر الشام الطبيعية تذكره ربوع وادي الحمام وسهل غريس حيث فتح عينيه على الحياة لأول مرة • وكانت الوفود من أهل الشام ومن الجالية المغربية ترد على منزلهم ف دمر (16) فيتفرع الحديث عن طبيعة الجزائر وأهلها وكفاحها ضد الاستعمار الفرنسي وتطواف الأمير عبد القادر وعائلته من الجزائر الى دمشق عبر فرنسا واسطانبول وبروسة • وكان ذلك الحديث يهيج الذكريات ويسيل العبرات • وفي كتاب (تحفة الزائر) كثير من هذه العاطفة الجياشة التي أخرجت صاحب الكتاب أحيانا عن مهمته كمؤرخ • ومنذ وفاة الأمير عبد القادر (17) أصبح الحديث عن سيرته وجمعها

15 ـ تحدثنا عن ذلك في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ، ج2 .

16 ـ كان منزل الأمير محمد بدمشق ، وقد أصبح ، بعد وفاة والده ومبايعة أفراد الأسرة له ، هو مركز النشاط ومقصد الزائرين .

17 ـ توفي بقصره في دمر ، بضواحي دمشق ليلة السبت 19 رجب سنة 1300 هـ (24 ماي 1883) وحمل الى دمشق في منزل ابنه الأكبر ، الأمير محمد ، صاحب (تحفة الزائر) ، وبعد الصلاة عليه في الجامع الأموي حمل الى الصالحية حيث دفن عند قبر الشيخ ابن العربي .

فى كتاب من آكد الأمور . وازداد الالحاح على الأمير محمد فى ذلك : أليس هو كبير العائلة وملازم الوالد وموضع ثقته وأسراره ؟ ألم يعرف أكثر من غيره عن كفاح والده وهو فى سن الصبا وعن سجنه وهو في سن المراهقة وعن تحولاته من كفاح السيف الى كفاح النفس والتصوف والقلم ؟ ألم يرافقه فى كل أو جل أسفاره ويعرف من زاره أو كتب اليه من كبار العصر ؟ ثم أليس هو أكثر اخوته ثقافة وأميلهم الى الأدب والتاريخ وأكثرهم اطلاعا على الكتب ، بما فى ذلك كتب والده ومذكراته التي آلت اليه ؟

اذن لقد كثر الالحاح وتهاطلت الرغبات ولكنها لم تنزل على اذن صماء أو قلب من جماد بل نزلت على اذن مرهفة وقلب مفعم بالاستعداد . ان الأمير محمد كان يحس أن عبئا ثقيلا قد ألقي على كاهله ، وأن عليه أن يتحمله وحده كمسؤولية ثقيلة أمام الوفاء لوالده ولوطنه ولأسرته التي أعطى لها اهتماما خاصا في الكتاب وأبرز دورها التاريخي في الدفاع عن بيضة الاسلام والعربيه في الجزائر ، حتى لقد يشعر من لا يعرف الخلفيات أن المؤلف بالغ في ذكر كلمة «نحن» في كتابه التي لا تعني الا أسرته . ومهما كان الأمر ، فانه استجابة لذلك الالحاح وتلك الرغبات قام بتأليف الكتاب :

« فحرضوني على القيام بهذا المندوب ... وقالوا لا يخفى أن تحرير أحوال الأكابر ، وتسطير مزاياهم في صفحات الدفاتر ، لمن سنة الكرام ... لا سيما هذا الأمير الشهير ... حيث أشبه من السلف عمر بن عبد العزيز في زهده ورشاده ، ومن الخلف يوسف صلاح الدين في حركاته وغزواته وجهاده ، وحكى الشيخ الأكبر فيما يؤثر عنه ويذكر ، ... فقلت لعمري قد أصبتم فيما ذكرتم ، وحق أن تجابوا الى ما به أشرتم ... » (18)

ولكن من أين يبدأ ؟ ان هذا النوع من التأليف يحتاج الى مصادر كثيرة ، عربية وأجنبية ، قديمة وحديثة وهو عمل غير سهل أيضا ، لأن

18 ـ من مقدمة النسخة المطبوعة من كتاب (تحفة الزائر)

عليه أن يعود بتاريخ الجزائر الى أقدم العصـــور وأن يلم بأحـــداث المغرب والمشرق وأن يعرض سياسة الدول الخارجية والداخلية ، وأن تكون له فكرة عن التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي لبلاده أثناء كفاح والده ، ثم عليه أن يكون على اطلاع بالعـــلاقات القبلية والطرق الصوفية وصراع القيادات الشخصية أثناء ذلك الكفاح ، وهو موضوع معقد ذو نسيج متشابك لا يخوضه الا خبـــير معتدل في أحكامه • ولكي يوازن الأمير محمد ذلك ويتغلب على الصعوبات وفر له مكتبة غنية بالكتب والمذكرات والصحف والوثائق والمراســـلات ، بالاضافة الى عمله على ترجمة بعض الكتب الأجنبية للعربية • ويمكننا أن نصنف مراجعه الى هذه الأصناف :

1 — حديثه مع والده ومشاركته هو في الأحداث أو مشاهدته لها ، وهو ما يمكن أن نسميه بالتجربة الشخصية •

2 — وثائق العائلة كالرسوم والأنساب : مثل شجرة العائلة وسندها المفصل •

3 — الوثائق الرسمية مثل المعاهدات والاتفاقات والتعهـــدات (مثـــل معاهدة ديميشال والتافنة •• الخ)

4 — الكتب الأجنبية المترجمة الى العربية سواء كانت عن والده أو عن تاريخ الجزائر عموما •

5 — الكتب العربية عن الأمير والجزائر والمغرب العـــربي والأندلس (مثل كتب ابن خلدون ، وابن حزم ، وابن الخطيب) • (19)

6 — المراسلات ، وهي كثيرة سواء منها الرسمية أو الشخصية •

7 — الصحف المعاصرة ، عربية وأجنبية •

8 — انتاج الأمير نفسه من الشعر والنثر •

---

19 — اعتمد على الخصوص على شرح منظومة (رقم الحلل في نظم الدول) للسان الدين ابن الخطيب ، و (ديوان العبر) لابن خلدون فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأوسط وجغرافيته ودوله الاسلامية .

ويقول الأمير محمد عن الطريقة التي اتبعها لاستخراج الحقائق من هذه المصادر ، انه جعل والده هو الحكم ، ذلك أن بعض المصادر قد جانبت ، في نظره ، الصواب لاعتبارات قومية وسياسية وشخصية ، رغم اعترافه بأن بعضها قد مارس ضبط النفس وسار في طريق الحق . ومن الممكن أن يقال هذا عن الأمير محمد نفسه ، فما دام قد جعل والده هو مرجعه في تصويب المصيبين وتخطئه المخطئين ، فمن أدراه أن والده أيضا كان على خطأ فيما رأى وقدر ؟ ونحن وان كنا سنقول كلمة عن القيمة التاريخية للكتاب (تحفة الزائر) فاننا نبادر الى القول هنا بأنه كتاب أدب ومذكرات وليس كتاب تاريخ بالمعنى العلمي للكلمة .

ويهمنا أن نسوق عبارة الأمير محمد نفسه في هذا المجال ، تلك العبارة التي تكشف عن طريقته ومنهجه في كتابه . فهو يقول : « جلبت تواريخه ووقائعه (أي والده) المدونة باللغة الأفرنجية ، وتكلفت ترجمتها الى العربية (20) ، وبعد مطالعتها وامعان النظر فيها وجدت بعض مؤلفيها قد أصاب ، والبعض أخطأ جادة الصواب ، وحافظ فريق على انتصارات قومه ، ونسي الآخر أحوال أمسه وذكر وقائع يومه ... فلذا وضعت الأخبار في ميزان واحد ، وجعلت الحكم العدل شهادة سيدي الوالد ، فانه رب تلك المشاهد ، ولا يستوي الغائب والشاهد . وقد استخرجت من آثار مولاي خبرا يدل عليه دلالة اللفظ على المعنى . » ولعل لفظة «آثار مولاي» ذات معنى هام في هذا المجال . ذلك أنها تبرهن على أن الأمير محمد كانت له عند التأليف ثروة والده من المذكرات والأوراق الشخصية .

ويحتوي (تحفة الزائر) على معلومات غزيرة عن الجزائر في عهد كفاح الأمير عبد القادر وعن الأمير نفسه ، منذ نفيه سنة 1847 الى

20 — في هذا دلالة على أن الامير محمد لم يكن يقرأ الفرنسية أو غيرها من اللغات « الافرنجية » ولعله تعلم اللغة التركية ، ومن الكتب الأجنبية التي استعملها في كتابه بكثرة كتاب شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر) الذي ترجمناه نحن الى العربية ، وطبع طبعتين حتى الآن ، الجزائر ، 1982 ، ط 2 ، وكتاب الاسكندر بيلمار (حياة عبد القادر) . أنظر المدخل الذي كتبناه لترجمتنا المذكورة لكتاب تشرشل .

وفاته 1883 • ونحن نقول « في عهد كفاح الأمير عبد القادر » لأن الجزء الخاص بجغرافية المغرب العربي والجزائر خصوصا ، والدول الاسلامية المتعاقبة على هذا الجزء من العالم العربي ، وان كان مفيدا ، الا أنه غير أساسي ويظل مدخلا فقط للموضوع الرئيسي • كما أننا عنينا بكلمة « كفاح » أن المؤلف لم يؤرخ للجزائر في عهد حياة الأمير الطويلة بل توقف معها بخروج الأمير منها • فتاريخ الجزائر بين 1847 و 1883 غير مدروس في الكتاب • ذلك أن الأمير محمد يبقى متتبعا في كتابه تحركات والده وليس تطورات بلاده • كما أن القسم الأخير من الكتاب ضعيف من الناحية التاريخية لأنه اقتصر فيه على ايراد الأشعار المديحية والرثائية ومقالات الصحف ونحو ذلك ، مما يقرب الى الجمع والحشو أكثر من التاريخ والدرس •

ولكن الكتاب يضم وثائق هامة تجعله مصدرا لا غنى عنه لدراسة تاريخ الجزائر خلال فترة الأمير • ولا شك أن ذلك راجع بالدرجة الأولى الى تمكن المؤلف من الاطلاع على أوراق العائلة واستعمالها والى احساسه الفطري بالتاريخ وأهميته عند الأمم والشعوب والعائلات • ذلك أن حرصه على تدوين مآثر والده قد جعل الكتاب يخدم أيضا وطنه الجزائر وقومه وأسرته ، بالاضافة الى تسجيل صفحة مجيدة في تاريخ الكفاح العربي والاسلامي ضد الغزو الأجنبي ، ومن ذلك يصدق تشبيه الأمير بيوسف صلاح الدين الأيوبي الى حد بعيد • وعلى هذا الأساس فان كتاب (تحفة الزائر) كان ، ولعله ما يزال ، الكتاب الوحيد باللغة العربية الذي فصل الحديث عن المرحلة الأولى من الصراع الجزائري — الفرنسي (1830—1847) •

ولكن الكتاب يبقى كتاب أدب أيضا • فمجاله هو تغطية سيرة الأمير عبد القادر البطل مع اعجاب واضح بمواقف البطولة ، وانتماء شخصي وعرقي الى البطل نفسه • وفي كثير من الحالات حجبت العاطفة والولاء والاعجاب قضايا التاريخ المعقدة • ثم أن اشتمال الكتاب على أشعار مختلفة أبياتا وقطعا وقصائد ، وأسلوب التأليف القائم أساسا على السجع ، والحنين (أو النوستلجيا) التي يتميز بها — كلها جعلت الكتاب

قطعة أدبية أكثر منه دراسة تاريخية • ولعل المرء لا يترك الحديث عن هذه النقطة حتى يشير أيضا الى الجانب الصوفي من الكتاب • ذلك أن الوفاء لسيرة الأمير جعلت المؤلف يسوق نصوصا له في هذا المجال أيضا • وهذا حق له ، ولكن المجال الصوفي ـ الفلسفي في الكتاب أضعف أيضا جانبه التاريخي •• فهل يمكننا القول اذن أن (تحفة الزائر) هو كتاب في سيرة الأمير عبد القادر وليس في تاريخ الجزائر ؟ ان في العنوان الفرعي للكتاب جوابا على هذا السؤال ، اذ هو في « مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر » ولا شك أن كلمة «مآثر» أقوى من كلمة «أخبار» وهذه بدورها أخف من كلمة «تاريخ» •

لقد قسم الأمير محمد كتابه الى قسمين منذ البداية • فجعل القسم الأول في سيرة الأمير عبد القادر السيفية أو الحربية ، وهو القسم الذي يغطيه الجزء الأول من الكتاب سواء منه المطبوع والمخطوط • وهذا ما يمكن أن نسميه فترة مقاومة الأمير في الجزائر بين 1830 و 1847 • وفي القسم مدخل طويل عن جغرافية وتاريخ المنطقة من أقدم العصور الى الاحتلال الفرنسي • أما القسم الثاني فقد خصصه لسيرة الأمير العلمية أو القلمية (21) ، ويغطي هذا القسم من الناحية الزمنية سيرة الأمير منذ خروجه من الجزائر في آخر ديسمبر سنة 1847 الى وفاته في شهر مايو 1883 م ، وبمعنى آخر حياة الأمير في فرنسا والمشرق العربي والاسلامي ، ولعله من الخطأ أن نسمي هذا القسم بقسم السيرة القلمية (أو العلمية) لأن الأمير نظم الشعر وكتب الرسائل وألف أيضا قبل مغادرته الجزائر • حقيقة أن بعض انتاجه الصوفي قد كتب في مهجره ولكن الفترة التي يتناولها هذا القسم أطول بكثير من تاريخ تأليف انتاجه الصوفي •

ومهما كان الأمر ، فان الأمير محمد لم يبوب عمله الى فصول وأبواب ولم يخضع كتابه الى منهج علمي دقيق ، وانما استخدم طريقة العناوين الصغيرة والانتقالات المتقاربة حسب موضوعات ذات مدلول ضيق ، مثل : ذكر كذا ، أو انتقال الأمير الى ••• ، ونحو ذلك • وهي طريقة

---

21 ـ ج ، في النسخة المخطوطة «سيرته الكفية» وليس العلمية ولا القلمية .

مملة ومشتتة للذهن • وهذا ينطبق على النسخة المطبوعة والمخطوطة معا وهو أحيانا يستعمل عبارة « فصل في كذا » ولكن ذلك لا يدل حتما على التبويب المتبع حتى عند بعض القدماء وانما هو طريقة من طرق التفريع في البحث •

4 ـ المقارنة بين النسخة المخطوطة والمطبوعة :

وقد طبع كتاب تحفة الزائر ، كما أشرنا ، مرتين ، مرة في حياة المؤلف ، سنة 1903 والثانية سنة 1964 ، الطبعة الأولى في الاسكندرية والثانية في بيروت • وقد تميزت الطبعة الأولى بضيق السطور وصغر الحروف وانعدام الفقرات تقريبا وكثرة الأخطاء المطبعية وعدم وجود خرائط أو صور أو ثبت عام ، وليس فيها نبذة عن حياة المؤلف • أما الطبعة الثانية فتميزت بمقدمة للمحقق (22) ، وبعض التعاليق والصور وسعة السطور وكبر الحروف ، كما لم تشتمل هذه الطبعة أيضا على ثبت عام بأسماء البلدان والأشخاص ولا على جدول بالخطأ والصواب• واذا كان يجوز لطبعة 1903 أن تخرج بدون ثبت عام فانه لا يجوز ، في نظرنا ، لطبعة سنة 1964 ، وهي طبعة تحمل سمة التحقيق ، أن تخرج بدون هذا الثبت •

والنسخة المخطوطة تقع أيضا كما قلنا ، في قسمين ،ولكنهما منفصلان: كل في مجلد منفصل • وهي مكتوبة بخط نسخي جيد وحروف بارزة وفنية ، في اطار جميل ومذهب • وتكاد تكون بدايات الجزئين ونهايتهما واحدة ، مع اختلاف سنذكره في القسم الأخير من هذه الدراسة • ولا يوجد في النسخة المطبوعة تاريخ انتهاء المؤلف من تأليف كتابه ولكن هذا التاريخ في النسخة المخطوطة هو سنة 1307 هـ(1890) أي سبع سنوات بعد وفاة الأمير عبد القادر • ولا يمكن في نظرنا أن تكون النسخة المخطوطة التي اطلعنا عليها مكتوبة بخط المؤلف ، لأنه لا يعقل أن يؤلف أحد المؤلفين عمله على ذلك النحو من التخطيط والتجميل والتذهيب والتأطير والصفاء • فلو كانت هذه النسخة « الأصلية » حقا لكانت غير مجملة كل هذا التجميل ولكانت فيها

22 ـ هو الدكتور ممدوح حقي •

تخريجات وحواش وحذف واضافات ونحو ذلك مما يوجد عادة في النسخة الأولى من التأليف (23) •

اذن ، هل نحن نتكلم هنا عن « النسخة الأصلية » أو نسخة مخطوطة مأخوذة عنها ؟ واذا كنا نتعامل مع نسخة مأخوذة عن الأصل ، وهو ما نميل اليه ، فأين هي نسخة المؤلف المسروقة منه ؟ هل أعدمت بعد أن نسخت يد الخطاط الماهر منها هذه النسخة التي بين أيدينا ؟ نحن نستبعد ذلك • ونميل الى أن نسخة المؤلف ما تزال موجودة في احدى المكتبات الخاصة سواء مكتبة الشخص الذي سرقها أو الشخص الذي آلت اليه بسبب من الأسباب (24) • وعلى فرض أن هذا صحيح ، فمن هو خطاط نسختنا يا ترى ؟ انه لا يوجد على النسخة المصورة اسم الخطاط أو الناسخ ، ويبدو من المؤكد أن الذي خططها على الشكل الذي وجدناها عليه أراد بها وجه السلطان عبد الحميد لأن عبارة الاهداء اليه في النص مكتوبة بخط جميل وغليظ ، وكأنها هي المقصودة من التخطيط كله • ولكن من كان وراء فكرة التخطيط أصلا ؟ هل هو المؤلف نفسه الذي ، نفترض ، انه سلم عمله لأحد الخطاطين فدبج له ما أراد ولكن السرقة وقعت لهذه النسخة المدبجة من عند الخطاط أو من عند المؤلف ، قبل أن يقوم هذا بتقديمها الى السلطان ؟ أو أن مسودة المؤلف هي التي سرقت منه وأخذت الى أحد الخطاطين فاستخرج عليها

---

23 ـ اطلعنا زميلنا الدكتور صالح خرفي على نسخة خطية من (نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر) قد جلبها من دمشق من عائلة الأمير محمد نفسه ، وعند مقارنة خط (نزهة الخاطر) وخط (تحفة الزائر) وجدناهما متشابهين ، وقد يدل هذا على أن خطاط النسختين واحد وأن أصول النسختين كانت عند الأمير محمد .

24 ـ يشير صاحب (الاعلام) ج 11 (الخطوط والصور) ، القسم الثاني رقم 1119 ، و 1120 ، أن نسخة من (تحفة الزائر) بخط المؤلف توجد في المكتبة العربية في دمشق ، وقد أورد نموذجا من خطه فيها فاذا هو :

1 ـ فيه شطب واضافة ويدل على قلم عادي وليس قلم خطاط (خلافا لنسختنا المخطوطة ونسخة نزهة الخاطر التي عند الدكتور صالح خرفي .)

2 ـ ان فاتحة نسخة المكتبة العربية لا تتطابق (حسب النموذج الذي أورده صاحب الاعلام) مع نسختنا المخطوطة ولا مع النسخة المطبوعة .

فهل بعد هذا يمكن القول بأن نسخة المكتبة العربية هي النسخة الأصل التي سرقت من المؤلف والتي منها خططت نسختنا ؟ الجواب على هذا يتوقف في نظرنا على الاطلاع على نسخة المكتبة العربية • ونحن لم نفعل ذلك انظر الصور في آخر الكتاب .

النسخة التي رأيناها وقدمها السارق نفسه الى السلطان لغرض ما ؟ اننا نميل الى الاحتمال الثاني ، لأنه هو الذي يحرم المؤلف من نسخته الأصلية ويجعله يلجأ الى كتابة عمله من جديد • أما الاحتمال الأول فهو بعيد لأن المؤلف عندئذ يكون قد حافظ على نسخته الأصلية وان ضاعت منه المدبجة ، ولم يكن في حاجة الى اعادة التأليف •

ولكن السؤال المحير حقا هو : من كان وراء السرقة وما الهدف منها ؟ ان أخوة المؤلف وعائلة الأمير عبد القادر على العموم لم تكن ، كما ذكرنا ، متفقة على الولاء للدولة العثمانية • وكان هناك انقسام في صفوف العائلة أشار اليه المؤلف نفسه عند حديثه عن المبايعة له بعد وفاة الوالد • كما كان هناك تحاسد وتنافس على الفوز برضى هذا أو ذاك من كبار الدولة العثمانية أو الفرنسية • وقد لمح المؤلف نفسه الى كون المسألة «عائلية» عندما دعا على سارق النسخة بقوله : « فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا من حرز مثله ، جزاه الله على ما أبداه من حسده ، في نفسه وماله وولده ••• » ونعتقد أن سارقها الذي قدمها بذلك الاهداء الفخم أراد التقرب بذلك الى السلطان لغرض دنيوي ، سياسي أو مالي مثلا • اقرأ معي ما جاء في النسخة المخطوطة من اهداء (وهو مفقود تماما من النسخة المطبوعة) « وبعد أن انتهيت من ترتيبه ، وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، قدمته لسدة سلطنة ولي النعم ، ومالك ملوك العرب والعجم ، حامي حوزة الملك بالسيف الباتر ، والحزم الوافر والحلم السافر ، الجامع بحسن الابتداء بذكر اسمه الحميد ، وتشنفت المسامع بدر وصفه العزيز المجيد ، أمير المؤمنين ، وظل الله على العالمين ، الخليفة الأعظم ، الخاقان الأفخم ، السلطان الغازي عبد الحميد خان ، أيده الله بسر الكتاب المبين ، وأمد جنوده بالملائكة المقربين :

آمين آمين لا يرضى بواحدة حتى اضيف اليها الف آمينا

راجيا أن يحظى بلثم راحته الكريمة ، ويلحظ بعين عنايته الفخيمة ، فينجلي نجم سعده في سماء الاقبال ، ويتحلى بحلي القبول ويرفل في حلل الكمال ، وسميته ••• تحفة الزائر ، الخ • »

وهناك قضية أخرى ما زلنا لا نجد لها حلا ، وهي لماذا طبع الأمير محمد كتابه في الاسكندرية بالذات ؟ وأين كان هو عند طبع الكتاب ، في الاستانة أو في دمشق أو في مصر ؟ ولماذا المطبعة الأهلية بالذات أيضا ؟ وهل لوجود الانجليز في مصر دخل في تغيير وجهة نظر المؤلف من الدولة العثمانية ، ومن السلطان عبد الحميد خصوصا ؟ وهل ذلك يفسر لنا حذف الاهداء السابق من النسخة المطبوعة تماما ؟ أسئلة كثيرة لا يمكننا الجواب عليها الآن . وبالاضافة الى ذلك هناك احتمال دخول المؤلف في حزب اللامركزية الاسلامي الذي كان بعض أتباعه مغضوبا عليهم فهاجروا أو هربوا في أوائل هذا القرن الى مصر ، ومنهم المؤلف ، فهل هذا أيضا وارد ؟ اننا لا نملك الجواب عليه الآن .

وأثناء عقدنا للمقارنة بين النسختين المخطوطة والمطبوعة وجدنا أن الأولى أشمل وأوفى ، وانها قد احتوت على تفاصيل ووثائق مفقودة في الثانية ، ولكن العكس أحيانا صحيح أيضا . كما يلاحظ المرء تقديم أو تأخير الحوادث بين النسختين . ويوجد في المخطوطة تاريخ الانتهاء من التأليف ، وهو 1890 ، كما ذكرنا بينما المطبوعة خالية من هذا التاريخ . وقد قرأت نصيبا كبيرا من النسختين على وجه المقارنة مع كل من الأستاذين : الشيخ محمد الطاهر التليلي بقمار ، والدكتور أبو العيد دودو بمدينة الجزائر ، وقارنا الفهارس في النسختين وبعض الوثائق والأشعار ، فوجدناهما نسختين مختلفتين حقا ، ولا يمكن أن يقال ان المطبوعة نسخة عن المخطوطة وانما المؤلف في الواقع كتب تأليفه مرتين ، ففصل في المرة الأولى وأوجز في الثانية ، كما أنه قد عكس أحيانا ، وأن الذي يجمع بين النسختين هو وحدة الموضوع ووحدة العاطفة ووحدة المؤلف وليس وحدة النص أو المتن .

ولكي نشرك القارىء معنا في ادراك بعض الفروق بين النسختين عمدنا الى استخراج عبارات من مقدمة النسختين ، ونصوص من أوائل وأواخر الجزئين وبعض النصوص الداخلية ، وجعلنا هذه النقول على هذا النحو :

1 ــ نص من مقدمة النسخه المطبوعة فيه ذكر سرقة النسخة وليس معه الاهداء الى السلطان عبد الحميد الثاني ، يقابله نص من مقدمة النسخة المخطوطة فيه الاهداء الى السلطان وليس فيه ذكر السرقة.

2 ــ نص يتضمن نهاية الجزء الأول في النسختين ، وفيه يظهر التوسع في المطبوعة أكثر من المخطوطة .

3 ــ نص يتضمن بداية الجزء الثاني في النسختين ، وفيه يظهر التقديم والتأخير ، والتوازن والتوسع .

4 ــ نص يتضمن نهاية الجزء الثاني في النسختين ، وفيه يظهر الفرق واضحا ، اذ اقتضب المؤلف في المطبوعة وأسهب في المخطوطة ، مع ذكر تاريخ الانتهاء من التأليف .

5 ــ نص عام من النسختين كنموذج للفرق بينهما ، وفيه يظهر كيف قصر في المطبوعة وطول في المخطوطة ويظهر من النص الطويل رأي المؤلف في عدة أمور تاريخية ومعاصرة (ومن هذا النوع كثير في الفرق بين النسختين) .

6 ــ نماذج من اختلاف العبارات في متن النسختين ، وقد استخرجنا النماذج من المقدمتين فقط . ويمكن القياس عليها في بقية المتن .

وقد أردنا من ذلك أن نوضح للقارىء مدى الاختلاف بين النسختين سواء من حيث النصوص الكاملة أو من حيث نسج العبارات والألفاظ .

وفي نهاية هذه المقالة نود أن نطرح سؤالا وهو هل يمكن نشر النسخة المخطوطة على أنها الأصلية من (تحفة الزائر) ؟ يبدو أن ذلك ممكن وواجب لأنها هي النسخة التي وضعها المؤلف أساسا لكتابه وهي التي تعبر عن وجهة نظره في الأحداث وفي والده وفي العلاقات العامة قبل أن تبرد عاطفته وتؤثر عليها بعض مجريات الأمور المستجدة ، وقبل

أن يفقد بعض مواد الكتاب التي نبه عليها • ولذلك فنحن عازمون على اخراجها الى الناس محققة ان شاء الله ، ولكن هذا لا يمنعنا ، ولا يمنع غيرنا ، من البحث عن النسخة التي كتبت بخط المؤلف أصلا •

آن آربر (أمريكا) جامعة مشيغان
يوم 8 أغسطس ، 1983

5 ـ نصوص من النسختين للمقارنة :

من ديبـــاجة النسخـــة المطبـــوعة

ولما فرغت من ترتيبه ، وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، حصرته في قسمين الأول في سيرته السيفية ، والثاني في سيرته القلمية (*) ، وسميته : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر • فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا من حرز مثله • جزاه الله على ما أبداه من حسده ، في نفسه وماله وولده ، ثم شمرت على ساعد الاجتهاد ، لجمع ما تفرق من المواد ، بعد أن فقد منها الأكثر ، وبقي من المسودة ما لا يذكر ، فجاء مطابقا للأصل ، وخاب ظن الحاسد ، والمنة لله ، الأمل •••

من ديبـــاجة النسخـــة المخطوطـــة

وبعد أن انتهيت من ترتيبه وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، قدمته لسدة سلطنة ولي النعم ، ومالك ملوك العرب والعجم ، حامي حوزة الملك بالسيف الباتر ، والحزم الوافر والحلم السافر ، والجامع بحسـن الابتداء بذكر اسمه الحميد ، وتشنفت المسامع بدر وصفه العـزيز المجيد ، أمير المؤمنين ، وظل الله على العالمين ، الخليفة الأعظم ، الخاقان الأفخم ، السلطان الغازي عبد الحميد خان ، أيده الله بسر الكتـاب المبين ، وأمد جنوده بالملائكة المقربين :

آمـين آمـين لا يرضى بـواحـدة حتى أضيف اليهـا الف آمينـا

راجيا أن يحظى بلثم راحته الكريمة ، وينحظ بعين عنايته الفخيمة ، فينجلي نجم سعده في سماء الاقبال ، ويتحلى بحلى القبول ويرفل في حلل الكمال ، وسميته : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، راجيا أن يطابق اسمه مسماه ، وبقتنيه من جعل الأدب غاية

(*) ـ كانت العلمية ومصححة القلمية .

مرماه ، فيتخذه في خلوته سميرا وجليسا ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل •

نهـــاية ج 1 مطبـــوع

وفي غد تلك الليلة (ليلة اجتماع الأمير بابن الملك الفرنسي ، الدوق دومال) توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيمها الى جامع الغزوات وعند رجوعه تلقاه الأمير على جواده الأدهم • وبعد أن نزل عنه أهداه اليه مع طبانجته وساعته فقبلهم ، ثم اجتمعا اجتماعا مخصوصا جدد فيه ابن الملك العهد للأمير وزاده وثوقا ، وأهدى للأمير أيضـــا طبانجته وساعته • ثم سأله عمن يرافقه في غربته الى المشرق ـ سمي له أهله وأولاده وخليفته السيد مصطفى ابن التهامي والسيد قدور ابن علال وغيرهما من حشمه وأتباعه في مائتي نفس ، قال بعض مؤرخيهم ان مما يجب الحيرة ويستحق التعجب أن عسكر الأمير عبد القادر كاد أن يصل عدده الى ألفين من الخيالة وعشرة آلاف من المشاة وقد قاوم به جيشا عظيما من جيوش أكبر دولة من دول أوربا يبلغ عدده مائة ألف وستة آلاف ما بين فارس وراجل مدة ست عشرة سنة الخ •

(وبعد 22 سطرا قال المؤلف :)

وبتسليم سيفه انتهت سيرته السيفية • وهي الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني في سيرته العلمية (*) ، والله ولي التوفيق •

ص : 325—326

نهـــاية ج 1 مخطـــوط

وفي غد تلك الليلة توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيمها الى جامع الغزوات ، وعند رجوعه تلقاه الأمير على جواده الأدهم • وبعد أن نزل عنه أهداه اليه مع طبانجته وساعته فقبلهم ،

(*) ـ في صفحة عنوان الجزء الثاني : سيرته القلمية •

ثم اجتمعا اجتماعا مخصوصا جدد فيه ابن الملك العهد للأمير وزاده وثوقا ، وأهدى للأمير أيضا طبانجتيه وساعته • ثم سأله عمن يرافقه في غربته الى المشرق فسمى له أهله وأولاده وخليفته السيد مصطفى ابن التهامي والسيد قدور بن علال وغيرهما من حشمه وأتباعه في مائتين نفسا •

وهنا انتهت سيرته السيفية ونشرع في سيرته الكفية (كذا) ، وهي أول الجزء الثاني •

ص : 497—498 •

بداية الجـــزء الثاني ـ مطبوع

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ركوب الأمير البحر ووصوله الى طولون وما اتفق له مع دولة فرنسا •

انه في ثالث يوم وصوله الى جامع الغزوات سار بأهله ومن بمعيته الى المرسى والناس على اليمين والشمال يبكون وينتحبون ، ولم يزالوا على ذلك الى أن ركب البارجة الحربية المعدة لركوبه واسمها (حموده) وتوجه نحو فرنسا ، ولسان الحال ينشد قول ابن أبي لبانة شاعر ابن عبـــاد :

تبـــكي السماء بمـــزن رائح غـــادي على البهاليل من ابناء عبادي (كذا)

(الخ 15 بيتا منها)

ثم أن المسلمين صاروا آسفين تتصعد زفراتهم وتنسكب عـــبراتهم ، ولا سيما شيعته وأهل محبته • كيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يستمطرون خيره ويقيهم اعتداء العدو وشره ، ويحيطهم من كل مكروه، وينيل كل واحد ما يؤمله ويرجوه :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وقد تذكرت هنا ما قاله خاتمة أدباء الأندلس صالح بن الشريف :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش انسان

(الخ • 12 بيتا) ص 4 •

بداية الجزء الثاني ـ مخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ما اتفق للأمير مع دولة فرنسا بعد ركوبه البحر ووصوله الى طولون •

وفي الثالث من وصولنا الى الغزوات سار الأمير بأهله وبمن تعين بمعيته الى المرسى والناس على اليمين والشمال يبكون وينحبون ولم يزل الحال على ذلك الى أن ركبنا البارجة الحربية المعدة لركوبنا وسارت بنا نحو فرنسا :

سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها ابل يحدو بها الحادي

وبقى المسلمون آسفين تتصعد زفراتهم وتنسكب عبراتهم وتتوقد حسراتهم لا سيما شيعته وأهل محبته فانهم غدا عليهم فراقه بالمكاره وراح ، وضاق عليهم المتسع من أوطانهم والبراح ، وعمهم الجزع والهلوع ، واغب أجفانهم النوم والهجوع ، وكيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يرتصعون دره ، ويستمطرون خيره ، ويقيهم اعتداء العدو وشره ، ويحيطهم من كل مكروه ، وينيل كل واحد منهم ما يأمله ويرجوه، ثم أمسوا فرادى لا أنيس لهم ولا جليس ، ولا مال لهم حتى اليعافر والعيس ، كدرهم يغور وينجد ، ولسان حالهم يقول وينشد :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وقد تذكرت هنا ما قاله شاعر بني عباد عند نكبته الشهيرة :

تبكي السمـــاء بمـــزن رائح غادي   على البهاليل من أبنا (كذا) عبادي (كذا)

(الخ • ثمانية أبيات •)

نهـاية الجزء الثاني ـ مطبوع

وها هنا جواد المقال بنا قد وقف ، وأقر لسان اليراع بالعجز عن استقصاء مناقبه واعترف ، وقصر الباع مع قلة المتاع يوجبان لهـذا الفقير العذر ، وألم الفراق الذي لا يطاق برهان التبلد والحصر ، وغاية ما أقول العذر عند خيار الناس مقبول ، والحمد لله في البدء والختام ، وعلى حبيبه الأعظم وآله وأصحابه أفضل الصلاة والسلام •

نهاية الجزء الثاني ـ مخطوط

وهنا انتهى القلم في تنسيق ما قصدناه ، على الوجه الذي أردناه ، فجاء بحمده تعالى كتابا كلل الصدق تيجانه ، وسلسل التحقيق غدرانه، ولعبت يد التهذيب بأغصان سطوره ، وصقلت وجوه تحبيره فانطبـع في طروسه خيال سيرة الأمير كأنها روض آس ، أو كعذارى مياس ، وأبان عن أخباره وأحواله ، ومثل كيف كان في أحوال كبره وفي أيام اقباله • وبذلك يعرف المطالع أن محل الأمير من الفضل المحل الاسنى ومقامه من الكمال المقام الاسمى ، وقد رمت استقصاء مناقبه فوقفت وقوف من أفحمه الحصر ، وقصدت استيعـاب فضـائله فأدرك باعي القصر ، فاقتصرت على ما يوضح الغرض ، ويؤدي في الجملة ما يجب علي من حقه المفترض ، معترفا بقصر الباع ، وقلة الراوية (كذا) وكلال الدراية ، هذا مع ما نحن عليه من شغل البال والتنقل في الحيرة من حال الى حال • وقد وفق الله سبحانه لاتمامه واستنشاق مسك ختامه في منتصف ربيع الأول الأنور سنة 1307 هجرية وسنة 1890 ميلادية •

والحمد لله في الابتدا والانتها ، والصلاة والسلام على ذي السنا والبها ، وعلى آله وأصحابه أولي النهي ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الدين •

ص : 503 •

نص من ج 1 ـ المطبوع

ولما تولى بابا علي باشا بانتخاب أهل الشوري رفع الى حضرة السلطان أحمد عريضة تنبىء بأن وجود واليين في الجزائر موجب للفساد مستلزم للنزاع فقبل ذلك وامر بأن يكون انتخاب الولاة وعزلهم الى مجلس الشوري وأن يكون التصديق على ذلك من السلطنة • وقد تقدم ما كان للحكومة الجزائرية في سالف أمرها من سمو المنزلة وباهر السطوة ، الخ • ص 72 •

نص من ج 2 ـ المخطوط

الى أن تولى بابا علي رئيسا لمجلس الشوري سنة خمسة عشر ومائة وألف • وكان شديد البأس قوي الجأش وله أعداء في نفس الحضرة فتمكن عامل الجزائر من اغرائهم عليه والسعي في تفريق الكلمة فأحس بابا علي بذلك ، وأشخص عامل الجزائر الى الأستانة وقتل من وافقه ورفع شكاية الى سدة السلطان أحمد خان الثالث معرضا بعدم قبول الجزائر عاملين لما يحدث عن ذلك من النزاع والخلاف فقبل السلطان شكايته وجعل أمر التولية والعزل وتنفيذ الأحكام منوطا بالمجلس مع تصديق السلطان وابقاء الرايات والخطبة وضرب المسكوكات باسمه • واستمر الحال على ذلك الى أن تسلط الفرنسيس عليها • وقد وقع في يدي سكة من تلك المسكوكات مكتوبا على واحد منها سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان ، السلطان عبد الحميد خان عز نصره ، ضرب في جزائر سنة سبع وتسعين ومائة وألف ، وعلى الآخر سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان ، السلطان محمود خان عز نصره ، ضرب في جزائر سنة اثنتين وثلاثين مائتين وألف •

ولذلك فان الدولة العلية الى الآن لا تقر ولا تعترف بتملك الفرنساوية على القطر الجزائري ولا لها وكيلا (كذا) به • وأقول ، كما قيل ، الحق مع القوى ، ولكن الدوائر من شأنها أن تدور (ثم نقد لاذع لولاة الجزائر وسيرتهم في الرعية الى استيلاء الفرنسيين على الجزائر ، وهو كلام غير موجود في النسخة المطبوعة •)

ص 115—116 •

تعـــابير مختلفة للفرق بين النسختين

المطبوعة (من المقدمة) :

1 ــ بينما شمس سيادتنا في أفق المغرب الأوسط طالعة •••

2 ــ وجاءتنا جنود فرنسا من البحر كالذر فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ، ونبذل النفوس في حماية سكانه من كل بلية •

3 ــ فأحاطت بنا جيوش تعدو أو تناوش ، من دولتي فرانسا ومراكش • ولله في خلقه علم الغيب •••

4 ــ ولما أراد الله تعالى أن لا نثبت في وجوههم ، ولا نقوم بدفـــع صدماتهم وهجومهم ، رأينا التسليم للأقدار أولى ••• فألقينـــا السلاح للفرنساويين بشروط مقررة ••• وبالقدر فارقنا البـــلاد •• الخ •

5 ــ ثم خرجنا من فرانسا ممتطين غارب البحر الى أن وصلنا اسلامبول المحمية ، دار السعادة ومقر الخلافة الاسلامية • فمكثنا بها سبعة أيام ••• الخ •

المخطوطة (من المقدمة) :

1 ــ بينما شمس امارتنا في أفق المغرب الأوسط طالعة ••

2 ــ وجاءتنا جنود فرنسا من البر والبحر • فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ، ونبذل النفوس والنفيس في حماية الأهل والرعية •

3 ــ فأحاطت بنا جيوش فرانسا وساموا بضائع راحتنا بخسا . وأبدلوا سعود الأيام نحسا ، ولله في خلقه علم الغيب ...

4 ــ ولما تم للعدو تغلبه على الوطن ، ودخل في حوزته من كان ارتحل من أهله ومن قطن ، ولم يعد في وسعنا أن نثبت في وجهه ... رأينا التسليم للأقدار أولى ... فألقينا السلاح اليه بشروط مقررة ... ثم انتقلنا الى فرنسا وفارقنا البلاد .. الخ .

5 ــ فلبثنا في فرانسا خمسة أعوام ، في اكرام لائق واحترام ، نستنجز من الحكومة سالف عهدها ونترقب وفاء وعدها ... فأخذنا نجوب أرضا بعد أرض ... الى أن وصلنا الى الأستانة السنية ، دار السعادة ومحل الخلافة الاسلامية ، فمكثنا بها أسبوعا ... الخ .

مشروع كتاب (تاريخ زواوة)
لأبي يعلى الزواوي

استحثني بعض الاخوان على نشر وثائق من العهد الفرنسي ، عهد الجزء الثالث والرابع من تاريخ الجزائر الثقافي ، على غرار ما فعلت في الجزئين الأول والثاني ، حين نشرت مجموعة من الوثائق ، تمثل انتاج بعض الجزائريين فى العهد العثماني • ورغم انني أفضل توفير جهدي فى البحث حتى أتقدم فى انجاز الأجزاء الباقية من الكتاب فان الحاح الاخوان له مكانة فى نفسي • وها أنا أقدم هذه المرة على نشر وثيقة هامة تمثل فى الحقيقة مشروع (تاريخ زواوة) للشيخ أبي يعلى الزواوي • هو المشروع الذي كان قد حرره سنة 1331 (1912) •

وحياة الشيخ أبي يعلى الزواوي غير مدروسة رغم قربه منا وشهرته بين معاصريه • ويمكن استخلاص المعلومات التي عرفناها عنه فيما يلي : فهو السعيد بن محمد الشريف بن العربي بن يحيى بن الحاج من آيت سيدي محمد الحاج بزواوة • ومن ثم نسبته (الزواوي) • ولد بقرية تعاروست بزواوة حوالي سنة 1862 • وقد درس فى زواوة على شيوخها وحفظ القرآن الكريم وهو ابن أثنتي عشر سنة ، وقضى عمره فى تعلم العربية وآدابها ودراسة الفقه • كما كان ينتسب الى الاشراف الادارسة • ولا ندري ان كان قد دخل « المدرسة » العربية الفرنسية في مدينة الجزائر ، والغالب أنه فعل لمعرفته اللغة الفرنسية ولتونيه وظائف رسمية • وقد ذكر بنفسه أنه تولى في شرخ شبابه وظيفة باحدى المحاكم بالقطر الجزائري ولكنه لم يحدد مكانها ، وكان عمله فيها مساعدة القاضي •

* ـ نشر فى (المجلة التاريخية المغربية) عدد 27 ـ 28 ، ديسمبر ، 1982 ، أنظر الصور فى آخر الكتاب .

وتنقطع سلسلة أحداث حياته عنا ، فلا نعلم الا أنـه كان بتونس حوالي سنة 1893 ، وان رجليه حملتاه الى أماكن أخرى شملت مصر وسورية وفرنسا ، ولكننا نجده بمدينة الجزائر سنة 1901 . فقد أخبر أنه نسخ بها كتاب (أعز ما يطلب) لابن نومرت الذي جلبـه السيد لوسياني (مدير الشؤون الأهلية) من المكتبة الوطنية بباريس (1).

ومهما كان الأمر فنحن نجد أبا يعلى سنة 1912 فى دمشق حيث حرر المشروع الذي نحن بصدد الحديث عنه . وقد جاء فى آخره انه « كاتب فى القنصلية الفرنسية بدمشق . » وفى هذه الأثناء كان فكره نشطا وقلمه ماضيا . فكتب فى جريدتي (المقتبس) (2) التي كان يحررها محمد كرد علي ، و (البرهان) (3) التي كان يحررها عبد القادر المغربي . وتعرف على شخصيات علمية وسياسية هاجرت من الجزائر ، خصوصا عائلـة الأمير عبد القادر وشيوخ زواوة ، وعلى بعض الرجال من المغرب العربي مثل عبد القادر المغربي ومحمد الخضر حسين ، وعلى شخصيات عربية أخرى أمثال شكيب أرسلان الذي تبادل معه الرسائل ، ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا . وساهم أبو يعلى كذلك فى الحركة العربية ضد الأتراك .

وارتبطت بينه وبين الشيخ طاهر الجزائري صلة خاصة رغم عدم مقابلته له شخصيا فيما يبدو . فقد زار الشيخ طاهر موطن آبائه الجزائر حوالي سنة 1893 ، فوجد الشيخ أبا يعلى فى تونس ، وزار الشيخ طاهر زواوة وتحدث عن عدم مخالطة أهلها لغيرهم . فنقل هذا الخبر الى الشيـخ

1 — كان لوسياني بالاضافة الى عمله الاداري ، مهتما بنشر آثار الجزائريين ، وهو الذي ترجم ونشر عقيدة السنوسي ومنطق (السلم) الأخضري ، وقد أخبر أبو يعلى أنه نسخ (أعز ما يطلب) بيده لتقديمه الى المطبعة ، وفي ذلك اشارة الى علاقته بالعلماء المستشرقين الفرنسيين . أنظر أبو يعلى الزواوي (الاسلام الصحيح) ، ص 92 .

2 — أسسها محمد كردعلي في دمشق سنة 1908 . أنظر فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة العربية) ج 4 ، ص 12 .

3 — أسسها عبد القادر المغربي بطرابلس الشام سنة 1911 ، نفس المصدر ، ص 24 .

أبي يعلى صديقه الشيخ محمد سعيد بن زكري الزواوي مفتي مدينة الجزائر في بداية هذا القرن (4) .

وكانت مقولة الشيخ طاهر عن أهل زواوة وشهرته بين أهل الشام والعالم الاسلامي بأسره والصلة الجهوية والوطنية ، هي التي جعلت أبا يعلى يتتلمذ بالسماع على الشيخ طاهر ، ويصبح من أتباعه دون أن يراه . وهذه الأمور هي التي رشحت الشيخ طاهر لمشروع أبي يعلى حين رآه أحق الناس وأجدرهم بالكتابة عن أهل زواوة .

وتنقطع أحداث حياة أبي يعلى من جديد ، فلا نعرف متى عاد الى الجزائر ولا متى تولى وظيفته الجديدة الرسمية ، وهي الخطابة في جامع سيدي رمضان بالعاصمة ، ولعل ذلك كان سنة 1920 . ورغم وظيفه الرسمي فقد اعتنق مبدأ الاصلاح ، ثم انضم الى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (تأسست سنة 1931) ، وأصبح من رجالها ، وقد ظل ينشر الاصلاح في خطبه بالجامع المذكور وفي كتاباته الجريئة الى أن توفي في أول جوان سنة 1952 بمدينة الجزائر بالغا من العمر حوالي تسعين سنة . وقد دفن في مقبرة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي (5) .

ويظهر أن الشيخ أبا يعلى كان متحررا منذ أوائل حياته . ولعل لثقافته المتنوعة وأسفاره المتكررة وحرمانه الاجتماعي دورا في هذا المشروع . وقد قرأت له بالاضافة الى هذا المشروع كتابين صغيرين هما (جماعة المسلمين) (6) و (الاسلام الصحيح) (7) فوجدت كليهما يفيض

---

4 – كان الشيخ محمد سعيد بن زكري على صلة بالشيخ أبي يعلى في مدينة الجزائر . وقد زار ابن زكري بلاد الشام أثناء وجود أبي يعلى بها ، وله تأليف مطبوع عنوانه (أوضح الدلائل) دعا فيه الى اصلاح الزوايا ببلاد زواوة .

5 – شارك في الكتابة عنه بعد وفاته الشيوخ حمزة بوكوشة (البصائر ، 9 جوان 1952) ، واسماعيل الزكرى (البصائر 7 يوليو 1952) ، والزغيدي عبد القادر (البصائر 21 جوان 1952) ، وأحمد سحنون (البصائر ، 12 جوان 1953) .

6 – طبع بمطبعة الارادة بتونس حوالي سنة 1948 ، وهو في 75 صفحة من الحجم الصغير . جاء في آخره أنه انتهى منه سنة 1367 هـ . وهو خلاصة لعمل أطول أطلع عليه الشيخ الطيب العقبي وقرظه شعرا .

7 – اطلعت منه على نسخة مبتورة البداية والنهاية ، تصل الى 120 صفحة من الحجم الصغير ، ومكان وتاريخ النشر مقطوع ، ويظهر في الغلاف أن المؤلف هو الامام الخطيب بجامع سيدي رمضان بمدينة الجزائر ، طبع بمطبعة المنار ، مصر ، 1335 هـ.

بالدعوة الى الاصلاح الاجتماعي والديني بشكل قلما نجده لأمثاله ، خصوصا الموظفين عند الادارة الفرنسية • ومن أبرز ذلك مهاجمته للبدع ، ولفكرة المهدوية التي ظهرت بالخصوص فى عهد الفاطميين والموحدين • وقد عاب على الشيخ الحسين الورتلاني مبالغته فى اعتقاد الكشف والولاية والكرامة ، ودعا الى تربية المرأة وتعليمها ، وخطأ من قال بعدم توليها العمل وعدم رؤية الخاطب لها • ولكنه لم يكن ضد المرابطين ، فقد أشاد بأحمد آل يوسف الجنادي صاحب زاوية سيدي منصور ، وبأحمد بن عليوة صاحب زاوية مستغانم •

* * *

والواقع أنني تحرجت أول الأمر فى نشر هذه الوثيقة ، ذلك أنها ، بالرغم من أهميتها ، تحمل أفكارا تجاوزها الوقت • فنحن الآن نعيش حياة الوحدة الوطنية والوئام والترابط • ولاشك أن البحث عن الأصول والأعراف والتنابز ، على حد تعبير الزواوي نفسه ، لا تساعد على جمع كلمة الشعب الجزائري • واذا كانت مقولة ابن خلدون والشيخ طاهر الجزائري وأمثالهما عن طبيعة سكان زواوة ليست محل نقاش لوضوحها وشمولها ، فان مقولة الرجل الفرنسي ، الموظف السياسي ، عن أهل زواوة محل شك كبير • وقد رواها الزواوي ولم يناقشها أو يرفضها • فقد ادعى له ذلك الفرنسي أن أهل زواوة من الجنس الآري الأبيض ، وان فرنسا تحبهم حبا خاصا • والغريب أن أبا يعلى الزواوي نقل كلمات من خطاب الوالي العام الفرنسي على الجزائر سنة 1897 (8) مفتخرا بأن فرنسا استطاعت أن تضع قدمها على جبال زواوة بينما عجزت كل الدول الأخرى عن ذلك • والأغرب منه أن أبا يعلى لام والده على ثورة 1871 (9) التي وصفها بالغرور •

---

8 ـ هو جول كامبون ، الذي تولى من 1891 الى 1897 .

9 ـ احدى الثورات الهامة في الجزائر بعد هزيمة فرنسا على يد بروسيا ، وكانت الثورة في أولها بقيادة الشيخ محمد أمزيان الحداد شيخ الطريقة الرحمانية ومحمد المقراني ، وبعد القضاء عليها لجأ الفرنسيون الى سياسة الارهاب والمصادرة وسن قانون الاندجينا المخيف ، وهذا ما يعنيه أبو يعلى .

ولكنني ، مع ذلك أقدمت على نشر الوثيقة لأسباب . منها أن وعي الشعب الجزائري بوحدته اليوم يشكل أكبر ضمان ضد بعض الأفكار الواردة في الوثيقة ؛ ثانيا أنه يظهر لي أن أبا يعلى كتب الوثيقة مندفعا وراء تيار ظهر في بداية هذا القرن وهو محاولة فرنسا تفريق المواطنين الجزائريين وتشجيع ما سمي عندئذ « بسياسة فرنسا القبائلية » • ولسنا ندري ان كان أبو يعلى عندئذ مدفوعا من الفرنسيين ، ولو بطريقة غير مباشرة ، باشاعة هذه السياسة واستخدام اسم الشيخ طاهر الجزائري لهذا الغرض • ثالثا ان أبا يعلى كان عند كتابة الوثيقة في كهولته ، موظفا في القنصلية الفرنسية بدمشق ، متأثرا بالحركات القومية التي ظهرت نتيجة الانقلاب العثماني • ويظهر ذلك من ردوده في كل من جريدتي (المقتبس) و (البرهان) • فاقتصرت دعوته على الوطنية « الزواوية » بدل الوطنية « الجزائرية » • ولو تضمنت الوثيقة الدعوة الى كتابة « تاريخ » زواوة لاعتبرنا ذلك أمرا منطقيا واهتماما خاصا بالتاريخ المحلي الواجب تسجيله • ولكن الشيخ أبا يعلى تجاوز المحلي الى القومية المحلية • وهذا هو محل استغرابنا • رابعا أن عودة الشيخ أبي يعلى الى الجزائر وانضمامه لجمعية العلماء وكتاباته المتأخرة مثل كتابه (جماعة المسلمين) تجعل أفكار الوثيقة تمثل مرحلة فقط من تطوره الفكري ، اذ نجده قد تخلى تماما في المراحل التالية عن تلك الأفكار وانضم الى دعاة الوحدة الوطنية في ظل العروبة والاسلام •

* * *

ومهما كان الأمر فقد أرسل أبو يعلى مشروعه (الوثيقة) الى الشيخ طاهر الجزائري في القاهرة ، بتاريخ 7 جمادي الأول سنة 1331 • وكان الشيخ طاهر قد هاجر سنة 1907 من سورية الى مصر هروبا من اضطهاد الأتراك له (10) • ورغم الحاح أصدقائه بالعودة الى دمشق فانه لم يرجع اليها الا عند قيام أول حكومة عربية فيها ، وذلك في أواخر سنة 1919 • ولكنه لم يلبث بعد عودته الى دمشق أن توفى فاتح سنة

10 — نجد لأبي يعلى آراء واضحة ضد الأتراك في كتابه (جماعة المسلمين) ، وهو فيه ينتصر للعرب واللغة العربية ، ولا شك أن اقامته بدمشق أثناء اضطهاد الأتراك لزعماء العرب هي التي جعلته يتخذ هذا الموقف .

1920 • والدارس لحياة الشيخ طاهر يعرف أنه ولد بدمشق سنة 1852 لأب جزائري مهاجر من زواوة ، اسمه صالح السمعوني الوغليسي • وقد ساهم الشيخ طاهر فى النهضة العربية والاسلامية بجهد كبير جعله فى صف واحد من كبار المصلحين المعاصرين له أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده • وتدين نهضة الشام الى الشيخ طاهر ، ويكفي أنه ألف العديد من الكتب وساهم فى الصحف وأنشأ عددا من الجمعيات والمكتبات ، وتولى الوظائف الرسمية ، وصادق مدحت باشا المصلح العثماني الشهير ، وأخرج تلاميذ أبرزهم محمد كرد علي ، ومحب الدين الخطيب ، وسعيد الباني ، وابن أخيه سليم الجزائري • ورغم عقيدة الشيخ طاهر الراسخة في العروبة والاسلام والاصلاح فانه انضم الى الحركة الماسونية كما انضم اليها عدد من رجالات الفكر العرب والمسلمين خلال القرن الماضي مثل الأمير عبد القادر ، والأفغاني ومحمد عبده •

ولا ندري ما رد فعل الشيخ طاهر الجزائري على طلب الشيخ أبى يعلى بتأليف كتاب عن تاريخ زواوة • ان قائمة كتب الشيخ طاهر المطبوعة والمخطوطة لا تشمل عنوانا حول هذا الموضوع • ولعله كتب شيئا عن ذلك فى مذكراته التي لم تنشر • والظاهر ان الشيخ طاهر لم يستجب لعرض الشيخ أبى يعلى لأسباب ، منها عقيدته القوية فى العروبة والاسلام التي تتنافى مع فكرة المشروع ، فقد كان الشيخ طاهر مندمجا الى الأذقان فى القضية العربية والدعوة الاصلاحية الاسلامية ، مما عرضه لغضب خصومهما وتهديد حياته (11) • ثانيا أن الشيخ طاهر كان يرى انه شخصية عالمية فى المسار العربي الاسلامي فلا يهتم الا بالقضايا الكبرى ذات البعد الجغرافي الكبير • ثالثا ان صحته (كان يعاني من مرض الربو) وتقدم السن به وقلة ذات يده كانت لا تسمح له بالانكباب على انجاز ما طلبه منه أبو يعلى • رابعا ان هناك دلائل تدل على معاداة الشيخ طاهر لسياسة الفرنسيين الجزائرية والدولية • اذ نجد له ميلا نحو السياسة البريطانية فى

11 — ازدادت عقيدته في العروبة بعد شنق الأتراك لابن أخيه سليم الجزائري ، الذي كان من زعماء الحركة العربية والذي نفذ فيه حكم الاعدام سنة 1916 .

الشرق (12) • ولا شك انه أدرك ان وراء هذا المشروع ، الاهـداف الفرنسية التي أشرنا اليها •

* * *

وقد وضع أبو يعلى الخطوط العريضة لكتابة تاريخ زواوة على أساس وطني (قومي) • فهذا التأليف الذي سيشيد بمحامد ومزايا وخصائص أهل زواوة ، يقوم على هذه الأسس :

1 ــ اعتماد أقوال ابن خلدون والشيخ طاهر الجزائري وغيرهما من أن أهل زواوة لا يختلطون بغيرهم •

2 ــ اعتماد آراء بعض الفرنسيين من أن أهل زواوة من الجنس الآري الأبيض وانهم متميزون عن غيرهم •

3 ــ رأي الأمير عبد القادر فيهم •

4 ــ بعض الملاحظات القائمة على الاستقراء مثل عدم التسري وحب المرأة الولود والخصوبة •

والدليل على ذلك أيضا بعض المميزات التي لا توجد عند غيرهم • فهم صناع مهرة وكثيرو الاشتغال • وهم لا يتسرون بالاماء ولا يتسامحون مع مجهول الأب ، ولذلك حافظوا على نقاوة نسلهم • واذن فهم كغيرهم ان لم يكونوا أفضل منهم • ولكن الجهل بالانساب والسند جعل بعض الناس يعتقدون ان أهل زواوة مفضولون وان البربر على العموم أقل درجة من جيرانهم • وقد استعرب البربر بلغة وثقافة القرآن كما استعرب العرب الاسماعيليون فى القديم ، وانهم لذلك عرب كغيرهم وليسـوا مفضولين •

وحاول أبو يعلى اقناع الشيخ طاهر بأن لهذا التاريخ منافع واضحة • ذلك ان دراسة شباب زواوة لتاريخهم وأمجادهم سيجعل منهم ، فى عصر

12 ــ يمكننا ملاحظة ذلك من المراسلة التي وجهها الشيخ طاهر الى المستشرقة الانكليزية (بيل) ، أنظر نصها في كتاب عدنان الخطيب (الشيخ طاهر الجزائري ، رائد النهضة العلمية في بلاد الشام) ، القاهرة ، 1971 ، ص 167 .

القوميات والعلم ، واعين لأنفسهم ومكانتهم فى العالم وتنزع عنهم صفة المفضولية • ورغم قلة القراء بالعربية فان الكتاب سيترجم الى الفرنسية فتعم فائدته وسيقرأ فى زواوة وغيرها حيث يوجد الزواويون المنتشرون في « القارات الخمس » والذين يبلغ عددهم الملايين • ومن يصلح لهذه المهمة غير الشيخ طاهر واسع الاطلاع ذائع الصيت ؟ ان علماء الانكليز والفرنسيين خدموا بني جنسهم وأمتهم ووطنهم ففازوا وملكوا العالم وان الرجل الحق هو الذي « يخدم جنسه وملته » •

ان الشيخ أبا يعلى من أوائل المنادين بكتابة « التاريخ القومي » ، كما تدل عباراته السابقة ، ولكنه وظف دعوته لكتابة تاريخ قومي لطائفة — كما يسميها — فقط ، ولم تبرز عنده يومئذ فكرة التاريخ الوطني الجزائري أو القومي العربي • ورغم انه لم يناقش أو يرفض انتماء أهل زواوة الى السلالة الآرية التي أشاعها بعض الفرنسيين فى أوائل هذا القرن ، فان أبا يعلى قد طرح قضية عروبة أهل زواوة بكل وضوح • فهم ، فى نظره ، قد أصبحوا عربا بحكم الاستعراب ، وان لغتهم هي اللغة الحميرية •

ويبدو أبو يعلى متمكنا من الثقافة العربية الاسلامية • فأسلوبه في الوثيقة قوي متين واضح مباشر على خلاف أساليب معاصريه من علماء الجزائر أمثال ابن أبي شنب وأبي القاسم الحفناوي • وتظهر فى الوثيقة ثقافته الدينية والأدبية بتضمين الآيات والأحاديث والشعر واستعمال السجع والأنماط البلاغية كالطباق والجناس • والحق أن الوثيقة من هذه الناحية تعتبر قطعة من الأدب الرفيع •

وللشيخ أبي يعلى تآليف بعضها مطبوع وبعضها مايزال مخطوطا • ومن كتبه المطبوعة •

1 — جماعة المسلمين ، انتهى منه سنة 1367 (1948) وهو ، كما قال ، مختصر لكتاب مطول • وقد قرظه الشيخ الطيب العقبي بأبيات منشورة ضمنه •

2 ـ الخـطب ، وأذكر أنني قرأت عنه مراجعة لعبد القادر المغربي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . مجلد 9 ، ص 767 . وقد قدم الي الشيخ عبد الرحمن الجيلالي نسخة منه . وهو مطبوع بالجزائر ، مطبعة جول كاربونيل ، سنة 1343 هـ . في 78 صفحة . والشيخ الجيلالي هو الذي أشرف على تصحيح الكتاب .

3 ـ الاسلام الصحيح . اطلعت عليه وهو مبتور الأول . مطبوع في مطبعة المنار ، مصر ، 1335هـ . وعليه اسم محمد المانصالي . انظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد 9 ، ص 767 .

أما الكتب المخطوطة ، فهي :

4 ـ مرآة المرأة المسلمة ، أشار اليه هو فى كتابه (الاسلام الصحيح) ص 26 . وكذلك كتابه (خطب) ص 79 ، وقال عنه انه فى نحو مائتي فصل و 200 صفحة .

5 ـ تعدد الزوجات فى الاسلام ، ذكره له اسماعيل زكري فى جريدة البصائر ، 7 يوليو 1952 .

6 ـ الأمم الغربية (أو العربية؟) ، أشار اليه نفس المصدر .

7 ـ تاريخ زواوة ، أشار اليه نفس المصدر ، ووصف موضوعه وأسلوبه فيه . كما ذكره الزواوي نفسه فى (خطب) .

8 ـ مراسلات الشيخ أبي يعلى ، أشار اليها بنفسه ، خصوصا مع شكيب أرسلان .

9 ـ مقالاته فى الشهاب والبضائر والاصلاح وغيرها .

10 ـ فتاويه ، وقد كان رئيس لجنة الفتوى فى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فترة طويلة .

11 ـ الفرق بين المشارقة والمغاربة في اللغه العـ ـية وغيرها من الفروق.

12 ـ الخلافة قرشية .

13 ـ فصول الاصلاح .

14 ــ الكلام في علم الكلام •

15 ــ الغنى والفقر •

16 ــ ذبائح أهل الكتاب (قال عنه أنه تحت الطبع) •

17 ــ أسلوب الحكيم في التعليم •

(وهذه الكتب من رقم 11 الى رقم 17 أشار اليها جميعا بنفسه في كتابه ــخطبــ ص 79) •

وبالاضافة الى ذلك كان له خط جميل ، وقد قيل انه نسخ مصحفا عظيما قبل وفاته ، ولا ندري ان كان قد انتهى منه •

* * *

عثرت على هذه الوثيقة في ربيع سنة 1976 أثناء وجودي بدار الكتب المصرية بالقاهرة بحثا عن مواد لكتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) • وقد طالعتها عندئذ وأخذت رقمها وسجلت خلاصتها ولاحظت عليها انها تتناول موضوع الوطنية بالمفهوم الضيق • وهي تحمل رقم 956 بمكتبة تيمور ، مادة التاريخ • وظل موضوع نشرها يخامرني ، ولكن انشغالي بالكتاب والتحرج من فكرتها جعلاني أؤجل نشرها الى اليوم • ورغم انني زرت القاهرة آخر مرة في عام 1977 فانني لم أتمكن عندئذ من تصوير الوثيقة • لذلك لجأت الى الأستاذ فرج محمود فرج المصري ، وطلبت منه معاونتي على تصويرها فتفضل مشكورا بتصويرها وارسالها الي خلال أكتوبر سنة 1981 •

ولا ندري كيف آلت الوثيقة الى مكتبة تيمور ، ولكن الظاهر ان بعض آثار الشيخ طاهر الجزائري أثناء وجوده بمصر (حوالي ثلاثة عشر عاما) قد آلت الى هذه المكتبة • وكان الشيخ طاهر صديقا لأحمد تيمور باشا وكثيرا ما كانا يلتقيان • وبينهما مراسلات أيضا • ولذلك فقد وجدنا على الصفحة الأولى خطا لعله خط أحمد تيمور يعرف الوثيقة هكذا « كتاب (رسالة) أرسله الفاضل الشيخ سعيد بن محمد الشريف الزواوي من دمشق للأستاذ الشيخ طاهر الجزائري نزيل مصر ، يطلب منه فيه تأليف

تاريخ لقبائل الزواوة بالجزائر • وقد ضمن هذا الكتاب نبذا من خصائص هذه القبائل ، وكان ارساله فى 7 جمادي الأولى سنة 1331 » •
أما عدد صفحات الوثيقة المكتوبة بخط أبي يعلى فثماني صفحات • والخط واضح وجميل ، أسود اللون ، رقعي فى معظمه ولكنه متأثر بخط النسخ الجزائري • وفي أعلى الصفحة الأولى من الرسالة ختم لم أستطع قراءته فى الصورة ولم أسجله أثناء اطلاعي على الأصل • وبدايتها : « بسم الله ، سيدي الأستاذ الكامل والوطني النابغة الفاضل» • واكتفى أبو يعلى فى توقيع الرسالة بذكر التاريخ وعبارة (الزواوي) فقط ، وختمها بعنوانه فى دمشق بالحروف العربية واللاتينية • فكان اسمه باللاتينية « الشيخ سعيد » • Chaikh Saïd

وعسى ان يكون نشرنا لهذه الوثيقة حافزا على نشر التأليف الذي قيل ان أبا يعلى نفسه قد كتبه (13) عن تاريخ زواوة ، ولا نشك فى أنه ، اذا كتبه فعلا ، سينهج فيه نهجا آخر غير النهج الذي اقترحه على الشيخ طاهر الجزائري • فتمرسه بالحيـــاة الجزائرية ومعاصرته للحركة الوطنية وغيرها ستجعله يغير من نهجه وفكرته الأصلية • كما أننا نرجو أن يكون نشر هذه الوثيقة حافزا على كتابة تاريخ زواوة المحلي، باعتباره جزءا من التاريخ الوطني الجزائري وجزءا من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية التي أسهم فيها أبطال وعلماء زواوة بقسط وفير •

مدينة الجزائر (ابن عكنون)
23 نوفمبر 1982

13 ـ ذكر اسماعيل زكري (البصائر 7 يوليو 1952) ان أبا يعلى قد انتهى من تأليفه وأنه كتبه بأسلوب رشيق ، وانه أعده للطبع .

كتـــــاب

ارسله الفاضل الشيخ سعيد بن محمد الشريف الزواوي من دمشـــق للأستاذ الشيخ طاهر الجزائري نزيل مصر يطلب منه فيه تأليف تاريخ لقبائل الزواوة بالجزائر وقد ضمن هذا الكتاب نبذا من خصائص هذه القبائل وكان ارساله في 7 جمادي الأولى سنـــة 1331 هـ

بسم الله

سيدي الأستاذ الكامل ، والوطني النابغة الفاضل

روابط عديدة ، وأسباب كثيرة ، وظنون جميلة ، وفنون جليلة ، دعتني الى مكاتبتكم ، والتشرف بمخاطبتكم ، راجيا من الله ثم من سيادتكم ، أن أصادف القبول لديكم ، وأحـظى بالاعتبار عندكم ، فأقول معرفا نفسي التي كان الأولى لها أن تبقى نكرة :

اني أحد طلبة العلم الزواوة ، اسمي السعيد بن محمدالشريفبن العربي بن يحيى بن الحاج من آيت سيدي محمد الحاج الشهير (1) • وبما أن العبد أسير الاقدار ، مسلوب الاختيار ، وجدت نفسي مسوقا لهذه الديار، راضيا وشاكرا وكنت ولم أزل شديد الرغبة للاجتماع بكم ، والأخذ عليكم ولكن :

ما كـل ما يتمنى المـــرء يـدركـه تجري الرياح بما لا تشتهيه(2)السفن

1 ـ فصل الزواوي في كتابه (جماعة المسلمين) ص34، فقال أنه من قبيلة اغيل انزكري الشريفة، وأن أمه من قرية تعاروست (المسطبة) وفي هذه القرية كانت ولادته ، وأن جده ووالده من قبيلة تفريت نيث الحاج (عرين ذوي الحاج) . وأضاف أن والده كان اماما في قرية صوامع ، وهي أم قرى قبيلة بوشعايب .

2 ـ كذا ، والصواب (تشتهي) .

أقول وقد عرفكم الي ــ وأنتم أشهر من أن تعرفوا ــ الأستاذ الوطني صديقي الحميم الشيخ محمد سعيد (3) المفتي الحالي بمدينة الجزائر أي حدثني عنكم حينما شرفتم بلاد الجزائر منذ نحو عشرين سنــة (4) ، ومن سوء الحظ اني اذ ذاك بأنحاء تونس ولم أحظ بالاجتماع بكم فحصل لي من الأسف ما حصل ، ومن ذلك الحين وأنا فى الجولان ، من مكان الى مكان ، الى أن صرت بهذا المكان (دمشق) والحمد لله على ما كان •

هذا وان الباعث لي على هذه المكاتبة هو ما أشرنا اليه من روابط الاخا وصلة ــ أل الجنسية وعائد الوطنية ، راجيا أن تكون فائدة الصلة تمام الموصول ، وفائدة العائد الربط بين الصلة والموصول ، وأن تطول المودة بيننــا •

والذي أصرح به لسيادتكم اذ يأتتلمذ لكم ، وأتمذهب بمذهبكم ، وائتمر بأمركم ، وأنتهى بنهيكم قولا بالحق وتحريا لجانب الصدق ذلك بيني وبينكم أيام العمر الباقية بحول الله وقوته فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل •

أقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل أقترح عليكم وأطلب منكم تأليف مختصر فى تاريخ بلادنا الزواوة يشتمل على ىما يتيسر من خصائصهم ومحامدهم ومزاياهم (5) ، وأنتم الذين نبهتمونا الى البعض منها ، وقد حدثني بذلك الأستاذ ابن زكري المفتي (6) ، والفضل لكم فقال انكم قلتم ان الزواوة قوم خالصون غير مختلطين بغيرهم من الأجناس لا من اليهود ولا من النصارى ولا من أية طائفة ، فاستقرينا هذا الخبر المعتبر فوجدناه صحيحا صادقا ، ا هـ • قلت ولئن كان ذلك عجبا فى الأزمنة الماضية فالآن أعجب حيث بقيت القاعدة التي ذكرتم مستمرة مع هذه

---

3 ــ هو محمد سعيد بن زكري ، مفتي المالكية في مدينة الجزائر أوائل هذا القرن .
4 ــ هذه اشارة واضحة الى زيارة الشيخ طاهر الجزائري الى وطن آبائه واجداده (الجزائر) ، ولا نعرف ما اذا كتب الشيخ رحلته في مقالات أو كتاب ، كما لا نعرف كم دامت رحلته .
5 ــ يبدو من الاقتراح أن الدراسة ستكون وصفية لا تاريخية .
6 ــ هو محمد سعيد ابن زكري سابق الذكر .

المواصلات المحدثة فى هذا العصر فصارت الأمم مرتبطة وكرة الأرض كمدينة واحدة أو سوق واحد ومع ذلك كله فالزواوة منحازون فى السكنى ويمتازون فى أشياء كثيرة •

كنت ذات يوم جالسا فى قهوة نزل كبير فى مدينة باريس وادا برجل فرنساوي واقفا علي يريد أن يكلمني وبيده قبعته فقابلته بالترحيب وابداء البشاشة لتوسمي فيه الوجاهة والأدب ولما استوى جالسا خاطبني قائلا : حضرتكم من بلاد الجزائر ؟

— نعم كما يظهر لكم من لباسي البرنوس الخاص بأهل الجزائر وكذلك الكوسكوس فتبسم ثم قال : من أي ولاية من الولايات الثلاث ؟

— من الجزائر ؟

— من أي جهة ؟

— من قسمة تيزي وزو

— من قبائل الزواوة (7) ؟

— نعم • ثم أخذ الرجل يثني على الزواوة ثناء عارف معتدل منصف ينم كلامه عن علم غزير ، واطلاع كثير ، فنبهني الى خصائص فى الزواوة فقال : الزواوة عمال أبطال جنديون جبلة زراع صناع شجاع محترفون مستغنون عن غيرهم في الشؤون الاجتماعية ، الى غير ذلك من الاطراء الى أن قال : ان فرانسا متعجبة منهم فى مسألة ذات بال لا يستخف بها وهي ان المستعمرين الفرنساويين الذين ببلاد الزواوة لا يكادون يفلحون وقد باع كثير منهم الأراضي الممنوحة له وكر راجعا الى من حيث أتى أو الى جهة أخرى وقد بلغك على ما أظن ان القائد محمود رابح بوادي بجاية قد اشترى من المستعمرين أراضي كثيرة بما قدره نحو مليون فرنك • ذلك بأن المستعمر اذا بنى قصرا على النمط الغربي لا يرجو ولا يطمع أن يكتريه منه الزواوي ليسكنه ولو مجانا لأن له بيتا بسيطا في قريته بلا

7 — هذا استدراج واضح من هذا الفرنسي الخبيث الذي قال عنه الشيخ أبو يعلى انه كان موظفا باحدى الوزارات وانه من السياسيين ، وكم عرفنا نحن الى اليوم هذه الاستدراجات الماكرة التي يراد بها اثارة النعرات بين أبناء الوطن الواحد .

تكلف ، واذا أراد المستعمر أن يبيع زرعا أو ضرعا فالزواوي له ما يكفيه من ذلك ، واذا أراد المستعمر بيع الخمر فالزواوي مسلم ولا يقبل ذلك مجانا • واذا أراد المستعمر بيع التين والزيتون فان الزواوي كالمدني أو البصري فى امتلاك التمر واستغنائهم عنه ومللهم منه واذا واذا •• اهـ •

وهذا سر من أسرار قولكم (8) عدم اختلاط الزواوة وأيدكم هذا الفرنساوي الخبير وهو رجل سياسي يشغل وظيفة فى احدى الوزارات وقال ان فرنسا تحب الزواوة لاشغالهم وصنائعهم ، ونحو ذلك من صلاحيتهم للاستعمار وانهم من النسل الآري الأبيض (9) الخ الخ ••

ثم اني اهتديت الى خصيصة أخرى استنبطتها من قولكم عدم اختلاط الزواوة بغيرهم وهي انهم لا ينكحون الاماء ولا يخلطون نسلهم بالسود وأثبت ذلك استقراء ولم أعثر على أحد تزوج أمة أو تسرى وسألت كثيرا من الشيوخ المسنين ولم يشهد أحد بذلك وكان العبيد السود فى بعض القبائل كبني بوشعايب ولكنهم مستقلون بأنفسهم وهم أحرار غير مملوكين ولكن لا يناكحون •

وكذلك شرفاؤهم لا يتنكاحون الا فيما بينهم وهم شديدو التحفظ عن ذلك قديما وحديثا الى الآن وحتى الآن واطردت هذه القاعدة فى تونس ووجدتها أيضا مطردة بسورية (10) كما علمتم بلا خلاف ولا اشكال •

ومن خصائصهم بالزيادة عن غيرهم شدة الغيرة والأنفة فلا يشهد أحد والله خير الشاهدين أنه رءا أو سمع بالزواوة انسانا مجهول الأب وذلك لأن الأم الزانية،على فرض ذلك مادام من القسم الجائز العقلي،فلازم

---

8 ــ الخطاب موجه الى الشيخ طاهر الجزائري .

9 ــ هذه دعوى هادفة طرحها بعض المستعمرين عندئذ ، كما قالوا ان أصل سكان شمال افريقية من الرومان والوندال ، كما زعموا لبعض اللبنانيين أنهم من نسل شارلمان وقلب الأسد وسان لويس ، ومن حسن الحظ أن الشيخ أبا يعلى تفطن فيما بعد فذكر في كتابه (جماعة المسلمين) ص 34ــ35 أن اهل زواوة عرب وأن لغتهم حميرية ، وهذا ما تؤكده النظريات التاريخية القديمة .

10 ــ يشير باطراد القاعدة في تونس وسورية الى كون الجاليات الزواوية المهاجرة هناك ــ سواء بعد رحيل الأمير عبد القادر ، أو ثورة 1871 ــ لا تتزاوج الا فيما بينها .

أن تهلك قبل شيوع حملها اما أن تقتل أو تنتحر اذ البيوتات والعصبيات لا تحتمل ذلك العار أو ترتكب ذلك الشنار اذ يكبر ذلك عليهم •

أول خروجي من الزواوة كان فى شرخ الشباب وتوظفت فى بعض المحاكم الشرعية (11) وكان القاضي كثيرا ما يملي على الوقائع ويسأل الخصوم أمامي ويجيب بعضهم أنه لا أب له فيقول القاضي أكتب وقل فلان المجهول الأب وكنت أفهم أن مجهول الأب هو الذي لا يعرف أباه بسبب سبي أو غيبة فى الصغر مثلا الى أن سألت ذات يوم بعض الكتاب العدول أهل البلد فأجابوا أن مجهول الأب هو الذي ولد بغير نكاح شرعي أي محض زنى فاندهشت منقبضا ومقشعرا فأكبرت ذلك أي اكبار وارتعد اذا رأيت ذلك الشخص المظلوم اذ لم يتقدم لي ذلك أصلا وقد كثر ذلك النوع فى تلك الأنحاء ولا حول ولا قوة الا بالله •

ومن مفاخر الزواوة ما وقفت عليه لبعض المؤرخين أظن ، والله أعلم ، لابن خلدون قال : ان القوى المتنازعة فى المغرب يكون الظفر بجانب الذي معه الزواوة ا هـ • ومما حققته أيضا لابن خلدون قوله : « ولما صار لهم ــ يعني الزواوة وكتامة وصنهاجة ــ الملك بالمغرب زحفوا الى المشرق فملكوا الاسكندرية ومصر والشام واختطوا القاهرة أعظم الأمصار واتحل (12) المعز رابع خلفائهم فنزلها وارتحل معه كتـــامة واستفحلت الدولة هناك الى (13) قال : وكانت لهم ــ يريد الزواوة ــ فى دولة صنهاجة مقاومات مذكورة فى السلم والحرب ا هـ بالحرف • ويؤكد هذا الخطاب الذي ألقاه والي الجزائر فى سنة 1897 م فى بني يراتن حيث وقعت الواقعة المشهورة في حرب سنة 1857 م (14) وسنة

11 ــ اشارة واضحة الى أنه تولى الوظيفة مبكرا عند الفرنسيين ، ويمكن معرفة الجهة التي توظف فيها وتحدث عن شيوع الزنا فيها بالاطلاع على تفاصيل حياته •

12 ــ كذا ، وهي ارتحل •

13 ــ كذا ، والصواب (الى أن قال) • وابن خلدون يتحدث عن انتقال الحكم الفاطمي من المغرب الى المشرق ،و الاشارة الى المعز لدين الله وقائده جوهر الصقلي •

14 ــ حرب 1857 هي التي أبلى فيها الثوار الجزائريون البلاء الحسن وظهرت فيها زعامة السيدة للا فاطمة نسومر ، وهي التي تواثق فيها آخر الثوار دفاعا عن ايشر يضن ، كما أشار الشيخ أبو يعلى ، ولا نعرف أنه وقع مثله في ثورة 1871 ، وقد انتهت حرب 1857 باعتقال للا فاطمة واستيلاء الفرنسيين بقيادة الوالي العام نفسه ، الجنرال راندون ، على زواوة (جرجرة) •

1871 م (15) بالموضع المسمى أشر يضن ، اذ تواثق القوم بالحبال ربطوا أنفسهم بها ليثبتوا ولا يفروا مهما هالهم أمر العدو فقال الوالي : ان لفرنسا أن تفتخر فى استيلائها على هذا القوم ووضعها قدمها على هذه الجبال التي لم تستول عليها دونة قبلها (16) الخ ..

ثم لما أخنى عليهم (17) الدهر صاروا أو كادوا يصيرون كالمجهول الذي لا يعرف والنكرة التي لا تتعرف ، وان تعجب فعجب استسلامهم واعتقادهم أنهم مفضولون لكل متفصل (18) ومغلوبون لكل متغلب وانهم على ما يزعم بعض المغرورين ادنا أقل (19) رتبة من العرب والمسلمين الى غير ذلك من الخزعبلات التي راجت في حقهم ذلك بأنهم بربر والبربر على ما يزعمون أيضا أقل رتبة فى الانسانية والاسلامية الى غير ذلك من حجج علماء القهاوي ومدارس السمر وأندية المنكر الذين يريدون احتكار الفضيلة ويحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله فكأنهم هم الذين يقسمون رحمة الله .

والسبب فى ذلك كله الجهل كما لا يخفى عليكم ان الجاهل محجوج أبدا والقوم قد بلغوا من دركات الجهل ما لا يفي به التعبير وذلك أن سند التعليم قد انقطع فى المغربين منذ أواخر القرن السابع الهجري وتلك مدة أجيال فعشش الجهل وباض وفرخ .

وكذلك أن الزواوة لما كان لسانهم غير عربي (20) فيما سوى أمور الدين وتعاليمه وكان جيرانهم ومواطنوهم عربا يحتج هؤلاء أي العامة

15 ـ ثورة واسعة النطاق وقعت في هذه السنة (1871) بقيادة الشيخ الحداد روحيا والمقراني عسكريا ، وشملت زواوة وغيرها .

16 ـ أي فخر لفرنسا في هذا ما دامت قد صعدت الى جبال زواوة على جماجم وجثث أهلها ! وقد ردد الوالي العام سنة 1897 صدى الجنرال راندون وأسقف كنيسة الرومان والمسيحية الى الجزائر وكان الوالي الذي يشير اليه أبو يعلى هو جول كامبون اما المناسبة فهي اقامة فرنسا لنصب تذكاري لانتصار جيشها في معركة ايشريضن ضد أهالي زواوة .

17 ـ الاشارة الى أهل زواوة .

18 ـ كذا ، وهي متفضل .

19 ـ كذا ، بوجود كلمتي (ادنا ، أقل) . والظاهر أنه يريد احداهما فقط ، أو اضافة الواو بينهما .

20 ـ عاد أبو يعلى فأثبت ان لغة الزواوة عربية حميرية . أنظر التعليق رقم 3 .

منهم وبعض الخاصة أن ما سوى العربي اللسان فهو غير عربي وهو اذن مفضول كما قدمنا الى غير ذلك من المغالطات التي فى غير محلها • وهذه القضية بالمغرب أشبه شيء بمغالطة الخلاف الذي بين العرب والترك فى المشرق أعني من جهة المشاكلة وفساد المقدمات والنتائج اذ آل الأمر فى المغربين (21) أن الآلاف المؤلفة من القبائل غير عربي مفضول سواء هم مسلمون أم غير مسلمين ، وفي المشرق كل من ذكر العرب ازاء الترك يعد مفرقا فحصل من الضرر والفساد فى الهيئة الاجتماعية الاسلامية ما لا يقدر وقد استطردت الى هذا الموضوع في مقالتين احداهما نشرت فى جريدة المقتبس (22) والأخرى فى جريدة البرهان (23) ، فنص المقصود من التي في المقتبس بتاريخ 5 صفر الأخير من هذه السنة (24) هو :

والمعنى اللطيف والحكم المنيف أن المسلمين كلهم عرب وذلك بأنه لا يوجد مسلم الا وهو اما عربي قحطاني أو مستعرب اسماعيلي ، والمسلم مضطر الى الاستعراب والبيان • لأن الصلاة عندنا لا تصح بغير الألفاظ العربية وبالأخص فاتحة الكتاب • ومما وقع لي من ملح الحوار أن بعض طلبة العلم من عرب بلادنا المغرب لما رآني من سكان قبائل الزواوة الذين هم على الخلاف بين المؤرخين النسابة أهم عرب أم بربر (25) فأراد هذا المناظر أن يدعي الأفضلية ويحتكرها لمجرد أنه غير عربي فأجبته بما حاصله : أنه بقطع النظر عن ثبوت نسبي اني من شرفاء الأدارسة فاني أعطي حكم المستعرب اذ أمضيت عمري فى العربية والاستعراب حفظت القرآن وأنا ابن اثنتي عشرة سنة والمناظر الفاضل لا يحفظه ودرست ما تيسر من النحو واللغة والفقه وأتكلم وأكتب وأقرأ ثم اذا أسلم ولا أخاله الا مسلما ان النبي صلى الله عليه وسلم

21 ـ (المغربين) يعني به المغرب العربي ، شمال افريقية .

22 ـ أنظر التعليق رقم 1 .

23 ـ أنظر التعليق رقم 2 .

24 ـ أي سنة 1331 هـ .

25 ـ رجح الشيخ أبو يعلى أخيرا أنهم عرب وأن لغتهم حميرية ، كما سبق .

من العرب المستعربة وأنا أسلم له أنه من العرب العاربة القحطانيين فأنا عربي مثله ولا أرى له علي من فضل الا بالتقوى ا هـ •

ثم لخصت أن البربر والتركمان والكرد كلهم عرب الخ ما هنالك من الحجج المقنعة بأن المسلمين كلهم عرب وأن الفضيلة والأفضلية مع الاسلام والا فلا وحتى اذا اعتبرنا ما قبل الاسلام من دعوى الجاهلية نجد أن الفضيلة والرذيلة لا تختصان بقوم دون قوم وقال تعـالى : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محضورا »

ولفظ ما في (البرهان) مخاطبا المحب الشيخ عبد القادر المغربي (26) الكاتب الاصلاحي الشهير : أرجوكم أن لا تحسبوا كل من ذكر العرب مع الترك يعد مفرقا بما أن الكلام الذي يدور فى هذه المسألة يحتاج الى التفصيل والجدال بالتي هي أحسن أما الذي يريد التفريق فظاهر وأما الذي ينبه الى الخطأ أو يرشد الى الصواب فلا يليق أن يدعي مفرقا واذا كان كلما ذكر أحد العرب والترك يعد مفرقا فكأنه يقال لا تذكروا العرب وهذا باطل ا هـ • والمقالة طويلة سألني الأستاذ المغربي رأيي فى سورية ومطامع بعض الدول فيها (27) •

والخلاصة أن الطوائف الاسلامية قد أهلكها الشيطان بهذا التنابز والتنابذ والتحاسد والتدابر وهو رجوع الى ما قبل الاسلام من دعوى الجاهلية المقوتة والعياذ بالله •

والمقصود من هذا التأليف وافراده تاريخا خاصا بالزواوة مصـالح كثيرة ومنافع للزواوة ومثلكم من لا تخفى عليه فوائد التاريخ ، فان النشء اذا درس تاريخ سلفه القديم المجد يبقى حيا عاملا نشيطا ويتخلق

---

26 ــ من العلماء المصلحين ، أصله مغربي ــ لعله من تونس ــ من أتباع محمد عبده والأفغاني تولى عدة وظائف في بلاد الشام ، وأصبح عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وساهم في مجلته •

27 ــ لا شك ان فرنسا من بين هذه الدول ، وسيكون من المفيد معرفة رأي أبي يعلى في هذا الموضوع •

بمكارم الأخلاق ويتحلى بنقائس (28) الاعلاق اذ يقتدي بالمحمود من سلفه ويطرح المذموم والعصر كما يقولون عصر العلم والاصلاحات جارية فيما يتعلق بالقوميات والجنسيات والوطنيات وقد جاءت كل أمة تدعو الى ذلك ولا عليها (29) •

وكذلك بدرس التاريخ والجغرافية (تقويم البلدان) يعرف القوم قدره ومقداره (30) في الهيئة الاجتماعية أي يحيط علما بمركزه وقوته المادية والأدبية فلا تضل ولا يضل • وقد قلت لوالدي ، رحمه الله ، وهو حامل كتاب الله فقيه فقط (31) : يا أبي لو درستم التاريخ والجغرافية وأحطتم علما بقدركم ومقداركم وعرفتم نسبتكم الى فرنسا لما أحدثتم ثورة سنة 1871 م التي كانت سببا في ضغط فرنسا عليكم وعلينا بعد فخسرنا (32) كثيرا بسبب ذلك الغرور مهما قيل لكم ان فرانسا أنهكت قواها الحرب الألمانية (33) ولو عدلتم من تلك الثورة المادية الى الثورة المعنوية كما فعل المصريون عند دخول الانكليز عليهم لكان خيرا وأقوم (34) •

وبالجملة ان هذا المقصد (35) جليل الفائدذ كبير العائدة على ما ظهر وان النشء الجديد فيه الاستعداد للرقي وان كان قراء العربية قليلون (36) ولكن مع قراء الفرنسية فيكونون كثيرين والأكثر منهم

28 ــ كذا ، وهي (بنفائس) .

29 ــ واضح من هذا تأثر أبي يعلى بالفكرة القومية وعلاقتها بالتاريخ .

30 ــ كذا ، والمفروض أن يقول «قدرهم ومقدارهم» الخ .

31 ــ جاء في كتابه (جماعة المسلمين) ص 34 أن والده كان اماما في قرية صوامع ، وذكره في مناسبة أخرى أنه كان أيضا موثقا ومؤذنا .

32 ــ عبارة «فخسرنا» مكررة في الأصل .

33 ــ يشير الى ما قيل من أن ثوار الجزائر سنة 1871 انما أعلنوا الثورة بعد هزيمة فرنسا على يد بروسيا (ألمانيا) .

34 ــ يبدو أنه يشير الى استعمال المصريين الثورة السياسية ضد الانكليز وليس الثورة المسلحة التي استعملها الجزائريون ضد الفرنسيين ، وهذا الرأي فيه تجاوز لأن الاستعمارين مختلفان كما أن ثورة أحمد عرابي يجب ألا تنسى هنا .

35 ــ يقصد تأليف الكتاب المقترح .

36 ــ كذا ، والصحيح (قليلين) .

موظفون تراجيم واني جازم أن يترجموا هذا التأليف العظيم الشأن ويروج أي رواج في الزواوة خصوصا وفي البرية عموما ذلك بأن الزواوة كما تعلمون موجودون في كل قطر ومصر من القارات الخمس ، وتلك خصلة أيضا في الزواوة كما قدمنا وذلك أنهم عمال كثيرو الاغتراب في طلب النفع والارتزاق وهم اقتصاديون جبلة يتحملون كثيرا المشاق في سبيل ذلك من غير ملل ولا كسل .

يقص علي هنا شيوخهم المعاصرون للمرحوم الأمير عبد القادر ، ولربما سمعتم ذلك قبلي ، انه قد أثقل كاهله نفقات من حوله من أفراد العرب الجزائريين وشدة طمعهم فيه مع كرمه المفرط فيدركه الجزع أحيانا فيأخذ بالثناء على الزواوة لصبرهم ومروءتهم وحيائهم المفرط . كما أثنى أيضا الدراكة ابن خلدون عليهم من هذا القبيل ، الحياء والمروءة ، أجل أن الزواوي يؤثر أن يهلك جوعا ولا يسأل بل يعمل بكل ما في وسعه ، الى غير ذلك من الخصال التي جعلت الأمير عبد القادر يستشهد بهم لمن حوله من العرب ويقول أنظروا الى الزواوة كيف هم عمال محترفون . ومع أن العرب الجزائريون (كذا) الذين بمعية الأمير قليلون جدا بالنسبة الى الزواوة ، وأن شهرة المغاربة هنا بالشجاعة والحياء والعرض المصون والجناب الذي لا يضام كانت بسبب الزواوة ، اذ هم المغاربة هنا عند الاطلاق ، فأهل المغرب الأقصى مقيدون بلفظة الجواني ، والتونسيون كذلك مقيدون بهذه النسبة ، كما يعلم كل واحد ذلك . وان حارة السويقة التي هي قسم كبير من مدينة دمشق كلها زواوة الا قليلا ، وكذلك قرية عالقين ونولة ودشوم بصفد وكفر نسج ، وهم موجودون في أنحاء سورية كلها ، وكذلك في سائر العالم كما قدمنا . وكانوا عضدا قويا للأمير عبد القادر ، وكما كانوا ولا يزالون لأنجاله وهم يعترفون بذلك (37) . ووجدت كثيرا من

37 – ذكر أبو يعلى في كتابه (الاسلام الصحيح) ص 12 ، أنه كان أثناء وجوده بالشام ، يجالس الأمير عبد الله بن الأمير عبد القادر .

الشيوخ الذين تسلحوا وحوصروا مع الأمير عبد القادر وقناصل الدول في الواقعة المشهورة (38) •

ومن خصائص الزواوة بالزيادة عن غيرهم التناكح والتناسل ، والدليل على ذلك أنهم مع فقرهم وعسرهم المالي تجد الذي لا ولد له عندهم يتوارى من القوم من سوء ما هو فيه وتجده كئيبا حزينا خوفا من أن يموت بدون عقب ولا ولي يرثه ، وتطلق المرأة العاقر عندهم ولو هي ذات مال وجمال ، ولا اعتبار لها في هيأتهم الاجتماعية ، وأن للولود التي أذكرت (39) حليا خاصا تتحلى به ، ممنوع ذلك عن التي لم تذكر وأحرى العاقر ، وهذا دليلنا في هذا الباب على امتيازهم عن غيرهم من سائر الطوائف ، وهو أشبه شيء بالوسام العسكري ، وهو لا محالة تلميح للجندية واشعار بها على طريق الفطرة والجبلة الأولين لقدمها كثيرا ، وقد توارثتها الخلف عن السلف •

وقفت منذ أعوام على خطاب لروزفلت (40) ، رئيس جمهورية أمريكا، الشهير ، يحرض الأمريكيين على التناكح والتناسل ، وانتقد استثقالهم الزواج الى أن قال : « وعندي أن الذي لم يتزوج خوفا من ضيق العيش يعد كالجندي الذي فر من الزحف وهو جبان ا هـ » • فقلت في نفسي لو يفسح حضرة الرئيس للزواوة في أمريكا الخصبة فلا يلبث حينا من الدهر حتى يرى ملايين منهم ، ولكن فرانسا لا تسمح بذلك •

وخلاصة القول آن هذه المسألة وهذا الموضوع ، تاريخ الزواوة ، صالح جدا ومفيد لهذه الطائفة ، ولا يقدر على هذا التاريخ من بني هذه الأمة البالغة ملايين من البشر سوى سيادتكم ولا يوفي هذا الباب حقه غيركم ، ولا محقق ولا واسع الاطلاع غيركم ، كما تحققت ذلك ، وليس معاملة لكم أو تملقا بل هو الحقيقة الواجبة صرحت بها أصالة

---

38 – يشير الى الفتنة الطائفية التي وقعت في الشام سنة 1860 ، والتي تدخل فيها الأمير والمغاربة لاطفاء الفتنة وحماية المسيحيين المهددين .

39 – اي انجبت ذكورا .

40 – هو ثيودور روزفلت ، تولى رئاسة الجمهورية الأمريكية من سنة 1901 الى 1909 .

عن نفسي ونيابة عن سائر طلبتنا الذين أعرف جميعهم (41) ، فرجاؤنا فيكم غير معضل ، والكتاب يروج من غير شك ، اذ لم يتقدم له نظير ولا نقب أحد هذا السور ولا طرق بابه غيركم ، وهو موضوع حديث تبلغ به (42) ان شاء الله تعالى ، الرضى والرضوان ، ولشهرتكم وتحقيقكم ينتشر الكتاب ويترجم الى اللغة الافرنسية وغيرها من اللغات، فيعم النفع وتحصل الهداية لبني هذه الأمة ، ويكون الفخر والأجر لكم ، وللحديث لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من حمر النعم ، والرجل هو الذي يخدم جنسه وملته (43) • نناغى (44) في هذا الموضوع ـ خدمة الجنس والأمة والوطن ـ رجال أوروبا ، وبالخصوص الانكليز وفرانسيس ، ومن أجل ذلك حصل الفوز لذين الجنسين فملكوا العالم كما ترون ونرى •

وفي الختام اني مرسل اليكم هذه الرسالة مبسوطة بيد الأمل ، مقبوضة بيد الخجل ، وأنا أستغفر الله من سهو حصل ، وخطأ أو خطل، وان قلمي لدا قلمكم مرتجف ، وقلبي خافق واجف ، لولا حسن الظن بكم ، والثقة التي بلغتني عنكم ، وما أحراني أن أنشد :

ووجمت من المهابة حتى لا كلام مني ولا ايماء

دمشق 7 جمادي الأول عام 1331 . **الزواوي**

---

41 ـ يكشف أبو يعلى أنه كان يتكلم باسم «جميع» مثقفي (طلبة) زواوة ، وهذا مبالغة منه .

42 ـ بين كلمة (حديث) وعبارة (تبلغ به) كتب أبو يعلى هذه العبارة « لم يسبق اليه » ، ثم شطبها ، ولكنها بقيت واضحة مقروءة .

43 ـ مثل هذه العبارات هي التي جعلتنا نحكم بأقليمية الشيخ أبي يعلى في بداية أمره ، ومن حسن الحظ أنه تراجع تماما عن هذا الموقف ، وان كانت العبارة في حد ذاتها جميلة وحكيمة اذ أنه لا خير في الانسان الذي لا يخدم قومه ودينه .

44 ـ كذا بدت لنا ، (نناغي) ولعله يقصد التعاند والتنافس ، وقد تكون (تباغي) ولكن حرف الباء غير منقوط .

رحلة في سورية منسوبة الى الأمير عبد القادر سنــة 1880

نسب بعض الباحثين الى الأمير عبد القادر رحلة ما تزال مخطوطة (*). ومن هؤلاء كارل بروكلمان الذي نبه في ذيــل كتــابه تاريخ الأدب العربي (1) على أن هذه الرحلة توجد في مكتبة بريــل Brill بليدن تحت رقم H. 271 (2) وقد أثار هذا الخبر فضولي ، فرحت أتقصى مظان هذه الرحلة التي اعتبرتها عندئذ من أهم مواد كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) بل من أهم مكتشفاتي العلمية .

وبعد طويل بحث في مجمــوعات بريــل التي كــانت تحت نفــوذ المستشرقين الأوروبيين عموما واليهود خصوصا ، لم أظفر بطائل . غير أن مطالعتي لفهرس المخطوطات العربية الموجودة بجامعــة برنستــون الأمريكية (التي تتوفر على مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية لأنها من أقدم الجامعات الأمريكية المهتمة بالدراسات الشرقية) أعطتني رأس الخيط الى الرحلة المذكورة . فقد ذكر مصنف الفهرس أن الرحلة توجد ضمن مجموعة قاريت Guarett تحت رقم762،وأخبركذلك أن جامعة برنستون كانت قد اشترتها من مكتبة بريل منذ سنة 1900 . فكدتأطير فرحامن هذا الخبروطلبتفورا من مصلحة الاعارةبجامعةمنيسوتاالتي كنت عندئذ (سنة 1978) منتدبا فيها أن تجلب الي صورة من هذه الرحلة ، مع استعدادي لدفع التكاليف الضرورية .

وقامت المصلحة فعلا بجلب نسخة من الرحلة الي . وقمت من جهتي بدفع ثمنها ، وبذلك أصبحت النسخة من ممتلكاتي الشخصية .

---

* ــ نشرت في (مجلة التاريخ) ، النصف الأول من سنة 1983 ــ عدد خاص .

1 ــ بروكلمان ، الذيل 887/2 .

ويمكن وصف هذه الرحلة بما يلي : ان كاتبها مجهول ، وأنها مكتوبة، كما جاء في خاتمتها ، بتاريخ 29 ربيع الأول سنة 1300 هـ (1882 م) ، أي سنة واحدة قبل وفاة الأمير عبد القادر ، ولكن كتابتها قد تأخرت بحوالي ثلاث سنوات • ذلك أن الرحلة قد وقعت ، كما جاء في فاتحتها ، في الثاني من ذي الحجة سنة 1298 هـ (1880 م) • وهي تقع في ستين صفحة من الحجم المتوسط ، وخطها رقعي جميل جدا وواضح • وليس للرحلة عنوان خاص ولا فصول أو فواصل انتقالية •

والرحلة مكتوبة بأسلوب أدبي رائق ، يكثر فيه السجع ويتخلله الشعر ، وهو شعر لمؤلف الرحلة تارة ولغيره تارة أخرى • وتكاد الرحلة تخلو من الأخطاء اللغوية والنحوية • وتظهر عاطفة كاتبها مع الاتجاه العربي سياسيا ، رغم أن الرحلة في حد ذاتها عمل أدبي أكثر منه تاريخي أو سياسي أو جغرافي • ولا ندري من هو مؤلفها ، ولعله كان أحد أفراد الجالية الجزائرية التي استوطنت الشام ، كما يلاحظ المرء ذلك من سياق الرحلة •

ومحتوى الرحلة بسيط جدا • فقد اتفق جماعة من أعيان دمشق (عددهم حوالي 12 شخصا) على القيام برحلة صيد ونزهة في داخل سورية وزيارة آثار مدينة بعلبك • وهكذا ساروا من دمشق الى بعلبك على صهوات الخيول عبر دمر والهامة والزبداني وزحلة والبقاع وغيرها من القرى والمروج • وأثناء الطريق استضافهم بعض الأعيان • وقد اصطحبوا معهم كلبي صيد • ورغم أن الكاتب لم يصف الفصل السنوي فان المرء يفهم من ظاهر كلامه أن الوقت كان ربيعا أو فصلا معتدلا ، اذ أنه لم يتحدث عن عواصف ولا أمطار ولا برد شديد أو حر عنيف ، بل كان يتحدث عن المروج الخضراء والمياه العذبة والأشجار المثمرة •

ولعل المرء يتساءل عن علاقة الأمير بهذه الرحلة • والواقع أن اسمه ورد فيها مرتين : مرة حين نزلت الجماعة بدمر وتوجهوا الى منزل الأمير هناك ليطلبوا منه رخصة القيام بالرحلة الى بعلبك • والمرة الثانية حين رجعوا من رحلتهم بالسلامة وتوقفوا أيضا في دمر في طريقهم الى دمشق

فسلموا على الأمير وطمأنوه بسلامة العودة • وهناك صلة أخرى للأمير بهذه الرحلة وهي أن قائد الجماعة فيها هو نجله الأمير عبد الله • وما عدا ذلك فالأمير لا دخل له في الرحلة ولا في كتابتها على الاطلاق •

ومن الواضح أن في طلب الاذن من الأمير عند السفر والتوقف عنده للسلام عليه اثناء الرجوع دليلا على علاقة الأمير الوطيدة بهذه الجماعة التي قلنا انها كانت من المغاربة في أغلب الظن • ولعل فيها بعض الشاميين (الدمشقيين) أيضا • ويبدو من السياق أن الأمير عبد الله نهض الى الرحلة من دمشق ولم يكن يقيم مع والده في دمر • كما يبدو أن كاتب الرحلة كان من أهل دمشق لأنه تشوق اليها أثناء السفر كثيرا واستشهد على ذلك بالبيت المعروف :

بلاد بها نيطت علي تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

وها نحن نسوق من الرحلة نماذج وفقرات ليعرف القارىء مسارها ومدارها ، وبدايتها ونهايتها ، ومحتواها وغرضها ، وأسلوبها وعبارتها ، وسنسوق ذلك بعبارة المؤلف نفسه بين علامات التنصيص • أما ما عدا ذلك فهو جمل من عندنا نربط بها كلام المؤلف •

* * *

تبدأ الرحلة ، بعد البسملة ، هكذا : « نحمد من جلالنا أعظم العبر ، في آثار من سلف وغبر ، وأشهدنا من عجائب الأسفار ، وما تتحلى به عرائس الأسفار ••

« وبعد ، فلما قرب العيد الأكبر ، والموسم السعيد الأشهر ، اقتضى الوقت رفع النصب ، والتصدي لاجتلاء وجوه مخدرات العجب ، فأذن لنا بالسياحة حضرة الشهم الأفخم والطود الأعظم (2) •• سيدنا وسندنا وعياذنا وملاذنا الأمير السيد عبد القادر ابن السيد محيي الدين الحسيني الجزائري •

بحر فضل لو قيس بالبحر كان في جنبه كلمع السراب

2 — أطال الكاتب في وصف الأمير بألقاب التعظيم ولكننا اكتفينا بهذا القدر ، ونحن نستبعد أن يكون مؤلف الرحلة هو نجله الامير عبد الله •

« وكان للدور الاذن الاذن من حضرة العلية (كذا) بالتوجه الى الديار البعلية (كذا) ذات الآثار العجيبة .. وأمر ، حفظه الله ، بتهيئة المطلوب حسب المرغوب . ان قال عنبر جاء الشذا ، أو قال يا ياقوت جاء الذهب . واجتمعنا عدة أخوة يوسف الصديق (5) ، ما بين أخ وحبيب وصديق ، وامتزجنا ببعضنا امتزاج الماء بالراح ، وتألفنا تألف الأشباح بالأرواح .. وذلك صباح يوم الثلاثاء (كـذا) ثاني يوم ذي الحجة الحرام ، سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف (4) من هجـرة سيد الأنام ، وقائد لوائنا نجله (5) الهمام ، وسيله (كذا) الضرغام ، حضرة الأمير السيد عبد الله ، بلغه الله ما يتمناه .

« ثم ودعنا من حضر ، ولوينا الأعنة للسفر ، وامتطينا متون الخيل وهي تجري بنا جري السيل ، وبين يديها كلبا الصيد خزة وغضبان ، يتلاعبان تلاعب الغزلان ، قاصدين تلك الناحية ، بنشاط وهمة سامية ، الى أن تجاوزنا سور البلد (6) ، وقد نزعنا أثواب الهموم والنكد .. » .

وذكر الكاتب أنهم مروا بالمرجة ، وأن الكلب غضبان أخذ يطـارد الأغنام حتى فرقها وأذاها فخرج له الجيش يطارده هو ، لأن الأغنام ملك للدولة . ثم أشرفوا على دمر حيث يقيم الأمير عبد القادر فتوجهوا لزيارته « اذ كان عندئذ في تلك الروضة العاطرة » فأخذ يطارحهـم الحديث ويشنفهم « بلذيذ خطابه ، ويفكهنا بأطائب وطابه ، حتى أحيي الأرواح .. » ولما حان وقت السفر ودعهم بنفسه « ولما صـار وقت الزوال قام بنفسه وأذن في الحال .. قبلنا يده الشريفة ، واستمنحناه دعواته المنيفة ، فخطى لوداعنا خطوات ، وأمدنا بجميل الدعوات .. ثم تسنمنا الخيول . »

ومن دمر وصلوا الهامة ، ثم الجديدة . ومنها ساروا حتى أشرفوا على وادي بردي ، ثم الزبداني ، ثم قرية جنتا ، ثم قرية سرعين وضريح سيدنا شيث « أكمل ولد آدم .. وهو أول من تكلم بالعبرانية ..

3 — أي 12 شخصا .
4 — 1880 .
5 — أي نجل الأمير عبد القادر .
6 — يعني سور دمشق .

وأول من بنى الكعبة .. ولد لمضي مائتين وثلاثين سنة من عمر أبي البشر ، وعاش تسعمائة واثنا (كذا) عشر» ولاحظ الكاتب أن قرية سرعين من أعمال بعلبك .

وأخيرا وصلوا بعلبك نفسها . وشاهدوا قلعتها العجيبة ورسومها . وهناك ورد عليهم السيد محمد الرفاعي « فأفرغ علينا حلة الأنس والجمال ، وأولانا غاية القرب والوصال » وذكر الكاتب أيضا أن القائمقام محمد البيك اليوسف قد آنسهم . « ثم توارد علينا جملة أعيانها وعمدة أركانها وأنزلونا لديهم أبهى مقامة مدة الاقامة . » وأخبر أنهم زاروا هناك رأس العين . وكان دخولهم لمدينة بعلبك مساء يوم الجمعة وخروجهم منها صباح الثلاثاء وقفة العيد الأكبر . فولوا وجوههم نحو الشام (دمشق) .

وأثناء العودة مروا بكثيب يقع بين المعلقة وزحلة ، وهو مشرف على واد بهي . ثم نزلوا زحلة ومروا هناك بحانوت فيه رجل ذو مال ولكنهم استثقلوه رغم أنه استقبلهم بالبشاشة وأراجيز الأدب . وقص عليهم قصة وقعت له في بيروت ، وغيرها . وسلكوا أثناء العودة نفس طريق القدوم . ولما بلغوا المحطة « أقبل علينا بطريق عظيم ، كأنه الليل البهيم ، ... فحدق الينا النظر ، وتعرض للمحادثة والسمر ، فضربنا عنه صفحا ... وهو يتعاظم بل خجل .. وما زلنا نعوذ منه برب الفلق حتى تزحزح عنا وانطلق . »

وكانوا قد عرجوا على كرك نوح « ويممنا مقامه الشريف ، مستمدين الكرامة والفتوح .. كان أول أولى العزم ، ومن أفضل من بعث بالقوة والحزم ، وكان يشتغل بصنعة التجارة .. عاش ألف سنة وأربعمائة وثمانين بعد الألف .. واختلف في مقامه الأنور ، قيل بالكوفة وقيل بالجبل الأحمر ، والأصح أنه بذيل جبل البنان (لبنان؟) في بلدة الكرك.»

وعبروا البقاع ، وحلوا بمرج قرب الدماس ، واستمعوا الى لغز من أحدهم . وأخيرا أشرفوا على دمر من جديد . وزاروا هناك الأمير عبد القادر . ثم توجهوا الى دمشق « وأحللنا من الاحرام .. وبعد استباحة الطيب والرفث ، حمدنا الله على جزيل الأنعام ، وصلينا على أشرف أنبيائه والختام .. تمت في 29 ربيع أول سنة 1300 . »

ويتضح مما ذكرنا أن المحتوى التاريخي لهذه الرحلة ضئيل • فاذا استثنينا أسماء الأمير وابنه ومحمد الرفاعي ومحمد البيك اليوسف ، وأسماء بعض المدن والقرى التي مر بها الركب ، فان المؤرخ لا يكاد يظفر فيها بشيء بعد ذلك • وليس في الحديث عن المسالك والجبال والمياه وعادات الناس والمشاهدات ما يلقى أي ضوء على تاريخ المنطقة التي عبروها وعلى جغرافيتها •

ذلك أن عناية المؤلف لهذه الرحلة كانت متجهة الى الطبيعة والوصف الأدبي الطائر • وعندما وصلوا الى مدينة بعلبك التي كانت الهدف من سياحتهم لم يتوقف الكاتب ليصفها ويتحدث عما تركته آثارها في نفسه ، وما جال في فكر كل مشارك في الرحلة حولها • كما أن حديثه عن مواقع بعض الأنبياء ، مثل نوح وشيت ، لا يدل على معرفة تاريخية دقيقة • ونفس الشيء يقال عما جاء في الرحلة من تلغيز ومن حديث عارض عن مصر القديمة ، وعن بعض عادات تجار الريف الشامي وأدعياء الأدب ، ومن تعريض بأحد زعماء الدين المسيحي • ان كل هذه الأمور جاءت عرضا في النص وليس لها أهمية خاصة عند الكاتب • وقد أشرنا الى أن عاطفة الكاتب عربية اسلامية ، ويظهر ذلك من تعريضه فقط بالرجل الذي التقوا به في الطريق وهو لا يحسن الأدب العربي •

ونظرا لعدم أهمية الرحلة التاريخية والجغرافية فاننا نكتفي هنا بما أوردناه منها وما ذكرناه عنها • أما نشر نصها كاملا فلا نعتقد أنه سيخدم هدفا معينا ، خصوصا ونحن لا نعرف شيئا عن مؤلفها حتى نستدل بها عليه أو نضيفها الى أعماله الأخرى •

ومهما كان الأمر فان هذه الرحلة تعبير جديد على قوة العلاقات الجزائرية السورية ، وصلابة الوحدة بين الأقطار العربية •

ابن عكنون — الجزائر
13 يناير ، 1983

مؤلفـــات المشرفي المعســـكري

أبو حامد العربي المشرفي من أغزر علماء الجزائر انتاجا في القرن الماضي (*) • وقد رأينا أن نسلط الأضواء على ما عثرنا عليه أو علمنا به من انتاجه الغزير الذي ما يزال جميعا غير مطبوع حسب علمنا •

ورغم كثرة انتاجه فان حياته ما تزال مجهولة • ونكتفي هنا بما ألممنا به منها ، فهو العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي الحسني الغريسي • جده هو عبد القادر المشرفي شيخ أبي راس الناصر المعسكري ، وصاحب الكتيب المسمى (بهجة الناظر) (1) •

ولا نعرف متى ولد العربي المشرفي ، ولكنه ولد على أية حال في غريس خارج مدينة معسكر ، وشب هناك • ويكفي أن يكون الشيخ أبو راس هو أستاذ العربي المشرفي ، مع جملة من شيـــوخ معسكر الآخرين نوه بهم المشرفي نفسه في عدد من كتبه •

وقد عرفت معسكر ونواحيها هزات عنيفة في عهد طفـــولة وشباب المشرفي فبالاضافة الى آثار الباي — محمد الكبير ، وانتقال الحكم من معسكر الى وهران ، هناك ثورة الطريقة الـــدرقاوية على السلطة العثمانية ، وهي الثورة التي خلفت آثارا سيئة على المجتمع والاقتصاد ، وتبعها اضطهاد شديد • وشهدت المنطقة أيضا حملة شيـــخ الطريقـــة

(*) — نشرت في مجلة (الثقافة) عدد خاص بالأمير عبد القادر ، عدد 75 ، ماي — جوان 1983 •

1 — تحقيق محمد بن عبد الكريم ، بيروت ، بدون تاريخ (حوالي 1971) •
— أنظر عن عبد القادر المشرفي كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ، جزءان ، الجزائر ، 1981 •

التجانية من عين ماضي على السلطة العثمانية في معسكر ، وأخذت العلاقات بين هذه السلطة وبين الطريقة القادرية تتوتر وتسوء وكان من علامات هذا التوتر اعتقال باي وهران للشيخ محيي الدين المختاري وابنه عبد القادر (الأمير) عند توجههما الى الحج . وعرفت المنطقة أخيرا احتلال القوات الفرنسية وبداية الصراع بين الدخلاء والمواطنين بقيادة الشيخ محيي الدين المختاري ، شيخ زاوية القيطنة القادرية ثم بقيادة ابنه الحاج عبد القادر (الأمير) .

وفي هذه الأثناء هاجر العربي المشرفي الى المغرب الأقصى مع المهاجرين الجزائريين الذين اختاروا المنفى على الاقامة تحت حكم الأعداء. ولا نعلم كم عمره عند الهجرة ولا دوره قبلها . وكل ما تخبر به الأخبار هو أن المشرفي قد هاجر بعد نزول القوات الفرنسية في المنطقة . ولكن سرد الحوادث التي يوردها المشرفي في بعض كتبه ، وخصوصا (طرس الأخبار) توحي بأنه شارك في الأحداث ضد الفرنسيين قبل هجرته . وقد كان لأسرة المشرفي عموما دور بارز في المقاومة الوطنية منذ نزول الفرنسيين . ويبدو أن المشرفي لم يتقلد وظائف هامة في المغرب ، رغم أنه تقرب كثيرا من الأسرة العلوية والسلطان الحسن الأول على الخصوص الذي خصه بديوان مدح . وكل ما نعرف عنه أنه تولى تعليم الأطفال (مؤدب صبيان) . وكان المشرفي قد بلغ من الحظوة ان كان من مرافقي السلطان في عدد من جولاته داخل البلاد عندما كان السلطان يطلب من العلماء السير في موكبه . فكان المشرفي اذن من فئة العلماء المقربين . ولعل ما يزكيه بالاضافة الى الولاء السياسي والتأليف ، أنه كان من الأشراف ، ومن مبادىء الأسرة العلوية احاطة الأشراف بعطفها .

ورغم هذه الحظوة التي حظى بها المشرفي فانه كان كثير الشكوى من حاله والتبرم بمآله وكان يحن الى وطنه الأصلي . وتدل الوثائق انه زار الجزائر مرتين بعد هجرته منها .

الأولى سنة 1848/49 والثانية سنة 1877 . والظاهر أن زيارته الأولى كانت اثر نهاية مقاومة الأمير عبد القادر . أما المرة الثانية فكانت

أثناء حجه الى بيت الله الحرام • وقد سجل في رحلته انطباعاته عن الجزائر « الفرنسية » فكانت غير قاسية على الفرنسيين ، حسبما جاء في نقل المستعرب الفرنسي ، هنري بيريز ، الذي استنتج ذلك من كتاب المشرفي (ذخيرة الأواخر) (2) •

غير اني وجدته قاسيا عليهم فيما اطلعت عليه له في هذا الموضوع ، من ذلك أنه كلما ذكر « الفرنصيص » — كما يسميهم — يقول « دمره الله » أو « أذله الله » ، وهذا مكرر في كتابه (طرس الأخبار) • ومن جهة أخرى وجدته يعتب على الفرنسيين معاملة الجزائريين « كأنهم أتراك » ، وجاء بشطر بيت واضح المعنى وهو : « وما من ظالم الا سيبلى بظالم » • ولا شك أن هذا تعريض بالفرنسيين لا يحتاج الى دليل • وقد بقي المشرفي على معاداته للأجانب حتى في المغرب • فقد وقف ضد الحماية على المغرب ، وألف عملا ذم فيه استعمال جواز السفر كما شرعته الدول الأجنبية ، وهو الذي سماه (الرسالة في أهل البصبور الحثالة) • ويبدو أن عمله في محاربة الربا يدخل في هذا المعنى ، وهو الذي سماه (ورقات في رواج السكة بالزيادة) •

ولا ندري ماذا سيكون موقف المشرفي في المغرب لو عاش حتى أدرك الحماية الفرنسية سنة 1912 • ذلك أنه توفي قبل ذلك بسنوات • وقد وجدنا تاريخين مختلفين لوفاته لا ندري أيهما أصح ، الأول : سنة 1311 هـ (1893 م) ، والثاني : سنة 1313 هـ (1895 م) • ومهما يكن التاريخ فان مكان وفاته هو مدينة فاس •

* * *

ألف المشرفي في أغراض متعددة • فهو شاعر له عدة دواوين معظمها في المدح • وهو كاتب سير كما يظهر من تراجم الناس الذين تناولهم • وهو مهاتر طويل اللسان لا يكاد يسلم منه خصومه ، وقد وجدنا له عددا من هذه التآليف ، حتى أنه خص أهل فاس بتأليف ذمهم فيه •

---

2 — انظر « الجزائر كما يراها رحالتان مسلمان في 1877 — 1878 » في (**المؤتمر الأول** لاتحادية الجمعيات العلمية لشمال افريقية) ، الجزائر 1935 ، ص 259 — 270 •

وهو شريف النسب قادري الطريقة ولذلك جرد قلمه لمهاجمة خصوم الأشراف والرد على التيجانيين والدفاع عن أصحاب الطرق الصوفية • ولعل موقفه من الأمير عبد القادر نفسه يدخل في هذا المعنى • فنحن نجده مرة ينتصر له ويدافع عنه في كتابه (عجيب الذاهب) ، ونجده في كتابه (طرس الأخبار) يتعرض له وينعت أتباعه بالفجور • أما في كنانيشه فتكثر النقول المفيدة والاستطرادات الهامة ، والأشعار المليحة ، والتعابير النفسية التي تكشف عن أسرار حياته ، وبالاضافة الى هذه الأغراض ألف المشرفي في أدب الرحلة وفي التصوف ، وفي النحو ، والتاريخ ، والحديث ، والطب ، وبعض قضايا العصر • ولكن غالبية تآليفه تقع في باب الردود والتراجم

* * *

فاذا أردنا الاشارة الى مظان حياته أو ترجمته فاننا نحصرها فيما يلي :

1 — كتبه الخاصة ، ولا سيما كنانيشه ، وكتابه (ذخيرة الأواخر) ورحلاته •

2 — النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية لعبد الرحمن بن زيدان •

3 — الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ، لعباس بن ابراهيم (الجزء السادس ، مخطوط ؟) •

4 — دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، لعبد السلام بن سودة • (يذكر بعض تآليفه وأخباره) •

5 — مظاهر يقظة المغرب الحديث ، لمحمد المنوني (جـ 1) •

* * *

وجدير بالمشرفي أن ينشر ويقرأ الناس آراءه في معاصريه وفي أحداث وطنه وأحداث العالم الاسلامي والمغرب الأقصى التي عاشها وشارك فيها باندفاع وحماس • ولا نريد لتراثه أن يضيع وسط تردد الباحثين الذين اعتبروا المشرفي لا وطن له • فالجزائريون يجهلونه وقد يعتبرونه مغربيا بالهجرة ، والمغاربة يجهلونه أيضا وقد يعتبرونه جزائريا

بالأصالة • ويا ضيعة علماء العرب والمسلمين في عصر الوطنيات الضيقة والحدود السياسية الشائكة !

وفي ما يلي مؤلفاته مرتبة ترتيبا أبجديا :

1 ـ الآيات والحوادث :

ذكره المشرفي في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) وعده من بين كتبه ، صغيرة الحجم • ولا نعرف محتواه ، كما أننا لا نعرف من تحدث عنه غير المؤلف •

2 ـ أثمد الجفون فيمن بعهد الله يوفون :

ذكره المشرفي نفسه في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) • وعده من بين أهم كتبه • ولم نجد أحدا قد تعرض له بالوصف أو بالاشارة الى مكانه • ولم نطلع عليه نحن في أي مكان حتى نعرف موضوعه •

3 ـ اقوال المطاعين في الطعن والطواعين :

كتاب في الطب اطلعت عليه وأخذت منه فوائد لكتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) وهو مكتوب بخط مغربي جيد وملون • ويوجد بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 2054 ولم نجد هذا الكتاب مذكورا في مؤلفات المشرفي في (ذخيرة الأواخر) •

4 ـ تاريخ الدولة العلوية :

يقع هذا الكتاب في مجلد • ويوجد في المكتبة الفاسية بخط المؤلف ، ويعتبر من نوادر هذه المكتبة ، حسب تعبير صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ، ص 166 • ويبدو أن هدف هذا الكتاب هو **الاشادة** بملوك الدولة العلوية المغربية والتقرب من المعاصرين منهم للمؤلف •

ولم يذكره المشرفي من بين مؤلفاته في (ذخيرة الأواخر) •

5 ـ تقاييد على شرح المكودي :

ذكره المشرفي نفسه في (ذخيرة الأواخر) وقال انه كامل • وواضح أن موضوع هذا العمل هو علم النحو ، فهو كالحاشية على شرح المكودي على الألفية •

6 ـ تقاييد على شمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم :

ذكره المشرفي نفسه في آخر كتاب (ذخيرة الأواخر) وقال انه لم يكمل بعد • ولا نعرف ما اذا كان قد أكمله • ولم يتعرض أحد غير المؤلف لهذا الكتاب • وموضوعه واضح أنه في السيرة النبوية ، وقد يكون شرحا لعمل سابق لغيره •

7 ـ تقييد في ذم أهل فاس :

ذكره له صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ص 498 ، وعلق على هـذا التأليف بأن « تلك عادته رحمه الله » ، وقال ان التأليف يقع في نحو الكراسة • وهو غير مذكور في (ذخيرة الأواخر) •

8 ـ الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس :

يبدو أنه في الرد على محمد اكنسوس صاحب كتاب (الجيش العرمرم) • وقد ذكر المشرفي في نهاية كتابه (ذخيرة الأواخر) أن كتابه (الحسام المشرفي) يقع في مجلد ضخم • والكتاب عموما في الرد على التيجانيين والانتصار للقادريين والاشراف • وقد نقل عنه عباس ابن ابراهيم صاحب كتاب (الاعلام) ج 5 ، ص 139 • كما نقل منه عباس الجراري في كتابه (الزجل في المغرب) أخبار المنداسي والتريكي وغيرهما • وبلغ الجراري في نقله منه الى صفحة 438 ، مما يدل على أن (الحسام المشرفي) كتاب ضخم •

وقد قسمه المشرفي الى هذه العناوين : في القدح في اكنسوس ، في الأشاعرة ، في أدريس الأكبر ، في أولياء المغرب وزواياهم ، في عبد الهادي السجلماسي وعبد الواحد بن سودة الفاسي ، في انتخاب الوزراء ، في عدة الملوك والدول ، مع مقدمة في فضل علم التاريخ (من صفحة 26 الى 42) • وقد قال المؤلف نفسه انه ذكر في هذه المقدمة « ما يسكن كل هاجع ويرد كل هامع » •

وفي الحسام المشرفي أخبار هامة عن العلاقات بين الجزائريين والعثمانيين (الأتراك) في بداية القرن الثالث عشر الهجري (19 ميلادي) أيام فتنة الدرقاوة أو ثورة الطريقة الدرقاوية ، وذلك من صفحة 119 إلى 208 من الكتاب •

وهناك نسختان على الأقل من الحسام المشرفي الأولى رقم ك 2276 بالخزانة العامة بالرباط • والثانية نسخة مصورة رقم 1207 في نفس المكان • أنظر أيضا (دليل مؤرخ المغرب) لابن سودة ، ط 1 (1950) ، ص 502 •

وقد انتهى المشرفي من الكتاب سنة 1285 بفاس ، على أن النسخة التي أطلعت عليها وهي رقم ك 2276 المذكورة سابقا مكتوبة بخطوط مختلفة • وكان المشرفي قد ذكر في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) أن نسخة من كتابه هذا (أي الحسام المشرفي) توجد بخزانة الملك ، مع مجموعة أخرى من مؤلفاته •

9 ـ الحسام المشرفي للمهاجر المقتفي :

ذكره المشرفي نفسه في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) • وعده من بين كتبه الهامة الموجودة في المكتبة الملكية •

ولا شك أنه غير (الحسام المشرفي لقطع لسان الجعرفي) لأن المؤلف ذكرهما معا في آخر كتابه المذكور • ولا نعرف من المقصود بهذا العمل الذي يظهر أيضا أنه يدخل في باب المهاترات والردود •

ولا نعرف أيضا أن أحدا ذكره أو دل على مكانه غير المؤلف •

10 ـ الدر المكنون في الرد على العلامة جنون :

قال عنه صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ص 503 ، بأن المشرفي قد « انتصر فيه لأصحاب الطرق ورد فيه على المخالف ردا شنيعا خرج فيه على الحد الشرعي » ، وأخبر أنه يقع في مجلد وسط ، ولكنه لم يذكر شيئا عن مكانه •

ولم يذكره المشرفي في (ذخيرة الأواخر) •

11 ـ 1 : ديوان المشرفي :

مجموعة من الشعر الذي يتناول أغراضا مختلفة في أحوال الجزائر وفى مدح ملوك المغرب وبعض قواده ونحو ذلك • وقد ضم أيضا أرجوزة طويلة ذكر فيها ما وقع للجزائريين بعد الاحتلال الفرنسي • ونقل عنه هذه الأرجوزة محمد بن الأعرج الجزائري الأصل فى كتابه (زبدة التاريخ) الجزء الثالث ، ص 217 ــ 221 •

وفي الديوان تقاييد أيضا وتواريخ هامة • ففيه تاريخ وقوع زلزال سنة 1267 ، وتاريخ ميلاد ابنته عائشة فى نفس السنة وتاريخ وفاتها بعد عام ، وتاريخ وفاة السلطان محمود الثاني العثماني (سنة 1255) •

وقد قال هو عن ديوانه انه عبارة عن جمع لقصائد تقادم عهدها ولكن تسجيلها يجددها ويخلد ذكر صاحبها ، ومن أوائل قصائده فيه واحدة فى مدح الأمير محمد بن السلطان عبد الرحمن بن هشام وأخرى فى ابنه الآخر سليمان ، وهكذا •

وهذا الديوان بخط الناظم نفسه ، وهو كبير الحجم • وفى آخره نصوص يعتقد أنها ليست له • وقد اطلعت على نسخة الخزانة العامة بالرباط التي تحمل رقم ك 204 • وهو غير مذكور فى مؤلفاته المذكورة فى (ذخيرة الأواخر) •

11 ـ 2 : ديوان آخر فى مدح السلطان الحسن الأول رقمه بالمكتبة الملكية بالرباط ، رقم 5310 •

11 ـ 3 : نسخة أخرى منه في نفس المكان ، رقم 2420 • ولعل هذا الديوان هو (مشموم عرار النجد والغيطان) الآتي ذكره •

12 ـ ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول :

بمكتبة الخزانة العامة بالرباط • يحتوي على 58 صفحة (ورقة ؟) مكتوب بخط جميل على ورق كراس عادي • اطلعت عليه فى المكتبة المذكورة برقم 2659 • ويوجد عليـه تملك مكتوب بخط أفـرنجي (لاتيني) منقوش على المطاط باسم السيد قاسمي بن عزوز ، أستاذ اللغة العربية بالهامل فى بوسعادة بالجزائر ، هاتف 005 •

بداية هذا المخطوط هكذا : « أخذت فيه يوم القيامة سبعمائة صلاة مقبولة ••• » وآخره « وكان الفراغ منه فى خامس ربيع الأنوار • عام 1299 •• انتهى بمحد الله وحسن عونه » •

ولا يوجد منه سوى الجزء الثاني ، أما الجزء الأول منه فمفقود ونعتقد أن هذا الكتاب (الجزء الثاني) قد أخذه عبد الحي الكتاني من الهامل الى المغرب فى احدى زياراته للجزائر •

فى هذا الجزء حديث عن الجزائر والمغرب ، ويبدأ الحديث عن الجزائر من أوله الى صفحة 25 ، ويتخلل الحديث عن المغرب ذلك ثم يختص به ابتداء من صفحة 26 • وفى صفحة 54 عنوان « خاتمة » تتضمـن الحديث عن أهمية علم التاريخ ثم التعريف بالعلماء • أما بقية النص فكلام متصل لا تفصله فقرات ولا عناوين •

وفى الجزء الخاص بالجزائر حديث عن علمائها وأخبارها وأخلاق أهلها زمن الاحتلال كما يوجد فيه وصف لمدنها الأوربية والوطنية وأحوالها • ويغلب على الظن أن (ذخيرة الأواخر) هو رحلته التي بدأها بالجزائر مارا بمصر والحجاز واسطانبول ، الخ • وبالاضافة الى مدائن الجزائر يذكر المشرفي مدائن مصر وغيرها • وهو معجب بوالي مصر محمد علي الذي

قال انه اجتمع به سنة 1265 • وقد ذكر فى خاتمة الكتاب رأيه فى علم التاريـخ •

وقد تحدث فى الجزء الأول المفقود عن الجزائر فى العهد العثماني • ذكر فى نهاية الجزء الموجود (الثاني) أنه لم يكن له سابق يعتمد عليه فى دولة الجزائر التركية (ص 55) •

ويبدو أن خطه ليس هو خط مؤلفه •

13 ـ 1 : نسخة ثانية من ذخيرة الأواخر والأول :

فى المكتبة الوطنية بالجزائر ، وهي مصورة على الميكروفيلم ، ولا أذكر ان كانت مصورة عن نسخة الرباط أو غيرها • وقد اطلعت على نسخة الجزائر أيضا • وفيه تراجم علماء الجزائر أمثال أحمد بن عمار ، وابن علي ، وأبي راس ، وشيوخ المشرفي ، ولاحظت عليه أنه كتاب هـام جـدا •

وفى آخر هذا التأليف يذكر المشرفي نبذة من حياته فى المغرب وحنينه الى وطنه الأول ، ويشكو حالته السيئة بالمغرب ، وفراغ جيبه وضيق حاله • كما يذكر أنه فرغ منه سنة 1299 هـ • وهذه النسخة هي الجزء الثاني فقط • وقد عده المشرفي نفسه من تآليفه صغيرة الحجم •

13 ـ 2 : نسخة ثالثة منه :

نقل منها المستعرب الفرنسي هنري بيريز وسماها (ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول) • وقال ان المشرفي انتهى منه سنة 1882 • وكان بيريز قد نقل منه رأي المشرفي فى الحكـم الفرنسـي بالجزائـر •

وذكر بيريز أيضا ان المشرفي كان قد خرج من الجزائر عند نـزول الفرنسيين بها ثم عاد اليها سنة 1848 ـ 49 ، ثم سنة 1877 • وأخبر انه ذكر فيه تراجم لعلماء الجزائر عندئذ •

ولا ندري ان كانت النسخة التي اطلع عليها بيريز هي الأولى والثانية ، وهل هي احدى النسخ سابقة الذكر أو هي نسخة أخرى لا نعرفها •

14 ــ رحلة الى شمال المغرب :

رافق فيها السلطان الحسن الأول • وقد ألف هذه الرحلة سنة 1306 • ولم يكن المشرفي وحده في هذه المرافقة بل كان معه مجموعة من الطلبة والعلماء •

وتوجد فى الرحلة أشعار للمشرفي ولغيره • وهي بخطه • أما مكانها فهو المكتبة الملكية بالرباط ، تحت رقم 2420 • وقد اطلعت عليها بتاريخ 10 أغسطس سنة 1973 ولاحظت عليها بأنها فى مجلد وسط وخط واضح وليس لها عنوان • وليس فى (ذخيرة الأواخر) ذكر لها •

15 ــ الرحلة الجزائرية :

جاء فى كتاب (دليل مؤرخ المغرب) لعبد السلام بن سودة ، ط 1 1950 ، ص 395،ان للمشرفي رحلة الى بلاد الجزائر تقع في مجلد وأخبر أنها توجد بالجزائر دون تحديد مكانها • فهل تكون هي ذخيرة الاواخر والاول ؟ ومن جهة أخرى آخبر الشيخ عبد الحي الكتاني فى كتاب (دليل الحج والسياحة) لأحمد بن محمد الهواري أن رحلة المشرفي الجزائرية توجد بالجزائر دون تحديد المكان أيضا • أنظر مجلة (العرب) السعودية ، ماي 1972 ، ص 749 •

16 ــ الرحلة العريضة في اداء الفريضة :

ذكر ابن سودة فى (دليل مؤرخ المغرب) ، ط 1 ، ص 395 ، انها تقع في مجلد وقال ان طرفا منها يوجد في خزانته•أما الشيخ عبد الحي الكتاني فقد أخبر أن أسمها هو (الرحلة العريضة لأداء حج الفريضة) كما أخبر أنها في مجلد وقال ان من رآها أخبره أنها دون رحلة المشرفي الجزائرية والسوسية • ولم يذكر الكتاني ما اذا كانت دونهما فى الأهمية أو فى الحجم • وكان الكتاني قد كتب هذا في كتاب (دليل الحج والسياحة) لأحمد بن محمد الهواري ، أنظر مجلة (العرب) السعودية ، ماي 1972 ، ص 749 •

17 ــ رحلة القبائل الجبلية :

رحلة منظومة أولها :

الحمـــد لله منيـــل البـــركـــة وجـاعل الــرزق في معنى الحركة

وهي فى حوالي مائة بيت توجد فى مكتبة محمد الفاسي الفهري ، كما أخبر بذلك صاحب كتاب (دليل مؤرخ المغرب) ، ط 1 (1950) ص 446 • أما المشرفي فلم يذكر هذه الرحلة ضمن مؤلفاته المذكورة في (ذخيرة الأواخر) •

18 ــ الرسالة في أهل البصبور الحثالة :

عارض فيها الاحتماء بالكفار وقضية الامتيازات الاجنبية قائلا عــن الحماية بأنها هي « دخول المسلمين تحت كلمة الكفرة » •

والرسالة صغيرة تقع فى ثماني صفحات فقط • ألفها فى حدود سنة 1290 ــ 1873 وقد أخبر محمد المنوني أن نسخة منها توجد فى مكتبته •

أنظر مجلة تطوان عدد 6 (سنة 1961) وكذلك كتاب مظاهر يقظة المغرب الحديث لمحمد المنوني ، ص 256 •

لم يذكر المشرفي هذا العمل من بين مؤلفاته فى كتابه (ذخيرة الأواخر) •

19 ــ شرح القصيدة الشمقمقية :

نظم أحمد بن محمد الونان التواتي • تحتوي على حوالي مائتي بيت • وهي التي مدح بها الشاعر السلطان محمد بن عبد الله (القرآن 12 هـ) •

وقد جمع فيها أنواع الغزل والنسيب والمديح والمواعظ والحكم وأيام العرب وحروبهم الخ •

أما شرح المشرفي فعنوانه (فتح المنان فى شرح قصيدة ابن الونان) أو (المواهب السنية فى شرح الشمقمقية) ، وقد اطلعت عليه واستفدت منه ولاحظت أن خطه جميل وسجلت رقمه وهو 1041 بالخزانة الزيدانية بالمغرب •

وهذا التأليف يقع فى مجلد ضخم • وقد استهله بقوله « الحمد لله المحمود بكل لغة وبيان ، الموجود قبل تكوين اللغات وجارحة اللسان » •

وقد ذكره المشرفي نفسه فى مؤلفاته المذكورة فى آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) ، انظر أيضا (دليل مؤرخ المغرب) ، ط 1 (1950) ، ص 479 •

20 ــ 1 : طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار :

تناول المشرفي فى هذا الكتاب أحوال الجزائر فى عهد الأمير عبد القادر ، ويبدو من العنوان أنه ضد الأمير ، ولكنه فى الواقع متعاطف معه ما عدا فى بعض المواقف • ولكن رأى المشرفي فى بعض أصحاب الأمير كان رأيا واضحا وقاسيا • وأنا أملك نسخة مصورة عن نسخة الرباط رقم ك 496 • كما قرأت فى أعمال المرحوم محمد بن أبي شنب أنه قد حقق هذا الكتاب ولكن أحدا لم يخبرني أنه رأى هذا الكتاب مطبوعا •

وعلى كل حال توجد من هذا الكتاب عدة نسخ • فبالاضافة الى نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية التي لا أذكر رقمها هناك :

20 ــ 2 : نسخة أخرى بالمكتبة الملكية بالرباط تقع في (60) ستين ورقة ، وهي رقم 1476 •

20 ــ 3 : نسخة أخرى ناقصة (مبتورة الوسط) وهي رقم 6533 في نفس المكتبة •

وقد ذكر المشرفي نفسه هذا الكتاب فى آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) وعده من كتبه الهامة الموجودة فى مكتبة السلطان •

21 ــ عجيب الذاهب والجائي في فضيحة الغالي اللجائي :

وهو كتاب رد فيه على الغالي بن محمد العمراني الحسني اللجائي الذي كان يتنطع على الأمير عبد القادر الجزائري بينما كان المشرفي ينتصر له • ولم يذكر صاحب (دليل مؤرخ المغرب) الذي أورد العبارة السابقة متى ألف المشرفي هذا التأليف ، هل فى زمن كفاح الأمير فى الجزائر والمغرب أو بعد انهزامه واستسلامه ؟

وعلى كل حال فان صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ، ص 489 (ط 2) ذكر ان هذا الكتاب موجود فى مكتبة محمد بن ابراهيم الكتاني الحسني كما أخبره بنفسه عن ذلك • أما المشرفي فلم يذكر هذا التأليف في(ذخيرة الأواخـــر) •

22 ـ الفتح والتيسير في شرح قصيدة (؟) من هم على قدم البشـــير النذير :

والمؤلف مذكور هكذا المشرفي العربي بن (كذا) فقط •

ويوجد فى المكتبة الملكية بالرباط ، رقم 5271 • وهو غير مذكور من بين مؤلفاته التي ذكرها فى آخر (ذخيرة الأواخر) •ولا ندري موضوعه بالضبط •

23 ـ 1 : كناش المشرفي :

كناش هام يحتوي على تقاييد من قراءاته فى التاريخ والآداب • كما يضـــم أشعارا له ولغـــيره • وفيه أيضا تواريخ وأخبار • وفي صفحة 433 منه يوجد نسبه ، وقال فى نهاية الكناش « جمع الله شمله بوطنه » يعني الجزائر ومعسكر • وفى آخر الكناش تاريخ هو سنة 1261 هـ •

وقد ذكر فيه ، ص 435 ، الى ص 438 ، قصيدة مصطفى الرماصي فى رثاء شيخه عمرو التراري بن أحمد أبي اجلال المشرفي دفين زاوية الكرط • وبدايتهـــا :

خليلي عوجـــا بي على طـــلل عفـــا معـــالمـــه قـــد غـــيرت ومعاهده
وأسفت عليه السافيـــات بعيدنـــا رقـــاق الحصـــا فانحط منها اجالده

وتبلغ القصيدة 150 بيتا • وقد حذا فيها الرماصي حذو أبي حيان فى رثاء شيخه أيضا حيث قال :

هو العـــلم لا كالعـــلم شيء تراوده لقـــد فـــاز باغيـــه وانجح قاصده

وفى الكناش أيضا قصيدة للسنوسي بن عبد القادر بن دحو (ص 451 ـ 452) •

ومكان هذا الكناش الخزانة العامة بالرباط رقم ك 471 • ولم يذكره صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ولا ذكره صاحبه فى (ذخيرة الأواخر) •

23 ـ 2 : كناش آخر له : في نفس المكان رقم ك 204 ، لم أطلع عليه ، ولا نعرف ان احدا قد ذكره .

24 ـ المشرفي الحمزاوي لقطع فؤاد الخبزاوي :

ذكر صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ص 533 ان هذا التأليف عبارة عن رسالة بدأها المشرفي بقوله : « الحمد لله مؤيد المؤمنين من غريس » ، وقد رد فيه على أحد معاصريه الذي لا نعرف اسمه والذي قد يكون أحد المغاربة . وعلى كل حال فقد « عاب عليه بعض مقطعات شعرية صدرت منه ، أطال فيه » .

وأخبر نفس المصدر ان هذا التأليف يقع فى نحو كراسة ، وأن الأصل منه يوجد بخط المؤلف بالخزانة الأحمدية ضمن مجموع ، وهي مكتبة صاحب (دليل مؤرخ المغرب) نفسه . وليس فى (ذخيرة الأواخر) ذكر لهذا التأليف .

25 ـ مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق . . المولى السلطان :

ذكر هذا الكتاب المشرفي نفسه فى آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) ، ولم يفصل ما اذا كان نثرا أو شعرا . ويظهر من العنوان أنه ديوان شعر ، خصوصا اننا عرفنا أن للمشرفي ديوانا فى مدح السلطان الحسن الأول . وقد رأيت هذا الكتاب فى المكتبة الزيدانية التابعة للمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 2848 ، ولكنني لم أسجل محتواه .

26 ـ نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده السيد الحسن .

وهي المعروفة أيضا بالرحلة السوسية . رأيت منها نسختين احداهما فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 5616 والثانية فى الخزانة العامة بالرباط أيضا رقم 579 .

كما توجد منها فى المكتبة الأخيرة مصورة على الميكروفيلم تحت رقم 7 وعدد صفحاتها 512 . وذكر عبد السلام بن سودة فى (دليل مؤرخ

المغرب) ط 1 ، 1950 ، ص 266 أن نسخة منها توجد أيضا بخزانة زاوية تمكدشت عند حفدة المؤلفة فيه .

وهذه الرحلة تحكي توجه المشرفي من مراكش الى زاوية تمكدشت من بلاد السوس . فذكر ما رأى أثناء مروره فى الطريق نثرا ونظما . وترجم فيها لشيخ الزاوية أحمد بن محمد بن ابراهيم التمكدشتي وابنه الحسن ، كما ذكر أخبار تلاميذهما . وقد وقعت هذه الرحلة سنة 1290 (1873). ويذكر ابن سودة أن الغالب أن تكون نسخة الزاوية المذكورة بخط المؤلف نفسه .

وذكر المشرفي في أوله أنه ألفه بأمر القائد عبد الله بن أحمد السوسي قائد مدينة فاس الذي توفي سنة 1304 (1886) . وقد استهله بقوله : « حمدا لله تعالى فى الحركة والسكون الخ . » وهذه الرحلة فى مجلد ضخم كما وصفها بنفسه فى آخر كتابه (ذخيرة الأواخر والأول) . وقد رتبها على مقدمة وسبعة فصول .

27 ـ ورقات في رواج السكة بالزيادة :

لم يذكر معها اسم المشرفي ، ولكن اسم المؤلف ذكر فيها هكذا : العربي المشرفي . والغالب انه أبو حامد المشرفي هذا . توجد فى مكتبة تطوان رقم 1 / 343 .

لم يذكر هذا العمل المؤلف نفسه فى كتابه (ذخيرة الأواخر) .

28 ـ ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مجاجة :

تحدث فيه المشرفي عن نسب الأدارسة بالمغرب ، وترجم فيه للشيخ محمد بن علي المجاجي (نسبة الى مجاجة الواقعة فى ولاية الشلف بالجزائر) . وكان الشيخ المجاجي من علماء وصلحاء الجزائر فى أوائل القرن الحادي عشر الهجري . ويقع الكتاب فى مجلد وسط . وعندي نسخة منه مصورة لا أدري من أين صورتها . والنسخة الأصلية منه

توجد بخط المؤلف فى الخزانة العامة بالرباط . تحت رقم 1534 • أنظر (دليل مؤرخ المغرب) ، ط 1 (1950) ، ص 146 •

وقد افتتحه المشرفي بقوله « الحمد لله باسمه يدون المدونات ••• » ورتبه على مقدمة وأربعة أقسام وخاتمة • وقد انتهى من تأليفه سنة 1300 هـ • وهو فى 88 ورقة •

ولهذا الكتاب عنوان آخر وهو (اليواقيت الثمينة الوهاجة فى التعريف بسيدي محمد بن علي مجاجة) • أنظر أيضا عنه فهرس المخطوطات العربية بالرباط ، القسم الثاني ، رقم 2164 •

والواقع ان محتوى الكتاب لا يقتصر على المجاجي والأدارسة بل فيه أخبار هامة عن الغرب الجزائري وعلمائه •

ومنه نسخة أيضا فى المكتبة الوطنية بالجزائر ، مصورة على الميكروفيلم • لا أذكر رقمها • ولعل نسختي الخاصة منها •

ولم يذكره المشرفي من بين مؤلفاته التي ذكرها في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) •

الجزائر ، 4 أبريل ، 1983

خطبة ابن الموهوب عند توليته الفتوى بقسنطينة سنة 1908

الشيخ المولود بن الموهوب من أعيان مدينة قسنطينة فى فترة النهضة الوطنية . عاش فى الثلث الأخير من القرن الماضي والثلث الأول من هذا القرن مدرسا وفقيها ومفتيا وخطيبا وشاعرا وناثرا . فقد ولد حوالي سنة 1866 ، وتعلم بالطريقة التقليدية . وكان محمد الشاذلي القسنطيني من شيوخه بالمدرسة الكتانية الرسمية (فرنسية ــ اسلامية) . ثم أصبح هو من شيوخ هذه المدرسة ، وكان من شيوخه وزملائه فيها عبد القادر المجاوي ومحمد بن أبي شنب ومحمود بن محمد الشاذلي القسنطيني . ومن معاصريه البارزين حمدان بن الونيسي وصالح بن مهنا . ولابن الموهوب تلاميذ أبرزهم عبد الحميد بن باديس الذي حضر بعض دروسه فى الجامع الكبير ولعله تأثر بأفكاره الاصلاحية .

كانت قسنطينة أيام ابن الموهوب تعج بالنشاط والتوقعات . ففي سنة 1891 تحرك أعيانها تحركا جماعيا فكتبوا عريضة تاريخية الى السلطات الفرنسية طالبوا فيها بأمور اقتصادية واجتماعية وثقافية ، منها احترام اللغة العربية والقضاء الاسلامي والعادات والتقاليد الوطنية والتعليم الاسلامي . ومن بين الذين وقعوا على هذه العريضة عبد الكريم بن باش تارزي ، مفتي المذهب الحنفي ، والطيب بن أوادفيل ، مفتي المذهب المالكي ، والشريف بن باديس ، قاضي مدينة قسنطينة ، ومحمود بن الشاذلي ، مدير المدرسة الكتانية ، وعبد القادر المجاوي ، المدرس بنفس المدرسة ، وحمدان بن الونيسي ، المدرس ، وأربعة من عائلة بن الفكون (شيخ الاسلام) ، الخ .

وكان المجاوي قد نشر سنة 1877 كتيبا سماه (ارشاد المتعلمين) ، دعا فيه الى الأخذ بالعلوم العصرية واللغات الأجنبية ومن ثمة النهضة الوطنية • وكان لهذا الكتيب ، على صغره ، ضجة فى قسنطينة حيث استقبلته الفئة الوطنية بالترحيب بينما كالت الأوساط الآستعمارية لصاحبه الشتائم والاتهامات ، وعرفت قسنطينة أيضا وتأثرت ، بحكم الجوار ، بأحداث الحركة الوطنية التونسية من انشاء المدرستين الصادقية والخلدونية ، وظهور حزب تونس الفتاة وتيار اصلاح جامع الزيتونة وزيارة الشيخ محمد عبده ونحو ذلك • وكان ابن الموهوب معاصرا ومتأثرا بهذه الأحداث •

وقد وجه الوالي العام شارل جونار (1903 — 1913) عناية خاصة لاحياء سنة التدريس بالمساجد ونشر التعليم الاسلامي التقليدي • وبذلك شملت حركته عددا من الشخصيات العلمية التي كانت من قبل فى الظل ، ومن هؤلاء ابن الموهوب الذي أضاف الى وظيفة مدرس بالمدرسة الكتانية وظيفة مفتي الديار القسنطينية سنة 1908 • ويدخل فى نطاق مهمته كمفتي ، الاشراف على المساجد فى ولاية قسنطينة ، ورئاسة الجمعية الخيرية الاسلامية • ومن مشمولاتها أيضا السهر على الأوقاف والتدريس بالجامع الكبير والقاء خطبة الجمعة والعيدين به • وبذلك كانت لوظيفة الفتوى حقوق كثيرة وواجبات أكثر • وكان متوليها يسير على حد السيف بين مصالح الأهالي وارضاء ضميره الديني والوطني وبين المصالح الاستعمارية التي تتطلع الى أن يحقق لها المفتي الأمن والاستقرار والسيطرة على أيمة المساجد ومعلمي التعليم العربي الاسلامي•

وهذه المسؤولية المزدوجة هي التي كانت فى وقت لاحق السبب في اتخاذ ابن الموهوب مواقف تبدو غير منسجمة أحيانا مع ما عرف عنه من اصلاح وليبرالية • ذلك أن ابن الموهوب قد آمن بالاصلاح الاسلامي ، كما جاء من المشرق على لسان الشيخ عبده ، واستغل تعاطف الوالي العام مع الدراسات الاسلامية فدعا — كما ترى من خطبته — الى اليقظة الوطنية والتقدم المادي والاصلاح الاسلامي والتعليم ونفي التعصب عن الاسلام • ولف كل ذلك فى اطار مايسميه

المعونة الفرنسية • ولكن نداءه الى الاصلاح واليقظة أصبح بالتدرج نداء محافظا بالنسبة الى المرحلة الجديدة التي دخلتها الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى • وازداد بالطبع ضغط الفرنسيين على ابن الموهوب وأمثاله من الموظفين الرسميين ليقفوا ضد تيار الوطنية المتطرفة فى نظرهم وتيار الاصلاح الجديد أو الحـر الذي تزعمه عبد الحميد بن باديس ثم جمعية العلماء • وهكذا ، فلم تحن سنة 1920 حتى أصبح ابن الموهوب محافظا ، بل فى تناقض مع موجـة الاصلاح الجـديد التي رآها تستولي على المساجد والتعليم وتنادي بفصل الدين الاسلامي عن الدولة الفرنسية وتبعد الجماهير عن الموظفين الرسميين •

بالاضافة الى الفتوى عمل ابن الموهوب مدرسا فى المدرسة الكتانية ، كما سبقت الاشارة ، ورئيسا للجمعية الخيرية بقسنطينة ومحاضرا في نادي صالح باي ، ومدرسا بالجامع الكبير ونحو ذلك من الوظـائف الدينية • وكانت محاضراته تترجم وتنشر فى الجرائد اليومية المحلية ، وكانت محل تقدير فئة النخبة الجزائرية المعاصرة • فنحن نجد فى كتاب الشريف بن حبيلس (الجزائر كما يراها أهلي (1)) اشادة كبيرة بآرائه ونقلا من خطبه وأناشيده • كما ساهم ابن الموهوب فى الحركة الادبية اذ كتب الشعر والنثر فى جريدة (كوكب افريقية) وجريدة (المغرب) • وقام بشرح عمل من تأليف المجاوي • كما قام أحد علماء وادي سوف ، وهو ابراهيم بن عامر (العوامر) بتشطير نظم لابن الموهوب فى ذم البدع (2) •

واذا كان هناك ظلال فى حياة الشيخ ابن الموهوب فالظاهر أن مصدرها عاملان :

1 ــ كونه موظفا رسميا فكان مقيد الفكر مقصوص الجناح ، بينما كان مصلحو ما بعد الحرب العالمية الأولى طلقاء •

---

1 ــ الجزائر ، ط2 ، 1914 ، والملاحظ أن عائلة ابن الموهوب وابن حبيلس من جهة واحدة هي جيجل •

2 ــ سماه (مطالع السعود بتشطير ادبية الشيخ المولود) ونشر ذلك في عدد 56 من جريدة (الفاروق) سنة 1914 . أنظر كتاب (الصروف) تأليف ابراهيم بن عامر ، تونس 1977 ، ص 22 .

2 ـ كونه من خارج مدينة قسنطينة أصلا ، بينما كانت عائلات قسنطينة القديمة ، ولاسيما عائلة ابن باديس ، تعتبر نفسها أحق بمنصب الفتوى من أحد العلماء الوافدين • والمعروف أن وظيفة الفتوى كانت فى عائلة ابن الفكون مثلا طيلة العهد العثماني • وقد ضرب الفرنسيون على هذا الوتر عند اسنادهم الوظائف الدينية كالقضاء والافتاء ، فكانوا يوزعون رجال السلك الديني على مناطق بعيدة عن أصولهم الترابية والاجتماعية •

* * *

عثرنا على نص خطبة الشيخ المولود بن الموهوب ضمن أوراقه التي آلت الى احدى الجهات بمدينة قسنطينة (3) • وهي مكتوبة بخط يده على أربع صفحات من النوع النصفي • وخطه فيها يبدو عليه السرعة ، ولكنه خط واضح وبحبر أسود • وعلى ظهر احدى الورقات عبارة بقلم الرصاص هي : « خطابي حين أجلست مفتيا » • والخطبة كلها نص واحد متواصل الا الفقرة الأخيرة فهي مفصولة • وقد استخدم فيها تكرار بعض الجمل والكلمات ، والسجع أحيانا ، وعناصرها لا تخرج عن شكر الحاضرين لحفلة جلوسه على كرسي الفتوى ، وشكر الدولة الفرنسية التي قام رجالها ، وعلى رأسهم الوالي العام جونار ، بتعيينه مفتيا ، ثم دعوة المسلمين الى اليقظة والاقبال على التعلم وتقليد جيرانهم الأروبيين ، ونبذ التعصب والجهل والتباغض ، وأخيرا الدفاع عن صفاء الاسلام وسماحته وتقدمه •

ونحن اذ نقدم هذه الخطبة للنشر فان هدفنا هو فى الواقع خدمة التراث الوطني المتمثل فى احياء آثار الرجال الذين ساهموا فى النهضة الوطنية ، وخدمة الأدب بالخصوص لأن الخطابة فن من فنونه • وقليلة هي النماذج التي يهتدي بها دراسو الأدب الحديث من هذا الفن ، ولاسيما وان هذه الخطبة من نوادر الخطب المسجلة بخط صاحبها •

3 ـ من بين ما عثرنا عليه أيضا عقد زواج ابنه محمد السعيد سنة 1926 ، وشكوى من ثلاث صفحات قدمتها جماعة الجامع الكبير بالميلية ضد الطريقة التجانية ، ودعوة لحضور الاحتفال بتكريم الشيخ مبارك الميلي بعد صدور الجزء الثاني من تاريخه الخ .

ونود أن نشير فى النهاية الى أن تقطيع الخطبة الى فقرات هو من عملنا نحن • أما الشيخ آبن الموهوب فكان يكتفي بوضع هذا الخط (ــ) بين انتقال وآخر • أما الخط المائل (/) فقد أشرنا به الى بداية السطر في الأصل •

مدينة الجزائر 1984/2/24

* * *

نص الخطبة

سادتي :

ان تفضلكم بالتنازل للاحتفال وبما أنعمت به الدولة علي من منصب / الافتاء يزيدني شرفا ، ويصغر لي كل شكر مني لذواتكم السعيدة / ، فأنا مع نهاية الاحترام والتبجيل أقدم لكم خالص تشكراتي الصادقة / من صميم فؤادي أيها المحسنون الحاضرون •

ثم اذا كان هذا اليوم / بجمعكم من أسعد أيامي، كما هو الواقع ، فأنا زيادة على ذالك (كذا) أعتبره مبدأ حياة أخرى ليست لي فقط، حياة نشاط باشتراك / واجتهاد ، حياة اتفاق على تعليم وتعلم مع السير في طريق السداد / حياة تحصد شرورا زرعها ذوو الأغراض فأنبتت الجنايات / ، حياة تؤلف بين القلوب وتغرس مودة صادقة في الشعوب ، حياة يسير بها المسلمون مع كل مجاوريهم تحت راية المعارف / المرفوعة بيد فرانصا أم الجميع •

سادتي / اذا كان المسلمون ضعفاء فالدولة الفرانصوية ليست ضعيفة/مالا ومعارف ورجال (كذا)،واذا كان وصف التعصب المذموم/ الصق بهم فانما هو الجهل منهم وممن وصفهم به والا فالاسلام / لا يأمر الا بصالح الأقوال والأفعال ، الجهل بالاسلام / هو الذي أبعدنا عن الاسلام ، الجهل بالاسلام هو الذي أفتى / بالتأخر والرضى بالضرر العام ، الجهل بالاسلام هو الذي / القى في قلوب الناس أن كل ما خالف العادة المذمومة شرعا / فهو حرام ، الجهل بالاسلام هو الذي زرع التحاسد والتباغظ (كذا) والتنافر والكبر بين أبناء الاسلام ، ، عصوا أباهم (كذا) / فخاب مسعاهم .

فهل يليق بي اذا قلت بعد هذا صبرا / ؟ كلا ، بل أقول قربا قربا ، اعانة اعانة ، العلوم ، العلوم / التربية التربية ، الصنائع الصنائع ، الوفاق الوفاق / ، فسيروا للتقدم تحت عدل فرانصا التي برهنت كثيرا على محبتها / واحترامها للاسلام ، واتركوا من يغركم ويغريكم بنسبة ما ليس / من الاسلام للاسلام ،

فالأحوال تبدلت والعقول تنورت والمعارف كثرت ، والثياب البالية ما نفعت ، وكل نفس / لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، كما يقول قرءان الاسلام / زينوا أفكاركم بالمعارف واتركوا النوم ، يا قوم ، فانه ليس أمس / كاليوم ، ولا تتكلموا على أن الصعود سعود ، فمن ترك التعلم / واتكل على هذا فهو الجلمود ، لأن الزمان زمان سباق / وكل شيء له المعرفة صداق .

سادتي :

اذا كان الجهل طعاما فقد أكلناه ، واذا كان ماء فقد شربناه / ، واذا كان ثوبا فقد لبسناه ، عشقناه وعظمناه ، فحرمنا مما/نتمناه ، واأسفاه ، علماؤنا في نصح العامة مقصرون / والعوام يقلدون ويفعلون ، وهم في الحقيقة معذورون ، لأنهم / لا يعلمون .

يا اخوتي :

لا تقتلوا / أنفسكم بالقنوط والكسل ، فان الحياة الطيبة علم وعمل / ولينظر كل واحد منكم لغيره نظر الأخ المحب لأخيه ، فمن لم يحيره / ما حل من الاضرار بالمسلمين ، فهو بعيد من الانسانية / والدين ، أقول هذا ولا أخاف لومة لائم ، وما أنا الا \ جزء منكم ، يسرني ارى نفسي معدود: من المدافعين / لكل شر عنكم ، فضعوا اليد في اليد متعاهدين متحالفين / على محاربة الجهل والبدع اللذين كانا سببا في التأخر الحال بالمسلمين/ أيها العلما (كذا) ، أيها المدرسون ، أيها الايمة ، أيها الخطبا (كذا)، ازرعوا / نافع نصحكم في عقول عامتكم ، والا فانكم تموتون بموتهم كما يموتون / بموتكم ، فان الدولة بأموالها ومدارسها المتنوعة في اعانتكم / ، ومنها الجمعية الخيرية الاسلامية التي ستكون الجامعة / لشملكم ، الرافعة لمجدكم ، المحيية لخيركم ، القاتلة لشركم .

فشكرا لرجال الدولة / وشكرا لجناب المحترم الشيخ ڤورليو ، رئيس المجلس ، الذي / شرفنا بحضوره نيابة عن عامل العمالة النايب (كذا) عن والي / عموم الجزائر ، ذالك (كذا) الشهم الذي لا زال بحسن تصرفه يؤلف / بين القلوب ، باعانة رجاله الصادقين /

فليعش الخير ومحبوه

وليمت الشر وناشروه /

موقف أمريكا والجامعة العربية
من حوادث 8 ماي 1945

ا ـ تقـــديم :

لم تبق حوادث 8 ماي 1945 أمرا داخليا بين الجزائر وفرنسا ، بل انها أدت الى تدخل أطراف أخرى مثل جامعة الدول العربية والولايات المتحدة الأمريكية • ونقدم فى هذه المقالة بعض الوثائق التي تكشف عن المراسلات التي دارت بين الأطراف المذكورة حول حوادث 8 ماي • ونحن نرجو أن يكون فى اقدامنا على نشر هذه الوثائق اضاءة جديدة للجوانب التي ماتزال مجهولة من تلك الحوادث خصوصا وان فى بعض هذه المراسلات تنبؤات باحتمال وقوع أحداث خطيرة نتيجة القمع الذي رافق تلك الحوادث •

فقد نشرت حكومة الولايات المتحدة أوراقها الدبلوماسية لسنة 1945 عن « الشرق الأدنى وافريقية » ومن ضمن هذه الأوراق خلاصة البرقيات التي دارت بين ممثلي أمريكا فى مصر والأمين العام لجامعة الدول العربية السيد عبد الرحمن عزام من جهة ، وبين ممثلها ومسؤولي الخارجية الفرنسية من جهة أخرى ، بالاضافة الى ردود الخارجية الأمريكية على هذه الاتصالات (1) • ونشير هنا بالخصوص :

1 ــ الى وثيقة بتاريخ القاهرة 21 يونيو 1945 من الوزير الأمريكي المفوض بالقاهرة تاك Tuck الى الخارجية الأمريكية •

1) Foreign Relations of the United States, Diplomatic papers,, 1945, Vol. VIII, The Near East and Africa, Washington, D.C. 1969, pp. 30-33.

* ــ نشر في مجلة التربية (وزارة التعليم الأساسي ــ الجزائر) ، عدد يوليو ــ أغسطس ، 1982 ، عدد 4 ، سنة أولى .

2 ـ ووثيقة بتاريخ واشنطن 5 أكتوبر 1945 من كاتب الدولة للخارجية بالنيابة الى الوزير (تاك) بمصر •

وهناك عدد آخر من الوثائق تشير اليه المراسلات الحاضرة بل وتلخصه ولكن نصوصه ماتزال غير منشورة ، وهي موجودة فى محفوظات الخارجية الأمريكية ، ومن السهل على الباحثين الراغبين فى الحصول على هذه الوثائق مادامت أرقامها معروفة وكذلك مظانها • وتعني بالخصوص ما يلي :

1 ـ رسالة عبد الرحمن عزام الى الوزير المفوض الأمريكي بالقاهرة عن أحداث 8 مايو بالجزائر •

2 ـ برقية البعثة الأمريكية من القاهرة رقم 330 •

3 ـ نص برقية وزارة الخارجية الأمريكية رقم 3551 (يوليو 1945) الى سفارتها بباريس •

4 ـ نص رد السفارة الأمريكية بفرنسا رقم 4684 (3 أوت 1945)

5 ـ نص برقية القائم بالأعمال الأمريكي فى مصر الى الخارجية الأمريكية رقم 596 (13 نوفمبر 1945) •

واذا توفرت لدى الباحث كل هذه الوثائق ، بالاضافة الى ما ترجمناه هنا فانه سيتمكن من استخراج موقف واضح من حوادث 8 مايو 1945 من كلا الطرفين جامعة الدول العربية والولايات المتحدة الأمريكية ، كما سيتضح له أكثر الموقف الفرنسي وعلاقته بكل من أحداث الشرق الأدنى والنفوذ الأمريكي الجديد فى أوربا بعد الحرب العالمية الثانية •

لم يكن قد مضى على تأسيس جامعة الدول العربية سوى بضعة أسابيع عندما وقعت حوادث 8 مايو • وقد شعر أمينها العام السيد عبد الرحمن عزام ، بالتزامات الجامعة نحو الشعب الجزائري ازاء ما كان الفرنسيون يرتكبونه من عمليات الابادة والارهاب • ولعل عزام لم يكن يتحرك بموجب مواثيق الجامعة فقط ، فقد كانت هناك جالية جزائرية مغربية وراء تحركه تحثه على التدخل • ولا ندري هل اتصل السيد

عزام بالسلطات الفرنسية بالقاهرة أيضا كما اتصل بالسلطات الأمريكية هناك ، أو أنه التجأ من البداية الى هذه السلطات للضغط على الفرنسيين ليكفوا أيديهم عن الجزائريين • ان وثائق الجامعة والوثائق الفرنسية هي التي تجيب على ذلك ، وهي ليست بين أيدينا الآن •

وعلى كل حال فان تدخل الجامعة العربية لدى الخارجية الأمريكية قد أتى ببعض الثمار • فقد قدم عزام رسالة باسم الجامعة الى الوزير المفوض الأمريكي بالقاهرة حول الوضع بالجزائر • فما كان من الوزير الا أن حول الرسالة مع رأيه الخاص الى الخارجية الأمريكية التي اتصلت بسفيرها فى باريس Caffery وطلبت منه التدخل لدى السيد جورج بيدو الذي كان عندئذ وزيرا للخارجية الفرنسية • وفي تدخلهم أوضح الأمريكيون للفرنسيين بأن الاحصاء الذي أعلنه وزير الداخلية الفرنسي تيكسييه Tixier عن حوادث مايو غير موثوق فيه ، وأن القمع قد تجاوز الحدود وان هناك « أخطر الاحتمالات » من جراء هذا القمع ، فكأن الأمريكيين بهذا الانذار كانوا يقرأون سطور الغيب ويلمحون الى ثورة 1954 التي كانت طبعا « أخطر الاحتمالات » •

ويلاحظ القاريء للوثائق التالية تنوع الموقف الأمريكي • فقد أصروا لدى عزام أنهم لم يتحركوا الا استجابة لطلبه الشخصي وليس لطلب الجامعة كمنظمة دولية ونفوا أن تكون لهم ، كما لمحت رسالة عزام ، مسؤولية فيما حدث بالجزائر على أساس أنهم هم الذين حرروا شمال افريقية عسكريا وأعادوه الى الفرنسيين ، ومن جهة أخرى كانوا حذرين جدا فى اقترابهم من الفرنسيين بهذا الشأن ، فهم من جهة أثبتوا لهم مساهمتهم فى تحرير شمال افريقية عسكريا ، ومساعدتهم له اقتصاديا وهذه أمور تهم الحكومة ، كما تهم الرأي العام الأمريكي • ومن جهة أخرى عبروا لهم عن قلقهم من أن يتطور الوضع فى شمال افريقية فيكون له « عواقب وخيمة للغاية ليس على الفرنسيين فحسب ولكن على العلاقات بين العالم العربي وجميع الدول الغربية » • ومع ذلك تفادوا التعبير عن موقفهم للفرنسيين كتابة كما اقنعوا الأمين العام لجامعة الدول العربية بعدم الدعوة الى عقد جلسة عمومية حول الموضوع •

وقبل أن نختم هذا التقديم نود أن نشير الى أن التعاليق فى أسفل الوثائق هي من وضع الناشرين الأصليين ، واننا حافظنا على أرقام البرقيات كما هي ، ومما يلفت النظر أن البرقية الواحدة كانت توجه نسخ منها الى مختلف العواصم التي يهمها الأمر ، كما هو واضح في النص • وعسى أن يكون فى اقدامنا على ترجمة ونشر هذه الوثائق بعض الفائدة للباحثين فى تاريخ الجزائر الحديث •

ب ـ الوثائق :

برقيــة : 2145

من الوزير تاك Turck فى مصر الى كــاتب الدولة للجــارجية • القاهرة 21 يونيو 1945 • (استلمت يوم 26 يونيو على الساعة الثالثة مساء) •

A 331 • بالأمس زارني عبد الرحمن عزام بك ، أمين عام جامعة الدول العربية وقد أخبرني أنه جاءني يطلب نصيحتي فى الخطوات التي يمكن القيام بها للحصول على تدخل حكومتنا لدى الفرنسيين بالنسبة للوضع الخطير السائد الآن فى شمال افريقية • انه قرأ فى الصحف وسمع من مصادر أخرى متعددة أن الزعماء العرب فى شمال افريقية يعانون من اضطهاد شديد ، وان المحاكم العسكرية قد نصبت فى الجزائر وان هذه المحاكم تصدر أحكاما بالموت على عدد من الأشخاص المتهمين باثارة الاضطرابات الأخيرة •

وقد أكد لي عزام بك أنه يرغب اذا أمكن فى تفادي استدعاء جلسة لمجلس جامعة الدول العربية للنظر فى الوضع ، ولكنه ذكرني بأن الملحق الثاني لمؤتمر الدول العربية المنعقد فى مارس 1945 ينص على التعاون مع الدول العربية غير الأعضاء فى مجلس الجامعة •ويبدو أن عزام بك يرى أن درجة كبيرة من المسؤولية المعنوية تقع عــلى كاهل الولايات المتحدة بخصوص هذا الموضوع ، بقدر ما كانت القوات العسكرية للولايات المتحدة هي التي أنقذت ممتلكات شمال افريقية لفرنسا ، وهي التي

أعادت النفوذ الفرنسي على تلك المنظمة • ولذلك فانه يأمل أن حكومتنا تتمكن من التدخل لدى الحكومة الفرنسية وتشير عليها بالاعتدال والمعاملة الانسانية بالنسبة للسياسيين المتهمين باثارة الشعب • وهو يرى أن الولايات المتحدة بفعلها ذاك ، مايزال بامكانها أن تنقذ حياة العديد من عرب شمال افريقية •

ومن جانبي ذكرت عزام بك بأنه كان قد أكد لي سابقا بأن مجلس الجامعة العربية رأى أن القضية التي واجهته فى اجتماعه الأخير هي الوضع فى المشرق • وقد أعطيته رأيي الشخصي من أنه اذا دعي مجلس الجامعة الى الانعقاد للنظر فى الوضع بشمال افريقية فان ذلك سيكون خطوة قد تبرز الاعتقاد بأن الجامعة العربية هي الآن على استعداد للنظر فى جميع القضايا المختلفة بالشرق الأوسط • وهذا بالمناسبة هو ما يبدو أن الحكومة الفرنسية ترغب بالحاح فى عمله •

وقد وقع الاتفاق على أن يرسل الي عزام بك رسالة غير رسمية يوضح فيها رأيه ، وأخبرته انني سأكون سعيدا أن أوجه هذه الرسالة الى وزارة الخارجية لمعلوماتها وان برقية البعثة الأمريكية رقم 330 ، 21 يونيو (1) تتضمن نص رسالة عزام بك الي بخصوص هذا الموضوع فلعل وزارة الخارجية ترغب فى النظر فى امكانية التقدم الى الحكومة الفرنسية على أساس ضمان معاملة أكثر رحمة من طرف السلطات الفرنسية فى قمعها للاضطرابات الأخيرة فى شمال افريقية •

نسخ أرسلت الى : بيروت ، بغداد ، دمشق ، جدة ، القدس ، عدن ، تونس ، الجزائر ، الدار البيضاء ، الرباط ، باريس ، ولندن •

تاك Tuck

* * *

برقية : 851 R 00/8/345.

من كاتب الدولة للخارجية بالنيابة الى الوزير (تاك) بمصر • واشنطن 5 أكتوبر 1945

---

1 ـ وهي غير مطبوعة •

A 490 • فيما يلي (ولاطلاعك الشخصي والسري للغاية) فحوى برقية وزارة الخارجية رقم 3551 بتاريخ 30 يونيو على السادسة مساء الى باريس ، وهي البرقية المتعلقة بالوضع فى الجزائر المشار اليه في (رسالتك) رقم 330 — A و 331 - A بتاريخ 21 يونيو 1945 بالاضافة الى فحوى رد السفارة (برقية رقم 4684 بتاريخ 3 أغسطس على الساعة السادسة مساء) •

بداية فحوى البرقية :

ان بعثة القاهرة قد أرسلت الينا نص رسالة من الأمين العام للجامعة العربية بخصوص الوضع في الجزائر الناتج عن انتفاضة Uprising الأهالي يوم 8 مايو ، والاجراآت القمعية التي اتخذتها السلطات الفرنسية بعد ذلك • وبناء على هذه الرسالة فان الجامعة العربية لا يمكنها طبقا لميثاقها أن تتغاضى الى ما لا نهاية له عن الوضع الفظيع الذي جعل العرب يعانون من حكم ارهابي هو الحكم العسكري والزج بالناس فى السجون والموت بالمآت والآلاف والقتل بالآلاف •

وعليك أن تخبر بيدو (1) شفويا باستلام هذه الرسالة وأن تقول له بأن الوضع الحاضر فى الجزائر المشار اليه ليس مصدرا لقلق حكومة الولايات المتحدة فقط بل أيضا للرأي العام فى هذه البلاد الذي يشعر بعمق بالتضحيات الامريكية فى الأرواح والعتاد التي قدمت من أجل تحرير شمال افريقية ، ثم المساعدات الاقتصادية التي قدمت الى تلك المنطقة بعد ذلك والهادفة الى المستقبل • وفى هذا الاطار يمكنك أن تشير الى أننا أخذنا علما بالكلمة التي أذاعها تيكسييه (2) بعد التحقيق فى الانتفاضة والتي قال فيها ان عداد المسلمين الذين قتلوا لا يتجاوز ألفا وخمسمائة نسمة •

ان معظم المصادر المعتمدة تقدر بأن عدد القتلى أعلى من ذلك بكثير ، ولكن حتى ولو سلمنا باحصاء تيكسييه ، فانه يدل على تجاوز الحد فى الاجراءات القمعية كما يدل على وجود وضع تكمن فيه أخطر الاحتمالات •

---

1 — جورج بيدو هو وزير الخارجية الفرنسي •

2 — في 29 يونيو ، وادريان تيكسييه هو وزير الداخلية الفرنسي •

وفى تقديمك لهذه الرسالة لنظر بيدو يجب أن تؤكد بأن ما جعلنا نتحرك هو دوافع ذات طابع ودي للغاية ، بالاضافة الى القلق الذي يساورنا ، حتى لا يتطور وضع فى شمال افريقية قد يكون له عواقب وخيمة للغاية ليس على الفرنسيين فحسب ولكن على العلاقات بين العالم العربي وجميع الدول الغربية • ونفس البرقية أرسلت أيضا الى الجزائر •

(انتهى)

وقد كان رد السفير كافري Caffery كما يلي :

ان المعلومات التي تضمنتها برقية وزارة الخارجية رقم 3551 قد نقلتها شخصيا الى نظر بيدو . الذي أخذ علما بهذا والذي حاول أن يقلل من أهمية القضية كلها . وقدم التوضيحات المعتادة ، وعبر عن تفهمه لدوافعنا وهكـــذا •

نفس البرقية أرسلت الى الجزائر •

(انتهى)

برقية أخرى :

عندما تحين الفرصة يمكنك أن تخبر عزام بك، ولمعلوماته السرية الخاصة، أننا لم نبق مكتوفي الأيدي بالنسبة لموضوع رسالته اليك . ونحن نثق أن معالجتنا للموضوع قد تكون مفيدة ولكن يجب أن توضح له بأن اظهارنا للاهتمام بوضع شمال افريقية الذي أشار اليه هو يجب أن لا يفسر على أنه قبول من جانبنا لادعائه بأن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية التطورات فى شمال افريقية بسبب مساعدتنا العسكرية في تحرير المنطقة (1) •

أتشيسون

1 – في البرقية رقم 596 تاريخ 13 نوفمبر 1945 أخبر ليون Lyon القائم بالأعمال في مصر بأنه في اليوم السابق «اغتنمت الفرصة ونقلت الى عزام خلاصة رد وزارة الخارجية رقم 490 تاريخ 5 أكتوبر عن العمل الذي قامت به حكومة الولايات المتحدة بالنسبة للقمع الفرنسي ضد الانتفاضة العربية في الجزائر ، وقد عبر عن امتنانه العميق لمساعدتنا واهتمامنا ، وأشار الى أنه ينوي اخبار مجلس الجامعة قائلا : انه سيقترح اجراء تصويت بالشكر .
وبالنظر الى العواقب المحتملة ، فانني ألححت عليه بأن يمارس ضبط النفس ، وأكدت له بأن المعلومات التي نقلتها برقية وزارة الخارجية المشار اليها لم تكن سوى لعلمه هو الشخصي والسري ، وأمام رغبته منحته تأكيدا كتابيا دون أن أنسى تحذير وزارة الخارجية من أن مساعدتنا العسكرية في تحرير شمال افريقية يجب ألا تفهم بأية طريقة على أنها قبول مسؤولية ما قد يحدث من تطورات سياسية في تلك المنطقة » .
(890 00/11/1345)

تاريخ الثورة الجزائرية أو كتاب :
(حرب وحشية للسلام : الجزائر 1954 ــ 1962)

صدرت كتب كثيرة ، وبلغات مختلفة ، عن الثورة الجزائرية فى الخمس والعشرين سنة الماضية . وما يزال معظمها غير معروف لدينا وقد رأينا فى هذه المناسبة التاريخية ، وهي مرور ربع قرن على بداية الثورة المظفرة ، أن نقدم واحدا من أهم هذه الكتب ، وهو كتاب (حرب وحشيةللسلام: الجزائر 1954 ــ 1962) (1) الذي نشره الأستاذ اليستير هورن A. Horne الانكليزي فى السنة قبل الماضية . (2)

1 ــ المؤلف :

1) المؤلف : والأستاذ هورن يشتغل باحثا فى معهد سانت انطونــي بأكسفورد ، وهو عضو فى المتحف الحربي الامبريالي بلندن . وقد اشتهر بتآليفه العديدة عن أهم الأحداث التاريخية فى العصر الحديث ، ولا سيما تلك التي تتعلق بالتاريخ الفرنسي . ذلك ان من بين تآليفه فى هذا الصدد :

1) سقوط باريس : 1870 ــ 1871 .

2) ثمن النصر : فيردان 1916 .

3) خسارة معركة : فرنسا 1940 .

---

* ــ نشر في (مجلة التاريخ) ، عدد النصف الأول من سنة 1982 .

1 ــ نشر شركة ماكميلان ، بريطانيا 1977 ، 604 صفحات + الخرائط + الصور .

2 ــ كنا كتبنا هذا التعريف بكتاب الأستاذ الــــ هورن في اكتوبر سنة 1979 ولكنه لم ينشر في حينه لوجود بعض الأسماء والافكار فيه ، رفضت حذفها ، وقد علمنا أخيرا أن الكتاب قد ترجم الى الفرنــسية .

بالاضافة الى كتب أخرى له عن كندا وعن الشيلي وغيرهما •

وقد كان كتابه (حرب وحشية للسلام) هو آخر انتاج صدر له • وكان الكتاب موضع تعاليق المعلقين خلال السنة الماضية فى كل من أنكلترا وأمريكا • ومعظم المعلقين أبدوا اعجابهم بالكتاب لتوازن معلوماته • فهو فى نظرهم لم يحاب الفرنسيين ولا الجزائريين ، وانما كان صاحبه يبحث عن الحقيقة • وسنذكر نحن رأينا فى الكتاب فى تعليق قصير فى آخر هذا التقديم • وقد رأينا أن نترك المؤلف نفسه يتحدث عن تجربته ويصف قضايا كتابه ، ولذلك ترجمنا مقدمته الا ما يتعلق منها بشكر الذين أمدوه بالمعلومات أو نحو ذلك • كما ترجمنا ملاحظاته عن المصادر التي ذكرها فى آخر الكتاب •

2 ـ محتوى الكتاب :

قسم الأستاذ هورن كتابه الى ثلاثة أقسام فخص كل قسم بمرحلة تاريخية معينة • غير أننا نلاحظ أن القسم الأول منه عبارة عن تمهيد وصل به مقدمات الثورة بالاحتلال الفرنسي • وهكذا كان القسم الثاني والثالث يمثلان لب الكتاب • والظاهر أن العناوين الفرعية (الفصول) لكل قسم لا تعبر بوضوح عن الأفكار المدروسة فيه • ومع ذلك ذكرناها مختصرة غامضة كما جاءت فى الكتاب ، لأنها فى الواقع تعبر عن طريقة من طرق التأليف عند الكتاب الأنكلو سكسون • أما الذي يريد أن يعرف محتوى الكتاب من عناوينه الفرعية فانه سيجد لا محالة صعوبة فى ذلك • وهذه ترجمة للمحتوى •

القسم الأول : تمهيد 1830 ـ 1954 :

ـ مدنية غير ذات أهمية •

ـ هذه هي فرنسا

ـ فى خضم النهر

ـ العودة الجماعيـــة

ـ الصفحة تقلب

3 ـ ترجمة مقدمة الكتاب :

« لقد كنت فى باريس أثناء يناير 1960 أجري أبحاثا فى الحرب العالمية الأولى ، وكان وقتها يجري فى مدينة الجزائر « أسبوع الحواجز » حيث ثار أصحاب الأقدام السوداء ضد ديغول بتأييد من النخبة العسكرية وقد ظهر لي عندئذ ان الجمهورية الخامسة الوليد قد أخذت تهتز هي الأخرى • وكانت الصحافة الأجنبية قد وجدت نفسها متفاعلة بأحداث ذلك الأسبوع الذي لا ينسى • وبعد أن بقيت أكتب عن النزاع الفرنسي الألماني حوالي عشر سنوات شعرت ، بالغريزة ، انه لابد أن يأتي اليوم الذي أعود فيه الى الكتابة عن أحدث المآسي (الدرامات) فى التاريخ الفرنسي (أي حرب الجزائر) بعد هدوء غبار المعركة • وقد كان ذلك عندما اقترح علي ناشري (شركة ماكميلان) فكرة الكتابة عن حرب الجزائر •

« كما أنني كنت فى فرنسا فى مناسبتين أخريين هددت حوادثهما فى الجزائر وجود الجمهورية الفرنسية نفسها • المناسبة الأولى هي ماي 1958 والثانية هي أبريل 1961 • وكانت المناسبة الأخيرة أخطر من أختها لأنها أدت الى ظهور المدافع المضادة للطائرات فى ساحة الكونكورد للحراسة ضد احتمال غارة جوية منطلقة من الجزائر • وكلا المناسبتين تذكر المرء بالمعزوفة الأساسية فى الأزمات التي عرفها تاريخ فرنسا الحديث ، سواء كان ذلك فى 1789 ، أو 1870 ، أو 1916 أو حتى 1940 •

« ان حرب الجزائر التي استغرقت حوالي ثماني سنوات ـ أي حوالي فترة الحرب العظمى (1914 ـ 1918) مضاعفة ـ قد أسقطت ست حكومات فرنسية ، كما أسقطت الجمهورية الرابعة نفسها ، وقد كادت تؤدي الى سقوط جمهورية ديغول الخامسة ، وهددت فرنسا نفسها بالحرب الأهليــة .

« والواقع أن ما يسمى فى فرنسا « بحرب الجزائر » وفى الجزائر « بالثورة » كان آخر الحروب الاستعمارية ، وهو أيضا ، من الوجهة التاريخية ، أهم هذه الحروب وأعظمها . فهناك عدد من الزعماء الفرنسيين ، ولا سيما من أصحاب الأقدام السوداء ، كانوا يعتقدون حقا أنهم يحاربون دفاعا عن « رسالة الرجل الأبيض » وقد مات عدد من العسكريين الفرنسيين ببطولة معتقدين أنهم كانوا يدافعون عن حصن من حصون الحضـارة الغربية . كما أن الشعار البعبعي الذي يقول « الأسطول السوفياتي فى المرسى الكبير « قد احتفظ بقوته الى آخر أيام الوجود الفرنسي .

« وكانت أيضا « حرب سلام » لأنه لم يصحبها أي اعلان للحرب رسميا (الا اذا اعتبرنا اعلان جبهة التحرير فى أول نوفمبر 1954 كذلك) . كما أن معظم الفرنسيين قد عاشوا ، طيلة الثماني سنوات تقريبا ، دون أن يتأثروا بها . ولكنها كانت ، بدون شك ، حربا وحشية مرعبة أدت الى مقتل حوالي مليون جزائري مسلم وطرد ما يقرب من مليون مستوطن فرنسي من بيوتهم . واذا كان أحد الطرفين قد مارس التمثيل بالجسد البشري فان الطرف الآخر قد مارس التعذيب . وعندما تمكنت الحرب أصبح العنف الرهيب وكأنه بدون نهاية . وقد كانت الحواذث خلالها تبدو ، مثل حوادث فيردان 1916 ، وكأنها قد ضاعت نهائيا من سيطرة الانسان عليهــا .

« ورغم أهميتها بالنسبة لتاريخ فرنسا فان الثورة بالنسبة للجزائريين ، بكل وضوح ، أهم . فقد قال الجنرال ديغول ان « الحرب تمنح بعض الأمم الميلاد كما تحضر لبعضها الموت » . والحرب بالنسبة للجزائر قد منحتها الميلاد . ولكن هناك أشياء كثيرة كانت متداخلة تداخلا أكثر من مجرد فكرة

استحقاق أو عدم استحقاق تسعة ملايين من المسلمين الاستقلال • فليس هناك ثورة واحدة بل عدة « ثورات » كانت تأخذ مجراها وفى مستويات مختلفة • فقد كانت هناك ثورة اجتماعيةعميقةتحدث في المجتمع الجزائري المسلم • أما من الجانب الفرنسي فهناك « ثورات » أولاً من جانب الجيش وثانيا من جانب منظمة الجيش السري ــ ضد السلطة السياسية لفرنسا • وأخيرا هناك لعبة شد الحبل من أجل الجزائر كما أعلنت فى الخارج سواء على منصة الأمم المتحدة أو منابر العالم الثالث أو محافل كل من معسكر الغرب ومعسكر الشرق •

« فمن الوجهة الغربية كانت الحرب الجزائرية تحتوي على دروس من فشلين تقليديين : الأول منهم االفشل فى فهم مطامح العالم الثالث • وهذا بالنسبة الينا نحن اليوم ــ أو هكذا يبدو لي ــ لأن جزائر بومدين فى الواقع ما هي الا نتاج تجربتها الثورية • واذا كانت عواقب تأثيرها القوي على العالم الثالث ليست دائما تسر الغرب فانه يجب البحث عن أسباب ذلك فى سنوات 1954 ــ 1962 • أما الفشل الثاني فهو فشل المعتدلين الحزين والمتكرر ، أو فشل ما يسمى « بالقوة الثالثة » التي يقصد بها أن تنافس ضد القوتين المتعارضتين والمتطرفتين • وهذا الفشل نجده على المسرح المعاصر اليوم ، سواء فى شمال ايرلاندا أو جنوب افريقية أو أمريكا اللاتينية • وقد تعلمنا من حوادث 1793 و 1917 انه فى الثورات الحديثة ينتصر أهل الجبل على أهل الجيروند (1) •

« ان معالجة الحرب الجزائرية أو الثورة تثير بعض المشاكل الخاصة التي تحتاج الى توقف • فطــول مدتها بالشهور والسنوات ، ومآسي شخصياتها الكبرى التي تظهر ثم تختفي ثم تعود الى الظهور والاختفاء باستمرار ، ومستوياتها العديدة فى الحركة والتي كانت غير متناسبة مع بعضها ــ كل ذلك يقدم لنا عنها صورة هائلة • ولم يكن هناك نقطة ارتكاز واحدة أو لحظة توتر عارم ، بل انه لا يكاد يوجد سوى فاصل واحد فى العرض كله (انتراكت) ، وهو تولي ديغول الحكم سنة 1958 •

1 ــ يشير المؤلف بتاريخ 1793 الى أحداث الثورة الفرنسية ومقتل الملك والارهاب الخ . وبتاريخ 1917 الى أحداث الثورة الروسية ضد النظام القيصري ونجاح البولشفية ، ويشير بأهل الجبل الى حزب المتطرفين وبأهل الجيروند الى حزب المعتدلين أيام الثورة الفرنسية .

« وبالاضافة الى ذلك هناك مشكل هام ، وهو مشكل المنظور التاريخي • فهذا المنظور لم يبلغ ، من ناحية الزمن ، التاريخ ولا الحوادث المعاصرة • وانني واع للتحذير الذي أبداه لي عدد من المشاركين فى هذه القصة ، بما فى ذلك الرئيس التونسي بورقيبة ، وهو أن « تراجعا أكثر » قد يكون ضروريا قبل نأ يكتب أي عمل نهائي عن الحرب الجزائرية • ومن جهة أخرى فقد شجعني أحد رؤساء الوزراء الستة الفرنسيين السابقين الذين تفضلوا باستقبالي قائلا لي انه لا أحد من مواطنيه يمكنه بعد أن يكتب دراسة حقيقية موضوعية ، بينما قد يكون ذلك « ممكنا لرجل أنكليزي فقط » • كما أنني تشجعت بالمقدمة الحكيمة والكفأة التي كتبها (تيير) Thiers لكتابه (الثورة الفرنسية) والتي أعلن أنا انضمامي الىماجاء فيها بكل تواضع • ولقد استعنت كثيرا فى تصحيح المعلومات ومقابلتها أثناء بحثي بذواكر المشاركين فى الحرب الجزائرية والباقين على قيد الحياة (وكثير منهم لا يمكن اعتبارهم عجائز بعد) • وكان يمكنني الاستفادة أكثر لو تمكنت من الاتصال بأولئك الذين لم يعودوا أحياء ــ ولا سيما من الجانب الجزائري ــ أو أولئك الذين لا يمكن الوصول اليهم (مثل أحمد بن بللة) • ولكني حاولت أن أساير (تيير) فى قوله انه يشفق على المحاربين « بدون أن يشاطرهم كل مشاعرهم » •

« والى جانب هذه المشاكل المتعلقة بالمنظور التاريخي فان أكبر العراقيل ربما تكمن فيعدمتكافؤ مصادر مادة الكتاب • ذلك أنعدد الكتبالمتعلقة بالحرب الجزائرية والمنشورة فى فرنسا وحدها تغطي أربعة أنواع ، وهي تختلف كثيراً من حيث النوعية • أما الدوريات وغيرها من المصادر المطبوعة فيمكن أن تقاس بالمتر المكعب • وقد لاحظت دورية (لانوفيل أوبسيرفاتور) بأن « الحرب الجزائرية ما زالت ، رغم ذلك ، هي الحكة ــ الاكزيما ــ التاريخية الصغيرة لكل انسان فرنسي » • وأثناء استجوابي للمشاركين الفرنسيين ــ ومنهم الغوليون والمعارضون للغوليين ، وأعضاء منظمة الجيش السري ، والباربوز ، والجنرالات الثائرون والجنود ، وأصحاب اليمين المتطرف وأصحاب الشمال المتطرف ــ كنت أتوقع أن أجد منهم التمنع حول الحديث عن الحرب ، اذا لم يكن الرفض القاطع • ولكني ، بعكس ذلك ، وجدت منهم ثروة ضخمة من الصراحة والمساعدة ، باستثناء

رفض واحد هام جاءني من سيدة كاتبة • فقد أخبرتني بأن آخر كلمة لها عن الجزائر قد كتبتها فى مذكراتها الخاصة وانه لم يبق عندها شيء ذو بال تضيفــه •

« ولكن القضية من الجانب الجزائري تختلف تماما • ففي بداية عهدي بالبحث فى الموضوع حذرني دبلوماسي جزائري قديم كان قد لعب دورا هامافي الثورة بأنني قد أجد فيبلاده التثبيط نتيجة نقص المصادر المكتوبة من جهة ونتيجة استنكاف الجزائريين ، خاصتهم ورسميوهم ، عن الحديث من جهة أخرى • وقد قال لي هذا الدبلوماسي ذلك رغم أنه كان شخصيا متحمسا لمشروعي • والواقع أنني قد استقبلت فى الجزائر بأدب واهتمام وكرم وانني لم أصادف تثبيطا • أما ما عدا ذلك فقد كان الدبلوماســي الجزائري على حق ، ولأسباب جديرة بتفهم متعاطف • فمن الناحيــة العسكرية المحضة كان أسلوب حرب العصابات يقتضي أن تكون جبهة التحرير فى حركة دائبة • وهذه الظاهرة أدت بدورها الى أن لا يجد الوقت والظرف المناسب للاحتفاظ بيوميات (جرائد) مترابطة الا عدد قليل فقط من الرجال فى الميدان • ومن جهة أخرى يجب أن تتذكر بأن كثيرا منهم كانوا أميين • وخلافا لحرب الأنصار فى يوغسلافيا خلال سنوات 1942 — 1945 التي كان لها انتاج مكتوب غني فانه لا وجود لقيادة مركزيــة • ذلك أن كثيرا من السجلات التي كان عليها أن تجد طريقها الى أرشيفات الدولة الجديدة (وهكذا يدعى الجزائريون الرسميون) اما أعدمت واما « نقلت » أثناء الأيام الأخيرة اليائسة لمنظمة الجيش السري • كمــا أن الظروف التي ولدت فيها الدولة الجديدة قــد جعلت جمــع الوثــائق (الأرشيفات) الموجودة عملا غ يرمتقدم كثيرا •

« ان الجدران العالية التي تحيط بالمنازل فى الجزائر والحدائق الجميلة الواقعة حول هذه المنازل تخفي ، فى سرية نامة ، ومن وراء الواجهات الخارجية للقصبة ــ تشير الى طبيعة الانسان الجزائري التي لا تسهل هي أيضا مهمة المؤرخ • ان هذه الغريزة الطبيعية فى السرية التي تطورت أثناء خمسة أجيال من السيادة الفرنسيَة ــ قد ازدادت قوة لدرجة أن قليلا فقط من الاشارات قد تسربت ، خلال السنوات الثماني من الحرب الخفية ، عن الكثير من الانقسامات الداخلية التي كانت تهدد دائما قيادة

جبهة التحرير بالتمزق • وليس من السهل على الباحث أن يكتشف اليوم حقيقة هذه الانقسامات • وبالاضافة الى السرية هناك أيضا درجة من الخوف • فالفتن قد استمرت حتى بعد الاستقلال • ففي سنة 1967 وقعت محاولة انقلاب ضد بومدين • وهناك شخصان من « التسعة التاريخيين » الذين نظموا الثورة ضد فرنسا قد اغتيلوا بغموض فى المهجر بأروبا • وقد ظل ابن بللة فى السجن ، ومن يعرف أين يكون ؟ وهناك عدد من زعماء الثورة السابقين يعيشون ، مثل تروتسكي ، على أعصابهم فى الخارج مغضوبا عليهم • ورغم أن الجزائر اليوم بعيدة من أن تكون دولة بوليسية على الطريقة السوفياتية فانها تعيش نظاما تسلطيا • كما أن الخطر من السقوط فى عين النظام لا يمكن حصره •

« وان أحد استغراباتي الأولى فى مدينة الجزائر هو أنه لا وجود في القصبة ، حيث جرت حوادث المعركة المشهورة (بمعركة الجزائر) ضد جنود ماسو ، لأي لوحة تذكارية ، ولو صغيرة ، لتشير الى المكان الذي ناضل فيه أبطال الثورة ، أمثال علي لابوانث ، واستشهدوا • كما أنه من الصعب أن تجد السكان القادرين على قيادتك أو اعلامك رغم أنه لم يمض على الحوادث الا أكثر قليلا من عشر سنوات • ونفس الشيء يقال عن الأماكن الأخرى فى الجزائر •

« وتفسير ذلك جزئيا يكمن فى أن الثورة الجزائرية كانت ، منذ البداية ، حركة « جماعية » وقيادة جماعية ، ومعاناة جماعية ، واغفالا جماعيا • وهكذا فان هناك جهودا مقصودة للابتعاد عن أي شيء يشبه العقيدة في البطل المفرد أو الشهيد • وبالاضافة الى ذلك هناك عامل آخر ، وهو أن التقاليد العربية تقتضي تصورا للتاريخ يختلف عن التقاليد الأروبية فيه • • فالتقاليد العربية لا تعطي الا أهمية دنيا لجهود الفرد لأن جبرية التعاليم الدينية الأساسية تقتضي أن الانسان محدود القوى فى تقرير مصيره بنفسه • وهكذا يوجد اتجاه مفاده الاضراب صفحا عن كتابة الماضي وترك حوادثه (سواء وقعت أمس أو وقعت سنة 600 بعد الميلاد) فى نفس ذلك الملجأ الواسع •

« ان جروح الحرب لم تندمل بعد • ولم يستطع العلم المثلث أن يرفرف من جديد على مدينة الجزائر الا فى أفريل عام 1975 عند أول زيارة رسمية لرئيس فرنسي • ومع ذلك فان هناك تعبيرا طالما سمعته فى الجزائر وهو أن « الصفحة قد قلبت » وهذه فى الواقع عاطفة عظيمة من النبل جديرة بكل اعجاب • فكم من شعب يمكنه خلال سنتين أو ثلاث سنوات فقط من نهاية حرب دامت ثماني سنوات وكلفت حياة حوالي عشر السكان — أن يخرج فيلما ، وهو فيلم (معركة الجزائر) يظهر فيه عقيد من جنود (البارا) الفرنسيين المرعبين وكأنه هو بطله الحقيقي؟•

« غير أن هذه الأمور لا يمكن أن تساعد المؤرخ على علمه • ذلك أن أبسط الأشياء وضوحا تصبح غامضة أو صعبة التحقيق • مثلا ، أن تواريخ ميلاد الوجوه البارزة للثورة تختلف من مصدر الى آخر درجة كبيرة • كما أن « اجتماع الاثنين والعشرين » الهام فى تاريخ جبهة التحرير فى صيف 1954 له أكثر من ستة تواريخ مختلفة فى رواية أولئك الذين حضروه أنفسهم •

« ولعل أفضل نصيحة تلقيتها أثناء اعدادي لهذا الكتاب هي التي جاءتني من أحد سفراء الجزائر البارزين فى الخارج • فقد قال لي « كن نزيها الى الحد الأقصى ثم اصدع برأيك اذا كنت رأيت جزءا فقط من الصورة » • وأمام الصعوبات التي ذكرتها سابقا فانني لا أستطيع أن أدعي القول بأنني رأيت شيئا مثل « الصورة الكاملة •• » غير أنه من المشكوك فيه أن يستطيع شخص آخر — سواء كان فرنسيا أو جزائريا أو أجنبيا — ادراك ذلك فى الوقت الراهن • ويمكن القول الآن انه لا أحد يستطيع ذلك فى المستقبل أيضا •

« وأثناء البحث قمت برحلتين الى الجزائر وتونس حيث وجدت الحد الأقصى من التعاون من السلطات • فقد استقبلني الرئيس التونسي بورقيبة بحرارة وانفتاح • ولكن استجوابا مشابها تفضل الناشر ، وهو السيد هارولد ماكميلان ، بتنظيمه مع الرئيس بومدين كان للأسف قد ألغي لمصادفته « حرب رمضان 1973 » • وقد قمت بزيارات عديدة

لفرنسا ، كما أشرت سابقا ، حيث غمرتني المعلومات والمساعدة • وقد أخذني البحث أيضا الى قفزات تثير دوران الرأس عبر سطوح القصبة المتصلة وعبر بلدان أخرى ثالثة لانجاز موعد فى الظلام مع قتلة مجهولين «ذئاب» ما زالوا في حالة فرار • ولكنني اذا ذكرت الخطر الشخصي فانه لا شيء يذكر ازاء الخطر الذي يتعرض له من يركب سيارة (ميني) عبر باريس يقودها جاك سوستيل ، الحاكم العـــام السابق للجزائر ، وهو يمسكها بكلتا يديه ويسرع بها 80 ك م فى الساعة بينما هو يتذكر الماضي ! » •

وبعد هذا ذكر المؤلف طريقته فى ايراد الأسماء العربية المحلية فى نص الكتاب • كما ذكر أن عددا من الذين منحوه معلومات طلبوا منه عدم ايراد أسمائهم أو نسبة ما أخذه منهم اليهم • ومن الأسماء التي أوردها فى آخر المقدمة التي اجتمع بأصحابها • شكرهم على المعلومات التي أخذها منهم نذكر الأسماء العربية الآتية (أما الفرنسيون وغيرهم فلم نذكرهم هنا): الرئيس بورقيبة ، ومحمد بجاوي ، ومحيى الدين عميمور ، وعبد المالك بن حبيلس ، وابن يوسف بن خدة ، وعبد القادر شندرلي ، ومصطفى الأشرف ، ومحمد لبجاوي ، والاخضر ابراهيمي •

4 ــ عن مصادر الكتاب :

« منذ 1954 نشرت جبال من المطبوعات عن الحرب الجزائرية ، أغلبها فى فرنسا ، بينما لم يظهر فى الجزائر نفسها الا جـــزء ضئيـــل منهـــا • والبيبليوغرافية التي احتواها الكتاب تضم مائتي (200) كتاب • ومع ذلك فان الكتب لا تمثل سوى ما اخترته من العدد الكبير المشار اليه • أما عن الدوريات فانه لا تكاد توجد مجلة ذات قيمة فى أوربا وأمريكا وفى العالم الثالث لم تخصص ، خلال السبع سنوات والنصف للحرب الجزائرية ، أعمدة طويلة للحديث عن هذه الحرب • ولذلك لم أحاول أن أسرد قائمة بهذه الدوريات هنا ، باستثناء ما اذا اقتضى الأمر الاحالة على بعضها فى النص • ونفس الشيء يقال عن موقفي من اهرامات المناشير والنشرات المعاصرة للحرب •

« وكما هو متوقع فان معظم الكتب المذكورة هنا تحمل طابع التبرير الذاتي أو الدعاية وتعاني جميعا من النقص الذي تعاني منه كل الوقائع المعاصرة • فاذا أخذنا فى الاعتبار هذه الناحية فان الكتب المذكورة ما زالت تحتفظ بقيمتها مع ذلك • وما زالت فرنسا لم تسرح الوثائق الرسمية المتعلقة بالحرب • ومن جهة أخرى فان الكثير قد كشف عنه من خلال الكتابات المختلفة والذكريات الشخصية للمشاركين فى الحرب مما يجعل المرء يشك ما اذا كانت الصورة العامة للحرب ستتغير كثيرا عندما ترفع حواجز السرية المضروبة على الوثائق • ويمكن أن يقال نفس الشيء عن المصادر الجزائرية غير المسرحة ، رغم اختلاف الأسباب فى ابقائها سرية •

« ولا يوجد مجلد واحد فى تاريخ الحرب (الجزائرية) يتوفر على الشروط الموضوعية بنفسه • ومن ثمة جاء هذا الكتاب ليملأ ، على الأقل ، زاوية من هذا الفراغ • وان الكتب المنشورة حتى الآن يظهر عليها التحيز اما في عواطفها واما في تناولها جزءا فقط من الصورةالعامة• ومن المؤلفين الذين أكثرت من الاشارة اليهم فى كتابي أذكر على الخصوص كتاب ايف (كوربير) البالغ أربعة أجزاء والذي احتوى على أكثر من ألف صفحة • وهو كتاب يقدم تفاصيل يومية عن الحرب نفسها • وان مصادر كوربير الأولى ، وخصوصا استجواباته مع بعض زعماء جبهة التحرير أمثال كريم بلقاسم ، لا يمكن تعويضها • ومن جهة أخرى فان كوربير كان موضوع انتقاد شديد فى الجزائر المعاصرة لاعتماده البالغ على وجهة نظر فى الأحداث أعطيت له من طرف بلقاسم كريم وغيره ممن أصبحوا فى المعارضة لنظام بومدين • كما أن كوربير قد اتهمه أصحاب الأقدام السوداء بالتصلب الذي لا داعي له بالنسبة لقضيتهم • كما أن كتابه ، من حيث الاختصاص ، يعتبر عملا صحفيا (ولكنه صحافة جيدة) محدودا لعدم وصوله أحيانا الى المنظور التاريخي ، وهو أيضا كتاب يتجنب عمدا ربط مجرى الأحداث فى فرنسا نفسها •

« غير أن كتاب أدوارد (بير) Behr يظل أكثر المؤلفات العامة موضوعية وأكثرها حساسية ودقة • والمؤلف صحفي انكليزي أمريكي طالما عاش على المسرح الجزائري • هذا بالرغم من أن كتابه كان قد نشر

قبل نهاية الحرب ، وهو لذلك غير كامل ••• وهناك كتاب آخر ألفه صحفي أجنبي أيضا ، وظل كذلك غير كامل ، ونعني به كتاب ميشيل (كلارك) Clarck الذي وصل بكتابه الي بعد تسلم ديغول السلطة • وقد أيد كلارك ، أكثر من غيره ، قضية أصحاب الأقدام السوداء ، ومع ذلك فان كتابه يحتوي على توثيق كثير ومفيد • ومن أحدث المؤلفات التي انتقدت أيضا « سياسة التخلي » والتي كانت أيضا موثقة كثيرا ، كتاب فيليب (تريبيه) • وهناك كتاب قيم وجدير بالثقة لأنه من مشاهد محايد وقريب من قيادة جبهة التحرير ، وهو الذي ألفه الصحفي السويسري ، شارل هنري (فافرو) Favrod ومن المؤلفين الجيدين عن جبهة التحرير نذكر غوردن Gordon و (كانت) Quandt ورغم أنني أخذت معلومات كثيرة من مؤلفات جزائرية تتعلق بمظاهر معينة فانه مما يؤسف له هو عدم وجود أي مصدر عن فترة الحرب كلها من كاتب جزائري » •

أما عن الدوريات فقد ذكر الأستاذ هورن أنه لم يذكرها الا بصفة خاصة • ومن ذلك مجلة (ايستوريا) التي نشرت ، ابتداء من سنة 1971 ، سلسلة بعنوان (حرب الجزائر) تجاوزت فيها ثلاث آلاف (3000) صفحة • وقال انه وجدها دورية مفيدة لصورها خصوصا رغم أنها تعوزها الدقة فى التأريخ (بالهمزة) وفي بعض النقط التفصيلية• كما قال عنها أنها اعتمدت في مقالاتها المضاة على المشاركين في الحرب وأغلبهم من الفرنسيين • وقال أيضا انه رجع الى (المجاهد) ، لسان حال جبهة التحرير ، وأوضح أن محتواها فى نظره دعاية مكشوفة • وقد كررنا هنا أيضا ما قاله في المقدمة من أن معظم معلوماته قد وصلته اما من مشاركين فى الحرب رغبوا منه (ولاسيما من الجانب الجزائري) أن تظل معلوماتهم مغفلة المصدر ، واما جاءته من مصادر أخرى سرية أو حساسة وصلت اليه بطرق خاصة • الخ (ص 576 — 577) •

5 ـ تعليق على الكتاب :

يظهر من مؤلفات الأستاذ هورن أنه من هواة التاريخ الحديث والمعاصر وانه لم يكرس فقط جهده لتاريخ فرنسا نفسها في حروبها من 1870

الى 1940 بل انه تتبع آثار فرنسا أيضا في مستعمراتها القديمة مثل كندا والحديثة مثل الجزائر • فهو من الانكليز القلائل الذين حاولوا التعرف على نفسية الانسان الفرنسي في العصر الحديث •

وكانت الثورة الجزائرية ، أو حرب الجزائر كما يسميها الفرنسيون ومعظم الأروبيين ، قد لفتت أنظار الصحفيين والكتاب الأجانب الذين لهم صلة بتاريخ فرنسا وآدابها أو الذين كانوا يعيشون في العاصمة الفرنسية أثناء الثورة ، ومنهم الأستاذ هورن • فقد شهد أنه كان من جملة الأجانب الذين سالت دموعهم تأثرا بسماع خطبة ديغول سنة 1960 رغم مهنتهم المحايدة كصحفيين وباحثين • والواقع أن عددا من المؤلفات غير الفرنسية عن الثورة الجزائرية كان مصدرها وجود مؤلفيها في فرنسا أثناء الثورة ، ومن ذلك مؤلفات ريتشارد (بريس) Brace وميشيل كلارك وادوارد بير وسولزبرقر Sulzberger ولعل ذلك هو السبب في أن هؤلاء المؤلفين قد تأثروا تأثرا أولا بوجهة النظر الفرنسية من الحرب رغم أن بعضهم كان متعاطفا مع الجزائريين مثل بريس •

وقد حاول هورن أن يكون متوازنا في مصادره وأحكامه • فأما بالنسبة الى المصادر فقد جمع منها الكثير مكتوبة وشفوية وحتى مصورة ، من فرنسا والفرنسيين ، وذلك لوفرة المطبوع وامكانية الاطلاع على المخطوط والحديث الى المشاركين والمسؤولين عن الحرب في الجزائر • ولكنه عندما زار الجزائر واتصل فيها بالمسؤولين وغير المسؤولين ، لم يصادف ما كان متوقعا من مصادر • فقد وجد جدران القصبة عالية فلم يستطع الاطلاع على ما وراءها من أسرار الثورة وواجهته أيضا طبيعة الجزائريين البالغة في السرية والتحفظ وعدم استعمال الكلمة المكتوبة • كما أن الموعد الذي ضرب له مع الرئيس هواري بومدين قد ألغي • وهكذا لم يستطع أن يجد في الجزائر ما وجده في فرنسا من مصادر لكتابه • والواقع أن شكواه من هذه الزاوية في محلها لأن المؤلفين الجزائريين أنفسهم يعلنون نفس الشكوى تقريبا • ذلك أن الذين كتبوا عن الثورة حتى الآن هم في الغالب أجانب عنها • أما الجزائريون فما يزالون ينتظرون اللحظة المواتية والتي طال انتظارها والتي قد لا تأتي أبدا •

وأما أحكامه فقد تعهد منذ البداية أن تكون محايدة فلا تميل الى الفرنسيين ولا تميل مع الجزائريين وهذه خطوة كبيرة وصعبة أيضا على كل من مارس كتابة التاريخ • ولكن هل يكفي الاعلان عن ذلك ؟ ان القاريء لكتاب الأستاذ هورن يجده ، رغم محاولته الجادة في الاحتفاظ بالتوازن والحياد ، قد تأثر ، غريزيا فيما يبدو ، باطلاعه الكثير على تاريخ وأحوال فرنسا وباتقانه لغة الفرنسيين وبمجاورته لهم . وبكثرة الحديث الى رجالهم • ولاشك أن نقص المصادر الجزائرية قد جعله يملأ فراغاته أحيانا بوجهة النظر الفرنسية التي توجد فى مصادر الطرف الآخر •

ومع ذلك فان كتاب (حرب وحشية) قد جاء فى الوقت الذي اشتد فيه اهتمام القراء فى العالم بنتائج الثورة الجزائرية وأبعادها واشعاعاتها • وهو فى نظرنا كتاب يقترب أكثر من غيره من الحياد والشمولية • ثم هو لا يغطي فترة فقط من فترات الثورة بل يتناول الثورة فى عهدها كله ومن جميع الوجوه تقريبا ، وخصوصا الوجه السياسي منهـا • وبالاضافة الى ذلك فان المسافة الزمنية التي تفصل بين الكاتب وبين سنة 1962 أصبحت مسافة طويلة بالنسبة الى من كتبوا قبله • وهذه ميزة لكتابه لم تتوفر لغيره ممن سبقوه رغم شكواه من مشكلة المنظور التاريخي • ونحن نتمنى أن نتمكن من ترجمة هذا الكتاب الى العربية ذات يوم حتى يفيد منه الدارسون وطلاب الحقيقة عن الثورة الجزائرية •

الجزائر 13 أكتوبر ، 1979 •

كلمة الطلبة الجزائريين بالقاهرة
في الذكرى الثالثة للثورة ، 1957

مقدمة : اعتاد المسؤولون الجزائريون فى القاهرة أيام الثورة أن يحيوا ذكرى الثورة عند حلول أول نوفمبر من كل سنة • وكان الطلاب الجزائريون والجالية الجزائرية بالقاهرة تساهم أيضا فى هذه الذكرى كل سنة • كما كانت الوفود العربية والاسلامية تحضر وتخطب وتنشد وتعلن مناصرتها للثورة الجزائرية •

وبمناسبة الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية ، أقام الجزائريون ، باسم جبهة التحرير الوطني ، حفلة فى مقر جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة • افتتح الحفلة الشيخ عبد اللطيف دراز أحد أعيان علماء الأزهر ، ثم ألقي المرحوم أحمد توفيق المدني كلمة باسم الجبهة ، والشيخ أحمد الشرباصي كلمة عن المرحوم محمد البشير الابراهيمي (1) ، وصالح خرفي قصيدة ، وألقي كاتب هذه الكلمة قصيدته (شعارات) • وكان الطلبة الجزائريون قد حرروا كلمة (2) باسمهم أيضا لتلقى في هذه الحفلة ، وهي الكلمة التي أعدها محمد بن عقيلة وفخار وكاتب هذه السطور • وقد وجدت فى يومياتي أن من بين الذين حضروا هذه الحفلة أيضا : يوسف ابن خدة ، وحامد روابحية ، وغيرهما • وكان ذلك يوم أول نوفمبر 1957 •

---

* — نشر مجلة الثقافة ، عدد 88 ، 1984 .

1 — لا أدري ما اذا كان الشيخ الابراهيمي حاضرا عندئذ أو متغيبا ، فانا لم أسجل ذلك في يومياتي .

2 — لم أسجل ما اذا كانت كلمة الطلبة في الحفلة الاولى قد وزعت توزيعا على الحاضرين أو ألقاها أحد الزملاء .

وفي اليوم التالي (الثاني من نوفمبر 1957) أقام نادي طلاب المغرب العربي حفلة فى مقر النادي (6 شارع بنك مصر) • وقد حضرت هذه الحفلة وفود الطلبة العرب وألقوا كلمات مناسبة باسم منظماتهم ، ومن المتكلمين فيها الشاذلي زوكار (تونس) باسم طلاب المغرب العربي،ثم كلمات وفود سورية وفلسطين والعراق ومصر • والكلمة الآتية هي التي أعددتها وألقيتها أنا باسم طلاب الجزائر فى هذه المناسبة • وقد وجدت فى يومياتي ان من بين الحاضرين لهذه الحفلة : أحمد توفيق المدني ، ويوسف بن خدة ، واسماعيل بورغيدة ؛ وأبو الفتوح (عن اذاعة صوت العرب) •

* * *

وهذه هي كلمة الجزائر التي ألقيتها فى هذه المناسبة باسم اخواني الطلبـــة : (*) •

أيها الاخوة ••• عندما نحتفل اليوم بذكرى ثورة الجزائر ، لا نحتفل بها كجزائريين، ولا نحتفل بها كمغاربة وانما نحتفل بها كعرب يؤمنون بعدو واحد وهدف واحد ووطن واحد ••• اننا نحتفل بها كعرب لان الثورة فى الجزائر لم تكن فى يوم من الأيام الا عربية صميمة نابعة من قلوب الملايين العربية المتمردة معبرةعن آمالها في الوحدة والتحرر مجسمةللارادة العربية التي لا تقهر مهما طالت بها السنون وتكاثفت من حولها السحب •

أيها الاخوة ••• ثلاث سنوات قطعتها ثورة العرب فى الجزائر وقد تكون هذه السنوات قليلة فى عمر الزمن ولكنها كمأساة بشرية تزهق فيها الأرواح بغير حساب وتسيل فيها الدماء أنهارا وتطبق فيها حرب الابادة من غير هوادة وتسلط فيها ألوان لا تحصى من التعذيب والتنكيل والانتقام ••• هذه السنوات اذن طويلة وقاسية ومريرة ••• انها طويلة لأنها أشرطة درامية تدور صباح مساء على الذين يعيشون فى معمعانها ••• وهي شاقة قاسية لأن الواحد منا لا يبلغ القمة في لحظة أو لحظات، والثورة في الجزائر تدنو الآن من القمة فلا بد أنها قد دفعت الثمن مضاعفا وأنها استهلكت فى طريقها عرقا وأرواحا وضحايا ••• وهي مريرة لأنها

(*) ـ نص الكلمة التي ألقاها أبو القاسم سعد الله باسم الطلبة الجزائريين في نادي طلاب المغرب العربي (القاهرة) بمناسبة الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية .

سنوات عجاف كالحة .. .سنوات حرب لا تعرف الرحمة ولا المنطق ولا تقيم للانسان وحضارته أي شأن ...

ولكن ماذا تظنون بالشعب الجزائري قد فعل ؟ هل تعتقدون أنه قام بالتجربة ثم تخلى عنها ؟ هل تعتقدون أن ثورته قد أدركها الملل ودب فيها الانحلال والتخاذل ؟ ان الذين يعتقدون هذا الاعتقاد لا نسبهم أو نعنفهم ولكنا فقط سنجابههم بالحقائق الدامغة .

وأول حقيقة يجب أن تعرف عن ثورة الجزائر هي أنها بدأت بالمسدسات وبنادق الصيد والحديد الأبيض ولكنها الآن نملك أحدث الأسلحة وأفتكها . وثاني حقيقة هي أن جيش التحرير الوطني قد بدأ بحرب العصابات والكمين ولكنه الآن قادر على ملاقاة العدو وجها لوجه ... وثالث حقيقة ان ثورة العرب في الجزائر قد بدأها رواد قلائل ولكنها لم تلبث أن أصبحت قوة شعبية هائلة تضم الفلاح والعامل والمثقف والمرأة والموظف ...

هذه الحقائق ، أيها الاخوة ، هي التي عمقت مفهوم النصر في نفوس عرب الجزائر وهي التي تجعل من هذه السنوات الثلاث بالرغم من طولها وقسوتها ومرارتها ـ تجعلها في نظرهم بضعة أسابيع ما دامت طريقا الى القمة ...

على أن هناك سؤالا لم يجد بعد الجواب المقنع وهو لماذا فضلت الجزائر حمل السلاح ولم تلجأ الى المقاومة السلبية التي اتبعتها بعض الشعوب ؟ ولماذا استطاعت الجزائر دون غيرها أن تصمد أمام عدوها طيلة ثلاث سنوات دون أن ينالها اضطراب أو فشل ؟

واذا كان الجواب على هذا السؤال هو خلاصة تاريخ الجزائر فاننا سنكتفي بالاشارة الى أقوى التيارات التي دفعت الجزائر الى الثورة المسلحة وأقوى العوامل التي تجعلها اليوم صاحبة الكلمة على مسرح الحرب الدائرة .

وأبرز التيارات وأعمقها في حياة الجزائر هي ــ العنف والاحتقار والخيبة • ان تجربة الجزائر مع فرنسا لم تكن تجربة انسانية يتحكم فيها الضمير وتصونها الحضارة ولكنها كانت تجربة الذئب مع الحمل تتحكم فيها شهوة القتل والدمار والحقد الأسود ••• وقد انخدع الذئب فظن أنه أمن على حياته وأن كل شيء يخضع لمشيئته ولكن ما راعه الا الحمل ينمو ويكبر ثم يتجرد من وداعته ورقته ليصبح عملاقا ضخما جبارا يصارع الذئاب فيصرعها •••

لقد حكمت فرنسا الجزائر بالحديد والنار •• بالارهاب والدماء •• وحكمتها بالتعالي الكاذب والتمدين المزيف فحقرت من شأن كل ما هو عربي وانتهكت كل مقدسات الشعب فلا جنسية ولا دين ولا لغةولا وطن، فالشعب الجزائري العربي شعب فرنسي ، واللغة العربية لغة البلاد غريبة يعاقب دارسها وناشرها ، والدين مصيدة تصطاد بها أتباعها وتختص هي وحدها بشؤونه ، والجزائر العربية الافريقية جزء من فرنسا الأوروبية •

وبهذا الأسلوب أيها الاخوة أدارت فرنسا دفة الجزائر وحكمتها طيلة قرن وربع ••• واذا كان تيارا الاحتقار والعنف قد انصبا من جبال فرنسا وطبقا على يد غزاتها المتوحشين فان التيار الآخر ••• تيار الخيبة قد نبع وتدفق من الجزائر نفسها ••• وتاريخ هذا التيار يبدأ من أول تجربة جزائرية مع فرنسا أي منذ حملت الجزائر السلاح فى شخص الأمير عبد القادر الى أن حملته مرة ثانية أو عاشرة فى شخص أبطالها المعاصرين •

قد تعجبون من أن يصبح تيار الخيبة السلبي تيارا ايجابيا يهيىء للثورة كل عوامل النجاح ولكن هكذا كان الحال فلو لم تقم الجزائر الا بهذه الثورة لكان الأمل ضعيفا فى نجاحها ولو لم تختبر أعداءها أكثر من مرة لخافت منهم اليوم وهم يواجهونها بأساطيل الجو والبحر •• ولكن الذي حدث بالذات هو أن الجزائر ثارت وهزمت ثم ثارت وهزمت وطالبت بالوسائل المشروعة وغير المشروعة ، ومع ذلك كانت الاجابة دائما لغة القوة وبالتالي كانت خيبة الأمل والهزيمة المنكرة ••• فاذا أضفنا الى ذلك فشل الحزبية وصراع السياسة وتقاتل الأفكار أدركنا كيف تهيأ الجو للانفجار الثوري فى النفسية العربية بالجزائر •

ان التجارب الفجة أو الخيبات المتكررة التي سبقت الثورة الحاضرة الى جانب القسوة والاحتقار هي التي جعلت الشعب الجزائري يبحث عن نفسه حينا وعن وسائله حينا آخر ثم يكتل جهوده ويوحد كلمته لتحقيق الهدف الذي سقطت من أجله الأجيال الماضية ، باللغة التي يفهمها العدو وهي لغة العنف والقوة والدمار •

أيها الاخوة ••• على اثر اعلان الثورة جاء فى أول منشور للحاكم العام الفرنسي آنذاك مسيو ليونار ، أن جماعات صغيرة من الارهابيين هي التي ارتكبت أعمالا اجرامية ••• ولمواجهة هذه الجماعة الصغيرة تقرر ارسال ثلاث كتائب من جنود المظلات الى منطقة الثورة ، وكانت المنطقة التي يشير اليها الحاكم العام هي منطقة جبال أوراس الشامخة ••• وقد أرسلت فرنسا قواتها الى هذه المنطقة لتقضي على تلك الجماعات الارهابية الصغيرة وكانت الخطة الاستراتيجية لجيش التحرير تقضي بعزل القوات الفرنسية فى هذه المنطقة حتى يتاح للقوات الجزائرية فتح جبهة أخرى • وتحملت أوراس الضربات الأولى ولكن لم تمض أربعة شهور حتى فتحت الجبهة الثانية التي كان مركزها جبال القبائل الحصينة وقد اضطرت فرنسا لكي لا توزع قواتها الى سحب فرقة كاملة من جيشها فى منظمة الأطلنطي ••• وظنت انها بهذا التصرف ستقضي على الجماعات الصغيرة قبل أن يستفحل أمرها ••• ولكنها استيقظت ذات يوم فوجدت نفسها أمام جبهة ثالثة ولما يمض على الثانية شهران •• وكانت الجبهة الثالثة أوسع نطاقا وأهم نتائج لأنها تمتد على طول الساحل شمال قسنطينة • ومن هذه الجبهة العتيدة قام جيش التحرير بأول هجوم شامل فى 20 أغسطس 1955 بحيث برهنت فيه الثورة على قدرتها العجيبة على التكيف والتكتيك العسكري مما جعل الفرنسيين يعلنون لأول مرة فى تاريخهم التعبئة العامة ••• ولم يحن شهر أكتوبر 1955 حتى فتحت جبهة رابعة مجالها منطقة وهران الشاسعة ، ولم يمض وقت طويل حتى فتحت جبهتان أخريان فى كل من الجزائر والصحراء وأصبح القطر الجزائري كله بفضل الجماعات الصغيرة أتونا يشتعل وبركانا يقذف الأعداء بالحمم •••

والى جانب هذه الانتصارات العسكرية استطاعت الثورة أن تخطو خطوات أخرى فى الميدان السياسي • من ذلك أنها خلقت فى فرنسا توترات

نفسية ومالية وسياسية أهمها : الاستياء العام ــ حركات الاضراب العمالية ــ سقوط الوزارات ــ ثورات التجار والفلاحين ــ العجز الفاضح فى الميزانية ــ التضخم المالي ــ ضعف الانتاج وكساد الاقتصاد ــ ضم اقليم الصار الى ألمانيا نتيجة للضغط السياسي ــ تدويل القضية الجزائرية،وكل هذه هزائم وصفعات تلقتها فرنسا على يد الجزائر مما جعلها مضرب المثل فى الفوضى الداخلية وأسقطها من عداد الدول الكبرى .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد ان مؤتمر أغسطس 56 الذي انعقد فى الجزائر قد انبثق عنه دستور للجزائر الثائرة حاضرا ومستقبلا واذا كان هذا الدستور ما يزال سرا من أسرار الثورة فان ما نشر منه يلقي أضواء باهرة على جوانب كثيرة من الثورة الجزائرية ... فقد جاء فيه : ان التنظيم السياسي الجديد للثورة يقتضي :

1 ــ منع النفوذ الشخصي واقرار مبدأ الادارة الجماعية .

2 ــ وضوح المذهب بحيث تكون الغاية المنشودة هي الاستقلال الوطني عن طريق الثورة وتدمير النظام الاستعماري .

3 ــ الاستنكار النهائي لتقديس الشخصية والكفاح العلني ضد الوشاة وأذناب الادارة الفرنسية .

وقد أجاب الدستور أيضا على سؤال نصه : لماذا نحارب ؟ بأننا نحارب لاضعاف الجيش الفرنسي اضعافا تاما بحيث يستحيل عليه الانتصار بالسلاح ونحارب لاتلاف الاقتصاد الاستعماري فى نطاق واسع بعمليات التخريب والافساد بحيث تصبح ادارة البلاد العادية متعذرة ... ونحارب لعزل فرنسا السياسي فى الجزائر وفى العالم أجمع ... ونحارب من أجل مؤازرة الشعب مؤازرة تامة أمام الجهود التي يبذلها الفرنسيون لابادته .

ولكن ــ ما هي شروط وقف القتال ؟ ان هذا السؤال قد أجاب عنه أيضا دستور أغسطس 56 والشروط هي :

1 ــ الاعتراف بالجزائر كلا لا يتجزأ .

2 ــ الاعتراف باستقلال الجزائر فى جميع الميادين بما فى ذلك الدفاع الوطني والدبلوماسية •

3 ــ الافراج عن جميع الأسرى من الجزائريين ، والجزائريات والمعتقلين والمنفيين بسبب نشاطهم الوطني قبل ثوره 54 وبعدها •

والثورة الجزائرية اذ تعلن هذه الشعارات تقوم على أسس لن تحيد عنها مهما كان الثمن وهذه الأسس هي :

1 ــ ان الجزائر جزء لا يتجزأ من الأمة العربية الخالدة •

2 ــ ان الجزائر لن تكون تابعة لأحد وانما تنبع سياستها من صميم الشعب وفقا للارادة العربية المتحررة •

ان دستور الثورة قد حوى أسس الاستقلال فى الداخل والخارج ووضع للثورة ركائز قوية وبرامج شاملة تجعلها مندفعة دائما نحــو الهدف الذي انطلقت من أجله •

واذا كانت معجزة الثورة الجزائرية قد تجلت فى بناء الشعب بناء نفسيا هادفا وفي تكوينها لاتحادات العمال والتجار والطلبة التي طالما تدخل الاستعمار لعرقلتها كأداة خادمة ــ فان هذه المعجزة تتجلى أكثر وأكثر عندما نجد الثورة الجزائرية قد استطاعت أن تجعل من المرأة العربية أداة صالحة لخدمة القضية وسلاحا قويا من أسلحة الثورة •• ففي المعركة اليوم مآت المجندات يعملن ممرضات ومسعفات وحارسات ويحملن السلاح ويقمن بالأعمال الفدائية الخارقة مما جعل الاستعمار الفرنسي يضيق ذرعا بهن فيحكم بالاعدام على البعض وبالسجن على الأخريات •• ولعل قصة جميلة بوعزة وزميلاتها البطولية لم تغب بعد عن أذهاننا •

والى جانب ذلك تقوم المرأة العربية بالجزائر بدور خطير وهو رفع الروح المعنوية لجيش التحرير ويكفي أن تعلموا بهذا الصدد أن المرأة قد أصبحت ترفض الزواج ممن لم يجاهد أو يحمل السلاح وتحتقر الذين لم يعملوا فى صفوف الثورة •

ومن معجزات الثورة أنها استطاعت أن تقلب خطط فرنسا العسكرية وتقديراتها السياسية لقد كانت تظن أن الشعب الجزائري سيضرب بعضه بعضا بالتآمر والدس وأن الجنود العرب فى الجيش الفرنسي سيقاتلون اخوانهم المجاهدين ويتعقبونهم •• ولكن الذي حدث قد طعن فرنسا فى الصميم •• ذلك أن الشعب الجزائري الذي خبر فرنسا أكثر من مرة لم يكن غبيا الى درجة أن ينتحر •• هذا من ناحية •• ومن ناحية أخرى فان الثورة التي تتركز على قاعدة شعبية سليمة قد فوتت على فرنسا هذا الهدف بحيث جعلتها تفتقد كلية الاعتماد على الجزائريين العرب فى جيشها •• لقد فر معظم هؤلاء الجنود الأبطال الى جيش التحرير بعتادهم وأسلحتهم وأسرارهم بعد أن قتلوا ضباطهم ومن كان معهم من الجيش المحتل •• وها هم يؤدون دورهم فى الكفاح الوطني ويقدمون دماءهم وأرواحهم وخيراتهم فداء للقضية العربية فى الجزائر • أما الذين لم يتح لهم الفرار فقد نقلتهم فرنسا الى ألمانيا بعيدا عن الوطن وهم يعتبرون أنفسهم أسرى لا جنودا فى جيشها الاستعماري •

أيها الاخوة •• ان مأساة الثقافة فى الجزائر تثير الشك فى القيم الحضارية للانسان وتعيد الى الأذهان مبادىء الكهوف والأدغال •• ونحن اذ نعرض عليكم جانبا لهذه المأساة لا نلجأ الى العاطفة نستثيرها ولا المشاعر نستفزها ولكننا سنلجأ فقط الى الأرقام •• وحتى لا نطيل عليكم نذكر لكم احصائية رسمية صدرت سنة 1953 عن التعليم الفرنسي فى الجزائر تقول هذه الاحصائية عن التعليم الابتدائي ان السكان الأوروبيين وعددهم مليون نسمة يزاول التعليم جميع أبنائهم البالغين 135000 وأن السكان العرب وعددهم عشرة ملايين يبلغ عدد أطفالهم الذين هم فى سن التعليم مليون وتسعمائة وتسع وستين ألف طفل لا يتعلم منهم سوى 266000 والنتيجة أن نسبة الذين حكم عليهم بالاعدام الثقافي 5ر86٪ •

وتقول الاحصائية عن التعليم الثانوي أن عدد الأطفال الأوروبيين فيه يبلغ 24 ألف طالب وعدد الأطفال العرب 4159 طالبا • أما عن التعليم الجامعي فتقول الاحصائية الرسمية أن الطلبة الأوروبيين يبلغون 5132 أما الطلبة العرب فلا يتجاوزون 507 طلبة •

ويبدو أن الوقت لا يتسع لعرض الجانب الآخر من المأساة •• مأساة التعليم العربي في بلد عربي كالجزائر ولكننا سنحاول اعطاءكم صورة عنه ولتكن موجزة جدا •

لقد ظهرت حوالي سنة 1920 حركة ثقافية عربية هدفها المحافظة على الكيان العربي الاسلامي للجزائر الذي كان مهددا بالذوبان والفناء وقد تدفق الشعب على هذه الحركة يعلن تبنيها بالنفس والمال •• ولم تلبث أن أصبحت ضرورة من ضرورات الفكر العربي هناك وأصبح لها شعب ومدارس وطلبة فى كل مكان ولكن الاستعمار الذي لا يستطيع أن يعيش في النهار حنق على هذه الحركة بالرغم من طابعها الثقافي المحض وأخذ يكيد لها ويتعقب رجالها بالسجن والتعذيب والغرامة والنفي حتى لقد أصبحت هذه الأنواع من العقوبات تسلط على كل من يتعلم العربية أو يدرس حضارة العرب وتاريخهم •• علـى أن ارادة الشعب التي اعتمدت عليها الحركة الثقافية قد صمدت أمام صانعي المأساة فلـم يستطيعوا أن ينالوا منها أو يردوا سيلها المتدفق نحو الهدف •

أيها الاخوة •• ان مأساة الثقافة والفكر فى الجزائر هي التي جعلت الطالب ـ الجزائري يندفع نحو الثورة بكل ايمانه •• لقد كان رد الفعل الذي قام به المثقفون عامة والطلبة خاصة رائعـا فبينمـا كانت فرنسا تقدر أن الطبقة التي خرجت من مدارسها ورضعت لغة هوجو وأناتول فرانس سوف تكون الى جانبها يوم يجد الجد اذا بها تفقدها نهائيا •• انها تكاد تنتحر وهي ترى القافلة تسير ومن ورائها أولئك المثقفون أنفسهم ولم يستطع أحد رجال فرنسا أن يتمالك أعصابه ازاء ما حدث فيقول •• لقد أخطأنا بتعليم الجزائريين لغتنا وثقافتنا •• اننا لم نزد على أن أطلعناهم على مباديء الثورة الفرنسية بينما نحن في القرن العشرين نسوسهم كالأغنام •

ومهما كان كلام هذا الرجل العصبي فان الطالب الجزائري في فرنسا وفي الوطن العربي وفي الجزائر نفسها قد ساهم مساهمة ايجابية في سبيل دفع الثورة الى القمة وفي سبيل بناء الجزائر بناء ثوريا منتجا •

والطالب الجزائري اليوم أحد رجلين فهو اما يخوض المعركة الوطنية السياسية والعسكرية واما جندي احتياطي ينتظر الاشـارة بين الحين والآخر • ولذلك فنحن الطلبة نعلن بكل تواضع وتقدير لمسؤوليتنا اننا نعتبر أنفسنا تحت السلاح واننا لن نتخلى عن أداء رسالتنا المقدسة التي يطلبها منا وطننا المناضل •

أيها الاخوة •• هناك نقطة جديرة بالاهتمام والعمل الحاسم والا فان الزمن سوف لا يترك لنا مجالا لاستدراكها • أن الاستعمار بعد أن أعيته الحيل والدسائس والسلاح في الجزائر أخذ يحاول أن يثبت اقدامه بوسيلة أخرى لعلها آخر ورقة يلعبها في المعركة التي تهدده بالانهيار ،هذه الوسيلة هي أنه بدأ يتآمر على اقتصادنا المغربي بسيطرته على مناطق الصحراء الغنية بالبترول والمواد الخام وانكم لا شك سمعتم منذ بضعة شهور عن تكوين شركة استعمارية لاستغلال الصحراء الكبرى بينما الثورة مشتعلة والدماء تسيل • ونحن اذ نبشركم بأن جيش التحرير قد استعد استعدادا كاملا لاحباط هذا المشروع الاستعماري نعلن باسمكم اننا لن نسمح بأن تمر قطرة واحدة من بترول الصحراء الا بعد استقلال الجزائر والاتفاق مع أهل البلاد الشرعيين ••• ولتكونوا واثقين بأن الثورة الجزائرية التي انتفعت بتجارب الآخرين لن تبيع شبرا واحدا ولن تتنازل عن ذرة واحدة من أرضنا العربية لأي كان ومهما كان الثمن ••

أيها الاخوة ••• اننا نتجه دائما الى المستقبل ••• المستقبل الأفضل الذي ننشده جميعا •• المستقبل الذي نبنيه بدمائنا وعرقنا ودموعنـا ومكسبنا ••• المستقبل الذي يصهر فى مصر وسوريا والمغرب العربي وغيرها من وطننا المنتفض ••• اننا نتجه اليه دائما لأننا نصنعه بأنفسنا وندفعه باصرار الى القمة فى زحمة هذا الوجود المتصارع •• وليست الثورة الجزائرية سوى التعبير الفعال عما يختلج فى نفوس العرب الأحرار نحو هذا المستقبل •• لقد أعلنت هذه الثورة العربية الصميمة أنهـا ليست ثورة الجزائر وحدها وليست ثورة المغرب العربي فقط وانمـا هي ثورة العرب جميعا •• هي الوجه الحقيقي للطاقة العربية المشعة رغم

الطلي والظلام والكثافة التي وضعها الاستعمار على ذلك الوجه •• ومن هنا كان انتصار الجزائر فى المعركة انتصارا لفلسطين الجريحة والجنوب العــربي المكافح •• انتصارا لمصر وسوريا فى صراعهما التحرري •• انتصاراً للقومية العربية في كل مكان •

والسلام

(أبو القاسم سعد الله)

1957 10/31

حول كتابة تاريخ الثورة الجزائرية

مساهمة من مجلة الجيش في تسليط الأضواء على كتابة تاريخ الثورة(*)، ارتأت أنه من المفيد أن تلتقي بأحد المؤرخين الجزائريين الذين عاصروا الثورة وعايشوها ، وكتبوا فى العديد من مراحل تاريخ الشعب الجزائري (الدكتور أبو القاسم سعد الله) الذي جعلته الثورة الجزائرية ينتقل من كتاباته فى المجال الأدبي ، الى الاهتمام بالجانب التاريخي ، وذلك فى الفترة العصيبة التي كانت كل جهود المستعمر موجهة لمحو الشخصية والتاريخ اللذين هما هوية وذاكرة الشعب الجزائري •

وبدون اطالة نفسح المجال للدكتور سعد الله ، ليجيبنا عن بعض الأسئلة والاستفسارات :

**** تعتبر من المؤرخين المهتمين باعادة كتابة تاريخ الثورة ، فكيف ترى الطرق الكفيلة بهذه العملية ، انطلاقا من نتائج الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ الثورة ؟**

كان الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ الثورة بداية طيبة لفتح الحوار بين المساهمين فى الثورة حول أفضل الطرق لكتابة تاريخها • ان المناقشات العميقة والصريحة التي دارت فيه ، والعروض التي قدمت أثناءه كانت الأولى من نوعها فى علاج هذا الموضوع • وأعتقد أن الجيل الحاضر ، وجيل الغد سيجد فى تلك المناقشات سواء نشرت كما هي ، أو ظلت فى سجلات محفوظة ثروة هائلة من الأفكار والتفاسير لأحداث الثورة ، ولاسيما المرحلة الأولى منها ، وهي المرحلة التي خصص لها الملتقى •

(*) ــ مجلة (الجيش) ، عدد يونيو (جوان) ، 1982 ، أعد المقابلة الأستاذ : شريف عمراني •

غير أن التاريخ لا يكتب فى الملتقيات على هذا النحو • ان مهمة هذه الملتقيات هي :

1 ــ جمع المادة من أفواه المشاركين ، ومن وثائقهم الخاصة والعامة ، ومن آرائهم المختلفة ، ثم من العروض التي تلقى •

2 ــ حفز الهمم على العناية بالتاريخ عموما وتاريخ الثورة خصوصا •

3 ــ اعطاء تفاسير عديدة للحادثة الواحدة ، وتعدد وجهات النظر فى المواقف والتطورات التي مرت بها الثورة •

4 ــ تسليط الأضواء على ما غمض من جزئيات قد يكون لها تأثير على مسار الثورة •

وأعتقد أن الملتقى الأول ، قد فتح المجال أمام هذه الأمور كلها ، ولكننا ننتظر أن تواصل الملتقيات القادمة ان شاء الله نفس المهمة •

ولكن المؤرخ لا يكتب تحت الأضواء الكاشفة ولا وسط ضجيج الملتقيات ، وصخب الجماهير • ان عليه أن يتابع كل ذلك ، نعم وأن يرصد الأحداث ويتمثلها ، وأن يسجل فى وعبه ، وعلى بطاقاته خطوات التيار العام ، ثم ينتحي ناحية بعيدة عن الأضواء والصخب والضجيج ، دارسا متأملا مقدما بعض الأحداث على أخرى محكما عقله وضميره ، وبعيدا عن المؤثرات الخارجية مهما كان نوعها ، ثم يصدر حكمه الذي يعتقد أنه الحق ، مهما خالف ذلك الرأي العام أو ما اتفق عليه الناس • أو ما كان يتوقعه هذا المسؤول أو ذاك ، فكما أن القاضي يستمع الى جميع أطراف القضية ثم يختلي للتشاور مع مساعديه قبل اصدار حكمه ، فكذلك المؤرخ ، فهو يقرأ ويسمع ويعيش مع جميع الأطراف المشاركة فى الحادثة ، ثم يختلي مع نفسه ليحكم عقله وضميره قبل اصدار حكمه •

**** تختلف مناهج كتابة التاريخ من مدرسة لأخرى ، ما هو المنهج الذي يمكن اتباعه لاعادة كتابة تاريخ ثورتنا بموضوعية اكثر من غيره ؟**

في اعتقادي أن هناك منهجا واحدا لكتابة التاريخ ، وهو المنهج العلمي ، ولكن هناك بعض الاعتبارات التي قد تؤثر على استعمال

هذا المنهج • فالتاريخ باعتباره من أهم العلوم الاجتماعية والانسانية خضع لتفاسير عديدة بحسب الأدوات التي توفرت للمؤرخ في الحقبة التي عاشها أو يعيشها • وقد تأثر التاريخ بالعلوم الاجتماعية الأخرى ، وكذلك التيارات الأدبية ، في بعض الحقب ، فكان هناك المؤرخ الديني ، والمؤرخ الأدبي ، والمؤرخ السياسي ، والمؤرخ الاقتصادي ، والمؤرخ الاجتماعي ، وهلم جرا ، بل اننا وجدنا في بعض الحقب المؤرخ الاستعماري والمؤرخ الوطني أو القومي ولكن (التاريخ) في حقيقة الأمر واحد • أما الذي اختلف فهو المؤرخ أو الانسان الذي يتأثر بعوامل العصر الذي يعيشه من دين وقومية ، وحضارة ، ونظم حكم الخ ••• وما دام هذا المؤرخ لا يستطيع أن يكون عمليا « عالما » بجميع العلوم الاجتماعية والانسانية على حد سواء ، فانه لا محالة سيتأثر بالعلم الذي تغلب عليه • و لايخفى ان عصرنا يعتبر عصر الجماهير ، ولذلك شاعت بين الناس ، ومنهم المؤرخون ، الثقافة السياسية والاقتصادية ، بألوانها القومية ، يضاف الىذلك الثقافة الاجتماعية (أو السوسيولوجية) والانثروبولوجية • وهكذا أصبح لا محيد للمؤرخ أن يتسلح بكل هذه الثقافات اذا أراد أن يفهم سير حركة الجماهير أو العصر الذي يعيشه • أما التقسيم التقليدي لمدارس التاريخ من ماركسية وليبرالية أو رأسمالية ، ونحو ذلك ، فقد بدأ يترك مكانه للتقسيم الذي ذكرناه ، ولا شك ان الثورة الجزائرية ، باعتبارها حركة جماهيرية ، في حاجة الى هذا المؤرخ المتشبع بنظريات وأحداث العصر ومسيطرا على مادته وأدواته •

**** ككل الثورات نسج الخيال الشعبي حول الثورة الجزائرية اساطير وأضفى عليها كثيرا من خياله ، فكيف يمكن للمؤرخ المتفحص التوفيق في الفصل بين الجانب الذاتي أو الأسطوري الذي يمكن اعتباره من اختصاص الأدباء والفنانين وبين الجانب العلمي الذي يهم المؤرخ في تسليط الأضواء على وقائع الأحداث ؟**

هذا صحيح ولكن اذا كانت أساطير الثورات الأخرى ونسيج الخيال الشعبي حولها (مدونة) في أكثرها ، فان أساطيرنا وخيالاتنا ما زالت تعيش في الذواكر بدون تدوين • والأسطورة هي جزء من الحقيقة • ولذلك فانه يمكن للمؤرخ أن يستفيد أيضا من الأساطير والخيالات

باعتبارها أجزاء من الحقيقة • ومن جهة أخرى فان التاريخ ليس « علما » كله ، أي أنه ليس علما مجردا كعلم الرياضيات والفيزياء ، بل هو علم « اجتماعي » و « انساني » وهذا يعطيه الحق فى الاعتماد أيضا على الأساطير الشعبية • ان الفصل بين الجزء الذي هو الأسطورة وبين الكل الذي هو العلم ليس بالضرورة فصلا جداريا أو حديديا ، لأنه يمكن أن يكون فصلا شفافيا أو ضبابيا فقط • ولكل من الأديب والمؤرخ الحق فى الكتابة عن الثورة ، غير أن الفرق بينهما أن الأديب تغلب عليه العاطفة بينما المؤرخ يغلب عليه العقل وأحكام الأديب في الغالب كلية ويقينية ، بينما أحكام المؤرخ تفصيلية ومتشككة •

**** لا جدال في أن تاريخ الجزائر لا يمكن أن يكتبه الا جزائريون ، وعليه كيف يمكن لهذا المؤرخ أن يكتب عن ثورته وقد تجرد من كل ذاتيته وعاطفيته تجاه حدث عايشه ، ولا زال متأثرا به ؟**

ولماذا يتجرد من ذلك ؟ ان الثورة الجزائرية ككل أحداث الوطن هي ملك للجميع ، بما فى ذلك المؤرخ ومن الطبيعي أن لا يكتب هذا المؤرخ عن وطنه كما يكتب عن أوطان أخرى ، ببرودة وجفاف ، أو حتى بدون مبالاة كما فعل من كتب عن تاريخها من الأجانب • ولعل القول بأن « التاريخ غير محايد » هو قول صحيح الى حد كبير خصوصا اذا كان المؤرخ أجنبيا عن الموضوع الذي يكتب عنه • ولكن يكفي هذا المؤرخ أن يقدم للتاريخ نتائج بحثه ورؤيته الشخصية • اننا الآن تفتقر الى المؤرخ أصلا ، أعني المؤرخ الكفء ، الذي توفرت فيه شروط الاستعداد الفطري ، والتكوين العلمي والنزاهة فى الحكم • وليس كل من كتب فى التاريخ مؤرخا كما أنه ليس كل من نظم الشعر شاعرا • انني أعرف بعض « المؤرخين » الجزائريين الذين اذا كتبوا عن الحركة الوطنية كتبوا عنها من وجهة نظر أحزابهم أو الهيئات التي كانوا منتمين اليها قبل الثورة • وأعتقد أن « مؤرخي » الثورة سيتأثرون أيضا بدورهم فيها وحدود مشاركتهم ومسؤوليتهم ، وقد تغلب على بعضهم الروح الحزبية ، والجهوية ، وما اذا كانوا من أصحاب الداخل أو الخارج ، وما اذا كانوا عسكريين أو مدنيين بل ما اذا كانوا من أصحاب المدن أو من أهل الريف •

وهل نتوقع أن يكون المؤرخ غير ما هو عليه فى الواقع ؟ ان علينا أن نقنع « بالمؤرخ الانسان » الذي يتأثر بما عايش من أشخاص ومذاهب وأحداث ، لأن « المؤرخ النبي » مايزال لم يولد بعد • ولماذا نطلب المستحيل قبل أن نحاول الممكن ؟ •

**** هل يعتبر كل تسجيل أو مخطوط أو مذكرات ، وثائق تاريخية يرجع اليها في اعادة كتابة تاريخ الثورة ؟ وما هي الوسائل اللازمة ، والشروط الأساسية الواجب توفرها في الكاتب حتى يكون مؤرخا للثورة الجزائرية ؟**

كل ما يمكن أن يساعد المؤرخ على الوصول الى الحقيقة فهو مفيد . ويدخل فى ذلك التسجيل والمخطوط والمذكرات ، وقد سبق لي أن تحدثت عن شروط الكاتب المؤرخ — أما عن الوسائل فالأمر أصعب فى نظري وأهم وسيلة هي توفير المؤرخ الكفء ، ويأتي بعد ذلك فتح مجال الاستفادة من الوثائق وأدوات النشر والتوزيع • ولعلني لا أكرر نفسي عندما أقول ان الحرية (أعني حرية التعبير والنشر) هي أعظم « وسيلة » • وكيف نطمح الى الوصول الى الحقيقة اذا كان على المؤرخ أن يداري أفكاره وآراءه وأن يشوه الأحداث لكي يكون مقبولا ؟ ان التخلص من العقد والحساسيات هو الكفيل بتحبيب التاريخ والكتابة فيه وبسد الذرائع أمام الأجانب وأمام المتطفلين • وقد قلت فى احدى المناسبات ان الجزائريين قد تخلفوا كثيرا عن كتابة تاريخهم وأن الشعب الجزائري من الشعوب القليلة التي لا تكاد تقرأ عن نفسها الا فيما كتبه الأجانب عنها • وهذا خطأ وعيب فى آن واحد •

**** ان الكثير من الوثائق النادرة ، والمتعلقة بجوانب من تاريخنا لا زالت موزعة بين متاحف ومكتبات العديد من البلدان ، وخاصة فرنسا التي تتمسك بوثائق هامة ، متذرعة بأنها تثير بعض الحساسيات ، فما مدى صدق هذه الذريعة في رايك ، وكيف يمكننا استرداد وثائقنا ، وكل ممتلكاتنا الثقافية التي بحوزتها ؟**

لهذا السؤال وجهان ، وجه قانوني ووجه تاريخي أما الوجه القانوني فسأتركه لأهل القانون ، وأما الجانب التاريخي فهو الذي يهمني هنا • حقا ان وثائقنا موزعة هنا وهناك (أما المفقود منها عن طريق الحرق

والتلف والضياع والنهب الخ ، فأكثر من أن يحصى) ، والفرنسيون لم يأخذوا ما يثير الحساسيات فقط ، ولكنهم « أخذوا » أيضا كأفراد مخطوطات ووثائق الجزائر ووزعوها على مكتبات بلدياتهم وكذلك مكتباتهم الخاصة ، عندما كانوا مسؤولين عن المكاتب العربية أو مترجمين أو مفتشين للبلديات المختلطة أو معلمين فى « المدارس » العربية — الفرنسية أو مستشرقين يشتغلون بالشؤون الاسلامية •

وأعتقد انه من حق الجزائر أن تسترد من فرنسا ما أخذته عن طريق القوة والعنف والتهريب ، ومن ذلك الوثائق • ولكن الوثائق ، سواء ما يثير الحساسية أو ما لا يثيرها ليست كل شيء • ان الفرنسيين قد أخذوا (1) أيضا تحفا وأسلحة وآثارا تاريخية هامة ووضعوها فى متاحفهم وحدائقهم وموانيهم ومكتباتهم ، يضاف الى ذلك ، عدد من « الجماجم » أو الرؤوس المقطوعة من أجسام بعض المقاومين الأشراف بعد مقتلهم خلال القرن الماضي (2) ومن منا ينسى ان الفرنسيين أخذوا « خزينة » الدولة الجزائرية ، التي قدرت بأكثر من خمسين مليون دولار عندئذ • أليس من حق الجزائر المنتصرة بعد هزيمة أن تستعيد تراثها وحقوقها الثقافية كما استعادت سيادتها وحقوقها السياسية ؟ أما مسألة الحساسية فان هناك قوانين دولية يجب مراعاتها فى الاطلاع أو حجب الاطلاع على الوثائق المعنية والجزائريون من أعرف الناس بهذه القوانين •

**** بعد مضي عشرين سنة على الاستقلال يعتبر زاد شبابنا من تاريخ ثورته ضئيلا وقد يرجع ذلك في اعتقادي الى المناهج التعليمية التي لم تعط هذه المرحلة حقها من الاهتمام والى ندرة من أرخ للثورة .**

فكيف يمكننا تعميق جذور الانتماء الوطني وتوحيد المشرب لشبابنا ؟

الشيء الذي ألاحظه هو انه بعد عشرين سنة مازلنا لم نكتشف أنفسنا تاريخيا وحضاريا • ان التغني بأبطال المقاومة الوطنية خلال القرن الماضي

1 — أخذ الفرنسيون سنة 1833 المدفع الضخم المسمى (بابا مرزوق) من مدينة الجزائر ونصبوه في ساحة بمدينة (بريست) وكان هذا المدفع قد صنع سنة 1542 •
أنظر المجلة الافريقية ، 1873 ، ص 1 ،

2 — أرسل الفرنسيون رؤوس الشريف بوزيان زعيم ثورة الزعاطشة ، والشريف بوبغلة ، وشريف ثورة تبسة وتسعة رؤوس أخرى الى قسم الانثروبولوجيا بمتحف باريس •
أنظر المجلة الافريقية سنة 1886 من ص 79 الى 80 •

وبشهداء ثورة نوفمبر لا يكفي ، ذلك أن تاريخنا (والتاريخ عموما) عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات فأين نحن من أبطال العروبة والاسلام فى هذه الديار الذين ظهروا منذ الفتح الاسلامي ؟ وأين مساهمتنا المشرقة فى الحضارة العربية الاسلامية ــ في الأندلس ، في افريقية ، في صقيلية ، في المشرق الاسلامي ، بل فى جنوب أوروبا الغربية ؟ ماذا نعرف عن ذلك كله ــ عن عبد المؤمن بن علي موحد المغرب العربي ، عن عبد الكريم المغيلي ناشر الاسلام في افريقية ، عن مراد رايس قاهر ايسلاندا وجزر الكناري ، عن دور كتامة في القاهرة والمشرق ، عن معركة الجزائر 1541 التي انسحق فيها أسطول شارلكان ؟ ان تاريخنا لايبدأ من سنة 1954 أو من سنة 1830 ، ولكننا بصراحة نجهل تاريخنا . وهذا الجهل قد انسحب أيضا على أبنائنا . فبرامج التعليم المتوسط والثانوي ضعيفة فى هذا المجال . ولا يكاد التاريخ الوطني يدرس الا فى أقسام التاريخ بالجامعات . ولا تدرس اللغة العربية ــ وهي وسيلة سيرورتنا الحضارية ــ بعد الباكالوريا ، الا فى معاهد الأدب بالجامعة . بينما شاهدت بنفسي انه فى دولة من أعظم دول العالم يتابع الطلبة دراسة اللغة والتاريخ الوطني فى جميع قطاعات التعليم الجامعي كمادتين اجبارتين مهما كان تخصص الطالب . ان رفع الشعارات والتغني بالأمجاد لا يكفيان . والحديث عن أهمية التاريخ فى المناسبات (3) ليس حلا للقضية ، وأعتقد أن اصلاح المناهج التربوية ، وتوجيه الاعلام ، ونشر التراث المكتوب كلها تخدم الهدف الذي طرح فى السؤال .

واذا كان لي من كلمة أختم بها هذه الاجابة فهي دعوة جميع الجزائريين القادرين على الكتابة الى تسجيل أفكارهم وآرائهم ونتائج دراساتهم ، كل فى ميدانه ، ذلك ان المكتبة الجزائرية فقيرة جدا الى المؤلفات التي خطها الجزائريون أنفسهم . انه لعار عظيم أن يصدر عن بلد تعداده عشرون مليونا ما لا يتجاوز مائتي عنوان فى السنة . مائتا عنوان (وعلى علاتها !) لو كانت كلها فى التاريخ لحكمنا بأنها لا تشفي غليلا ولا تبريء عليلا . فما بالك وهي كل ما تنتج فى جميع الفنون .

3 ــ انظر افتتاحية مجلة الثقافة عدد 66 ، نوفمبر ــ ديسمبر 1981 ، وهي نفسها الكلمة الموجودة في أول هذا الكتاب بعنوان (عن الكتابة التاريخية) .

رحـــلة الأغــواطي

في شمالي افريقية والسودان والدرعية

بقــــــلم
الحاج ابن الدين الاغواطي

ترجمها عن العربية (الى الانكليزية)
ويليام ب . هودسون

قنصل امريكا بالجزائر ، والمراسل الأجنبي للجمعية الملكية الآسيوية
(لنـــــدن)

طبع مؤسسة الترجمة الشرقية سنة 1830 ، لندن

- ترجمنا هذه الرحلة عن الانكليزية ونشرناها في مجلة التاريخ (الجزائر) عدد النصف الثاني من سنة 1982 . أنظر الصور فى آخر الكتاب .

تقـــديم الرحـــلة

مر عثورنا على هذه الرحلة بمراحل لابد من ذكرها ، فأثناء مطالعتي لحياة وأعمال القنصل الأمريكي فى الجزائر ، ويليام شيلر ، وجـدت اشارات قادتني الى حياة خلفه في المهنة ، وهو ويليام هودسون ، ومن خلال تتبعي لحياة ونشاط هودسون وجدت ما ترجمه من رحلة ابن الدين الأغواطي ، وهكذا اتصلت بأحد المؤلفين الجزائريين فى الجغرافية والتاريخ عن طريق أحد قناصل الولايات المتحدة فى الجزائر •

المـــؤلف :

أما مؤلف هذه الرحلة فهو ، حسب مترجمه ، الحاج ابـــن الديـــن الأغواطي ، ويبدو أنه لم يكن معروفا على مستوى الجزائر فى وقته ، رغم ان هذا الاسم ــ ابن الدين ــ كان موجودا في المناطق التلية بالجزائر ، وقد سألنا عنه بعض المثقفين من أهل الأغواط فأفادونا أن عائلة ابن الدين ما زالت موجودة وأنه كان معروفا فى وقته وأنه كتب عملا استحوذ عليه الفرنسيون ، وعلى الخصوص شيخ بلدية مدينة الجزائر (1) •

واذا أخذنا معلوماتنا عنه من النص الذي بين أيدينا ، فان الحاج ابن الدين كان قليل التعلم كثير الاطلاع ، فهو قليل التعلم لأن معلوماته عن بعض أحوال العصر التي سنشير اليها ، فى التعاليق ، وبتاريخ الحضارة الاسلامية لا تدل على معارف دقيقة ، فهو من الظاهر كان من « المستمعين » الذين يعرفون ولا يدققون ، يلمون ولا يتخصصون ، اما كثرة اطلاعه فتدل عليها خبرته بالمناطق التي وصفها والتي يؤكد فى مناسبات عديدة

1 ــ من رسالة بعث بها الى الدكتور محمد السويدي الأغواطي من الجزائر الى الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ 11 مايو 1978 .

أنه رأى ما كان يتحدث عنه ، ولعل اسمه « الحاج » يدل على أنه أدى مناسك الحج وتوقف في بعض العواصم الاسلامية مثل حجاج وقته ، كما أن وصفه للدرعية ، عاصمة أول دولة سعودية ـ وهابية يدل على أنه لم يتوقف عند زيارة الحجاز ، وقد ذهب الى وصف أماكن من افريقية ـ مثل شنقيط وتمبكتو وغدامس الخ ـ لا نعرف بالضبط أنه زارها بنفسه ، رغم ان كلامه يوحي بذلك

وعلى كل حال فان هودسون لم يفصل الحديث عن علاقته الشخصية بالحاج ابن الدين : لماذا سأله هو بالذات كتابة رحلته ؟ هل لأنه يعرفه مطلعا دون غيره ، على أحوال الصحراء وأهلها ولغتها ؟ هل ذهب هودسون الى الأغواط فالتقى به ؟ أو هل جاء الحاج ابن الدين الى مدينة الجزائر فألتقيا ؟ وهل كتب الحاج ابن الدين عملا كبيرا فاختصر منه النص الذي قدمه الى هودسون وكيف دفع هودسون ثمن المكتوب ؟ كل هذه أسئلة تدور بالخاطر عندما يقرأ المرء النص الذي نحن بصدده ويعرف الظروف التي كتب فيها • ولكن معظمها يظل بدون اجابة •

المترجم :

جاء هودسون الى الجزائر سنة 1825 لكي يساعد شيلر في مهمته كقنصل عام لبلاده في الجزائر ، وكانت خبرة هودسون باللغات الشرقية هي التي أهلته لهذه المهمة • وكان الهدف من وجوده رفقة شيلر أيضا تدريبه على الخدمات الدبلوماسية • وقد بقي هودسون في الجزائر الى سنة 1829 • وأثناء هذه الفترة كرس جهوده ، مثل شيلر أيضا ، لاتقان العربية والتركية والتعرف على البربرية وجمع المعلومات حولها ومقارنتها بما كتب عنها الأولون وباللغات الأخرى من فينيقية وعربية وغيرهما • ويهمنا من هذا التاريخ أن (2) هودسون قد تعرف على الحاج ابن الدين بين سنوات 1825 ـ 1829 •

2 ـ نشر شيلر كتابه الهام عن الجزائر في مدينة بوسطن سنة 1825 ، وعنوانه (مختصر تاريخ الجزائر) عن هذا الموضوع أنظر أيضا دراستنا (أثر الجزائر في الأدب الأمريكي)، مجلة الثقافة ، عدد مارس ـ أبريل ، 1985 •

وبعد عودته الى واشنطون سنة 1829 اشتغل هودسون كاتبا فى وزارة الخارجية فترة ، ثم بعثته حكومته ــ رفقة زميل آخر له وهو السيد بورتر الى القسطنطينية سنة 1831 لكي يترجم موافقة حكومته على المعاهدة التركية الى العثمانيين ورغم انه رجع الى واشنطن لبضعة شهور فانه عين مستشارا للمندوبية الأمريكية فى اسطانبول . وأثناء وجوده فى واشنطن من 1829 الى 1831 اشترك فى عدة أنشطة علمية كالقائه أبحاثا عن شمال افريقية ولغته وأهله وجغرافيته ، وذلك أمام الجمعية الفلسفية الأمريكية التي كان مقرها بمدينة فيلاديلفيا ، وقد نشرت هذه الجمعية أبحاثه في مجلتها . كما نشرت بعضها ملخصة مجلة (نورث أمركيان ريفيو) (3) . كما أنه ترجم ونشر في هذه الأثناء رحلة ابن الدين الأغواطي التي نحن بصددها .

ان هودسون يعترف فى غير ما مناسبة أنه كان مهتما بجمع المعلومات عن البربرية ، ولذلك قال أنه كان على صلة بأحد طلاب زواوة الذي استفاد منه ترجمة لبعض أشعار هذه اللهجة ، كما استعان به فى تحليل بعض النصوص القديمة التي فيها أسماء مستمدة من البرُبرية . ولعل هودسون يعتبر من أوائل المستشرقين المهتمين بهذه اللهجة ، وفي هذا النطاق تأتي رحلة الحاج ابن الدين ، فهودسون يذكر أن « هدفي الأساسي من الحصول على هذا المخطوط هو التأكيد على امتداد رقعة اللغة البربرية » .

اهمية الرحلة :

رغم ما قلناه عن صاحب هذه الرحلة فانها ، كنص تاريخي ، هامة جدا ، فهي تحتوي على معلومات طبية اجتماعية واقتصادية وجغرافية وسلالية ولغوية ... عن المناطق التي تحدثت عنها . وقد ذكر هودسون أن هذه الرحلة تحتوي على معلومات لم يسبق للأوروبيين أن عرفوها ، حتى أولئك الذين رحلوا وكتبوا عن افريقية .

3 ــ مثلا عدد يوليو ، 1832 ، مجلد 32 . North American Review

والأهمية هذا النص ، على الأقل من وجهة النظر الأوروبية ، سارع الفرنسيون بترجمته وتداوله ، وقد كان الفرنسيون أكثر اهتماما عندئذ بافريقية من الأمريكيين • فقد ترجم السيد دافيزاك d'Avezac • هذه الرحلة الى الفرنسية (من الانكليزية) وقرأ الترجمة فى جوان 1833 على أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية فى باريس • ثم نشرها (4) بتعاليق هامة وتذييلات (لكنه لم يعلق على الجزء الخاص بالدرعية واكتفى بالترجمة فقط) • كذلك نشرتها بالفرنسية ، قبل دافيزاك ، مجلة (أخبار الرحلات الجديدة) (5) •

أما نصها الانكليزي فقد نشره هودسون في وقائع لجنة الترجمة من اللغات الشرقية ، فى 29 صفحة ، ثم لخصته سنة 1832 مجلة (نورث أمريكان رفيو) • وكان موضع اهتمام وتعاليق الباحثين فى هذا الميدان •

وقد ذكر هودسون أن النص الأصلي كان مكتوبا بخط مغربي غير جيد وغير دقيق ، وأن حجم المخطوط بلغ أربع عشرة صفحة • وقد أرفق الترجمة بقائمة الاعلام الواردة فى النص مضيفا الى جانبها نطقها بالحروف اللاتينية ، ملاحظا أن هناك خللا فى كتابة بعض الاعلام مثل (متليلي) التي قال انها وردت فى الأصل (متليل) •

وأخيرا فان ادعاء الحاج ابن الدين بأن بعض القبائل في شمال افريقية تتحدث القبطية هو ادعاء يحتاج الى أدلة ، ومثله ادعاء هودسون بأن تلك القبائل لم تكن تتحدث سوى لهجة بربرية متأثرة بالفينيقية •

ان تاريخ النص غير مؤكد ، فرغم أنه يحمل فى نهايته تاريخ ربيع الثاني سنة (1242 — 1826) ، فانه يحتوي داخله على تاريخ آخر وهو 1243 • ومهما كان الأمر فان أحدهما على الأقل خطأ • والغالب أن يكون النص مكتوبا فى نهاية عهد هودسون بالجزائر ، أي حوالي 1829 ، ولا نظن أن يكون هودسون قد تعرف على الجزائر وجغرافييها بعد سنة واحدة من وصوله (وصل 1825) •

---

4 — في كتابه (دراسات في الجغرافية النقدية) باريس 1836 •
Etudes de géographie critique

5 — Nouvelles Annales de voyages (نوفمبر 1832) •

وقد حرصت قبل ترجمة هذا العمل على الوصول الى النسخة الأصلية ـ نسخة المؤلف ـ فلم أفلح • فقد صورت ترجمة هودسون فلم أجد معها النص العربي ، وبحثت عن أوراق هودسون الشخصية لعلها تكون بينها فلم أحصل على طائل رغم أنني عرفت أن هذه الأوراق قد تكون في وثائق الجمعية الفلسفية الأمريكية بفيلاديلفيا أو لدى احدى العائلات بنيو انقلاند بأمريكا ، وتوقعت أيضا أن تكون ضمن المخطوطات العربية والفارسية والتركية المنسوبة الى هودسون والموجودة في مكتبة الكونغرس الأمريكي • ولكني للأسف لم أستطع رؤية هذا العمل • فهل يكون النص العربي لهذه الرحلة ضمن تلك المخطوطات ؟ وقد سبق أن قلت انني سألت بعض مثقفي الأغواط عنها أيضا فلم أجد لها أثرا عندهم ولو عثرنا على النص في لغته الأصلية لاهتدينا الى الاعلام الصحيحة ولتمكنا من تصحيح أو تغلبط المؤلف والمترجم •

هذا ولابد لي في النهاية من شكر زميلي الدكتور عبد الله ركيبي الذي صور لي من المتحف البريطاني النص الكامل لترجمة هودسون للرحلة ، وكنت قبل ذلك قد اطلعت فقط على خلاصتها منشورة في مجلة (نورث أميريكان ريفيو) وعلى نصها بالفرنسية كاملا في كتاب دافيزاك (دراسات في الجغرافية النقدية) • كما أود أن أخص بالشكر الشيخ محمد الطاهر التليلي القماري الذي قرأت عليه الترجمة العربية فصحح لي نطق بعض الاعلام ، كما صحح لي بعضها ابن عمي الحاج صالح سعد الله ، الخبير في مسالك الصحراء الجزائرية الشرقية (*) •

الجزائر في 25-12-1981

(*) ـ نود أن ننبه القارىء الى أن جميع الاحالات (الهوامش) في هذه المقدمة وكذلك في نص الترجمة انما هي من وضعنا •

مدخل

لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة فى شمال افريقية قام بها الحاج ابن الدين الأغواطي ، وهذه الرحلة كتبها صاحبها بطلب مني ، وقد دفعت له الثمن •

انني أعتقد أن الرحلة تحتوي على معلومات تهم جغرافية اقليمية ، بحيث قد تكون مفيدة للرحالة فى المستقبل • ان معظم المدن والشعوب التي تحدث عنها ابن الدين غير معروفة معرفة جيدة ، بل ان بعضها لم يشر اليها أي رحالة أو جغرافي أوربي من قبل ، حتى ليون الافريقي نفسه لم يذكرها •

ان هدفي الأساسي من الحصول على هذا المخطوط هو التأكيد على امتداد رقعة اللغة البربرية • وقد أظهر المخطوط ، لحسن الحظ ، أن هذه اللغة هي لسان السكان فى كل مكان بشمال افريقية ، وأن الافتراض بأن بعض القبائل بجوار طرابلس تتكلم اللغة القبطية ، يكفي لتبرير بحث فى لهجة تلك القبائل • وانني أتوقع أن تكون تلك اللهجة هي البربرية بعد أن أفسدتها الفينيقية مؤكدين ما كان أكده سترابو •

وليام ب • هودسون
وزارة الخارجية الأمريكية
واشنطون ، 3 سبتمبر 1830

ملاحظة من الناشر (الانكليزي) :

ان المخطوط العربي الأصلي مكتوب بالخط المغربي ، وهو فى حوالي أربع عشرة صفحة ، ولكنه خط غير جميل ودقيق • وسيلاحظ المتخصص فى الدراسة العربية من نظرة فى ثبت المفردات ان (متليلي) تظهر فى الأصل (متليل) وأن (اخواليد) فى الأصل (اخويلد) •

(الناشر)

نص الرحلة

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه •

ان هذا الكتاب يحتوي على وصف مختلف البلدان والأماكن من قبل الحاج ابن الدين الأغواطي (1) •

الأغواط :

ان الأغواط بلدة كبيرة ، وهي محاطة بسور وحولها تحصينات • ولها أربعة أبواب وأربعة مساجد ولغة سكانها هي العربية • وهم يرتدون الملابس الصوفية ولا تخرج فيها النساء المحترمات من بيوتهن أبدا • ولكن غيرهن يظهرن فى الشوارع • وليس فى هذه البلدة حمامات • وهي تنتج الفواكه بكثرة ، ومن بينها التمر ، والتين والعنب ، والسفرجل ، والرمان ، والأجاص •

ويقسم وادي امزي الأغواط الى شطرين ، وهو يجري وسطها • وهذا الوادي مشهور فى الناحية • أما السكان فهم فريقان : فريق يسمي الأحلاف ، وفريق يسمى أولاد سرقين • وهم غالبا فى حالة حرب بينهم • وسبب الخصومة بينهم على العموم هو رفض فريق منهم طاعة شيخ البلدة • وتوجد شرقي الأغواط آثار بلدة قديمة كان أمراؤها مسيحيين (2) • والى هذه الأيام يرى المشاهد كثيرا من النقوش فى هذه الآثار •

1 — يلاحظ القارىء أن عبارة ابن الدين في هذه الديباجة مقتضبة وجافة ولا تتلاءم مع ما اعتاده مؤلفو عصره •

2 — لم يذكر المؤلف هذه البلدة ، ولعله يعني بالمسيحيين «الروم» أو الرومان •

وقد بنيت بلدة الأغواط من الطين بالدرجة الأولى • غير أن بعض المنازل مبنية بالحجر والملاط وليس للمساجد فيها منارات . كما أنه ليس لهذه البلدة مكان مخصص للسوق ، ولا حمام • أما العملة المتداولة فيها فهي عملة الجزائر وفاس ، والتجارة فيها رائجة • ولا تقترب العقارب ولا الطاعون منها لأنها مبنية في موقع مفضل • وهذه الناحية كثيرة الجبال ، وفى الجهة الشمالية منها جبل صخري ضخم •

تجمعوت :

وعلى مسافة مسيرة يوم شمال الأغواط تقع قرية تجمعوت • وينقسم سكان هذه القرية الى فريقين ، وليس لهم رئيس أو حاكم ، وهم يتحاربون فيما بينهم كما يفعل أهل الأغواط • وبيوتهم مبنية بالحجر والطين • وعلى الجهة الشمالية من تجمعوت جبل عال جدا يسمى جبل عمور ، وهناك أيضا جبل من الملح بالقرب من جبل عمور •

عين ماضي :

ان هذه البلدة تقع غربي تجمعوت ، وهي محاطة بأسوار تشبه أسوار طرابلس ، ولها بابان عظيمان ، ولحاكمها الذي يسمى ولد التجيني (3) ، حوالي مائة عبد وخزنة مليئة بالنقود ومنذ سنتين فقط (أي سنة 1243 هـ) جمع أخوه جيشا بهدف الزحف على وهران والاستيلاء على خزنتها ، وقد انضم جميع عرب الناحية المحيطة الى لوائه ، وزحفوا بالطبول والمزامير ، وأعطيت لهم الخيول والخيام • وقد سقطت مدينة معسكر فى أيديهم

---

3 ـ وقعت حملة محمد التجيني (التجاني) بن الشيخ أحمد التجاني ، مؤسس الطريقة التجانية ، على وهران سنة 1242 ، وتفاصيلها في عدة كتب منها محمد بن يوسف الزياني (دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران) تقديم وتعليق الشيخ المهدي البوعبدلي ، الجزائر 1978 ، ص 241 ، وكذلك (مذكرات الحاج الشريف الزهار) تحقيق الشيخ أحمد توفيق المدني ، الجزائر 1974 ، ص 159 ، ويبدو أن هناك غموضا في التاريخ الذي ذكره الأغواطي ، فعبارة « منذ سنتين » بالنسبة لعام 1243 هـ تدل على أن الحادثة وقعت سنة 1241 ، بينما الحادثة في الواقع جرت سنة 1242 ، والغريب أنه هو نفس التاريخ الذي ذكرناه في آخر الرحلة ، ولعل هذا الغموض هو الذي جعل السيد دافيزاك يقترح أن يكون تاريخ الرحلة هو 1249 وليس 1242 ، انظر المقدمة .

وتقدموا نحو وهران ، غير أن باي وهران وزع الدراهم على عرب الحملة بهدف هزيمة هذا الجيش • وقد نجح الباي فجعلهم بذلك يسحبون تأييدهم لولد التجيني الذي قتل فيما بعد اثر هجوم قام به الباي ضد جيشه •

وها هو أخوه الآن حاكم لعين ماضي • وله حمام فى وسط البلدة • ومن بين أملاكه الفخيمة سروج وتحف مطرزة بالذهب • كما أنه يملك مكتبة كبيرة •

وتظهر نساء عين ماضي فى الشوارع • والمسافة بين هذه البلدة والأغواط مسيرة يوم •

جبل عمور :

ان جبل عمور جبل عال جدا وفيه مائة عين جارية • وينبع منه نهر كبير يسمى نهر الخير وهو مشهور عند الجميع • وأرض هذا الجبل صالحة للزراعة • وفيه كل أنواع الخشب • ويقدر طوله وعرضه بحوالي مسافة يومين لكل منهما • والسكان هناك يربون الابل ، وبعضهم يربي المعز والغنم • وهم من أجود الفرسان • ولغتهم هي العربية • ولا يحكمهم أي سلطان • ويقدر عدد المسلحين فى جبل عمور بحوالي ستة آلاف شخص ، بينما عدد مسلحي عين ماضي حوالي ثلاثمائة رجل ، أما مسلحو الأغواط فحوالي ألف •

رحلة من الأغواط الى متليلي بوادي ميزاب

ان المسافة بين الأغواط ورأس الشعب يوم واحد • وليس فى رأس الشعب ماء ، ولا تنمو فيها سوى شجرة البطم • ومن رأس الشعب الى سافل الفياض مسافة يوم • وليس فى هذا المكان ماء أيضا • ومن هناك الى الخدم مسافة يوم أيضا • وفى الخدم تنمو شجرة البطم • ومن هناك الى اللفحات • ويوجد هنا جبلان كبيران من الصخور • ومن اللفحات يصل المرء الى متليلي •

متليــــلي :

ليس لمتليلي أسوار وليس فيها ما ءباستثناء ما يستخرج بالطواحين ، ووجه الأرض هنا ليس رمليا منبسطا بل هو عبارة عن هضاب مغطاة بصخور حادة ، تقطع كالسكاكين • وينمو هنا النخيل وقلما تنزل المطر • ولغة السكان هي العربية والبربرية • وهم يركبون الجمال ، ومسلحون بالبنادق والسيوف وتقع هضاب وادي ميزاب شرقي متليلي •

وادي ميزاب :

وفى هذا الوادي ستة بلدان وقرى أكبرها غرداية (4) • وتضم هذه البلدة ألفين وأربعمائة مسكن ، بما فى ذلك المساجد • ولا يستخرج الماء الا من الآبار • وغرداية لها سور ولها سوق كبير ، ومنارتان وبوابتان فى السور • وهي ليست تحت نفوذ أي سلطان • ويتكلم السكان فيها البربريــة •

ويختلف الميزابيون فى مسائل الدين عن العرب • فهم يرفضون تقديس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم • وهم يعارضون أهل السنــة ولكنهم يتفقون فى المذهب مع الوهابيين (5) والفرس وسكان عمــان ومسقط • وكل هؤلاء الناس معتزلة (6) • وأهل الميزاب مقتصدون جدا وهم لا يدخنون الدخان ولا يشربون الخمر ، وفى وادي ميزاب أشجار النخيــل

طريقة صنع البارود :

وجميع سكان هذه الصحاري يعرفون فن صناعة البارود • وطريقتهم فيه هي هذه : يجمع التراب من الأرض أو من الملاط فى القرى المهدمة •

4 ــ أما المدن الخمس الباقية فهي بني يزقن ، وبو نورة ، والعطف ، ومليكة ، وسيدي سعيد .

5 ــ الظاهر أنه يقصد الموحدين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين سيتحدث عنهم ، أنظر حديثه عن الدرعية .

6 ــ هذا الحكم يوضح ضعف ثقافة الأغواطي الدينية ، اذ يبدو أنه لا يفرق بين الشيعة والخوارج والمعتزلة ، وعلى كل حال فان الميزابيين في نظر أهل السنة خوارج وليسوا معتزلة .

وهذا التراب الذي كان فى الأصل من مادة مالحة يوضع فى ماعون ويصب عليه الماء ، بنفس الطريقة التي يعالج بها الرماد عند صناعة الصابون • ثم يغلي الماء الى أن يصبح خاثرا • ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى•

وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعا في غضون أربع ساعات ، فتصير بارودا • وفى الصحراء منجم عظيم من الرصاص • والعرب يأتون منه بكميات لبيعها ، ولا يقع هذا المنجم تحت سلطة أية قبيلة • وهو يقع شرقي أولاد نائل ، وهو يسمى جبل الرصاص •

رحلة من متليلي الى المنيعة

ومسيرة يوم من متليلي تصل الثماد (7) ، حيث كثير من آبار الماء ، كما أن الحلفا تنمو هنا • ثم تصل من هناك الى الشارف ، حيث بئر للماء ، عمقه عشرون ذراعا • أما المحطتان الأخريان بين الشارف والمنيعة (8) فهما السعداني ووادي الشهب ، وفى السعداني بئر للماء ونبات الحلفا أما فى وادي الشهب فلا وجود للماء •

المنيعة :

تقع هذه القرية وسط الرمال وليس لها ماء باستثناء ما يجلب من الآبار • وسكانها يسمون بالشعابنة وهم يتكلمون العربية ، ويركبون الجمال ، وليس لهم خيول • وسلاحهم من السيوف والبنادق والرماح ، ولباسهم من الصوف • وليس لهذه القرية سور • والنساء هنا كالبدويات يذهبن الى الآبار ويسقين الماء ثم يحملنه على ظهورهن فى القرب • وتنتج المنيعة التمر والحلفا •

7 ـ جمع ثمد ، حفنة الماء .

8 ـ في الأصل القليعة .

ورقـــلة :

والمسافة بين المنيعة وورقلة مسيرة خمسة أيام ، وورقلة بلدة كبيرة جدا ، ولها سور يحيط بها فيه عدة أبواب • ويحكمها سلطان • وهي مقسمة بين ثلاثة عروش هم : بنو واقين (9) ، وبنو ابراهيـــم ، وبنـــو سيسين ، ولغة السكان فيها هي البربرية • وتعج ورقلة بأشجار النخيل •

ولورقلة منابع مائية كثيرة • والماء فيها يجلب بالطريقة التالية : يحفر البئر على عمق مائة وسبعين ذراعا حيث يصل الى البحر الحلو فيمتليء البئر فى الحال بالماء ، ويصبح جدولا جاريا •

وسكان ورقلة يسمون الرواغة (10) ، ولونهم أسود ، ولباسهم من الصوف والقطن ، ولكن البلدة كلها عبارة عن سبخة من الملح • ويدخل فى نطاق ورقلة أيضا مكان يسمى الشط ، كما أنه يمكن للعين أن ترى القرى الآتية من أعلى منارة فى ورقلة ، وهي : الرويسات ، وعجاجب ، ومقوسة ، أما جنوب ورقلة فكله رمال لا نهاية لها ، وهي تمتد كذلك الى بر العبيد •

رحلة من المنيعـــة الى توات

والمسافة بين المنيعة وأوالن مسيرة ، وفى أوالن آبار ، وكذلك التمر ، وتقع هذه القرية فى الصحراء ، وهي مبنية بالطين ، والسكان هنـــاك يتكلمون العربية •

ومن أوالن الى الأحمر مسافة يوم ، وفي هذا المكان بئر عمقه حوالي ثلاثين ذراعا • ومن الأحمر الى بئر النهل مسافة يوم •

— ومن بئر النهل الى بئر اللفعاية مسافة يوم •

— ومن بئر اللفعاية الى بئر الزرق مسافة يوم •

---

9 — تنطق أيضا (واجين) •

10 — هذه التسمية سيطلقها الأغواطي على سكان تقرت أيضا ، وهو يكتبها (ارواغة) •

— ومن بئر التارقي الى بئر الزرق مسافة يوم •

— ومن بئر الزرق الى بئر بدمام مسافة يوم •

— ومن بئر بدمام الى تيميمون مسافة يوم •

تيميمـــون :

ان تيميمون بلدة كبيرة ، ولكن ليس لها أسوار تحميها لأن منازلها جميعا متراصة • ولها سوق عظيم • وفيها التمر ، بالاضافة الى غيره من الثمار ، وفيها مياه غزيرة • ويوجد فيها أيضا الشب الأحمر وأهلها يتكلمون البربرية • وأغنامهم ، مثل غنم السودان ، مغطاة بشعر أسود يشبه شعر الماعز ، ولها أذناب طويلة • وتوجد فيها الخيول بكثرة • ويصل الماء الى وسط البلدة حيث يحضرونه فى الأنابيب • ولها سوق يباع فيه العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة • ويباع تراب الذهب بوزن المثقال بالأوقية • ويختلف لون بشرة السكان ، فهناك البشرة البيضاء والحمراء والسوداء • وهم يلبسون الثياب الصوفية والقطنية ، مع ساي أسود اللون • ومنازل تيميمون مبنية بالطين أو الطوب ، ولها أربعة مساجد وأهلـها يملكون قطعانا كبيرة من الماشية ، وللطوارق تجارة معهم • وهم مسلمون صادقون يؤدون الصلاة ، ويدفعون الزكاة ، ويقرؤون القرآن •

وجنوب تيميمون تقع قرية أوقروت وقرية أولف •

أولـــف :

تعتبر أولف البلدة الرئيسية فى واحة توات ولها نفوذ عـلى جميع المنطقة • والسلطان فيها له جنود تضرب بين أيديهم الطبول • وله سلطة توقيع العقوبة والسجن • وهو يمتلك الخيول والرجال ، ولكن ليس له خزانة دراهم •

وبلدة أولف محاطة بأسوار مبنية بالطين وفيها الماء الوافر والتمر ، وللسكان عدد كبير من العبيد • وتقع جنوب أولف قرية طيت ، وفي غربها تقع قرية أخرى تسمى توات الحناء وتنتج هذه البلاد الحناء ، والتمر بكميات وفيرة ، وجدران المنازل مبنية بالطين ، وفي توات عدد من المساجد والسكان فيها يصومون ويصلون ويقرؤون ويزكون • وهم تحت نفوذ سلطان أولف ، ولغتهم البربرية •

عين صـــالح :

وبعد توات تأتي عين صالح في الجنوب ، ثم تأتي بلاد السودان في أقصى الجنوب حيث يتردد التجار لشراء العبيد وتراب الذهب •

القـــورارة :

تقع هذه الواحة مسافة يوم من تيميمون • وتضم حوالي عشرين قرية ، جميعها تسقى بالماء ، عن طريق القنوات • ويلبس السكان ثيابا من الساي الأسود ومن الصوف • ولغتهم هي البربرية ولونهم يميل الى السواد ، والعملة المتداولة هي عملة فاس • وفي الغرب من القورارة وعلى مسافة عشرين يوما تقع بلاد شنقيط •

شنقيـــط :

يربي أهل شنقيط الابل ، وطعامهم الأساسي هو ألبان ولحوم تلك الابل ، أما القمح والشعير فغير معروفين لديهم •

ويقرأ سكان شنقيط القرآن بكثرة ، حتى النساء يقرأنه • وقد يرى الرجل وهو يقرأ القرآن لأمه وزوجه ، ويفتخر الســكان بالتواصل الاجتماعي • وليس لشنقيط سلطان • أما الثمار المنتجة فهي التـمر وزهور اللوتس وقليل من البطيخ •

تنبكتـــو :

وتقع تنبكتو بالقرب (11) من شنقيط ــ وهي فى الجنوب الشرقي منها ، أما فى الغرب فيوجد البحر المالح (12) • وعندما يتوجه سكان شنقيط الى مكة حاجين يسيرون عبر السودان ، وهو الطريق الأقرب لهم ، أو يعبرون وادي درعة في المغرب الأقصى •

رحلة من السودان الى واحة توات

تبدأ القوافل من السودان رحلتها فى بداية السنة فقط • ففي هذا الفصل يتجمع التجار في عدد كبـير بهـدف السفر مع بعض والحراسة ضد هجوم الطوارق الذين لا يخضعون لأية حكومة ، وتصنف الجمال صفوفا وراء بعضها البعض ، وكل صف فيه مائتا بعير • وبهذه الطريقة تعبر القوافل الصحراء •

ان البضائع المستوردة من السودان هي العبيد وتراب الذهب • وفي مقابل ذلك تصدر توات والقورارة الحرير والحديد والزجاج وأمثالها من السلع •

رحـلة من ورقلة الى غدامس

ومن ورقلة الى سيدي خويلد مسيرة يوم • وسيدي خويلد قرية وسط الرمال ، وفيها الماء والتمر ، وجدرانها من الطين ، والسكان يتكلمون العربية ، وهم يستعملون الجمال للركوب ويلبسون الثياب الصوفية •

ومن سيدي خويلد تسير نحو حاسي الناقة حيث بئر للماء وسط سبخة معروفة فى تلك الناحية •

---

11 ــ هذا التعبير (بالقرب) غير دقيق ، ذلك أن بين شنقيط وتنبكتو مسافة شاسعة ، ولعل عدم الدقة هنا تبرهن على أن الأغواطي لم يزر هذه الأماكن كما زار غيرها .

12 ــ يعني المحيط الأطلسي •

ومن حاسي الناقة الى العين ، حيث نبع ماء على وجه الأرض ، وجميع هذه النواحي عبارة عن مساحات شاسعة من الرمال ولا وجود فيها لحجر أو هضبة ماعدا كثبان الرمال •

ومن هناك الى العاقر ، وهو كثيب من الرمل • أما المحطة الموالية للعاقر فهي الطيبات ، والطيبات قرية وسط الرمال وليس لها أسوار • ولكن فيها كثير من آبار الماء ، كما أن التمر وغيره من الثمار تنتج فيها بكثرة •

ومن الطيبات تسير نحو الأبتر ، وهو عبارة عن واد جاف ، ومن هناك الى واد كبير يعرف بوادي سوف •

وادي سوف :

وفي وادي سوف عدد وافر من الدشور يمكن أن توفر عشرين ألف رجل وحصان ومهاري • وهؤلاء السكان يعيشون على التمر وحليب الابل ، ونساؤهم يذهبن الى السوق غير محجبات ، كما يظهرن فى البساتين ، ويشيع بينهن الخنا كثيرا (13) • ولا يخضع سكان وادي سوف الى حاكم ، وهم دائما ينظمون الفرق ويسلبون العرب من أملاكهم ، ويصلون بغزواتهم الى أراضي الطوارق • وهم يتكلمون العربية • وأهل سوف يتمتعون باستقلال كامل ، ولم يطيعوا أبدا أي سلطان ومعظم تجارتهم مع غدامس • ففيها يبيعون العبيد • وبعض السكان جعلوا من هذه التجارة حرفة بحيث يذهبون الى السودان مع التجار من غدامس ، وذلك بهدف جلب العبيد •

ومن وادي سوف الى عميش مسافة يوم • وقرية عميش تقع على الحدود الجنوبية من وادي سوف ، ومنازل عميش مبنية بالطين والآجر، ولا وجود للصخور فيها •

---

13 ـ لعل الأغواطي يشير (بالخنا) الى العادة التي كانت منتشرة في سوف وهي لقاء الشبان والشابات للتعارف والتفاهم على الزواج ، وكان هذا اللقاء يتم على مرأى الجميع ، في المناسبات الاجتماعية والمواسم وفي الطرقات العامة ، ورغم شهرة التعفف في هذه العادة فان فتيات العائلات التقليدية المحترمة لا يشتركن فيها .

ومن عميش الى غدامس مسافة ثمانية أيام • والأرض الواقعة بينهما عبارة عن خلاء كامل ، ولا يطرقها العرب • وليس فيها قرية ولا ماء ، ولا تختلف عن بعضها لا بهضاب ولا بصخور • ولا يرى المشاهد فيها سوى كثبان الرمال بلا نهاية • ولا يعيش فى هذه الأرض لا الذئب ولا النمر ولا الأسد ، وذلك راجع الى شدة الحرارة والعطش • وليس فيها من الحيوانات سوى النعام وبقر الوحش •

طريقة صيد النعام :

وفيما يلي طريقة صيد النعام • ذلك أن الصياد يركب فرسه ويأخذ معه الطعام الضروري ، كما يأخذ بعض الماء • وهو يسير ببطء الى منتصف النهار ، وفي هذا الوقت يتجمع النعام فى قطعان تبلغ المائة أو تزيد • وبمجرد ما يلمح النعام الانسان يطير هربا منه • ويطارده الصياد أربع ساعات أو أقل • وفي هذا انوقت يكون ركض النعام قد خف من شدة العطش والخوف ، أما الصياد فيشرب الماء اذا عطش ، وأخيرا ينجح الصياد فى القبض على النعامة التي يكون العياء قد أدركها والتي جفت أحشاؤها من الحرارة • ويضربها الصياد ضربة على رأسها فتسقط على الأرض ، ثم ينزل الصياد من على فرسه ويقطع أوداج النعـــامة •

ويرافق الصياد رجل مهمته حمل مؤونته من الطعام والماء • وهذا الرجل يتبع آثار الصياد المتروكة على الرمال الى أن يلتحق به • ثم يتعاون الصياد مع رفيقه على وضع النعامه على ظهر جمل ويعودان بها الى بلادهما • وذلك هو وصف صيد النعام •

غـــدامس :

وغدامس بلدة كبيرة مبنية بالطين أو الطوب • وفيها تمور كثيرة ، وسكانها يتكلمون البربرية ، ولباسهم من الصوف والقطن •• وبشرتهم سوداء • ونساؤهم متحجبات • وفي غدامس عدد كبير من العلماء والطلبة • وفيها سوق عظيم ، ولكن ليس فيها حمامات ولا طواحين

الخيل • والنساء يطحن الحبوب فى بيوتهن • وليس فى البلدة بزارات ، كما لا توجد زراعة خارجها •

وفي غدامس عدد كبير من العبيد ، وثمن العبد الواحد فيها حوالي ثلاثين دورو ، وثمن الأمة (14) هو نفس الثمن المذكور • وتقع بلدة غدامس وسط الرمال • والمسافة بينها وبين توات تقدر بأربعة وعشرين يوما • والأرض الواقعة بينهما واقعة تحت سيطرة الطوارق ، وليس فيها عرب (14) •

الطـــوارق :

والطوارق أناس أشداء ، ولهم بشرة شديدة البياض وهم يستعملون الابل للركوب ، وطعامهم من اللحم والحليب فقط ، وليس لهم حبوب اطلاقا • وهم يرتدون الساي القطني الأسود وسراويلهم تشبه سراويل المسيحيين • والطوارق يصلون واقفين ، وهم يتلثمون بلثام من القطن • ولا يأكلون أو يشربون بحضور الناس • ويقومون بغزوات أو جولات فى السودان ويعودون بعدها بالعبيد وغيرهم من البضائع • وهذا بيان كامل ومفصل عن الطوارق •

مطماطـــة ونواحيها

ومطماطة قرية تقع على قمة جبل لا ينزل المرء منه الا بمنفذ خاص • وهذا النقب جاء نتيجة الحفر • والمنازل من الداخل عبارة عن غرف ، وهذه الغرف مبنية بالطين • ولغة السكان هي القبطية • فهي ليست البربرية ولا التركية ولا العربية ، بل هي النبطية (15) •

---

14 ـ ترجمها السيد هودسون بالأم Mather ولا شك أن الأغواطي قصد بها (الأمة) ـ أو الوصيفة ـ

14(مكرر) ـ لا شك أن الاغواطي يقصد بهم الأعراب أو العرب الرحل ، كما هو واضح في أماكن أخرى من النص •

15 ـ استنتج هودسون أن هذه اللهجة ليست القبطية ولكنها لهجـــة بربرية متأثرة بالبونيقية وسيكرر الأغواطي هذا المعنى في أماكن أخرى •

قـــابس :

وقابس قرية على ساحل البحر ، مسافة حوالي يومين من مطماطة • وعندما يرغب أحد من سكان قابس فى الزواج يفــر مع خطيبته الى مطماطة • ويتزوجها هـــناك ، ويبقيان فى هذا المكان ستة أشـــهر ثم يعودان •

قبـــائل اخرى :

وتقع جربة مسافة يومين من مطماطة ــ نحو الغرب منها ــ وكذلك قبيلة النوائل تقع على مسافة يومين من مطماطة • وتأتي قبيلة محمد بعد قبيلة النوائل • وقبيلة محمد قبيلة كبيرة تسكن سلسلة جبال طويلة وليس لباشا طرابلس أية سلطة عليهم • ولهم حكومة خاصة منهم ، كما لهم عدد وافر من الجنود والخيل • وبينهم وبين باشا طـــرابلس حروب متواصلة ، وهو لا ينال منهم أية ضريبة •

ولغة قبيلة النوائل هي القبطية • وتتكلم القبائل الساكنة فى الجبال المجاورة كغريان وابن وليد ومسلاتة وغياثة جميعا نفس اللهجة • ونساء هذه القبائل تخرج بحرية الى الأسواق وهن غير متحجبات • والطعام الرئيسي لهؤلاء السكان هو الصقور والتمر • ويتـــألف لباسهم من الحائك والسورية (القميص) ، وقليل منهم يلبسون البرنس • ويلبسون الشرشيحة فضفاضة جدا لدرجة أنها تغطي العيون •

ومن قبيلة محمد الى فزان مسافة شهر كامل •

وها نحن الآن نقص أشياء أخرى عما رأينا ووجدنا (16) •

تقـــرت :

تعتبر تقرت بلدة الثروة والرخاء • فهي تنتج التمر والتين والعنب والرمان والتفاح والمشماش ، والاجاص ، وغيرها من الفواكه ، وسوقها

---

16 ــ هذا التعبير يوضح أن الأغواطي كان يصف أمورا شاهدها بنفسه وليس عن طريق السماع .

كبير جدا • وهذه البلدة هي عاصمة المنطقة ولها نفوذ على أربع وعشرين قرية • وهي تحتوي على حوالي أربعمائة منزل ومحاطة بأسوار ولها أبواب وهذه الأسوار محاطة بدورها بخندق يمكن مقارنته ببحر من الماء • وهذا يتصل بعيون ماء تصب جميعها فيه • وعلى هذا الخندق ثلاثة جسور ، ولمساجد تقرت منارات عالية جدا •

وفي تقرت جماعة من الناس يسمون المجاهرية • وهم يقطنون حيا خاصا في البلدة • وقد كانوا في القديم يهودا • ولكنهم اعتنقوا الاسلام فرارا من الموت الذي هددهم به السكان • وهم الآن مواظبون على قراءة القرآن ويحفظونه عن ظهر قلب • ومازالوا يتميزون بالملامح الخاصة باليهود ، ومنازلهم ، مثل منازل اليهود ، تنبعث منها رائحة كريهة • وهم لا يتزاوجون مع العرب • ومن النادر أن يتزوج عربي بامرأة من المجاهرية •

ويختار حاكم (17) تقرت كتابه وخواصه من المجاهرية • ولكنهم لم يتولوا أبدا وظيفة القاضي أو الامام • ولهم مساجد في حيهم من البلدة ، وهم يصلون في المواقيت المحددة ماعدا يوم الجمعة فانهم لا يعتبرونه يوم عطلة • ولهم ثروة هائلة ، ونساؤهم تظهر في الأسواق محجبات ، ويتحدثن بالعبرية بينهن عندما يرغبن في اخفاء موضوع الحديث (17) •

وحاكم تقرت يملك اسطبلا كبيرا من الخيول والسروج زخارفها مطرزة بالذهب • وتضرب الطبول أمامه • ويملك سلطة اصدار حكم الاعدام • وفي استطاعته احراق المنازل ، والاستيلاء على أملاك الأفراد •

ومن أعالي منائر البلدة يمكن مشاهدة عدد من القرى وغابات (النخيل) في المناطق المجاورة • فالنزلة وتيبسبست وتماسين والمقارين والمغير وغيرها

17 _ كان حكام تقرت يسمون بسلاطين بني جلاب (أو الجلالبة) وتقول المصادر التاريخية أنهم من بقايا بني مرين ، وكان حكمهم يشمل في معظم الأوقات منطقة وادي ريغ ، ووادي سوف وورقلة ووادي ميزاب ، وكانوا خلال العهد العثماني مستقلين تارة وتابعين لبايات قسنطينة تارة أخرى وأحيانا كانوا يقعون تحت ضغط بايات تونس •

17 (مكرر) _ لا ندري ما مصادر الاغواطي عن تاريخ المجاهرية ، والحقيقة أن هؤلاء من أقوى المسلمين ايمانا ومن أكثرهم اعتزازا بالعروبة •

من الأربع والعشرين قرية المشار اليها — كلها ترى من منائر تقرت • وليس في تقرت صخور ولكن منابع المياه فيها بكثرة • ويمكن تجنيد خمسة آلاف جندي • أما لون بشرة السكان فأسود وهم يسمون بالرواغة •

وهناك مشروب يسمى (اللاقمي) وهو شائع بين سكان تقرت وهم يستخرجونه من فروع النخيل وذلك بقطعها والضغط عليها (18) • فيحصل من ذلك شراب يميل الى اللون الأحمر وهو حلو كالشربات (المبردات) • وهذا الشراب يباع بمكاييل في الأسواق •

وزمن الحراثة في ناحية تقرت هو شهر أكتوبر وشهر مايو • ولا يأتي لهذا المكان عربي ماعدا المصاب بالحمى (19) • وهناك سبخة بتقرت ، بل الواقع أن كل الناحية عبارة عن سبخة • وما قدمناه هو وصف لتقرت •

جـزيرة جـربة

ان جربة جزيرة وسط البحر تحيط بها حوالي ثمانية عشر ميلا • وهذه الجزيرة الواسعة تنتج مختلف الفواكه : الزيتون والعنب والاجاص والرمان والتين واللوز ، ولكن النخيل لا ينمو عليها • والمطر ينزل بكثرة عليها • والجزيرة مقسمة الى أجزاء منفصلة ولكل منزل فيها حديقـة متصلة به • والسوق واسع جدا ومنظم كثيرا • ويملك عدد من التجار فنادق أو مخازن • وجربة تابعة لباشا تونس الذي يعين عليها الحاكم •

ونساء جربة يخرجن ولكن محجبات • والمنازل مبنية بالطين وبعضها بالآجر • وسكان جربة من شعوب مختلفة • فالناحية الغربية التي يوجد

18 — هكذا ترجمنا العبارة ، ولا ندري التعبير الصحيح الذي استعمله الأغواطي في وصف استخراج شراب اللاقمي ، والواقع أن هذا العصير يستخرج من الجمار وهو قلب النخلة وليس من الفروع كما ورد في العبارة السابقة •

19 — هذا تعبير غامض ، ويفهم منه أن الانسان الصحيح لا يدخل مدينة تقرت ، وهو بعيد • وعلى كل حال فان تقرت مشهورة عند سكان الناحية بمرض يسمى (التهم) — بتشديد التاء وفتحها وفتح الهاء وسكون الميم — وهو نوع من الحمى وذلك في بعض فصول السنة •

مرساها قبالة قابس ، يسكنها أناس يسمون أجيم لغتهم البربرية وهم يقرأون القرآن • ومذهبهم يشبه مذهب الوهابيين ومذهب بني ميزاب (20) وبعضهم يرفض علي بن أبي طالب رضي الله عنه • هذه هي عقائد هؤلاء الناس ولكنهم لا يعلنونها أمام الملأ بل يخفونها • وهم لا يصلون برفقة المالكية ، ولهم مساجد خاصة بهم •

ولجربة أربعة أبواب : أجيم فى الغرب ، جرجيس فى الشرق ، مرسى السوق فى الشرق (21) ومرسى القنطرة فى الجنوب • ويصنع السكان الخزف ، كما يصنعون الجير ، بالاضافة الى كميات كبيرة من الزيتون الذي يبيعونه للعرب •

قبيلة ورغمة العربية

ان هذه القبيلة منهمكة فى القيام بأعمال قطع الطريق • وهم من رعية باشا تونس •

قابس :

من قابس الى طرابلس عن طريق البر مسافة ستة أيام •

الدرعية (الجزيرة العربية)

وسنصف هذه البلاد وكذلك نجد والعرب الوهابيين • ان الدرعية بلدة كبيرة ولها أسوار وعدد كبير من الجنود للدفاع عنها من العرب الوهابيين (22) • ولهذه البلدة مساجد ، ولكن سكانها يختلفون فى OX

20 — مرة أخرى يقع الاغواطي في الخلط بين المذاهب ، والمعروف أن السكان الذين يتحدث عنهم يعتبرون عند أهل السنة من الخوارج ، بينما الوهابيون حنابلة سنيون .

21 — كذا في الترجمة ، تكررت عبارة (الشرق) ، ولعل الصواب : مرسى السوق في الشمال ، كما نص على ذلك السيد دافيزاك .

22 — يبدو أن الأغواطي كان يصف الدرعية — التي كانت عاصمة الدولة السعودية (الوهابية) الاولى — قبل تخريبها من طرف جيش محمد علي والي مصر ، سنة 1818 .

عقائدهم الدينية عن سكان مكة • فهم لا يكنـون احتراما للنبي ولا للصحابة (23) وهم يؤمنون بمعرفة الله وحده ولا يدعون للرسول كما أنهم لا يقرأون دليل الخيرات • فاذا وجدوه عند أي شخص فانهـم يضربونه ويحرقون الكتاب • وهم لا يتسامحون مع التسبيح • فاذا وجدوا السبحة عند أحد يعاقبونه • وهم يعتبرونه مشركا ولذلك يدعونه الى التوبة الى الله • أن هؤلاء العرب يشكلون قبيلة كبيرة وليس فيهم من يتحدث البربرية • ويتألف لباسهم من قفطان من الصوف وحولهم حزام من سيور الجلد • ويعتصبون بمناديل الحرير المصبوغة بالزعفران • وهذه الصبغة لها مكانة خاصة بينهم ؛ وهي بثمن أربعة وعشرين دولارا بدراهمهم للرطل الواحد منها • وعملتهم تتكون من الدولار ومن عملة أخرى يسمونها ميشاش (24) والأسلحة المستعملة عندهم هي الرمـح والجنبية التي توضع فى الرمح •

والجنبية عبارة عن سيف مقـوس طوله حـوالي ذراع ونصـف ؛ وهو حاد فى قطع الرأس • والعرب تسمي هذا السلاح « عسيرا » •

وثمن الحصان فى السوق ثلاثون جملا • والعرب تسمي أفرسهـا « كحالية » وهم يعتبرونها شيئا ثمينا • ان هذه الخيول حيوانـات جيدة • وهي فى السرعة كالريح • وهي الآن نادرة الوجود • وهي لا توجد الا فى اسطبلات أمراء مصر وسورية وفاس •

والسلطان الحالي للدرعية هو التركي ولد سعود (25) • وكان سلفه هو سعود • والبلدة مبنية بالطوب والجير والحجر • وعندما تقترح حملة

---

23 — هذا الوصف للوهابيين وما بعده يدل على وقوع الأغواطي تحت طائلة الدعاية التي نشرها خصوم الوهابيين ضدهم ، كما يدل على تأثره بالتصوف والتخلف الديني الذي أصاب العالم الاسلامي عندئذ .

24 — كذا هي مكتوبة بالحروف اللاتينية Meskchas ولا نعرف لها الآن نطقا بالعربية .

25 — بعد وفاة الأمير سعود الكبير • تولى ابنه عبد الله بن سعود ، وهو الذي استولت في عهده الحملة المصرية على الدرعية وأرسلت به الى اسطانبول حيث حكم عليه بالاعدام ؛ وبعد الحملة المذكورة (سنة 1818 — 1233 هـ) عاد الأمير فيصل بن تركي محاولا بناء الدولة السعودية من جديد (وقد توفى سنة 1865 م — 1282 هـ) ، فوصف الأغواطي لسلطان الدرعية عندئذ غير دقيق .

عسكرية يجتمع خمسون ألف عربي أو يزيد • ويوجد فى هذا الأقاليم شعوب كثيرة ومختلفة ، بعضهم من عبدة النار وبعضهم يعبدون الشمس، وبعضهم يعبدون فروج نسائهم وحيواناتهم ، عفانا الله من هذا (26) •

ان هؤلاء العرب لا يركبون خيولهم دائما مسروجة • فاذا كانت معركة ستدور فى الجبال فانهم يركبون بدون سروج ، ولكن السروج تستعمل فى السهول حيث يركب العرب بسيوفهم • وبعض النسوة يحاربن الى جنب أزواجهن • ولهم تموين وافر من السلاح • ولون البشرة لهؤلاء الناس يميل الى الحمرة •

ان ما سبق هو وصف لما رأيناه •

كتب فى شهر ربيع الثاني سنة 1242 (27) •

---

26 – يحتمل أن يكون هذا الحكم من آثار الدعايه المضادة للوهابيين على الأغواطي ، كما قد يفهم منه المبررات الاصلاحية التي نادى بها الوهابيون ما دام حال المسلمين في تلك النواحي قد وصل الى الحد الذي يصفه الأغواطي .

27 – هذا التاريخ محل نظر لأنه سبق للاغواطي أن ذكر تاريخا آخر ، وهو 1243 عند الحديث عن حملة التجاني على وهران ، وقد رجح السيد دافيزاك أن يكون هناك خطأ في أحد التاريخين أو فيهما معا ، واستنتج أن تكون الرحلة قد كتبت في آخر سنة 1829 الميلادية ، ولكن عبارة «منذ سنتين» عند الحديث على حملة التجاني توضح أن الرحلة كتبت سنة 1244 أو 1245 (أي آخر 1828 أو أول سنة 1829) ، ومما يزيد الأمر وضوحا أن هودسون قد غادر الجزائر سنة 1829 – أنظر المقدمة – لهذه الدراسة .

دراسة اجتماعية في دفتر محكمة المدية أواخر العهد العثماني (1821 ـ 1839)

اطلعنا على دفتر هام يبدو أنه كان فى محكمة المدية قبيل الاحتلال الفرنسي وأثناء عهد الأمير عبد القادر • وهذا الدفتر ينقسم الى قسمين كبيرين : قسم الأحوال الشخصية وأخبار القضاة وقضايا البيع والشراء ، وأمور العتق والدية ، والعقود والمنازعات ، ونحو ذلك • والقسم الثاني عسكري يتعلق بعهد الأمير ومدى مساهمة المدية وأهلها فى المجهود الحربي ضد الفرنسيين : جمع الأموال والأسلحة والأغـذية والمـلابس وتسجيلها وتصنيفها وارسالها الى خلفاء الأمير وممثليه •

ويهمنا الآن القسم الأول من هذا الدفتر ، وهو قسم الاحوال الشخصية وما اشتمل عليه من قضايا اجتماعية واقتصادية قد تساعدنا على فهـم التطور التاريخي لمدينة المدية خصوصا والجزائر عموما • أما القسم الثاني من هذا الدفتر فسنعرض له فى مناسبة أخرى •

ولكن قبل الدخول فى تفصيل الدفتر نود أن نصفه للقراء • فهو يحتوي على حوالي 43 ورقة ، بعضها ليس فيها سوى كتابات قليلة وبعضها مكدس بالكتابة • وترقيم الصفحات بالأرقام العربية ، ولكنه ترقيم مضاف وغير منتظم • وما دمنا قد جلبناه من مكانه مصورا على الميكروفيلم فان بعض الصفحات جاءنا مكررا • ان أول تاريخ وجدناه فى هذا الدفتر هو 1237 (1821) ، أما آخر تاريخ فيه فهو 1255 (فيما يتعلق بالقسم الأول منه) وهو يوافق 1839 •

(*) ـ مجلة الثقافة ، عدد 81 (مايو ـ يونيو 1984) .

ويحتوي الدفتر على خطوط مختلفة باختام القضاة وبعضها بدون أختامهم • وهذه أسماء من وجدنا فيه من الكتاب الذين كانوا يوقعون أو ينقلون الأحكام الصادرة عن القضاة : محمد الخديم (المعروف أيضا باسم محمد بن المختار) ، ومحمد بن الفخار ، ومحمد بن رامول ، وعبد القادر بن محمد مزيغي ، والمولود بن محمد ، وعلي بن محمد المازري • ويرد اسم الأول بكثرة ، ويبدو أنه كان كاتب أو خوجة القاضي ، لأن محمد الخديم كان يكتب أحيانا عبارة « باذن الشيخ القاضي » بعد الوثيقة التي يحررها • وكثير من وثائق الدفتر تحمل طابع القاضي «أحمد بن محمد » الذي يظهر أنه اسم القاضي الحاج أحمد بن محمد بن الحاج سلامة ، الذي سيأتي تاريخ تعيينه •

ونظرا للصلة بين آخر عهد العثمانيين وعهد الأمير في المدية فقد جئنا بالأخبار الواردة في الدفتر عن التحولات التي طرأت على المدينة في الفترة الانتقالية أيضا ، مثل تعيين قضاة الأمير ، وتبديل الموازين ، وانتشار العملة الجديدة الخ • غير أننا لم نذكر هنا الأخبار العسكرية أثناء عهد الأمير لأن الدفتر خلالها أخذ شكلا جديدا تماما ، كما أشرنا •

والمعروف أن مدينة المدية كانت عاصمة لاقليم التيطري ، أحد الأقاليم الثلاثة (والاثنان الآخران هما : وهران في الغرب وقسنطينة في الشرق) التي تتكون منها الجزائر خلال العهد العثماني • وآخر بايات المدية هو مصطفى بومزراق الذي لعب دورا غامضا أوائل الاحتلال وانتهى منفيا ، حيث توفي في الاسكندرية بمصر • وكانت المدية مركزا حضريا هاما تضم عائلات عريقة بالاضافة الى عائلات أندلسية وأخرى تركية • ويظهر من أسماء المطلقين والمتزوجين أن بعض الجنود الأتراك كانوا يسكنونها أيضا • كما نجد أسماء لأناس واردين على المدية من نواحي أخرى بعيدة • كما تظهر الوثائق المسجلة في الدفتر أن المدية كانت مركزا لعدد من أصحاب الحرف • وقد تبدلت الأيدي على المدية في أوائل الاحتلال ، فبعد نهاية مقاومة الباي بومزراق حاول الفرنسيون بقيادة كلوزيل شن حملة على المدية في 17 نوفمبر 1830 ، وهي المعروفة بالحملة الأولى ، أما الحملة الثانية فقد وقعت في 25 يونيو (جوان) 1831 • أما جيش الأمير فقد دخل المدية سنة 1253 (1837) ، وقد جعل الأمير المدية

خلافة من خلائفه وعين على رأسها فى البداية أخاه مصطفى بن محي الدين ، ثم عزله وعين بدله الشيخ محمد البركاني .

ومهما يكن من أمر فان دفتر محكمة المدية قد عكس هذه التحولات . فوجدنا فيه أسماء قضاة العهد العثماني وأسماء قضاة العهد الأميري ، وحوادث عن حياة الناس فى العهد الأول وعن حياتهم فى العهد الثاني . وهكذا يصور لنا هذا الدفتر فترة حرجة من فترات تاريخ المدية ومن ثمة تاريخ الجزائر .

* * *

وقد صنفنا المعلومات التي وجدناها فى الدفتر كما يلي :

أ ــ تعيين القضاة والمفتيين وبعض أخبارهم

ب ــ أخبار عن الأمير فى المدية

ج ــ حالات الزواج

د ــ حالات الطلاق

هـ ــ حالات العتق وأفعال البر

ز ــ حالات التجارة والعقود والمنازعات

ح ــ حالات تقسيم التركات والديات ونحوها

ط ــ أخبار متفرقة

ي ــ استنتاجات

أ ــ تعيين القضاة والمفتيين واخبارهم :

أول تاريخ يفتتح به الدفتر هو تاريخ تولية الشيخ الحاج أحمد بن محمد سلامة القضاء سنة 1238 (1822) . ولكن قبل تعرضنا لحياة القضاة نود أن نذكر أسماء المفتيين المذكورين فى هذا الدفتر . وأول المفتيين هو أبو القاسم الغربي الذي كان قد تولى الفتيا سنة 1172

والذي وردت اليه الاشارة فى الدفتر على أنه كان قد نصح بقراءة آية الكرسي 360 مرة يوم عاشوراء • والتاريخ المذكور تاريخ متقدم طبعا عن بداية الدفتر • ولم يذكر اسم هذا المفتي الا من أجل خبر دعائه لا من أجل تعيينه •

ولكن الدفتر يشير الى اسم مفتي آخر اسمه أبو القاسم أيضا ، وذلك سنة 1241 (1825) • والغريب أننا لا نجد مع هذا الاسم لقبا أو نسبة • وكل ما وجدناه هو العبارة التالية : تولى الفتيا فى المدية العالم •• المدرس أبو القاسم • والظاهر أنه ليس هو أبا القاسم الغربي السابق لوجود فارق الزمن الطويل بينهما •

وفي وثيقة بتاريخ 1245 (1829) أن المفتي فى المدية هو الشيخ محمد البصري • فقد نص فيها على ما يلي « الحمد لله ، ما وقع بحضرتنا هو كذلك ، وأنا عبده محمد ابن أحمد البصري ، المفتي يومئذ » • والوثيقة المذكورة هي شهادة على طلاق شاب يدعى الاخضر بن العربي الخليـفي •

أما المفتي الآخر الذي ورد اسمه فى الدفتر فهو الهواري بن أحمد البزاغتي • فقد ورد اسمه ضمن شهود على وثيقة تتعلق باعادة تنظيم مدخولات القضاة والعدول فى المدية ، وهي اجراءات اتخذها القاضي عبد الله بن صالح الذي سيرد اسمه بعد قليل ، وذلك أواسط ذي الحجة سنة 1252 (1836) •

ومن ثمة يتضح أن أسماء المفتيين بالمدية غير واردة فى الدفتر بصفة منتظمة مثل أسماء القضاة • اذ من الواضح أن هناك ثغرات زمنية لم يسدها الدفتر •

ولكن الأمر يختلف بالنسبة الى القضاة • وأول من افتتح به الدفتر منهم هو الحاج أحمد بن محمد ابن الحاج سلامة ، وذلك فى 20 شعبان، سنة 1238 • وقد جعل الحاج أحمد سلامة ختمه على هذه الشاكلة : (الواثق بالصمد ، أحمد بن محمد ، 1238) • ويوجد على جانبي

هذه الوثيقة أسماء الموثقين محمد بن الحاج حميدة بن الفخار (1) ومحمد بن رامول ، وتاريخ الكتابة هو 21 شعبان من نفس السنة •

وقد تكررت تولية الحاج أحمد سلامة للقضاء فى تواريخ أخرى • ففي سنة 1241 وجدناه تولى من جديد • ثم تولاه مرة أخرى سنة 1248 • وقد وجدنا مع هذا التاريخ عبارة « بعد ما كان وعزل ثم رجع » والى جانب ذلك ختم هذا القاضي • ولكن الوثائق تتحدث عن تاريخ التولية ولا تذكر تاريخ العزل بالنسبة لجميع القضاة • ذلك أن القاضي سنة 1242 ، مثلا ، كان هو الحاج أحمد بن المفتي (2) •

يبدو أنه وقع تغيير سريع للقضاة خلال سنتي 1241 ، 1242 • فقد وجدنا فى هذه الفترة القصيرة أسماء القضاة الآتين :

ـ الحاج أحمد سلامة (الذي سبق ذكره) سنة 1241 (الظاهر أنه استمر من 1238 الى 1241) •

ـ محمد بن محمد المحجوب ، حسب وثيقة أخرى محررة سنة 1241 أيضا •

ـ محمد بن الخلفة ، فى وثيقة بتاريخ جمادي الثانية 1241 ، شهر شعبان سنة 1242 •

ـ علي بن سيدي المزاري (أثناء فترة لم نجد لها تاريخا) •

غير أن اسم القاضي سنة 1249 (21 شوال) هو الحاج أحمد بن الصحراوي • وقد جعل القاضي الصحراوي ختمه على هذا النحو : (الواثق بالعلي ، أحمد بن محمد الصحراوي ، 1249) • وهذا تاريخ توليته كما جرت العادة ، وقد سجل هذه الوثيقة الموثق المولود بن محمد •

1 ـ **توفي أحمد** (حميدة) بن الفخار يوم الجمعة 24 ذي الحجة سنة 1244 • وسجل ذلك صديقه محمد بن رامول بكثير من التأثر والأسف •

2 ـ سنة 1242 غير موجودة مع ذكر تولية هذا القاضي • ولكننا رجحناها لوجود النص نفسه في صفحة أخرى بالدفتر محررا بهذا التاريخ •

ويبدو أن الشيخ الصحراوي قد تولى في فترة حرجة • ذلك أن احتلال الجزائر قد وقع عام 1246 ، وبدأت ضغوط الفرنسيين على المدية تتوالى • فهل كانت تولية الشيخ الصحراوي من قبل الفرنسيين أو من قبل الأهالي ؟ •

ومهما كان الأمر فان أول القضاة ورد اسمهم وتعيينهم من قبل الأمير هو محمد بن أحمد البصري « على يد مولانا أمير المؤمنين السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين ، 20 ربيع الثاني ، عام 1252 » • وقد سبقت الاشارة الى أن الشيخ البصري هذا كان قد تولى الفتوى بالمدية سنة 1245 •

ولكن لم تكد تمضي عدة أسابيع على هذا التعيين حتى وجدنا اسما لقاض جديد هو عبد الله بن عبد القادر بن صالح « العالم العلامة ، الحبر الفهامة ، المدرس المحقق » وذلك يوم الجمعة 12 جمادي الثانية ، سنة 1252 • ويبدو أن الشيخ عبد الله بن صالح قد عزل ثم عاد أيضا لأننا وان لم نعثر على تاريخ العزل فاننا وجدنا تاريخ التولية الجديدة وهو 3 صفر سنة 1253 •

ولا ندري ان كان لضياع ختم القاضي عبد الله بن صالح دخل في عزله • فقد أعلن أن ختمه قد ضاع منه يوما واحدا في هذه السنة (1253) ، ثم عثر عليه ، وأشاع الخبر أن كل رسم وجد بغير العدالة لم يعمل به ولو كان بخط القاضي نفسه أو خط أخيه ، محمد • وقد سجل هذا الخبر والاعلان الموثق محمد الخديم « عن اذن القاضي » •

ومن أخبار الشيخ عبد الله بن صالح ذلك التنظيم الذي أجراه سنة 1252 بالنسبة لمدخول محكمة المدية وأجور القضاة والعدول فيها • فقد اتخذ اجراء بصدد ذلك وأشهد عليه المفتي وبعض العلماء وذلك في زمن الأمير عبد القادر • وخلاصة هذا الاجراء أن مدخول المحكمة يقسم الى ثلاثة : الثلث للقاضي والثلثان الباقيان يأخذهما العدول مهما كان عددهم • ويكون هذا الاجراء ساري المفعول مهما كان عدد العدول ومهما تغير القضاة • وتتحدث الوثيقة التي وجدنا فيها هذا الاجراء عن أن

عدد العدول فى هذه السنة (1252) أربعة • ومدخول المحكمة يتكون من أجرة كتابة عقود الزواج وغيره ومن كتابة الوثائق مهما كانت • وتذكر الوثيقة أن الشهود كانوا أربعة وأنهم جميعا وضعوا خطوطهم على الوثيقة ، وقد شاهدنا نحن ذلك فى الدفتر • وهم : العالم أحمد بن محمد ، حفيد عبد الله الصحراوي ، « الحاكم عندئذ » (3) ، والعالم علي بن بهل الأغواطي نسبا سليل الشيخ سيدي معمر ، والعالم عبد القادر بن دحمان صهر الحاج عبد القادر السلطان يومئذ ، ومفتي المدية الهواري بن أحمد البزاغتي • وتاريخ الوثيقة هو أواسط ذي القعدة سنة 1252 •

غير أن الشيخ عبد الله بن صالح لم يبق في وظيفته سوى بضعة شهور هذه المرة • فقد وجدنا اسما لقاض جديد ولاه الأمير عبد القادر أيضا فى 19 من ذي القعدة سنة 1253 ، وهو الشيخ محمد السعيدي بن أبي زيان « سليل القطب الرباني ، السيد أحمد بن يوسف الملياني ••• على يد أمير المؤمنين مولانا السلطان السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين وقد جعل الشيخ محمد السعيدي ختمه على هذا الشكل (الواثق بالديان ، محمد بن زيان) •

وقد حدث نفس الضياع لختم القاضي محمد السعيدي أيضا ، ولكن لم يعثر عليه ، ولذلك أعلن فى المدية بأن قاضي الأمير محمد السعيدي بن أبي زيان ، قد ضاع منه ختمه ، المثمن الشكل ، أواسط ربيع الأنور ، سنة 1254 ، وأن القاضي قد غير شكل ختمه فجعله مستطيلا عموديا •

وكانت وظيفة القاضي هامة • فهو محل ثقة الناس وممثل للسلطة السياسية والادارية ، والساهر على تنفيذ أحكام الشريعة فى الأحوال الشخصية ، والعامل على الفصل فى المنازعات ، كما سنرى • وقد وجدنا فى الدفتر أن القاضي قد تولى أيضا تفريق راتب أحد شهداء مقاومة الأمير على ورثة الشهيد • فقد توفي مصطفى بن محمد بن مامي الذي كان عسكريا (جنديا) فى محلة محمد بن علال ، خليفة الأمير على مليانة •

---

3 — يفهم من هذا التعبير أن الشيخ أحمد الصحراوي كان شيخ مدينة المدية عندئذ (رئيس البلدية) • ويفهم من عبارة «عندئذ» و «يومئذ» التي بعدها أن تسجيل الوثيقة كان متأخرا • أما المصاهرة بين الأمير وابن دحمان فلا نعرف عنها شيئا

« وبعث سيدنا ، أيده الله ، راتبه الى الشيخ القاضي ويأمره بتفريقه على ورثته وقدره ستة دنانير فضية » • وبناء على الوثيقة فان القاضي قام بتوزيع الراتب على ورثة الشهيد المذكور . وذلك سنة 1255 (4) •

وقد ذكرنا من قبل اسم الشيخ الذي كان « حاكم المدينة » ، وهو أحمد الصحراوي ، وقلنا ان المقصود بهذه الوظيفة هو رئيس البلدية • ووجدنا ، بالاضافة الى ذلك شيخين آخرين شغلا نفس الوظيفة فى تواريخ مختلفة • أولهما أحمد الشقماقجي سنة 1240 ، وثانيهما الحاج الصوفي سنة 1244 ، الذي أضيف أمام اسمه عبارة « شيخ البلد » (5) • ويبدو ان الشقماقجي كان من الكراغلة ، بينما كان الصحراوي والصوفي من أعيان المدية • ومن الملاحظ أيضا أن حكام المدينة أو شيوخ البلدة (أي بلدة المدية) كانوا من علماء الوقت •

ب ـ اخبار عن الأمير في المدية :

يحتوي الدفتر على بعض الاخبار المتعلقة بالأمير عبد القادر أثناء تبعية المدية لحكمه • ومن ذلك خبر وصول الأمير نفسه الى المدية ، وتبديل العملة بعملة الأمير ، وتغيير الموازين على عهده ، ووقوع معركة متيجة بين جيش الأمير وجيش الفرنسيين ثم خبر يعتبر ، فى الحقيقة ، ضد الأمير نفسه •

فقد قدم الأمير الى مدينة المدية يوم السبت 17 من شهر المحرم سنة 1253 • وعبارة الوثيقة هكذا « كان قدوم سلطان الغرب السيد الحاج عبد القادر بن المرحوم السيد الحاج محيي الدين » •

4 ـ اسم القاضي غير مذكور في الوثيقة ، والظاهر أنه هو الشيخ محمد السعيدي الذي سبق ذكره .

5 ـ وجدنا في وثيقة أخرى بالدفتر أن الحاج الصوفي كان ما يزال حيا سنة 1255 وأنه أصبح طاعنا في السن .

وبعد ثلاثة أيام من وصوله أمر المنادي أن ينادي بتوضيح العملة على النحو التالي : صرف دور (بانيه) (6) أربع بوجه ، الأربعة بوجه والريال بوجه بأربعة دراهم ، والربع ابجه بريال دراهم .

وفي خبر آخر تاريخ شهر محرم أيضا عام 1254 جاء في الوثيقة أن صرف الأمير المضروب فى تاقدمت المحمدية قد دخل المدية فى هذه السنة ، وذلك على النحو التالي : أربعة فى ثمن الريال الجزائري ، وثمانية في ربع الريال . وجعلت فلوس المدية النحاس ، وفلوس السلطان اثنان فى الموزونة ، وكان العكس فى الصرف . والكاتبان للوثيقة هما المولود بن محمد ، وعبد القادر (7) . واسم الأمير يذكر دائما بهذه الصيغة « مولانا أمير المؤمنين .. نصره الله » .

وفي نفس السنة (ولكن بدون ذكر للشهر) تغيرت أيضا الموازين فى المدية بأمر الأمير ، وذلك على النحو التالي : فى رطـل الخضرة والصابون وغيره ثمانية وأربعون وقية ، وكذلك التين والزيت والسمن والعسل ميزانها بالرطل المذكور .

ومن أخبار الأمير وقوع معركة فى متيجة بين جيشه وجيش الفرنسيين. ويبدو أن الهدف من تسجيل هذا الخبر هو اظهار مدى خسائر أهل المدية فى المعركة . وبناء على الوثيقة فان المعركة جرت « بين عدو الله الكافر الفرنصيص » والمسلمين ، وذلك فى مكان يسمى بحوش المبدوع ، يوم الثلاثاء 24 شوال سنة 1255 . وكانت خسائر أهل المدية فى المعركة 200 (مائتين) ونيفا ، لما حواه سور البلدة المذكور .

ولكن أيام الأمير في المدية لم تكن كلها بركة وخيرا على أهلها . فقد اضطربت فيها الأحوال وتفرق أهلها هاربين الى البـادية ، لأن التنازع على المدينة بين الأمير والفرنسيين كان دواليك . وقد سجل أحدهم (وهو مجهول) انطباعا سيئا لما حدث أثناء عهد الأمير ، ولكنه

6 ـ كلمة (بانية) غير واضحة في النص .

7 ـ كذا ، ولعله عبد القادر بن محمد مزيغي ، الذي سبق ذكره ضمن الكتاب .

انطباع رجل مستسلم للقضاء والقدر ينتظر رحمة الله بالمدية وأهلها • وهو ، على كل حال ، لم يمدح عهد الفرنسيين أيضا • وكان هذا الرجل من ضحايا ما حدث فى المدية من تطورات •

وفيما يلي خلاصة لانطباع هذا الرجل المجهول : لما أراد الله القضاء على مخلوقاته المؤمنين أمر عليهم السلطان الحاج عبد القادر ، وكان على أهل المدية أن يفرغوا مدينتهم وأن يتفرق المؤمنون فى البـادية والأعراش • لقد كانت أياما صعبة عـانى فيها أولئك النازحون الى البادية من البرد والمطر والثلج • وقد ضج الناس ، وفيهم الصبيان ، بالبكاء من قلة الزاد • يا لها من أيام يشيب لها الولدان ! ان هـذه الأيام كانت خلال شهر محرم سنة 1256 • وقد أضاف الكاتب ، الذي يبدو أنه من أصول عثمانية أو من أهل الدين الاستسلاميين ، انه انتقل شخصيا الى مكان يسمى (ماشطة) فى السابع عشر من الشهر المذكور • وكان فى ماشطة عند كتابة هذه الوثيقة التي ختمها بالدعاء بحسن العاقبة والخـاتمة •

ج ـ حالات الزواج :

لا يضم الدفتر من حالات الزواج سوى حوالي اثنتي عشرة حالة • بينما حالات الطلاق تبلغ أضعاف العدد • وقبل أن نحلل ما في حالات الزواج من ظواهر اجتماعية واقتصادية نود أن نأتي عـلى ذكر هذه المعلومات التي وجدناها فى احدى الوثائق بالدفتر ، وهي تتعلق بأنواع الصداق بالجزائر عموما وعنوان هذه الوثيقة بالضبط هو (بيان أصدقة الجزائر) ، وتوضيح ذلك أنها تعالج « ما هو مصطلح عليه فى الجزائر من أنواع الصداق ، وما يقابلها بالعملة ، وذلك فى حـالات الموت والطلاق الخ • » ثم نجد هذا التوضيح الاضافي وهو « صـداق الأربعمائة ذهبا » :

مائة زيانية وقية الجوهر بثمانين ذهبا ، وذلك عشرون زيانيا •

الفرد بـ 38 ذهبا وذلك تسع زياني •

ونصف قنطار الصوف بثمانية وعشرين ذهبا ، وذلك سبعة زيانية •

الأمة بمائتين ذهبا ، وذلك 50 زيانيا •

الحائك بـــ 28 ذهبا ، وذلك سبعة زيانية •

قفطان الفضة بمائة ذهبا ، وذلك بـــ 25 زيانيا • انتهى » •

ومما يلفت النظر أن ست حـــالات من الاثني عشرة كانت الزوجة فيها يتيمة ، ولكن تارة مع وجوب النفقة (حالتان) وتارة مع عدم وجوبها • ونلاحظ أن أنواع الصداق تتوزع كالتالي :

25 دينار فضية	6 حالات
12 ونصف دينار فضي	حالة واحدة
400 ريال دراهم صغار	« «
70 ريال بوجه	« «
60 بوجـــــه	« «

أما الحالتان الأخريان فقيمة الصداق غير مذكورة فيهما •

ومن الملاحظ فى حالات الزواج أن كلها ، ماعدا اثنتين ، تخص زواج شبان ، يبدو أنهم كانوا مايزالون عند البلوغ • ولذلك نجد العبـــارات التالية مرافقة لأسمائهم « تزوج الولد الصغير » فـــلان ، أو « تزوج الشاب » فلان ، وأحيانا « تزوج الولد » فلان ، الخ • وفى حالة أخرى لم يذكر أي وصف يدل على سن المتزوج • وفى أغلب الحالات كان الزواج بين أهل مدينة المدية ، لاسيما بين الحضر ، ومن بينهم الكراغلة • ولكن فى حالة واحدة فقط وجدنا المتزوج من البادية « من دوار الغزارة » • ومن بين المتزوجين بعض العساكر الذين تذكر وظيفتهم « اليولداش » الى جانب أسمائهم • وقد وجدنا حالتين لهؤلاء العساكر • وفى حالة منهما كان وكيل الزوجة من اليولداش أيضا • وفى كلتا الحالتين كانت الزوجة من الكراغلة ، مرة بنت انقليز ، ومرة بنت حاج (بتشديد الجيم وكسرها) بشهادة زوج أمها ، طبال • ومـــن العائلات المتصاهرة : شلابي (شلبي) ، وقارة دنقز ، الكجيل • وهناك

عائلات أخرى أمثال : الغربي ، والحناشي ، آقليل ، الماحي ، الريفي • ولصغر سن المتزوجين كان الآباء أو الوكلاء هم الذين يتحملون ببقية الصداق أمام القاضي •

ولكن الفتيات كن أصغر سنا بكثير فيما يبدو : فهناك حالة زواج نص فيها على أن الزوج يتعهد بعدم أزالة بكارة الفتاة الا بعد أربع سنوات • وفى معظم الحالات كان التنصيص على أن الزوجة بكر • وفى حالة تزوجت الفتاة اليتيمة بدون ولي لأنها كانت فى حاجة الى النفقة • وقد لاحظنا أن معظم الحالات كانت لزواج فتيات يتيمات كن غالبا فى حاجة الى من يعولهن • وفى احدى الحالات وجدنا الزوج يلتزم لزوجته بأمور منها : النفقة على أولادها بعد العقد عليها ، وعدم اخراجها من المدية • وكثيرا ما يتأخر كتب عقد الزواج سنوات بعد وقوع الزواج فعلا • وهناك حالة واحدة كانت الفتاة فيها من عائلة معروفة فى المدية • وهي عائلة الغربي التي تولى أحدها الفتوى سنة 1172 ، وهو الشيخ أبو القاسم الغربي • وهي التي كان صداقها 400 ريال دراهم صغار ، وكانت صنعة بعلها « السيافة » ، وقد وقع تسجيل العقد سنة 1255 ولكن الزواج قد تم قبل ذلك بمدة •

وفى بعض الحالات كانت تقع « عادات فاسدة » كما جاء فى احدى الوثائق بين المتصاهرين • فقد ادعى أحدهم أمام القاضي أن ابنة عمه قد تزوجت فلانا بدون ولي شرعي • وبعد التأكد ، علم القاضي أن ذلك صحيح ولكن حاجة الفتاة الى النفقة جعلت الزواج شرعيا ، وأمر المدعي باسقاط دعواه • ومع ذلك فان الزوج «صالح» المدعي كما صالح أم الزوجة بأن أعطى للأول ثمانية بوجو وللأم ثلاثة بوجو • وعلق صاحب الوثيقة على ذلك بأنه كان «صلحا كما هي عادتهم الفاسدة» •

وتوجد حالات عديدة من ادعاء الاعتراض من الزوجة على الزوج ، وفي حالات أخرى كانت تدعي عليه أنه لم يزل بكارتها• وفي معظم الحالات كان القاضي يحكم بالتأجيل سنة فى هذه القضية • ونلاحظ هنا أن احدى حالات التأجيل وقعت بين عائلتين من الغرب الجزائري (أسرة ابن هني

وأسرة دحو) ، وذكر صاحب الوثيقة أن ضرب الأجل قد وقع فى محكمة وهران وأن قاضي الأربعاء بالعطاف قد وافق عليه • وسجل ذلك فى الدفتر الذي بين أيدينا سنة 1249 •

د ــ حالات الطلاق :

وجدنا حالات الطلاق ، بالقياس الى حالات الزواج ، كثيرة ، اذ هي 38 حالة ، وموزعة على النحو التالي :

طلاق بائن 26 •

» رجعي 7

» خلع 1

» مسكوت عنه 4

الجملــة 38 •

بالاضافة الى ثلاث حالات اعتراض وهي التي يحكم فيها القاضي عادة بالتأجيل سنة ، ومن ذلك حالة محكمة وهران التي سبق ذكرها • أمـــا الحالة الثانية فقد وقعت سنة 1240 لشاب من قبيلة حسن بن عــلي ، والثالثة وقعت لشاب ينسب الى باجة (الباجي) •

وفى احصاء آخر وجدنا الطلاق قد وقع فى هذه الحالات :

طلاق رجال العسكر (يولداش ــ انكشاري الخ) • 6 حالات •

» أناس وافدين على المدينة (برانية) 8 حالات (حسب نسبهم)

» شبان (ينص على ذلك فى وثائقهم) 9 حالات

وهناك حالات طلاق شملت عائلات معروفة عندئذ ، حضرية وكرغليـــة من أمثال : عائلة الشيخ الصحراوي (الذي تولى القضاء) ، وعائلة ابن تركية ، وعائلة ابن الفخار •

وقد عرفنا أن معظم حالات الطلاق كانت بلفظ البينونة أو البتة أو الثلاث أو نحوها • وكان المطلقون يستعملون عبارات تحرم عليهم زوجاتهم فلا تحل لهم الا بعد زواجها من آخر حسب القواعد الشرعية • وهذه بعض العبارات المستعملة فى الوثائق : « هي طالق وحارمة عليه كما حرمت مكة على اليهود » أو « هي حرام عليه فى المذاهب الأربعة » أو « اذا نزع الحائك الذي على ظهر زوجه فهي طالق البتة » • وقد حلف أحدهم « بالحرام الا يبيت فى دار صهره » ثم بات فحكم القاضي بالطلاق البائن •

ويبدو أن الأزواج لم يكونوا مطالبين بتبرير طلب الطلاق • ذلك أن كل الحالات تقريبا مسكوت فيها عن سبب الطلاق • وهناك حالة واحدة ذكر فيها جنون المرأة كسبب للطلاق • وهناك ، كما لاحظنا حالة واحدة للخلع ، دفعت الزوجة بموجبه 22 دينارا • وكانت المرأة فى كثير من الحالات هي المتنازلة عن حقوقها لزوجها • ذلك أن الوثائق تستعمل العبارة التالية بكثرة عقب التطليق ، وهي : « وتحملت (أي الزوجة المطلقة) بالنفقة على الأولاد وسلمت له (أي للزوج) في باقي الصداق » • وكذلك هذه العبارة « وبعد أن سلمت له فى حضانة أولادها وما بقي بذمته من الصداق ، حاله وكاله » • وأحيانا تضاف العبارة التالية عقب ما سبق : « وأبرأته من جميع ما عليه من دين وغيره » •

وهناك حالة واحدة نص فيها على أن الزوجة المطلقة كانت كبيرةالسن، وأم أولاد • كما توجد حالة واحدة نص فيها على هروب الزوج عن زوجته بعد تركها عند أمه بدون نفقة • ثم جاء الى القاضي مع وكيله فأمره القاضي بالعودة والنفقة على مدة الهروب فقال الزوج : اذا لم أعد اليها فهي طالق طلقة واحدة •

وقد لاحظنا أن الزوجة هي التي تتحمل بالنفقة على نفسها والأولاد وبالحضانة فى بعض الحالات • ومعنى ذلك أن مصير الأولاد ، ولاسيما الصغار ، كان سيئا اجتماعيا واقتصاديا •

وهناك حالة نود أن نفردها بالحديث وهي طلاق شخص من عائلة (سيدي ناجي) لزوجه التي هي من نفس النسب • وقد جاء فى الوثيقة، التي يعود تاريخها الى سنة 1240 ، أن « الشاب •• بقية الشيخ سيدي

ناجي .. نفعني الله به ، طلق زوجه .. من النسب المذكور » • ومثل معظم الحالات نصت الوثيقة على أن الزوجة هنا أيضا قد « سلمت له فى باقي الصداق ، واحتملت له بأربعين ريالا كبيرة الضرب تؤديهم له يوم التزويج • وتحمل أبوها .. بكل درك وافترقا ، الخ » • ولا ندري الآن من هو (سيدي ناجي) الذي تتحدث عنه الوثيقة ، فهل هو جد عائلة سيدي ناجي الذي تنسب اليه الخنقة (خنقة سيدي ناجي) ؟ أو هو رجل صالح آخر من رجال المدية أو قريبا منها ؟ فان كان الأمر الأول فان الشاب الذي طلق زوجته فى محكمة المدية يكون قد جاء من مسافة بعيدة •

هـ ـ حالات العتق وأفعال البر :

توجد فى الدفتر حالات العتق أيضا وكذلك بعض أفعال البر الأخرى كالصدقات والهبات والوقف الخ • ولم نجد سوى حالتين من حالات العتق ، مع اشارة فقط الى وقوع حالتين أخريين • والمهم فى حالات العتق ، جميعها هي الجهات الصادر عنها ، التي كانت غالبا من رجال الدولة وأغنياء البلاد •

ففي سنة 1239 أعتق الحاج محمد ولد الرويك (أو الدويك) مملوكه الذي كان تملكه من أحمد ، « صهر بن عثمان ، خليفة كان ، قاصدا بذلك وجه الله » • وأشهد على نفسه بذلك أمام القاضي • وفي 1240 أعتق أيضا حسين بن داحلي مملوكه أمام القاضي وبحضور شاهدين « قاصدا بذلك وجه الله » • ولكن السيد داحلي نص على أن العتق لا يتم فعلا الا بعد أربعة أعوام من تاريخه •

أما الحالتان اللتان وقعت فيهما الاشارة فقط الى العتق فأولاهما حالة وفاة امرأة سبق عتقها وتوزيع تركتها على أولادها ، وذلك عام 1255 • فالوثيقة هنا تتحدث عن أن عائشة ، معتوقة السيدة زوجة محمد بن رقية ، قد توفيت عن زوج وأبناء ، وأن التركة قد وزعت بينهم ، وأن مناب احدى بناتها قد قبضه ، بناء على وصية منها ، السيد عيسى

الأغواطي الحمامجي حرفة • وتذكر الوثيقة أن زوج المعتوقة عائشة كان أيضا من الأغواط •

أما الحالة الثانية من حالتي العتق المذكور فتخص معتوقة الباي محمد الذباح ، المعروف بمحمد الفريرا والذي حكم ولاية التيطري مدة من الزمن • ان الوثيقة تذكر أن فاطمة ، معتوقة الباي محمد الذباح ، قد باعت غرفتين موجودتين بحومة الجامع الأعظم المعروفة بابن شهبون ، وأن ثمن البيع 50 ريالا كبيرة الضرب قبضت منها 25 وتأجل قبض الباقي الى « دخول الباي من المحلة » • وتاريخ هذه الوثيقة يعود الى سنة 1238 •

وفي نفس التاريخ (1238) تصدقت احدى السيدات على ابنة زوجها « بالسهمة المعروفة بابن حدة » الكائنة بـ •• ملوش • ويبدو أن هذه الصدقة تتمثل فى غرفة أو دار ، لأن كلمة « السهمة » غير واضحة المعنى هنا •

ومن أفعال البر ما قبضه أحد الأشراف ، وهو ادريس بن عبد القادر الشريف ، من يد قاضي الوقت ، وهو الشيخ محمد السعيدي بن أبي زيان الذي سبق ذكره والذي قلنا انه تولى القضاء فى زمن تبعية المدية للأمير عبد القادر ، أي سنة 1254 • ولا ندري من هو الأب : عبد القادر الشريف هذا • هل هو ذلك الدرقاوي الثائر على باي الغرب الجزائري سنة 1219 والذي استنجد بالسلطان سليمان المغربي وشيخه محمد العربي الدرقاوي ولكنهما خذلاه بعد تأييده فترة ؟ ان الوثيقة لا تتحدث عن ذلك ، وتكتفي بالحديث عن الهبة أو العطفة التي تعطف بها عليه أحد السراة الذين لم يذكر أسماءهم فى الوثيقة أيضا •

ومهما كان الأمر فها نحن نذكر ما قبضه ادريس بن عبد القادر الشريف من يد القاضي محمد السعيدي فى شهور مختلفة من سنة1254 :

1 — أربع فردات (أزواج) مسايس ذهبا •

2 ـ ستة دورو صرف الجزائر ، وزوج انصاف ذهبا ، وزوج أرباع ذهبا ، سكة مصطفى باي (8) ، وقرطين دهبا ، مع حضور العاطف (أي الواهب) هذه المرة .

3 ـ قرطين من الذهب ، مع حضور العاطف أيضا .

ومما تجدر ملاحظته بشأن وثائق الدفتر الذي نحن بصدده انها لا تتحدث عن الأوقاف (الأحباس) الا نادرا . وهذا فى الواقع يثير الاستغراب لأن العهد العثماني فى الجزائر كثرت فيه أعمال الخير من هذا الوجه ، فالأوقاف كانت توقف على جهات عديدة ، ومن بينها جهة الفقراء والمساكين والمساجد والزوايا ومكة والمدينة . ولكننا لا نكاد نجد شيئا من ذلك . بالعكس فقد وجدنا شخصا تراجع فيما أوقف واستعاد الوقف . فالوثيقة التي وجدناها بهذا المعنى تتحدث عن أن رجلا كبير السن ، يسمى أحمد بن حسن ، حضر أمام المحكمة الشرعية بالمدية وأشهد على نفسه أمام القاضي أنه رجع فيما كان قد أوقف ، وذلك داره وجنانه (بستانه) ، وصير ذلك ملكا له . وقد وقع هذا بتاريخ 1241 .

ويبدو أيضا أن حالة الأوقاف لم تكن جيدة . فالقائمون عليها لم يكونوا مهتمين بها الاهتمام اللازم . وقد وجدنا وثيقة تتحدث عن أن وكيل الوقف (دون تحديد) ، السيد الحاج اسماعيل لزغلو ، حضر عند القاضي وأشهد أن أحد القائمين معه على الوقف ، وهو محمد بن علشي ، لم يخدم سنة 1247 مدة ثلاثة أشهر ، وأنه خلال السنة الموالية لم يعمل سوى شهرين ونصف .

ويدخل في أفعال البر طبعا النفقة على الربيب . فقد وجدنا في وثيقة أن أحدهم حضر لدى القاضي ، أحمد بن الحاج سلامة ، وأشهد أن ما أنفقه على ربيبه فى الماضي وفى المستقبل هو لوجه الله وصلة الرحم .

8 ـ الظاهر أن المقصود هو الباي بومزراق ، آخر بايات التيطري . ولعل (الداي) هو الصحيح ، فتكون العبارة سكة مصطفى داي وهو باشا الجزائر الذي توفي سنة 1805 ، لأن البايات لم يسكوا العملة حسب علمنا .

وأن عليه ثمانية ريالات بجه بكراء الجنان في المستقبل الخ • وكان ذلك سنة 1240 • غير أن رجلا آخر تراجع عن فعل الخير لظروف أخرى • ففي نفس السنة حضر أحدهم لدى القاضي وأخبره أنه تراجع عن نفقة البنت فلانة •• وأن الرجوع واقع على أبيها لأنه هرب عنها وتركها عنده دون أن يترك لها شيئا •

ويمكننا أن ندخل في أفعال البر ما يدفعه الناس باسم الجهاد أو باسم دفع الغريب عن البلاد • ولم نجد من ذلك الا الشيء القليل • فهناك وثيقة تتحدث عن أن أولاد ابن خلفة قد دفعوا أربعة وتسعين دورو « في دفع اصبنيول » ، وهي العبارة التي فهمنا منها نحن ، (لأنها غير واضحة) انهم تبرعوا بها لرد الاسبان عن الجزائر • غير أن تاريخ الدفع لم يذكر معه سوى الشهر ، وهو أواسط رجب ، فمتى كان ذلك ؟

و ــ حالات التجارة والعقود والمنازعات :

وفي الدفتر عدة حالات لانتقال الأملاك بطرق مختلفة : الشراء والكراء والشفعة والشركة الخ • كما أن هناك بعض حالات القراض والعقود والمنازعات حول الأرض والدور والحيوانات ونحوها • وكان الكتاب يسجلون الوثائق بصيغ جافة تقليدية لا تساعدنا كثيرا على فهم ظروف انتقال الأملاك ونهاية المنازعات . وبالاضافة الى وجود ذلك بين المسلمين وجدنا في هذا القسم أسماء بعض الذميين من اليهود •

وبالنسبة للبيع وجدنا منه حالات عديدة • وقد وقعت في تواريخ مختلفة من 1238 الى 1253 • ونلاحظ كذلك أن الأثمان اختلفت بشكل واضح بين ما يباع داخل المدينة وما يباع خارجها • فقد اشترى أحد الموظفين البارزين حوشا (ضيعة) في المكان المسمى تبحرين بثمن عال . وهو ألف ريال واحدة ومائة ريال وجميعها من النوع المسمى كبير الضرب • والباعة هم ورثة الحاج بن علي ، والمشتري هو السيد دل علي (دالي ؟) « وكيل خرجة القصبة كان » • ولكن البائع لم يقبض الثمن كله دفعة واحدة اذ كان بعضه معجلا وبعضه مؤجلا • وفي احدى الوثائق أن الشاب محمد بن الحاج الزروق بن أحمد باي قد باع

النصف في جميع عقاره لأولاد الزواوي ، دون ذكر السنــة ولا مبلغ البيع .

وحالات بيع أخرى ليست في مستوى ما سبق . ولكن نلاحظ أن بعض أطراف قضية البيع من الكراغلة أيضا . فقد باع أحدهم دارا موجودة بتلال بني عائشة بثمن قدره 625 ريال كبيرة الضرب . وكان قبض الثمن أيضا بالتقسيط . وهناك من باع غرفة فقط في مكان يعرف بأقلال بثمن قدره 300 (ثلاثمائة) ريال الكل دراهم صغار . ومما يلاحظ هنا أن البائع أضيف الى اسمه نسبة التلمساني .

ويبدو أن الحاج الصوفي بن جانين (أو جانيف) الذي سبقت اليه الاشارة على أنه كان حاكم المدية (سنة 1244) والذي أصبح طاعنــا في السن سنة 1253 ، كان قد باع داره الى الحاج الجيلالي الدباغ حرفة كما تقول الوثيقة ، ثم باعها هذا ، ولكنه لم يأخذ ثمنها دفعة واحدة . فالوثيقة تحدثنا أن الشيخ الجيلالي قد جاء الى القاضي ليقبض بقية ثمن الدار ، الفاضلة على أرباب الديون ، وذلك 9 ريالات بوجه ونصف ريال . ولكننا لا نعرف كم ثمن بيع الدار كله . وقد سبقت الاشارة الى أن معتــوقة الباي محمد الذباح قد باعت غــرفتين في وسط المدينة بخمسين ريالا كبيرة الضرب .

أما حالة البيع الوحيدة التي وقعت بين مسلم وذمي فهي أن أحمد ابن جعفر باع الى شوعة ولد سالوم «لعنه الله» ، كما تقول الوثيقة ، جميع الدار الكائنة بقاع الصور (السور ؟) والتي ثمنها 600 (ستمائة) بوجه . على أن يكون المقبوض المعجل 300 والباقي 300 .

وهناك حالة للشفعة دون أن نعرف ثمن الشراء فيها بالضبــط . فالوثيقة هنا تقول أن أحدهم ، وهو عبد القادر بن بركات حضر لدى القاضي مع شاهديه وأخبره أنه أخذ بالشفعة البحيرة الموجودة بالدخلة ، وقال أنه اشتراها من صاحبها : الصغير اللقموشي . والمهم هنا أنه أخبر القاضي بأنه أخذ البحيرة المذكورة على مذهبه النعماني (أي مذهب

الامام أبي حنيفة النعمان) وانما جاء الى القاضي (الذي يظهر أنه كان مالكيا) (9) ليخبره بما حدث فقط •

وتوجد حالة بيع لا تستحق اهتماما خاصا وهي بيع أحد العساكر (اليولداش) سنة 1240 ، لفرسه ، دون أن نعرف ثمن الفرس • بينما نعرف من ناحية أخرى أن ثمن الحمار في المدية سنة 1252 كان ثمانية دنانير •

ويشتمل الدفتر أيضا على شهادة شهد بها مجموعة من الشبان أمام القاضي اذ قالوا انهم حضروا محاسبة شاب مثلهم ، وهو أحمد ولد يتو الانكشاري ، مع زوجة خاله ، فاطمة بنت ابن غرنوط ، على ما كان تحت يدها يعمل فيه الشاب المذكور على أساس القراض • والمبلغ هو مائة ريال كبيرة ، وذلك سنة 1239 •

وهناك وثيقة منقولة عن الأصل « للحاجة اليها » تتعلق بقبض أحد الميزابيين لمال من احدى السيدات للعمل به على وجه القراض • وذلك بتاريخ 1237 . ولكن نقل الوثيقة حصل بتاريخ 1241 • وأمضاها : علي بن سيدي بن عمر الميزابي ثم البزكني من فرقة باب محمد ، قد أشهد على نفسه أن بماله وذمته ما قدره ألف ريال واحدة و 300 ريال • الكل كبيرة الضرب ، والعدد كله جزيري (جزائري) ذهبا ، وأنه قبض ذلك من السيدة فاطمة ، زوجة السيد أحمد ، خوجة مخزن الزرع . وهو يعمل بهذه النقود على وجه القراض • على أن ما يحصل من الربح يكون بينهما مناصفة سوية •

وفي هذا الصدد ، اشترك أحد العلماء ، وهو محمد المغربي (الغربي؟) في الحرث مع شريكه محمد بن عبد الله الهواري ، واتفق معه على أن ينوب العالم المذكور ثلاثة أخماس : خمسان لثوره وخمس لفرسه ، والباقي لشريكه • وقد وقع ذلك سنة 1243 •

9 ـ سبق لنا أن ذكرنا أن سنة 1241 التي وقعت فيها الشفعة المذكورة ، قد شهدت تولي ثلاثة قضاة (وهم أحمد بن الحاج سلامة ، ومحمد المحجوب ، ومحمد بن الخلفة ولا ندري من هو منهم الذي توجه اليه صاحب الشفعة المذكور .

ويضاف الى ذلك انتقال عدد من الوثائق (العقود) المتعلقة بالأملاك ونحوها • فهذا أبركان بن رامول قبض سبعة وعشرين وثيقة من يد السيد المولود (الذي يبدو أنه أحد كتاب الوثائق ، حسبما جاء في الدفتر) ، وهي الوثائق التي كانت موضوعة عند أحمد بن رحال على وجه الحفظ لأولاد أبو كريشة • كما أخذ أحد الشبان من عند أحمد ابن الحاج الكجيل وثائق « البلاد التي اشتراها » ، وعددها 12 وثيقة ، وبقي عند الحاج الكجيل 11 وثيقة • وكان ذلك سنة 1240 • كذلك تسلم أحدهم مجموعة من الوثائق من عند محمد ومحمود ولدي ابن شرقية ، وعددها خمس عشر وثيقة ، وهي تتعلق بالحوش . بالاضافة الى وثائق تخص البحاير (جمع بحيرة) ، ووثيقة تتعلق بسدس في دار بالجزائر ، وسبع عشرة وثيقة تخص بساتين وغيرها • وجملة ما أخذه من وثائق اذن أربعون وثيقة ، وذلك سنة 1241 •

أما الكراء فلم نجد منه سوى ثلاث حالات • الأولى كراء دار بثمن 10 ريالات بوجه ، سنة 1242 • والثانية كراء دار أيضا بثمن 11 ريالا بوجه ، سنة 1253 • والثالثة كراء بحيرة بثمن 13 دينارا سنويا ؛ وذلك سنة 1242 • وفي جميع الحالات توجد أسماء المكترين والمكتري منهم •

والمنازعات كثيرة نسبيا وأسبابها مختلفة • وقد سجل كاتب المحكمة حالة ذكر فيها أنه وقعت مشاجرة بين اثنين على أرض تقع في مكان يسمى بلاد أبو زيد ، اذ منع أحدهما الثاني من غراستها مدعيا أنه يغرسها له • وشهد على ذلك الشهود • كما تخاصم اثنان على دار فقال المدعي عليه ان الدار مبيعة بيع ثنيا وطلب المشتري دراهمه وكان حكم القاضي وضع الدار عند السمسار ومهلة شهر فان اتاه بدراهمه قبل ذلك فداره بيده والا بيعت الدار • ولا تذكر الوثيقة ثمن البيع وانما ذكرت التاريخ وهو 1246 ، ولاحظت أن أحد المتخاصمين كان دباغا بالحرفة •

ومن المنازعات كذلك أن أحد العلماء ، وهو علي بن سيدي المزاري ، الذي قلنا انه تولى القضاء أيضا ، قد اشترى فرسا حمراء اللون من

شخصين مذكورين في الوثيقة • فوجد فيها ما يستحق الرجوع عليهما • ولكنه حين جاء بدعوته وجد البائعين قد سافرا الى الغرب (الجزائري) معا • وتوجد حالتان ذات طابع خاص • فقد قالت احدى الوثائق ان فلانا الذي يشغل « خادم باب المحكمة » وقف ونادى انه استشفع ، وذلك بحضور بعض الشهود • ولم تفصل الوثيقة ما اذاكان«الاستشفاع» لطلب الشفعة أو لطلب الشفاعة • أما الحالة الثانية فهي تضارب اثنين تم تصالحهما أمام المحكمة اذ دفع الضارب شاة ونصف دينار فضة الى المضروب •

واذا كان التشاجر بين الناس شائعا فانه بين الأم والابن أمر غير شائع ، ولا سيما اذا كان الابن من الحجاج ومن المسؤولين • فهذا الحاج اسماعيل لزغلو ، الذي سبق ذكره على أنه كان وكيلا للأوقاف ، قد تشاجر مع أمه وخرج من دارها ، ودفع لها من داره أمورا مثل القمح والزيت وغيرهما • وشهد على ذلك كبار القوم ، ومنهم محمد الخديم الذي طالما سجل الوثائق بيده في الدفتر الذي ندرسه ، وأحمد الشقماقجي « حاكم المدينة » ، وعلي مانشلي ، وباش بولكباش الذي يبدو أنه كان من العسكر المتقاعدين ، الخ • وقد وقعت هذه الحادثة سنة 1240 •

أما آخر المنازعات فهو ذلك الذي وقع بين أحد المسلمين وذمي يبدو أنه كان من اليهود • والقضية تافهة في حد ذاتها ولكن لا بد من الاشارة اليها ، لأنها على الأقل تدل على احتراف اليهود احدى الحرف في المدية ، وهي الصباغة ، وذلك سنة 1253 • فالوثيقة تقول ان أحد المسلمين (محمد بن مجبر) قدم الى المحكمة بشيء من الغزل المصبوغ وطلبه الذمي (دون ذكر اسمه) في أجرة الصباغة ، ولكن المسلم لم يجد الدراهم التي يدفعها له مقابل ذلك مدعيا أن الغزل ليس له وانما هو لرجل آخر • وتقول الوثيقة ان المحكمة وزنت الغزل فوجدته رطلين ونصفا • ولكن الوثيقة سكتت عن الحكم الذي أصدرته المحكمة بهذا الشأن •

ز ـ حالات تقسيم الديات والتركات ونحوها :

في الدفتر ثلاث حالات لتقسيم الدية • أولاها دية السيد عمار الذي كان دلالا بالحرفة • فكان مجموع ديته مائة ريال واحدة و 93 ريالا دراهم صغار • وكان عليه دين طاريء ، ولذلك قسمت الدية على طريق المحاصة • كان ذلك سنة 1254 ، ولم تتحدث الوثيقة عن مصدر الدية وحيثياتها • وبعد سنة من التاريخ المذكور سجلت حادثة دية أخرى بدون تفاصيل كثيرة أيضا • والملاحظ في هذه الدية أن توزيعها وقع بين اليتامى ، ولكن « بيت المال » اشترك أيضا في نصيب منها •

وهناك تقسيم لدية أخرى يهمنا من عدة وجوه • الوجه الأول تدخل بعض السلطات العليا مثل باي الغرب الجزائري الذي يبدو أن حادث القتل وقع في منطقته • والوجه الثاني الطريقة التي قسمت بها الدية ، ولا سيما أخذ كاتب الوثيقة وقاسم الدية لنصيبهما منها •

وهذه هي خلاصة الوثيقة المتعلقة بالدية المذكورة : مات قويدر ابن الحصيني (دون ذكر المكان) عن أبيه وأمه وزوجه وأولاده • وبعث حسين (10) ، باي الغرب ، بدية على القاتل بلغت مائة ريال واحدة بوجه • والقاتل هو الحبيب الغربي • وقد وزعت الدية على النحو التالي :

$\frac{2}{6}$ لأبيه = 45 ريالا دراهم صغار

$\frac{2}{6}$ لأمه = 45 ريالا دراهم صغار

$\frac{6}{8}$ ـــ و 33 ، أي الثمن لزوجه ، وهي بنت انقلزباي (11)

10 ـ المعروف أن باي الغرب عندئذ (سنة 1244) هو حسن باي وليس حسينا .

11 ـ كلمة (باي) غير واضحة في الوثيقة ، وتكاد تقرأ (حاج) ، ولكننا اخترنا (باي) لوجود هذا الاسم في نفس الفترة .

16 ريالا للبنت

1

96 ريالا للبنين الثلاثة = 32 — لكل منهم

4

21 ريالا لكاتب الوثيقة وقاسم الدية

32 ريالا لكسوة الربيب (مثل أحد البنين)

9 ريالات لفدية الحاج عبد القادر بن سيدي سليمان

المجموع : 300 درهم (هي مائة ريال بوجه)

وتاريخ هذا التقسيم هو 1244 .

وقد اشتمل الدفتر على عدد من حالات تسجيل التركات وتوزيعها . وفي أحيان كان يكتفي بتسجيلها فقط . وكانت بعض التركات ذات قيمة وبعضها تافهة . فهذه تركة المرحوم ساعد الجزيري (الجزائري ؟) الذي كان يمارس حرفة التجارة قد بلغت ألف ريال واحدة ومائة ريال وأربعة أريلة ونصف . ولكن كان عليه دين بلغ 336 ريالا . وذلك سنة 1250 .

بينما لا ندري بالضبط تركة المرحوم محمد بن عبد القادر الذي كانت حرفته السراجة . وكل ما تذكر الوثيقة أن الغرماء قسموا متروكه فيما بينهم على طريق المحاصة . ولكننا نعرف أن كراء داره بلغ 48 بوجه ، كما أخذت أوقاف الحرمين نصف بوجو من تركته . وكان ذلك سنة 1252 .

وتوجد حالات لا تسجل فيها التركة كاملة . ولكن يسجل فقط نصيب أحد الورثة ، فتذكر الوثيقة أن الوارث قد قبض نصيبه وهو كذا وكذا . فهذا (ابن أقليل) قبض نصيبه من احدى التركات ، وهو خمسة ريال بوجه سنة 1242 .

وهناك تركات ليس فيها دراهم أصلا ، وانما هي مجموعة من الأثاث البالي والماعون والملابس ونحو ذلك • فهذا متروك أحدهم (عمرو ابن عمرو) عبارة عن حياك وزرابي ومعز • وهذا متروك عبد الرحمن القزادر عبارة عن سروال وغليلة وصدرية وعباءة « الكل من الصوف الخلق » ، بالاضافة الى سراج فخار ، وحنبل صغير وزربية وبابوج وقفة دوم الخ • وكان ذلك سنة 1242 •

بالاضافة الى ذلك نسجل هنا متروك بعض الأشخاص الذين لم يكونوا فى الظاهر من أهل المدية الحضر : تركه عمر المسيلي (سنة 1246) وطريقة توزيعها على أقاربه • وتركة عباد المعداوي (؟) نسبا ، وذلك في زمن القاضي الحاج محمد بن الخلفة (سنة 1242) • وتركة سي علي القسنطيني ، تصفه الوثيقة بـ « الخيال » ومبلغ تركته 81 ريالا دراهم سنة 1254 •

وفي الدفتر عدد من حالات المقبوضات التي تسلمها أصحابها بالمحكمة نفسها • ومن ذلك ما قبضه أحدهم (سي مسكين) من ثمن « البلاد التي أخذت منه بالشفعة » ، وهو 38 ونصف بوجه ، وذلك سنة 1242• وما قبضه محمد بن تركية ، وهو 25 ريالا دراهم صغار سنة 1245 دون ذكر لطريق انجرار ذلك اليه • وما قبضه علي بن القرشي « على سبيل البشارة » من القائد أحمد بن سلام ، وهو أربعة دنانير • وأخيرا ما قبضه عبد الله الزنيخري نسبا ، نيابة عن ابن عمه ، وهو أربعة ريالات ونصف بوجو وموزونتان ، وذلك على يد القاضي أحمد بن الحاج سلامة سنة 1239 • ولكن الوثيقة لا تذكر أيضا طريق انجرار ذلك الى ابن عمه •

ط ـ أخبار متفرقة :

ونختم الحديث حول ما جاء فى الدفتر من معلومات بالاشارة الى وقائع لم نجد لها مكانا فيما صنفناه من موضوعات • من ذلك تسجيل وقائع الزلزال الذي حدث سنة 1240 بالبليدة • فقد سجل ذلك فى الدفتر على النحو التالي : ضربت الزلزلة فى يوم 12 رجب ، وانهدمت البليدة ،

وكان يوم المدرجة على الرابعة ساعة (كذا) من سنة 1240 • واسترسلت على الضرب •

وفي خبر آخر سنة 1254 جاء فيه : وقعت زلزلة يوم الثلاثاء عند الزوال يوم 14 صفر • كما سجلت « تقييدات » عن السنة الكبسية هكذا ، وابتداء من سنة : 1243 ، 1244 ، 1246 ، 1247 ، 1248 ، 1249 ، 1250 ، 1253 ، 1254 •

ي ـ استنتاجات :

مما سبق يفهم أننا اكتفينا بعرض وصفي لدفتر محكمة المدية فى الفترة التي أشرنا اليها ، وهي أواخر العهد العثماني الى فترة الأمير عبد القادر ، أي من حوالي سنة 1238 الى سنة 1255 • وقد اكتفينا بعرض القسم الأول من الدفتر الذي قلنا انه يحتوي على قضايا الأحوال الشخصية والمعاملات ونحوها ، أما القسم الثاني منه الذي يحتوي على تسجيل النشاط العسكري فى عهد الأمير بالخصوص فقد أجلناه الى مناسبة أخرى • ولم نلجأ الى دراسة تحليلية لاقليم التيطري ومدينة المدية فى العهد المذكور ، لأن ذلك يخرجنا عن موضوعنا وهو تقديم محتوى الدفتر الى الباحثين ، ولأنه يجعل معلومات الدفتر حينئذ جزءا فقط من المعلومات التي تقدمها المصادر الأخرى • وهذا ليس من هدفنا الآن •

ويلاحظ من المعلومات التي وردت فى الدفتر أن المدية كانت مدينة نشطة تجاريا وكانت تشكل مجتمعا حضريا فى أساسه ولكنه كان مجتمعا خليطا من المواطنين ، فمنهم رجال السلطة والتجار والعلماء وأصحاب الحرف والجنود • وكان للمرأة دور فى الاقتصاد أيضا كما تدل الوثائق المتعلقة بالقراض • كما كان لليهود دور ضئيل في التجارة • ونلاحظ تعدد حالات العتق ، وقلة المنازعات ، والتزويج فى سن مبكرة . وتعدد حالات الطلاق ولاسيما بين الشبان والجنود ، والتضحية بحقوق المرأة فى هذا الميدان ، لأنها فى أغلب الحالات تتنازل عن حقوقها مثل بقية

الصداق والنفقة والحضانة ونحوها من أجل الحصول على الطلاق الذي كان في أغلبه بائنا : 26 حالة من مجموع 38 •

وفي عدد من الاحصاءات المستخرجة من الوثائق وجدنا أن الوظائف الرسمية بالمدية عندئذ لا تكاد تخرج عن هذه ، وهي تسعة (9) :

الباي / المفتي / القاضي (الحنفي والمالكي) / الخوجة / وكيل خرجة القصبة / خوجة مخزن الزرع / وكيل الحبس (الوقف) / القائد / خادم باب المحكمة / •

أما أصحاب الحرف فكان احصاؤهم كالتالي (وهم 13 ثلاثة عشر) :

الخيال / السياف / البناي (البناء) / الحداد / الخياط النجار / الحمامجي / السمسار / الدباغ / الصباغ / الدلال / السراج / المداح •

ونعرف من الوثائق ان الحمامجي كان من الأغواط ، ولكن ليس هناك ما يدل على أن جميع الحمامات كانت بأيدي أهل الأغواط • بينما ذكرت حرفة الصباغة مرتبطة بأحد اليهود ، غير أن هذا لا يعني أن جميع الصباغين كانوا من اليهود •

كذلك أثبتت الوثائق وجود عدد من (البرانية) الذين ينسبون الى بلدانهم الأصلية بعد ذكر أسمائهم • وقد وجدنا من ذلك أكثر من 13 (ثلاثة عشر) حالة أو نسبة ، وهي كالتالي :

السنجاسي / الأغواطي (وكذلك الأغواطية) / المسيلي / الميزابي اليزكني / الجزيري (الجزائري) / التلمساني / الباجي / المازوني / الزنيخري / المعداوي (؟) / الريغي / الزواوي / القسنطيني •

وبين هؤلاء من كان عالما ومن كان تاجرا ومن كان صاحب حرفة الخ • كما تدل عليه الوثائق •

وهناك ألفاظ أخرى توحي بالنسبة الى أماكن أخرى خارج المدية ولكننا غير متأكدين منها • مثل الاشارة الى عائلة سيدي ابن ناجي

التي قلنا [illegible] لا [illegible] [illegible] الخنقة المعروفة •
ومثل « الانجشري » التي يبدو [illegible] تنطق « الانكشاري » . وفي هذه الحالة تصبح نسبة الى الفئة العسكرية المعروفة •

أما العبارات العسكرية التركية وألقاب الكراغلة فتوجد بكثرة فى الوثائق التي تعرضنا اليها . ومن ذلك : الباي ، بولكباش ، الانكشاري ، اليولداش ، قوجه باش ، قاردنج ، ازغلو ، قار حسن ، قارة دنقز ، ابن غرنوط ، ابن دالي ، الخوجة ، الشقساقجي . الخ • وأحيانا يذكر اليولداش برقمه العسكري •

ويبدو من أسماء القضاة والمفتيين ان فئة العلماء كانت من الحضر الأصليين ومن الأندلس . ومن ذلك : البصري ، الصحراوي ، سلامة ، خلفة ، السعيدي ، المازري ، الفخار ، الصوفي ، المحجوب ، الخ •

وتجدر الملاحظة أن الدفتر لا يكاد يضم وثائق عن الوقف لأغراض خيرية كانت شائعة فى العهد العثماني بالجزائر . سواء الوقف على المؤسسات مثل سبل الخيرات ومكة والمدينة والأشراف والأندلس والمساجد والزوايا ، أو الأفراد مثل العجزة والفقراء ونحوهم . بالعكس لقد وجدنا تراجعا من أحدهم عن وقف كان قام به . كما وجدنا شكوى من أحدهم بأن مساعده لا يؤدي واجبه نحو الوقف الموكل اليه •

كما أن الملاحظ عن التجارة ان الوثائق لم تسجل حالات الأسواق والتعامل مع المدن والأرياف المجاورة ولا ما صادرات وواردات المدينة • حقا ان الاشارات الى العملة المتداولة كثيرة ، ويبدو أنها متنوعة وتثير الاضطراب عندنا اليوم . ولكننا لا نعرف منها حالات ارتفاعها وانخفاضها أو قيمتها بصفة عامة • ان أسماء العملة تشوش الذهن لغير المعاصرين والعارفين بها • وهذه أسماؤها حسبما هو فى الوثائق :

الزياني ، الموزونة ، الريال (وفيه الكبير الضرب والريال الواحد والريال الصغير الضرب) ، الفلوس ، الدورو ، الدينار ، البوجه

/ الدراهم / الخ • بالاضافة الى العملة الذهبية والعملة الفضية ، والعملة النحاسية ، كما أن هناك عملة الباي مصطفى (بومزراق ، أو الـداي مصطفى وهو الأولى) وعملة الجزائر ، وعملة فاس ، ثم عملة الأمير عبد القادر ، الخ •

ان قناعتنا بأن دفتر محكمة المدية يحتوي على معلومات هامة تخص مدينة المدية والجزائر عموما فى أواخر العهد العثماني هي التي دفعتنـا الى تقديمه الى القراء على هذا النحو • ولعلنا قد وفقنا فى ذلك •

(بن عكنون) مدينة الجزائر

11 يناير 1984

الحمــلة الفرنسية على مصر والشام
في رأي المؤرخ أبي راس الجزائري

ما تزال كتابات عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك من المصــادر الأساسية عن الحملة الفرنسية على مصر والشام ، ولكن كثيرا من كتابات العلماء المسلمين الآخرين عنها ما تزال غير معروفة ، ومن ذلك كتابة محمد بن أحمد بن ناصر المعروف بأبي راس المعسكري الجزائري ، وقد كان أبو راس ، كالجبرتي ، معاصرا أيضا للحملة ، ولذلك فان رأيه فيها جدير بالنشر •

ولم يكن أبو راس أول جزائري عالج موضوع الثورة الفرنسيــة وآثارها ، ذلك ان معاصره وبلديه ، أحمد بن سحنون (كلاهما عاش فى مدينة معسكر بالغرب الجزائري وكلاهما توظف عند باي معسكر ، محمد الكبير) قد خص الثورة الفرنسية ببعض الفقرات فى كتابه الثغر الجماني (1) ولكن ابن سحنون ألف هذا الكتاب سنة 1205 (1791) ولم تكن الحملة الفرنسية قد وقعت ، وهناك أيضا محمد ابن العنابي الجزائري الذي تحدث عن آثار الثورة والحملة الفرنسية بطريقة غير مباشرة فى كتابه السعى المحمود (2) الذي دعا فيه الى ضرورة تقليد المسلمين للأروبيين فى نظمهم وعلومهم ، وقد ألف هذا الكتاب سنــة 1242 هـ / 1826 م •

(*) ـ نشرت في (المجلة التاريخية المغربية) عدد 21-22 ، أبريل 1981 .

1 ـ حققه الشيخ المهدي البوعبدلي ، ونشرته وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية : الجزائر 1972 .

2 ـ أنظر كتابنا : ابن العنابي ، **رائد الاصلاح الاسلامي** ، الجزائر ، 1977 .

أما أبو راس فقد تناول الحملة الفرنسية على مصر والشام وآثارها على المجتمع الاسلامي . وخصوصا المجتمع المصري . وكان أبو راس قد حج مرتين ، مرة قبل الحملة ، سنة 1204 / 1789 — 1790 ومرة بعدها ، سنة 1226 / 1811 . وكانت له فرصة . في الحجة الثانية . أن يشاهد بنفسه آثار الحملة في مصر والحجاز والشام ، ويسمع عنها من أفواه العلماء وغيرهم . لذلك فان حكمه صادر بعد مقارنته لأحوال المسلمين قبل وبعد الحملة .

وما دمنا قد درسنا حياة أبي راس في مكان آخر (3) فلا حاجة بنا الى سردها من جديد . ويكفي أن نذكر هنا أنه ولد بالغرب الجزائري حوالي سنة 1165 / 1751 وتوفي بمدينة معسكر سنة 1239 / 1823 — 1824 وأنه عاش طفولة بائسة لوفاة أبويه وهو صغير . وقد تعلم في الجزائر والمغرب الأقصى وتونس ومصر . وتجول في الحجاز والشام والتقى بعلماء الحركة الوهابية . ومن أساتذته في مصر محمد مرتضى الزبيدي (4) وعبد الله الشرقاوي (5) ومحمد الأمير (6) . وتوظف أبو راس في معسكر قاضيا ومدرسا . وعاش أحداثا هامة أثرت على مجرى حياته منها فتح وهران على يد الباي محمد الكبير ، وثورة الطريقة الدرقاوية على السلطة العثمانية بالجزائر .

وقد ترك أبو راس تآليف عديدة تجاوزت . حسب ادعاء البعض (7) . عدد سنوات حياته . وأخبر هو عن نفسه أنه لم يفقه في التأليف سوى عبد الرحمن السيوطي ، وتآليفه تناولت كل فروع المعرفة الشائعة عندئذ — العلوم الشرعية ، العلوم اللغوية ، العلوم العقلية — غير أنه اشتهر

---

3 — أنظر كتابنا : **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** . الجزائر . 1978 . ص 83–103 .

4 — توفي الزبيدي سنة 1205/1790/1791 وألف فيه أبو راس كتابا سماه **السيف المنتضي فيما رويته عن الشيخ مرتضى** . وكان الزبيدي من أساتذة الجبرتي أيضا .

5 — تولى وظيفة رئيس ديوان القاهرة في عهد الفرنسيين ومشيخة الجامع الازهر . توفي سنة 1227/1812 . أنظر الجبرتي **عجائب الآثار** ، 189/7 .

6 — أصله من مازونة بالجزائر . لعب دورا سياسيا وعلميا أثناء الحملة . توفي سنة 1232/1816 — 1817 . الجبرتي 420/7 .

7 — بو حامد المشرفي : **ذخيرة الاواخر والاول** . مخطوط .

أكثر كمؤرخ ونسابه ، ومن كتبه فى التاريخ الكتاب الذي أخذنا منه النص التالي عن الحملة الفرنسية على مصر والشام .

ولهذا الكتاب عناوين متعددة ، من ذلك الحلل السندسية فى شأن وهران والجزيرة الأندلسية .والواقع أن هذا عنوان جديد (8) للقصيدة السينية التي أنشأها أبوراس اثر فتح وهران سنة 1205 / 1790 — 1791 وقدمها للباي محمد الكبير ، صاحب الفتح ؛ ولكن الباي طلب منه شرحها لغموض عباراتها وصعوبة الفاظها ، فكتب أبوراس شرحا سماه عجائب الأسفار ولطائف الأخبار (9) وتوسع فيه حتى جاء فى جزئين ولكن المعارف لا حدود لها ، فكان أبوراس « يجدد طبعته » كلما وجد معلومات جديدة . وكان يسمى « الطبعة الجديدة » الشرح الثاني أو الشرح الثالث ، كما كان يطلق على كل شرح عنوانا جديدا .

وحانت فرصة الشرح الثاني سنة 1211 / 1796 — 1797 (10) ففي هذه السنة توجه أبوراس الى المغرب الأقصى لأسباب يبدو أنها تعود الى عزله من وظيفته ، وبعد استقبال السلطان له وحظوته عنده مكث أبوراس مدة فى مدينة تطوان ، وأخذ يشرح قصيدته السابقة متوسعا في الشرح ليشمل تاريخ وهران وحياة الباي محمد الكبير وسواحل المغرب الاسلامي والأندلس ، وسمي هذا الشرح : روضة السلوان المؤلفة بمرسى تطوان . وقد أهدى أبوراس هذا الشرح الى السلطان سليمان داعيا فيه له بالتوفيق في فتح مليلية كما فتح الباي محمد الكبير وهران .

أما الشرح الثالث فقد سماه : الغرض المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب (11) ، ويبدو من عنوانه أن أباراس قد

8 — عنوانها الأول : **نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان .**

9 — يمكن أن يقارن المرء بين هذا العنوان وعنوان كتاب الجبرتي : **عجائب الآثار في التراجم والأخبار .**

10 — يذكر ابن سودة : **دليل مؤرخ المغرب** ، ص 390 ، أن أبا راس توجه الى المغرب سنة 1803/1218 — 1804 .

11 — يختلف العنوان قليلا من نسخة الى أخرى ، مثلا : **القصد المعرب** ... بدل **الغرض** ... أو **الحال** ... بدل عبارة **عما وقع** ...

اهتم أكثر بتاريخ الأندلس وثغور المغرب الاسلامي • ونحن لم نعقد مقارنة بين هذه الشروح الثلاثة لمعرفة أيها أفضل شمولا وأسلوبا • غير أن قاعدتها جميعا هي القصيدة المذكورة : الحلل السندسية ، وأن الدافع الأصلي لكتابتها هو فتح وهران واستعادتها من اسبانيا الى الجزائر ، كما أن تقدم السن بالمؤلف (كتب الشرح الأول وعمره حوالي أربعين سنة) واطلاعه على مصادر جديدة ووقوع حوادث (مثل الحملة الفرنسية على مصر والشام) كان له دخل فى وجهة كل شرح ، ويغلب على الظن أن أبا راس كتب النص الذي نحن بصدده فى الشرح الثالث ، أي بعد ادائه فريضة الحج للمرة الثانية سنة 1226 / 1811 •

واهم النقاط التي عالجها أبوراس فى النص الذي نقدمه اليوم هي : التخريب الذي أصاب مصر ويافا وصيدا وعكا نتيجة للحملة ، وسلب الفرنسيين أموال الناس « حمل قناطير مقنطرة من المال حتى كاد أن يفرغ منه مصر ••• واثقلوا أهل مصر بالضرائب المتكررة الكثيرة • » واهانة الفرنسيين للمساجد والمقدسات « ودخلوا جامعها الأعظم فأهين أشد الاهانة وشتتوا خزائن الكتب ••• وداسوها بالأرجل وحوافر الخيل ••• ونهبوا بعض علمائها ••• » وتفكك الأخلاق العامة (خصوصا فيما يتعلق بالمرأة) « وتركوا حريمهم بأيدي الكفرة •• واستباحوا ديارهم » • وسياسة الفرنسيين نحو الأهالي التي يسميها سياسة التمويه « وموهوا بالعدل مكيدة كي يحبهم الناس » • كما اهتم أبو راس بالمغاربة فى مصر والحجاز أثناء الحملة ، وخصوصا دور الشيخ الجيلالي المغربي الذي زحف « بجيش من الطلبة والعلماء من أرض الحجاز » •

وهذه النقاط تؤكدها كتابات الجبرتي فى نفس الموضوع ، غير أن الجبرتي كان يؤرخ فاهتم بكل شيء تقريبا • أما أبو راس فقد كان يلخص ما جرى ويصدر حكما ضد الحملة ، وهو كرجل متدين عاش فى بيئة صارعت أكثر من ثلاثة قرون الاسبان فى الأندلس والمغرب الاسلامي لا يمكنه أن ينظر بعين الرضى الى أعمال الفرنسيين فى مصر والشام ، وفي نظري أن أبا راس كان ينظر الى الفرنسيين فى مصر

والشام نظرته الى الاسبان فى وهران وسبتة ومليلية .. فكلهم في نظره معتدون يجب على أمراء المسلمين جهادهم .

لذلك وجدنا أبا راس « ثائرا » ضد هؤلاء الأمراء الذين تهاونوا ، فى نظره ، عن نصرة الدين وتخليص الأمة الاسلامية من الغزاة الأجانب ، فهو يتهمهم باتباع الشهوات والخلود الى الراحة واستغـلال شعوبهم والتخلي عن الجهاد ، وهذا فى نظره هو الذي أدى الى وقوع مصر فى يد الفرنسيين ، أليس هذا هو القائل بصراحة :

مالت ملوكنـــا لحضيض راحتهــم وأكلونا كـأكـل الـداجـن العلس
وأعرضــوا عن جهاد الكفر قاطبــة حتى ارتمت (مصر)نااالعظمى بمرمرس

واذا قارنا بين لغة وموقف الجبرتي وأبي راس وجدنا الأخير ثائرا على الحكام المتهاونين بأمر الدين والأمة ، ورغم أن الجبرتي لم يمل الى محمد علي فانه لم يصدر حكما قاسيا على أمراء المسلمين كالحكم الذي أصدره أبوراس ، وقد وجدنا هذا الموقف عند أبي راس واضحا منذ البداية ، فقد أشاد بالباي محمد الكبير لأنه أخذ وهران من الاسبان، ورفض الوظيفة التي عرضها عليه السلطان سليمان بالمغـرب الأقصى واكتفى بالدعاء له باسترداد سبتة ومليلية من الاسبان ، ولم يجد في أمراء المسلمين بالمشرق من وقف جديا فى وجه الحملة الفرنسية ، فأمراء مصر كانوا في نظره متهاونين ففروا الى الصعيد « وتركوا حريمهم في أيدي الكفرة » وكادت عكا تضيع من يد أحمد باشا الجزار ، ولم يكن السلطان سليم فى مستوى الأحداث مما جعل أبا راس ينسب هزيمة الحملة الى الانجليز وليس الى العثمانيين .

والنص الذي نقدمه كنا قد نسخناه بيدنا يوم 20 يوليو 1978 عن نسخة باريس من كتاب : « الحلل السندسية » لأبي راس ، رقم 4619. (12) ويقع من ورقة 56 ظهرا الى ورقة 57 ظهرا أيضـا ، ويبدأ من

12 ـ المكتبة الوطنية بباريس ، قسم المخطوطات الشرقية ، والمخطوط مفهرس تحت عنوان : الحلل السندسية ...

البيتين اللذين يذكر أبو راس فيهما تهاون أمراء المسلمين ووقوع مصر فى يد الفرنسيين الى أن « طهر الله مصر منهم » • وبعد هذا النص يأتي حديث المؤلف عن حملة لويس 13 على مصر ووقوعه سجينا بها ، ونحن لم ننسخ ذلك ولم نورده هنا لبعده عن الموضوع الذي نحن بصدده •

* * *

وهذا هو النص :

مالت ملوكنا لحضيض راحتهـــم وأكلونا كأكــل الــداجـن العــلس

وأعرضوا عن جهــاد الكفر قاطبــة حتى ارتمت (مصر)نااالعظمىبمرمرس

الداجن : ماشية تربى فى البيت ، والعلس : حب معروف •• ، والمرمرس : من أسماء الداهية • وأردنا بذلك ما عرض لمصر بعصرنا هذا فى المحرم فاتح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف مع الفرانسة ، (13) فانهم دخلوا اسكندرية عنوة ما بعد ما أخذوا مالطة من يد النزايلية (14)، وتخطوا الى مصر (15) فلقيهم باشتهـا مراد (16) بالريف مع النيل بعساكر الغز (17) ، فى نحو تسعين ألفا ، فانهزموا بعد ساعة ، وقد حل بهم القتل الذريع والغزو فى النيل •

ودخلوا مصر مع طاغيتهم بنبارت (18) • أول ربيع النبوي من السنة المذكورة ، فقتلوا من وجدوا بها من الغز ، واستباحوا ديارهم ، وأمنوا

---

13 – أي الفرنسيين • وأبو راس يشير اليهم في النص تارة بالمفرد أو الجنس اذا قصد بونابرت أو خليفته كليبير ، وتارة بضمير الجمع مثل تخطوا ، موهوا ، الخ •

14 – في الجبرتي 289/4 «الكواللرية» ، وهم المعروفون بفرسان مالطة •

15 – يعني القاهرة • وهي في أغلب النص كذلك ، الا اذا جاء بتعبير مقارن يفهم منه القطر المصري •

16 – كان مراد بك وليس باشا ، وهو من مماليك مصر ، وكان قائد الجيش ، مات بسوهاج سنة 1800/1215 – 1801 (أي قبل خروج الفرنسيين من مصر) • انظر الجبرتي **247/5** •

17 – يعني المماليك ، وقد جاء في تعاليق ناشر **(عجائب الآثار)** للجبرتي أن «الغز» هم صغار المماليك ، 36/5 ، وجاء مرة أنهم جنس من الترك **314/4** ، وأخرى أنهم طائفة من عرب البحيرة **43/5** ، الخ •

18 – نابليون بونابرت •

من المدينة كل بنا (كذا) يتوقع منه سوء ، وقتلوا كل من توجهت عليه الضنة فى شأن الغز . مثل كريم الاسكندري (19) وغيره . وفر الباشة مراد وأهل دولته الى أقاصي الصعيد ، وتركوا حريمهم فى أيدي الكفرة ، وقتلوا (20) كل من أثار فتنة أو توهموا فيه استنكافا ، ولقد ثار شيء بينهم وبين المغاربة الذين بها (21) فقتلوا كل من وجدوه.

ودخلوا جامعها الأعظم (22) فأهين أشد الاهانة ، وشتتوا خزائن الكتب التي به وداسوها بالأرجل وحوافر الخيل ، انا لله وانا اليه راجعون ، ونهبوا بعض علمائها لاتهامهم بودائع الغز ومظاهرتهم ، وأخذوا أموالا كثيرة من نساء الغز ، فضلا عن النهب ، وأثقلوا أهل مصر بالضرائب الكثيرة وشن الغارات خلف فل الغز . وبعث (23) عسكرا صعد مع الصعيد فملكه الى اقنا ، فضلا عن جرجى وسيوط (24) وغيرهما .

ثم تخطوا الى القصير من مراسي بحر سويس ، وبنوا فيه قلعة وحصنوها بالمدافع ، وقد زحف اليهم جيش من الطلبة والعلماء من أرض الحجاز ، أميرهم العالم الفقيه الشيخ الجيلالي السباعي المغربي ، وصحبوا معهم مدافعه (25) . ولما نزلوا بالقصير أعان أهل تلك الأرض الكفرة فقتلوهم كلهم الا من اتخفى (26) (كذا) .

---

19 ـ هو محمد كريم قتله الفرنسيون ظلما وقهرا ، ترجمته في الجبرتي 52/5 .

20 ـ أي الفرنسيين .

21 ـ يعني القاهرة .

22 ـ الجامع الأزهر .

23 ـ يعني بونابرت .

24 ـ هي قنا ، وجرجا ، واسيوط .

25 ـ اي بونابرت ، والحديث عن جنس الفرنسيين ، أي أن جيش الجيلالي استولى على مدافع الفرنسيين .

26 ـ «الجيلالي» ذكره الجبرتي تارة «الكيلاني» وتارة «الجيلاني» ولم يذكر لفظ «السباعي» معه . 18/5، 41، 44، 63 . وأكد الجبرتي الحوادث التي نسبها اليه أبو راس وموقف أهل الصعيد من المغاربة . توفي الجيلالي في ذي القعدة سنة 1213.

وتمكن عدو الله من مصر ، وبنى حوله قلاعا كثيرة لتحصينه ، وبعث جيشا الى جهة الصالحية ، ففتحوا تلك القرى ، على كثرتها ، وتخطوا الى العريش ، الى خان يونس ، حتى شرد منهم أهل غزة من الشام وفلسطين والرملة الى القدس • وفتح ذمياط (كذا) وعسقلان ومـا حولهما من القرى • فملك من الأسكندرية ورشيد الى اقنـا ، الى القصير ، الى خلف العريش ، الى ذمياط ، الا أن الانجليز سدوا عليه فرصة المجاز ، فأرسلوا سفنهم حول بقير (27) حيث مصب النيل في البحر الرومي ، فأخذوا بمخنقه ، وحالوا بينه وبين بلاده • ولولاهم لامتلأ اقليم الفرانسة بالسبي من مصر ، فكان ذلك من لطف الله بهم •

وموهوا (28) بالعدل ، مكيدة ، كي يحبهم الناس ، حتى ان رجلا بيده اناء مملوء حليبا فأخذه جندي منهم ، فلما سمع صاري عسكر ، وزير (29) بنبارت ، أعطا (كذا) للرجل فى ذلك محبوبا ذهبا • وهدوا كثيرا من قلعة (30) مصر ، كرسي مملكتها ، وأول من اختطها صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي فى القرن السادس •

ثم ان عدو الله لما خلا له الجو من المنازع ، وأيقن أن ليس له عن اقليم مصر دافع ، وذهب الصادح والحادي ، بحيث لا حياة لمن تنادي (31) سولت له نفسه غزو عكا التي هي أحد (كذا) قواعد الشام • فاستخلف على مصر ، وسار اليها بجنود عظام ، وخدمتهم من فلاحـة

27 ـ ابي قير .

28 ـ يعني الفرنسيين .

29 ـ أي نائب بونابرت ، ويعني بصاري عسكر قائد الجيش .

30 ـ تعرف اليوم بالقلعة فقط ، والى عهد قريب كانت تسمى قلعة محمد علي ، وكانت مقر الحكم في عهد المماليك .

31 ـ واضح ان ابا راس يلمح بذلك الى رأيه في سياسة أمراء المسلمين الذين ذكرهم في البداية .

مصر أكثر (32) • ففر منه أهل يافا وصيدا وغيرهما ، ودخلهما الجند ونهب ما وجد وعاث وأفسد • وارتجت الشام منه ، وخافه أهل دمشق وغيرهم ، على بعدهم وغزارة جندهم ، حتى أن أهل القدس وعمواس(؟) ونابلس وغيرهم هموا بالانجلاء عن ديارهم وأوطانهم • ثم انه أناخ على عكا بكلكله ، وخيم بذوبه وأهله ، وبها أحمد الجزار باشا ، فدارت بينهما حروب متكررة ، وهجم عليها ذات يوم حتى دخل جنده المدينة • وأخرجوا منها قسرا ، وولوا الأدبار قهرا ، ثم أقلع عنها ، ورجع خائبا الى مصر ، وفي خلال ذلك أخذ الانجليز من يده مالطة عنوة ، وها هي بيده الى الآن • وقد نجا من الشام منجى (33) الذباب ، راضيا من الغنيمة بالاياب •

وقد اقتصر بعد ذلك على مصر وعملتها (34) ، واقصر عن الطموح الى غيرها ، ثم زحفت عليه عساكر السلطان سليم (35) بن مصطفى العثماني ، فلقيها بالعريش ، وهو آخر عملة مصر مما يلي الشام ؛ فكانت بينهما حروب سجال ، وربما كان ظهوره أكثر • ثم انه حمل قناطير مقنطرة من المال حتى كاد أن يفرغ منه مصر (36) ، وركب البحر سرا من الانجليز ، وتخلص الى بلاده البريز (37) ، بعد ما استعمل على مصر وزيره (38) صاري عسكر ، فسلك نهجه فى ذل المسلمين ، وجيوش العثماني آخذة بمخنقه ، وقد سدوا عليه ، مع الانجليز ، كل طريق ، وغص من ذلك بالريق ، وصار يموه على المسلمين بأن السلطان سليم أمره بغزو مصر •

---

32 – فرض بونابرت على الكثير من الفلاحين المصريين وأصحاب الحرف – وحتى بعض

ثم وقعت المراوضة (39) على اسلام البلد وعملتها ، وينصرف لبلاده . ففعل على أن يأخذ ما بيده ، فانحدر فى النيل الى الاسكندرية ، وقد أفرجوا (كذا) له الانجليز . ومنها ركب لبلاده سنة ستة عشر ومائتين وألف . وما من امرأة لا زوج لها من المومسات رضيتهم ذهبت معهم ، فطهر الله مصر منهم .

آن آربر (أمريكا) 1980/6/30 .

ملاحظة :
أشار أبو راس الى الحملة الفرنسية على مصر أيضا في كتابه (فتح الاله) في حوالي سبعة سطور ، وذلك أثناء حديثه عن شيخه عبد الله الشرقاوي فقال عنه أنه كان يدافع عن المسلمين ويتدخل في شأنهم مع النصارى ، « الى أن فرج الله بعد ثلاثة من الأعوام ، والناس فيها في وصب وأوام » . وقال أن النصارى في مصر « ألزموا المسلمين المحبوب وبطاقة » .

39 ـ المفاوضات .

في النشاط العسكري والتجاري للجزائر
خلال القرن الثامن عشر (12 هـ)

تحتوي مكتبة ويليام كليمنتز التابعة لجامعة ميشيقان (آن آربر) الأمريكية (*) على وثائق مخطوطة تتعلق بالحياة البحرية والعسكرية والاقتصادية والدبلوماسية لدول المغرب العربي (الجزائر — تونس — ليبيا — المغرب الأقصى) وذلك خلال الفترة المعروفة عندنا بالعهد العثماني •

وأثناء زيارة قصيرة (*) لهذه المكتبة تمكنت من الاطلاع فى مجموعتي شيلبورن (Shelburne)) ولير ((Lear)) على بعض هذه الوثائق، ، وأخذت منها معلومات تتعلق بالجزائر فى القرن الثامن عشر (12 هـ) وبداية القرن التاسع عشر •

واني أغتنم هذه الفرصة لشكر مسؤولي هذه المكتبة على تسهيل مهمتي ، كما أني أسارع بوضع هذه المعلومات أمام الباحثين فى صورتها الخام لعلهم يجدون فيها فائدة لما يستقبل من أبحاثهم ، غير أني أسارع أيضا الى القول بأن هذه المعلومات لا تغنى عن الرجوع الى الأصل •

وتتحدث التقارير المحفوظة فى هذه المكتبة عن النشاط البحري (العسكري) والتجاري للجزائر • فبالنسبة للجانب الأول تتحدث عن

— نشر فى (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 33 — 34 (جوان — 1984) •

— W.L. Clements Library, University of Michigan, Ann. Arbor.

(*) — كانت الزيارة خلال شهر أغسطس ، سنة 1983 •

عدد السفن ونوعها وقوتها وعدد مدافعها وحالتها فى البحر سواء فى الحرب أو فى السلم • كما تذكر مصادر التموين بالذخيرة والعتاد والرجال الخ •

أما عن النشاط التجاري فتضم التقارير المذكورة معلومات هامة عن صادرات وواردات الجزائر وعن قيمة كل ذلك بالعملة الأجنبية ، ومدى تنافس الدول الكبرى عندئذ ، سيما بريطانيا وفرنسا ، على التجارة مع الجزائر وفى البحر الأبيض عموما ، وتنافس بعض الفئات الغربية مثل التجار اليهود فى ليفورنيا الذين كانوا يتنافسون بدورهم مع التجار الفرنسيين على احتكار السوق الجزائرية تصديرا وتوريدا •

وبالاضافة الى ذكرى لمصدر الوثيقة فاني سأذكر رقمها وأحوالها حتى يفيد منها الباحثون ويحاولوا الاتيان بها اذا شاؤوا • كما أني سأذكر نبذة عن محتوى كل وثيقة للكشف عن قيمتها التاريخية • وقد قسمت هذا العمل الى الأقسام التالية :

1 ـ معلومات عن النشاط البحري (العسكري)
2 ـ معلومات عن النشاط التجاري (صادرات وواردات)
3 ـ معلومات عامة (سياسية ودبلوماسية) •

1 ـ معلومات عن النشاط البحري (العسكري) :

في وثيقة بتاريخ 25 يوليو سنة 1767 توجد المعلومات التالية عن السفن التي تتكون منها القوة البحرية الجزائرية • وتوجد هذه المعلومات كلها على صفحة واحدة ، هي صفحة 94 من المخطوط الذي يحتوي على مجموعة كبيرة من التقارير التي كتبت فى وصف القوات العسكرية والبحرية لدول البحر الأبيض المتوسط عموما فى ذلك الوقت ، ومنها دول المغرب العربي المذكورة التي يعبر عنها التقرير باسم (الدول البربرية) وأحيانا باسم (دول القرصنة) • وهذه هي المعلومات (1) :

1 ـ رقم المجموع 137 ورقة 49 من أوراق شيلبورن Shelburne papers بمكتبة كيلمنتس المذكورة ، والملاحظ أنه لا يوجد اسم شخصي لبعض كتاب الوثائق ، التي سنذكرها ، وهي جميعا باللغة الانكليزية .

نـوع السفينـــة	عـــدد مدافعهـــا
سفينة كبيرة	52 مدفعا
فـرقـاطة	32 »
فرقاطة أخرى	24 »
زيبـك	30 »
زيبـك أخـرى	26 »
زيبـك أخـرى	24 »
زيبكان (ذات 24 مدفعالكل منها)	44 »
زيبكان (ذات 20 مدفعا لكل منها)	40 »
سيتي	20 »
سيتي أخرى	8 »
زيبـك	14 »
سيمي	10 »
زيبـك	8 »
زيبـك أخرى	6 »
سيتي	6 »
زيبكان (أربع مدافع لكل منها)	8 »
أربع زوارق تجديف	8 »
زورقان للحراسة	4 »

ويلاحظ التقرير أن جميع هذه السفن كانت عاملة ، غير أن نصـف الغليوطات كان غير عامل • ويقول ان هناك سفينة من نوع الفرقاطة ما زالت بصدد البناء وأن فوتها 30 مدفعا •

وهناك مخطوط آخر هام يجمع أيضا وثائق عديدة عن القوات البحرية والتجارية للجزائر ودول المغرب العربي عموما وذلك بعد سنة 1765 (2) • وعدد الصفحات فيه خمسون (50) • أما بقية صفحات المجموع فلا تهم دول المغرب العربي • وعنوانه الكامل هو (وجهة نظر مقارنة عن القوات

2 — رقم 19 من مجموعة شيلبورن أيضا ، بنفس المكتبة •

العسكرية والبحرية لدول القرصنة الأربع لبربارية « شمال افريقية » مع نبذة عن انتاجهم ووصف لحكومتهم الحالية عند الضرورة) •ويحتوي هذا الجزء المتعلق بدول المغرب العربي على هذه العناوين :

- عن مملكة برقة وطرابلس
- عن تونس
- عن الجزائر
- عن المغرب الأقصى
- عن تجارة الدول الأربع المذكورة
- رسالة من الأسقف كليفلاند ، جبل طارق ، أغسطس 25 ، سنة 1765 •

وقد اطلعت على هذا المخطوط فاذا فيه تفاصيل عن قوات كل بلد في شكل تقارير واحصاءات • وفيما يتعلق بالجزائر توجد الصفحات من 22 الى 31 ثم من الصفحة 46 الى 50 • غير أن نهاية صفحة 50 مبتورة ، وبذلك يظهر أن بقية الحديث عنها غير واضح ، وذلك يعود الى ضغط التجليد ، ولا يمكن أن يظهر التصوير جيدا الا اذا ألغي التجليد ، وهو غير ممكن • لذلك فقد يكون من الأفضل نسخ الصفحات اليسرى من المخطوط باليد •

وبعد أن يصف المخطوط حالة الحكومة بالجزائر وطريقة الحكم يقول عن الجيش ان الواجب أن يكون عدده حوالي 12 (اثنا عشر) ألف رجل ولكنه الآن (أي بعد سنة 1765) يتألف من 8ر500 رجل فقط • أما عن القوات البحرية فى الجزائر فيذكرها على النحو التالي وذلك سنة 1762 :

نوع السفينة	عدد مدافعها
سفينة كبيرة	50 مدفعا
سفينة من نوع (د)	46 »
زيبكان	26 » لكل منها
اربع سفن من نوع (د)	8 » لكل منها
سفينتان نوع سيتي	16 لكل منها (*) 3
سيتي اخرى	14 »
سفينة من نوع (ديتو)	12 »
اربع سفن من نوع (د)	10 لكل منها (*)
سفينة من نوع تارتان	6 »
سفينة من نوع (د)	4 »

ولاحظ التقرير أن أكثر هذه السفن قد أصبحت قديمة وغير مفيدة ، ومع ذلك فان الجزائريين يبقونها في حالة عوم في المرسى دون مدافع أو حبال ليظهروا قوتهم البحرية • ولاحظ أيضا أنهم يبقون عدد الرياس (ضباط البحر) في عدد 31 سواء كانت لهم سفن أولا وسواء توجهوا الى البحر فعلا أو بقوا فى بيوتهم • ولاحظ كذلك أن الجزائريين بنوا سنة 1765 فرقاطتين جيدتين وسفينة من نوع زيبك وكلها تحمل 28 و 30 و 12 مهراسا من الهدايا السنوية التي تقدمها الدنمارك والسويد وهولاندا • غير أن هذه السفن الثلاث تحطمت فى ليلة واحدة لعدم وجود السعة البحرية الكافية على الشاطيء الجزائري ومات أكثر رجالها الذين كانوا عليها • وأضاف أن الجزائريين قد وضعوا من جديد سفينتين أخريين فى المستودعات ، وقال بأنه لا توجد فى الوقت الحاضر سفينة جزائرية واحدة كبيرة فى البحر ذات 50 مدفعا • وختم كلامه عن البحرية الجزائرية قائلا : آن الجزائريين قد تحسنوا فى طريقة الاحتفاظ بسفنهم ورعايتها بفضل السلام الذي بينهم وبين السويد والدنمارك الذي حققه المسمى الأسكندرلوجي A. Logie

* * *

3 ـ لم يلاحظ التقرير ما اذا كان عدد المدافع لكل سفينة أو للمجموع • لذلك أضفنا نحن « لكل منها » مع هذه العلامة (*) •

وحول نفس الموضوع وجدنا فى المجموعة المسماة بـ (أوراق لير) ، وهو اسم القنصل الأمريكي في الجزائر في مطلع القرن التاسع عشر ، وجدنا قائمة بالقوات البحرية العسكرية للجزائر وذلك فى شهر يناير سنة 1804 ، وهو عهد الداي مصطفى باشا ، وهذه القائمة توجد على الصفحة الأخيرة من الوثيقة الى عنوانها (ملاحظات لقائد السفن الأمريكية الحربية القادمة الى ميناء الجزائر سنة 1804) • (4) وفى هذه (الملاحظات) تعليمات دقيقة عما جرت به العادة فى ميناء الجزائر عند دخول السفن الحربية والاجراءات المتبعة فى التعامل مع السلطات الجزائرية فى الميناء والحراس ومراسيم الاستقبال والاتصال بالقنصل الأمريكي هناك ، الخ •

وهذه الوثيقة لا تتجاوز خمس صفحات ، ونظرا لرداءة خطها فان نسخة منها قد كتبت على الآلة الراقنة ووضعت الى جانب الأصل • ولذلك يمكن الاكتفاء بتصوير النسخة الآلية عند الحاجة لأنها طبق الأصل •

وحول نفس الموضوع أيضا ، وهو القوة البحرية العسكرية للجزائر ، نشير الى أننا وجدنا رسالة وجهها الرئيس الأمريكي ، توماس جيفر سون الى داي الجزائر ، مصطفى باشا ، بتاريخ 9 يونيو (جوان) سنة 1804 وهذه الرسالة كانت ردا على رسالة وصلته من الباشا فى أكتوبر سنة 1803 • وهي تتعلق بالمعاهدة المشتركة بين البلدين • وبالسفينة الأمريكية — صالي Sally التي فقدت عند قادس وهي محملة ببضائع أمريكية للجزائر ، وبالمدافع التي طلبها الباشا من الرئيس الأمريكي ، ثم بامكان تدخل الجزائر كوسيط بين أمريكا وباشا طرابلس (5) •

2 — معلومات عن النشاط التجاري :

وفي تقرير كتبه القنصل البريطاني في الجزائر ، السيد فريزر Fraser ، بتاريخ 19 فبراير ، 1768 توجد معلومات هامة

---

4 — أنظر Lear papers بناير ، 1804 ، وقد عاش لير من سنة 1762 الى 1816 ، نفس المصدر •

5 — أنظر (أوراق لير) بتاريخ 9 يونيو (جوان) 1804 ، بنفس المصدر •

عن حالة التجارة الجزائرية ، خصوصا تلك التي تحتكرها شركات أجنبية أو فئات غريبة عن البلاد مثل عائلة بكري اليهودية •

ويمتد التقرير الذي يعنينا من صفحة 216 الى صفحة 228 ضمن مجموع (6) • غير أن صفحة 227 بيضاء • ويشتمل التقرير على صادرات وواردات الجزائر من البلدان التالية : مرسيليا ، ليفورنيا ، الاسكندرية ، أزمير • ويتحدث التقرير أيضا عن عدد السفن التجارية وأنواع البضائع الموردة والمصدرة ، وعن قيمة كل ذلك بالعملة الجزائرية المعروفة بالسكينية •

وهذا بيان بصادرات سنة 1768 كما جاء في الاحصاء بالتقرير المذكور :

أ ـ صادرات الجزائر الى فرنسا (مرسيليا) :

الصوف	اللوبيا والعدس
الشمع	ريش النعام
الزيت	نبات الكتان (القنب)
جلود بشعرها	بذور الطير
القمح والشعير	بضائع من غنائم البحر

ويذكر التقرير أن التجار الذين يصدرون الى فرنسا على الخصوص كانوا من الفرنسيين فقط • ويشير الى أنه كان للفرنسيين عندئذ مستوطنات في القالة والقل والحصن ••• حيث تتمتع الشركة الافريقية (الفرنسية) بامتيازات صيد المرجان وغيره • ويدفع الفرنسيون في مقابل ذلك ضريبة (جزية) الى داي الجزائر •

ويلاحظ التقرير أن الشركة الافريقية المذكورة تربح من ذلك أرباحا طائلة ، وقدر قيمتها بالدولار المكسيكي ••• وكان للفرنسيين سنة 1738 في مدينة القالة وحدها 300 (ثلاثمائة) صياد للمرجان ومجموعة

---

6 ـ انظر : المجموع رقم 111 من أوراق شيلبورن ، نفس المصدر

من الجنود وبعض القوانين الخاصة بهم وساحة سلاح Place d'arme
كما كان لهم في بونة (عنابة) وتكوش Tukush وجيجل ، الخ
احتكار تصدير الصوف والجلود التي يدفعون في مقابلها حوالي خمسة آلاف استرليني سنويا •

ب ـ صادرات الجزائر الى ليفورنيا :

وهي نفس الصادرات المذكورة أعلاه الموجهة الى مرسيليا • والفرق هنا هو ان هذه البضائع يصدرها اليهود في أغلب الأحيان ، ويلاحظ التقرير أن الجلود المدبوغة Baggs كانت معفاة من الضرائب •

أما الواردات الى الجزائر فالتقرير يذكرها أيضا منفصلة في قوائم طويلة تشمل اسم كل بضاعة • وقد حاولت حصرها وبعض الملاحظات عليها على النحو التالي :

1 ـ البضائع الواردة من مرسيليا :

ان التجار الموردين لهذه البضائع فرنسيون فقط ، وهم يدفعون على ذلك ضريبة 5 ٪ مع اعفاء المواد المهربة من الضريبة ، وتشمل قائمة مرسيليا 43 (ثلاثة وأربعون) اسما لمواد مختلفة •

2 ـ البضائع الواردة من ليفورنيا :

والتجار الموردون لها من اليهود في أغلب الأحيان ، وهم يدفعون عن ذلك 10 ٪ ضريبة ، وتشمل قائمة ليفورنيا 45 (خمسة وأربعون) اسما لمواد مختلفة •

3 ـ البضائع الموردة من السويد :

ان المورد لهذه البضائع هو قنصل السويد بالجزائر نفسه • وهو لا يدفع ضريبة عن ذلك • أما قائمة المواد التي يوردها فتشتمل على 21 (واحد وعشرين) اسما •

4 ـ البضائع الموردة من المشرق :

لم يذكر التقرير شيئا عن جنسية التجار في هذه الحالة ، ولا عما كانوا يدفعون من ضرائب ، ان كانت • أما قائمة البضائع الموردة الى الجزائر من المشرق (وهو اسم يعني في الغالب مينائي الاسكندرية وأزمير) فتضم 18 (ثمانية عشر) اسما •

* * *

ويتصل بهذا الموضوع وهو التجارة ، ماوجدناه من «تعليمات» وجهها القنصل الأمريكي ، لير ، Tobias Lear الى السفن الأمريكية التجارية الحاملة للبضائع الى مرسى الجزائر • فقد شرح لها كيف ترسو وكيف تتصل بالقنصل الأمريكي هناك ، وكيف تتعامل مع رجال المرسى والسلطات والسكان ثم كيف تغادر المرسى بعد انتهاء مهمتها • ومن بين النصائح التي وجهها لير الى ربابنة السفن التجارية الأمريكية أن يخبروا السلطات الجزائرية بأن لهم عقودا مع شركات في أوروبا حتى لا تطلب منهم السلطات الجزائرية حمل بضائع لها الى جهات تعينها هي (7) •

وتوجد في المجموع الذي سبقت الاشارة اليه (8) عن دول المغرب العربي معلومات هامة عن حالة التجارة وخصوصا الصادرات من الجزائر • وبناء عليه فان صادرات الجزائر حوالي سنة 1765 هي :

الصوف	الشمع
القمح (اذا رخص به)	العسل
البغال	الجلود

وجاء في هذا التقرير أن معظم صادرات القمح كانت من بونة (عنابة) وبجاية وستورة • غير أن الترخيص بذلك يأتي من الجزائر وليس من عاصمة الأقليم (قسنطينة) • ومن الملاحظ أن التقرير هنا يتحدث عن النشاط التجاري الفرنسي ولذلك أضاف قائلا أن المراكز التجارية

---

7 ـ أنظر (أوراق لير) بتاريخ أول مايو ، 1804 ، والوثيقة مكتوبة بخطه ، وترافقها نسخة مضروبة على الآلة الراقنة طبعة الأصل . نفس المصدر .

8 ـ أنظر (أوراق شيلبورن) رقم 19 ، نفس المصدر .

الفرنسية لا تعتبر من موانىء الجزائر رغم أن الفرنسيين صدروا منها بضائع كثيرة • ولاحظ أيضا أن الفرنسيين قد عقدوا مع الجزائر «خلال السنوات الأخيرة » عقودا بشأن تصدير الصوف والشمع وغيرهما من المواد الأساسية • أما أهم موانيء الجزائر التجارية فهي ، بناء على هذا التقرير ، بجاية ، وبونة ، وستورة • وقد أشار التقرير الى أن خزانة الجزائر غنية جدا اذ تحتوي ، كما قال ، على سبعة ملايين جنيه استرليني من الذهب بالاضافة الى الجواهر والأحجار الكريمة • أما الدول التي لها قناصل في الجزائر عندئذ (حوالي سنة 1765) فهي : بريطانيا ، فرنسا ، السويد ، الدنمارك ، هولاندا ، البندقية •

3 ـ معلومات عامة (سياسة ودبلوماسية) :

جاء في المجموعة التي عنوانها (وجهة نظر مقارنة بين دول المغرب العربي •••) بعض الأضواء على شخصية غريبة لها علاقة في تطور العلاقات بين دول المغرب العربي والدول الاسكندنافية عموما • وهذه الشخصية هي الاسكندر لوجي A. Logie فقد جاء فيها أن لوجي قد عقد السلام بين دول القرصنة (دول المغرب العربي) والسويد والدنمارك • وأخبر صاحب التقرير أن لوجي ولد في اسكتلاندا ، وكان ضابط سفينة صغيرة يتاجر فيها تجارة غير شرعية أو غير مرخص بها ، مع السواحل الافريقية ، وكان يقدم لدول المغرب العربي الذخيرة والعتاد الحربي • وقد استمر على ذلك عدة سنوات الى أن تم اختطافه في هولاندا ووضع في السجن لممارسته التجارة غير المرخص بها • ومن هناك عرض السيد لوجي ، حسبما جاء في التقرير ، خدماته على وزير سويدي فحذره هذا من السجن وأرسله الى استوكهولم باعتباره شخصا مناسبا ، حسب اقتراحه ، لعقد معاهدات مع دول المغرب العربي • وقد أخذ السيد لوجي الجنسية السويدية وذهب في رحلة الى سواحل شمال افريقية وعقد المعاهدات التجارية عن طريق الهدايا ، كما جاء في التقرير ، مع الجزائر وتونس وطرابلس والمغرب الأقصى (9) •

9 ـ عن حياة ودور الاسكندر لوجي ، أنظر أيضا كتابنا (الجزائر وأوروبا 1500ـ1830) الذي ألفه جون وولف وترجمناه الى العربية ، وهو حاليا تحت الطبع .

ولاحظ التقرير أن هذا السلام الذي تحقق بين دول المغرب العربي والدول الاسكندنافية (السويد والدنمارك) بدون أن يكون دفع الدراهم شرطا من شروطه قد جرد بريطانيا وهولاندا من حصة تجارية هامة في البحر الأبيض المتوسط • بل أن لوجي قد وافق على دفع السويد لهدايا سنوية من المواد العسكرية والبحرية القيمة التي تقدر بخمسة آلاف جنيه استرليني • كما أنه حقق للدنمارك نفس الهدف •

ان هذا الوضع ، كما جاء في التقرير المذكور ، قد أعطى لدول المغرب العربي شهية قوية للمطالبة بنفس النوع من الهدايا • ولاحظ أن لوجي قد قدم في هذه السنة (1765) الى الجزائر وحدها مواد بحرية وعسكرية تبلغ قيمتها ثلاثة آلاف جنيه سنويا حرة من الدفع • وهذا الأمر هو الذي جعل هذه الدول ، في نظر صاحب التقرير ، عنيدة في معاملاتها مع الدول الأخرى ومؤذية ، وهي تطالب بنفس المعاملة مع حكومة لندن • ولاحظ أنه جاء في سنة 1756 سفير من الجزائر الى لندن لهذا الغرض ، وهو المطالبة بنفس المعاملة ، وقد حصل من ذلك على أشياء قديمة • ولكن بداية حرب لبريطانيا مع دولة أخرى أعطتها عذرا لوقف تقديم البارود والمواد الحربية الى الجزائر ، بدعوى عدم وجود فائض من ذلك •

ويضيف التقرير بأن داي الجزائر الحالي (سنة 1765) ما يزال في مقتبل العمر ، وأنه كان في أول أمره خزناجيا • وأخبر أن لهذا الداي عزيمة ودهاء وقدرة ولكنه يخفيها جميعا وراء ستار الدراسة والتدين مدعيا أنه لا يقوم بشيء غير الصلوات •

وفي هذا التقرير أخبار أخرى عن الوضع السياسي والاداري للجزائر • فالحكومة فيها جمهورية عسكرية • وهي تتألف من الأتراك الشرقيين فقط ، وأنه لا يسمح حتى للأطفال الأتراك بالجزائر أن يتولوا أمورا عسكرية في البلاد • وقال ان أولئك الأتراك يأتون من اسطانبول وغيرها في أعداد صغيرة أو كبيرة حسب الحاجة • ولهم فرص مفتوحة أمامهم وهي أن أقل جندي فيهم له نفس الحظ الذي لأعلى

فرد في الجيش ليصبح داي الجزائر • ولاحظ أن منصب الداي انتخابي ولكنه لا يخضع لكبر السن ولا للرتبة ولكن لانتخاب الجيش له وذلك عن طريق ممثلي هذا الجيش في الديوان ، بواسطة الاقتراع ، وأحيانا عن طريق المناداة برفع الأيدي •

ونود أن نضيف الى ذلك الاشارة الى وثيقتين تتعلقان بالعلاقات بين الجزائر وأمريكا أوائل القرن التاسع عشر ، وأولى الوثيقتين رسالة بعث بها الرئيس الأمريكي ، توماس جيفرسون ، الى الداي مصطفى باشا بتاريخ 16 يوليو 1803 • وتحتوي الرسالة على خبر تعيين القنصل لير في الجزائر وكذلك تعيين جيمس كاثكارت J. Cathcart وعن تدخل الباشا لدى والي طرابلس لصالح أمريكا ، وعن الصداقة المتبادلة بين البلدين (الجزائر وأمريكا) التي أبداها الباشا في الرسالة التي بعث بها مع القنصل أوبراين O'Brian الى الرئيس الأمريكي والمؤرخة في 17 أكتوبر سنة 1802 •

أما الوثيقة الثانية فهي عبارة عن رسالة من القنصل لير الى كاتب الدولة الأمريكي للخارجية عندئذ (1804) ، السيد جيمس ماديسون • وتاريخ هذه الرسالة هو أول يناير الى 17 فبراير سنة 1804 • وقد بعث بها من الجزائر • وتحتوي أيضا على يوميات لير نفسه Diary في الجزائر والحوادث التي سجلها هناك خلال الفترة المذكورة خصوصا العلاقات الجزائرية ـ الأمريكية والعلاقات المتوترة بين الجزائر وبريطانيا ، والتجارة الجزائرية مع الدول الأوروبية ، ونشاط المرسى ، الخ • وتبلغ أوراق هذه الوثيقة 36 (ست وثلاثون) صفحة (11) •

10 ـ أنظر (أوراق لير) بتاريخ 16 يوليو ، 1803 ، في نفس المصدر •

11 ـ أنظر (أوراق لير) بتاريخ أول يناير الى 17 أكتوبر 1804 ، في نفس المصدر •

مــن أخبــار شــعبان باشــا
داى الجزائر ، 1695
في كتاب (الشهب المحرقة) لبرناز

قليلة هي الأخبار التي تتحدث عن سير حكام الجزائر خلال العهد العثماني ، وقليل هم أولئك الحكام الذين ظفروا بعناية الكتاب المعاصرين لهم فخلدوهم في كتاب أو في قصيدة • ولولا الأخبار التي وردت عن خير الدين وأخيه عروج في كتاب (الغزوات) لما عرفنا عنهما الا أسماءهما، ولولا عمل محمد بن ميمون المسمى (التحفة المرضية) لما عرفنا عن محمد بكتاش الا اسمه ، وهكذا يقال عن البقية • وقد كتبت السطور وحتى الصفحات عن بعض أولئك الحكام في كتب المعاصرين ولكنها لم تصل الينا • ومما وصل الينا من ذلك ما سجله أحمد بن مصطفى برناز (1) عن شعبان باشا ، داي الجزائر (2) •

كان شعبان باشا من أبرز الدايات الذين بدأعهدهم سنة 1082(1671) بعد اضطرابات تميز بها عهد الأغوات • تولى هو الحكم سنة 1100 ، وبقي فيه ست سنوات • وكان شعبان من رياس البحر ومن كبار

1 ــ عن أحمد برناز أنظر أحمد بن عبد السلام (المؤرخون التونسيون من القرن 17 الى 19) ، وهو كتاب بالفرنسية صدر في تونس سنة 1973 ، وقد حلل فيه المؤلف كتاب (الشهب المحرقة) ، الذي أخذنا منه النص الذي نحن بصدده ، أنظر بالخصوص **صفحات 183 ــ 192** . **أنظر** عن برناز أيضا محمد محفوظ (تراجم المؤلفين **التونسيين) ج 1 ، بيروت ، 1982** ، ص 122 ، وكذلك حسين خوجة (ذيل بشائر أهل الايمان) تحقيق الطاهر العموري ، الدار العربية للكتاب ، 1975 ، ص 230 ــ 234 .

2 ــ عن شعبان باشا أنظر عبد الرحمن الجيلالي (تأريخ الجزائر العام) ج 3 / 200 ــ 202 ، وكذلك مبارك الميلي (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) ج 3 / 194 ــ 198 . وانتهى عهده بالقتل خنقا سنة 1106 بعد ثورة الجند عليه . أنظر أيضا كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 ، ص 425 ، هامش 47 . وفي كتاب (الجزائر وأوروبا) الذي ترجمناه وقدمناه للطبع أخبار هامة عنه .

المحاربين . ولكن حظه جاء به في عهد كانت فيه الأحوال بتونس غير مستقرة كما كان سلطان فاس طامعا في بعض أجزاء الجزائر ، فكانت حكومة شعبان باشا تتدخل في شؤون تونس لتأييد باي ضد آخر كما كانت ترد غارات سلطان فاس . من ذلك أن حكومة الجزائر هي التي ساعدت على تنصيب محمد باي (3) ، ثم ساندت منافسه أحمد بن يونس ولكن الأمور لم تستقر لهذا أيضا . وكان السلطان اسماعيل بفاس يتآمر مع محمد باي من جهة ومع خصوم شعبان في الجزائر من جهة أخرى ، غير أن الداي تمكن من القضاء على خصومه في الداخل ومن ايقاع الهزيمة النكراء بالسلطان اسماعيل اذ رده على أعقابه حتى أدخله عاصمته (فاس) ، ثم التفت من جديد الى تونس ولكن الجنود ملوا الحرب بعد خوضها ثلاث سنوات فتمردوا عليه وسجنوه ، ولكن خليفته ، أحمد باشا ، حكم بقتله في سجنه خنقا .

وما نذكره فيما يلي عن شعبان باشا ليس كتابة رسمية من أحد المعجبين به كما كان يفعل كتاب البلاطات ، ولكنه «اخبار» متفرقة سجلها أحد الساخطين على الداي من معاصريه ، ونعني به أحمد برناز . ان هذه الأخبار المتفرقة التي عاش بعضها الشيخ برناز بنفسه وجمع بعضها الآخر من أفواه المعاصرين والمخالطين للباشا هي في الواقع أخبار هامة وان بدت جزئية ومرتبطة الى حد ما بقصة صوفية . فهي أخبار تقدم لنا الباشا على حقيقته في علاقته بالجند وعلاقته بالناس ، في شكله الخير وفي شكله الشرير ، في جانبه المحارب وفي جانبه المسالم ، ومن ثمة تقدم لنا مسألة الحكم في الجزائر العثمانية والأخطار التي يواجهها الحاكم سواء داخل حدوده أو خارجها . ويبدو أن شعبان باشا كانت له طموحات عريضة في توسيع نفوذه وتثبيت نظامه ، نظام الدايات ، الذي تعلو فيه كلمة الداي على كلمة الباشا ، أي كلمة الحاكم الفعلي محليا ، بدل كلمة الحاكم الرمزي الذي يمثل السلطان العثماني . وقد استطاع شعبان باشا أن يقهر سلطان فاس وأن يدخل عاصمة باي

3 ـ عن محمد باي انظر أحمد بن أبي الضياف (اتحاف أهل الزمان) ج 2 ، وبعد خلافات مع منافسيه من عائلته استقر له الحكم الذي بقي فيه من 1096 الى 1108 .

تونس ، ولكن جنوده هم الذين خذلوه ، ربما بتحريض من أعدائه بالخارج وأيضا من ممثل السلطان العثماني الذي كان يحس بدوره في تضاؤل •

ان عاطفة أحمد برناز كانت ، بكل وضوح ، ضد شعبان باشا • فهو بالنسبة اليه يستحق ما حدث له من متاعب ومن نهاية مأساوية لأنه غزا تونس وروع أهلها ونحى بايها ووضع مكانه منافسه ، ورجع من تونس محملا بأموال طائلة وغنائم كثيرة • ثم أن الشيخ برناز من كراغلة تونس الذين أصبحوا ينظرون الى تدخل باشا الجزائر على أنه عرقلة لمسيرتهم في الاندماج بالمجتمع التونسي الحضري ، وهي الخطوة التي عجز كراغلة الجزائر على تحقيقها • ومن جهة أخرى كان برناز قد زار مدينة الجزائر والتقى بشعبان باشا وحادثه في داره ، ويبدو أنه لم يكن من المعجبين به لأسباب لا نعلمها وان كان كلامه يوحي بأن الباشا كان بخيلا منقبضا لا يقبل على العلماء أمثال هذا الشيخ المغترب •

وهناك ناحية أخرى نرى الشيخ برناز يؤاخذ عليها شعبان باشا ، وهي موقفه من الشيخ علي عزوز (4) • وقصة الشيخ علي عزوز هذا يختلط فيها الحق والباطل ، العلم والدروشة ، الدبلوماسية والكرامة الصوفية • فالرجل (علي عزوز) شخصية من أغرب شخصيات العصر • ولد في فاس ونشأ بها وأخذ عن علمائها ، ثم توجه الى المشرق فحج وطاف ، وأخيرا استقر به المطاف في تونس • فهل جاءها مبعوثا خاصا (جاسوسا بلغة اليوم) لسلطان فاس ، مكلفا بزعزعة العلاقات الجزائرية التونسية لصالح سيده بفاس ؟ ان الدور الذي كان يقوم به لا ينفي ذلك ، سيما في أيام شعبان باشا • ومهما كان الأمر فان بايات تونس كانوا يستعملونه لأغراضهم السياسية رغم ادعائه هو بأنه رجل دين وزهد وتصوف • وقد كانت معاملة شعبان باشا لعلي عزوز عندما جاءه

4 — عن علي عزوز أنظر (الشهب المحرقة) الذي نحن بصدده ، وكذلك تأليف قاسم بن محمد ساسي البوني الجزائري عنه ، وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية ، رقم 3090 . وكذلك كناش الطواحني بنفس المكتبة ، رقم 18293 ورقم 18500 ، وقد توفي علي عزوز بزغوان سنة 1122 هـ ، وعنه أيضا أنظر حسين خوجة (ذيل بشائر أهل الايمان) تحقيق الطاهر العموري ، الدار العربية للكتاب ، 1975 ، ص 287 — 302 •

مبعوثا من تونس هي السبب الظاهر في نقمة أحمد برناز على الباشا . ذلك أن برناز كان يرى في الشيخ علي عزوز رجل بركة وأسرار صوفية بينما كان الباشا يرى فيه ، على ما يظهر ، رجل دهاء وسياسة ؛ ولذلك عامله بما لم يرض به الشيخ برناز .

ومهما كان الأمر ، فان الشيخ علي عزوز اختار اقامته في زغوان (تونس) ، وأخذ أمره يشتهر بين الناس على أنه من أصحاب الكرامات وخوارق العادات . وبالطبع لفتت شهرته هذه اليه أنظار بايات تونس الذين كانوا يخشون أمثاله فأخذوا يعملون على استمالته اليهم والاستفادة منه . وكان ذلك هو شأن أمراء الوقت مع رجال التصوف البارزين أو الخطرين . وقد أنشأ علي عزوز له زاوية معتبرة أصبحت مزار العشرات من الناس مريدين وأتباعا ، فقراء وغرباء ، وكان بعض الأمراء هم الذين ساهموا في بناء هذه الزاوية ورصدوا لها أوقافا وهدايا . وواضح من القصة التي ساقها أحمد برناز عن علاقة شعبان باشا بعلي عزوز أن هذا جاء مبعوثا من باي تونس للتوصل الى الصلح ولكن الباشا الذي عرف عدم وفاء محمد باي رفض الصلح واختار الحرب فسلط عليه علي عزوز « كرامته » حتى تمرد الجند واعتقلوا الباشا ورموا به في السجن ، وبذلك بطل مشروع الحرب وتحققت كرامة الشيخ بمصالحة خليفة شعبان باشا مع باي تونس . ولا شك أن برناز ، الذي كان هو أيضا متورطا في السياسة بتونس حتى قضت عليه (5) ، لا تخفى عليه هذه الأمور ، ولكنه كان عاطفيا ومصلحيا فصدق الرواية التي رويت له عن نجاح كرامة الشيخ مع شعبان باشا .

* * *

وجدنا النص التالي في كتاب الشيخ أحمد برناز الذي سماه (الشهب المحرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة) والذي ألفه سنة 1124 ، أي انه روى فيه أخبار شعبان باشا بعد ثماني عشرة سنة من

---

5 ـ ولد أحمد برناز في تونس حوالي سنة 1074 (1664) من أسرة تركية الأصل ، وتوفي مقتولا سنة 1138 (1726) متورطا في الشؤون السياسية ، أو هكذا اتهمه الباي الذي حكم بقتله خنقا (بالصدفة هي نفس الطريقة التي مات بها شعبان باشا) ، وقد طاف برناز . بلدان المشرق والجزائر فزار منها بالخصوص مدن عنابة وقسنطينة والعاصمة وزواوة .

وفاته ، وقبل وفاته هو (برناز) بحوالي أربع عشرة سنة • ورغم أن الشيخ برناز ألف عدة كتب الا أن (الشهب) من أهمها لأنه كتاب ضم معلومات جيدة عن أهل العصر الذي عاشه ، ومنها المعلومات التي ساقها عن شعبان باشا وعلي عزوز • وقد رأينا نقل هذا النص للضوء الذي يلقيه على حياة هذا الباشا المغمور وعلى العلاقات بين الجزائر وتونس في آخر القرن السابع عشر الميلادي وعلى عقائد الناس عندئذ في الخلط بين السياسة والتصوف • فالشيخ برناز كان من المدافعين عن « ولاية » الشيخ عزوز ، وهو يقول عنه « ان جل أهل افريقية (يقصد تونس) وأقليم المغرب على جلالة الشيخ المذكور والشهادة له بالولاية والورع ، بل وأهل مصر • وحج وبلغ خبره أهل الحرمين وممالك العرب كلها » ، الى أن يقول : « ويكفي في ولايته ما وقع له مع شعبان ، حاكم الجزائر الخ • »

عثرنا على النص في مخطوطة (الشهب المحرقة) الموجودة بالمكتبة الوطنية التونسية أثناء زيارة لهذه المكتبة في أكتوبر 1983 • وقد صورته عندئذ عن الأصل ثم راجعته فوجدته مفيدا في نظري لقراء التاريخ الجزائري في العهد العثماني ، فنظمته على فقرات وعلقت عليه بما رأيته مناسبا وقدمت اليه بهذه المقدمة • وحياة المؤلف (أحمد برناز) مبسوطة في كتب التراجم التونسية ، ولا سيما الكتابان المتأخران اللذان أشرنا اليهما في هامش هذا التقديم ، ولذلك لا نشعر بالحاجة الى سرد ترجمته هنا • أما النص فهو مكتوب بخط جيد في النسخة التي صورناه منها (6) • ولغة الشيخ برناز مقبولة وان كانت لغة من هو دخيل على الأسلوب العربي أو على الأقل كانت تغلب عليه اللغة الأعجمية فيما يظهر من تعابيره ، وكذلك كانت تغلب عليه الدارجة •

وخلاصة الخبر الذي ساقه برناز في النص هي :

1 ــ اثبات ولاية (أو كرامة) الشيخ علي عزوز وذلك بانتصاره على شعبان باشا داي الجزائر ، واجراء الصلح مع خلفه ، باسم باي تونس •

---

6 ــ صورناه من النسخة رقم 18584 ، وتوجد منه نسخة أخرى برقم 5849 اطلعنا عليها بالمكتبة ولكننا فضلنا خط الأولى •

2 ـ وصف الباشا بأنه كان ظلوما للناس ومع ذلك كان يكثر من قراءة القرآن ، حتى أن المصحف لا يكاد يفارق يده ، وأنه كان متواضعا في معيشته ، وكان آمنا في داره فلا يوجد عند بابه سوى شيخ نصراني يقضي حوائجه ويخبره بالقادم اليه ، وكان الباشا قد حفر قبره أثناء حكمه ، وكان كثير البكاء وكثير الصدقات على الفقراء • ولكنه ، مع ذلك ، كان جماعا للمال ينشده حيث وجده حتى لقد قال للمؤلف : لو كان البحر مالا لأدخله في بطنه وما شبع • ومن كثرة حبه للمال كان يفتش ملابس الفقراء بعد أن يكسوهم ثيابا جديدة ، كما فتش عنه آناسا صادرهم وقيدهم ، وقد أهان بعض علماء قسنطينة وأخذ المال منهم • وعندما « دارت عليه الدوائر » وحمله الجنود الى السجن كان يسلم على الناس الواقفين على جانبي الطريق ويقول : السلام عليكم ، ويده على صدره •

3 ـ ذكر الحروب التي شنها الباشا ضد محمد باي بتونس وعيثه فيها فسادا وأخذه أموالها وقتله أهلها ، ورفضه الصلح مع محمد باي رغم أن هذا أرسل اليه وفدا من العلماء على رأسه الشيخ علي عزوز •

4 ـ وصف سجن مدينة الجزائر (سركاجي) والقنديل الخافت الذي جعله الحكام السابقون ليضيء ، ولو قليلا ، على المساجين والذي حكم الباشا باطفائه ، وعندما أصبح الباشا نفسه سجينا وأحس بالظلام الدامس طلب القنديل فأخبره الحارس (الذي لا يعرف أنه هو الباشا) بأن الحاكم هو الذي أمر باطفائه ولا يمكن عصيان أوامره ؛ فما كان من الباشا الا أن اشترى خمس شمعات يقرأ عليها القرآن في سجنه •

5 ـ وقوع التمرد ضده من العسكر بزعامة محمود خوجة ، محاولة قتل الباشا وهو في صلاة الجمعة بالرصاص ثم بالشاقور ، هروب الباشا من المسجد دون اتمام الصلاة • مناقشته مع زعيم المتمردين عن سبب محاولة قتله فأخبره هذا بأن ظلمه للناس هو الدافع • وسأله عمن كان متمردا معه فلم يجبه فحكم بقتله • وكتابة الباشا رسالة الى المتمردين ضده كما أرسل اليهم وفدا فيه بعض رجال الدين وممثل السلطان • حلفه بالايمان المغلظة ، وهو كاذب ، بأنه لم يأمر بالتوجه الى تونس من جديد • فشل الوفادة مع المتمردين • وتحالف العسكر ضده سواء

من كان داخل العاصمة أو خارجها • اتفاقهم على خلعه وسجنه وذلك يوم الجمعة ، ولكن صلاة الجمعة لم تؤد ذلك اليوم •

6 ـ أما مصير الباشا فانه بعد مكثه في السجن خمسة عشر يوما وضربه بالسياط حتى تمزقت ثيابه ، ومطالبته باعادة الأموال ، تحايل عليهم بأن يطلقوا سراحه ويذهبوا به مع عائلته الى مكان يختاره وعندما يصل اليه يخبرهم عن مخبأ المال ، فأذعنوا اليه ، ولكن الباشا الذي تولى بعده عرف الأمر فأسرع بخنقه في السجن ، وبذلك ضاع المال ولم يعرف أحد موقعه • اهانة جثة الباشا بالبصق عليها ونتف لحيته وطعنها بالسكين • ثم حملت جثته ودفنت في القبر الذي أعده لنفسه وذلك في ضريح الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري •

* * *

هذه اذن هي خلاصة الأفكار التي جاءت في كتاب (الشهب المحرقة) عن شعبان باشا ، داي الجزائر ، وهي أيضا الصورة السوداء التي أراد أحمد برناز توصيلها الى القراء عن هذا الباشا سيء الحظ • ولكننا في الواقع لم نصدم بهذه الصورة لأننا تعودنا على معرفتها عند قراءتنا عن العهد العثماني في الجزائر ، ذلك أن معظم الباشوات (الحكام) قد ساروا في نفس الطريق : الاستيلاء على السلطة بالعنف وظلم الناس وجمع المال والقيام بمغامرات والتظاهر بالتدين ، ثم السقوط بنفس الطريقة وهي العنف والنهاية الدموية التي لا يراعي فيها أخلاق الأحياء ولا حرمة الأموات • وما القصص الصغيرة التي ساقها أحمد برناز ـ رغم أن أهدافه هو منها غير واضحة ـ الا تأكيدا لما عرفناه عن حكام هذا العهد •

الجزائر ، 13 مايو ، 1984 •

النص من كتاب الشهب المحرقة

مع أن جل أهل افريقية (7) وأقليم المغرب على جلالة الشيخ المذكور (8) والشهادة له بالولاية والورع ، بل وأهل مصر . وحج وبلغ خبره أهل الحرمين ومماليك العرب كلها .

ويكفي في ولايته ما وقع له مع شعبان (9) حاكم الجزاير ، حين وجهه الأمير المرحوم محمد باي (10) من تونس ليصالح بينه وبينه ، ووجه معه الشيخ الامام أبا الغيث البكري (11) امام جامع الزيتونة المتقدم ذكره (المتوفي ليلة الخميس نصف الليل الثانية عشر من ربيع الأول ، ودفن من الغد بين الظهرين بتربة آبايه بزاويتهم المشهورة بهم ، سنة عشر وماية وألف) (12) ووجه معه أيضا شيخنا المتقدم الذكر أبا عبد الله محمد فتاتة (13) ، وغيرهم . ووجههم في البحر في سفينة . فأهانهم شعبان المذكور وأخذ سفينتهم ووكل بهم من يمنع دخول الناس وخروجهم عليهم ودخولهم هم أيضا وخروجهم .

---

7 ـ يقصد أهل تونس .

8 ـ يشير الى الشيخ علي عزوز الفاسي ، انظر هامش رقم 4 .

9 ـ من أبرز دايات الجزائر . أنظر هامش رقم 2 ، وكذلك المدخل كله .

10 ـ تولى السلطة في تونس بمساعدة حكومة الجزائر ولكنه انتقض عليها فحاربته وولت منافسه . وعاطفة المؤلف مع محمد باي . أنظر الهامش رقم 3 .

11 ـ توفي سنة 1110 هـ . ويبدو انه من عائلة محمد تاج العارفين البكري العثماني التي توارثت امامة جامع الزيتونة مدة طويلة . ولم نقف على ترجمة له ، وليس لدينا كتاب (الشهب المحرقة) لاستقصاء أخباره فيه .

12 ـ القوسان من اضافتنا ، وكذلك الحال في كل النص .

13 ـ ترجمته في كتاب (عنوان الأريب) لمحمد النيفر ، تونس ، 1351 ، ج 2 ، ص 4 ، وقد تولى عدة وظائف سامية منها الفتوى المالكية ، بتونس سنة 1115 هـ أنظر : كذلك (ذيل بشائر أهل الايمان) لحسين خوجة ، تحقيق الطاهر العمودي ، ص 198 .

وقال للشيخ (14) علي عزوز : اذهب أنت في البر ان شئت وأما هؤلاء فهم وعون من الذهاب • فقال له : لا أذهب الا بأصحابي وفي سفينتي ، وستر (كذا) العجب ، لأنه لم يلتفت الى الصلح ولم يرض به وعزم على التوجه الى تونس ثانيا مجردا للفتنة ، وقال (15) له : لم أعتبر قولك هذا لأن الشيخ المصطاري (16) قال لي تمكث عشرة أعوام في الامارة •

فلم يعبأ بقوله وأمر العسكر بالتوجه الى المملكة الافريقية (18) وهو يخرج بعدهم • فكان من قدر الله أن امتنعوا عليه وقتلوه وهي واقعة مشهورة (19) • وصالح الشيخ المذكور من تولى (20) الامارة بعد شعبان المذكور ، ورجع بأصحابه وسفينته ، كما قال ، وذلك مشهور •

وكانت هذه الحكاية في آخر شهر ذي الحجة الحرام سنة (كذا) ومماية وألف (21) •

* * *

14 – في الأصل (وقال الشيخ) فأضفنا حرف الجر ليستقيم المعنى •

15 – أي قال شعبان للشيخ علي عزوز •

16 – أورد حسين خوجة للشيخ محمد المصطاري ترجمة في كتابه (ذيل بشائر أهل الايمان) تحقيق الطاهر العموري ، ص 217 ، وكان الشيخ المصطاري ، كالشيخ عزوز ، من المغرب الأقصى كما كان مثله من أهل الولاية والصلاح أيضا ، وتوفي سنة 1103 بمكة المكرمة •

17 – فعلا قضى شعبان باشا في الحكم ستة أعوام (1100–1106) ، وهذا هو محل السر والكرامة في نظر المؤلف •

18 – يعني بلاد تونس •

19 – يعود أصل الواقعة الى نقص المال المدفوع للجند والى طول أمد الحرب وليس الى كرامة الشيخ علي عزوز كما تخيل المؤلف •

20 – تولى بعده الاسكافي الهرم أحمد باشا ، وبقي في السلطة أربع سنوات ، وأيضا فان قبول الباشا الجديد للصلح يعود الى مقتضيات « سياسية » وعسكرية وليس الى كرامة الشيخ عزوز •

21 – يشير بكلمة «حكاية» الى نهاية شعبان باشا وقبول خلفه الصلح مع تونس ، وهو الصلح الذي عرضه وفد تونس •

وسأذكر لك غريبة وقعت من شعبان المذكور ، وشعبان المذكور هذا هو المراد فيما تقدم من قصيدة أهل تلمسان ، يقول ناظمها (22) ، رحمه‌الله تعالى :

ومن معه في ربقة الأسر لم يروا (كذا)رمضان‌ثم وشعبانا حميدا سوا

فما قام من شعبان شعبان ليلة ولا صام في الاسلام رمضان رمضانا

ثم ان شعبان هذا كان أهل الجزاير يزعمون أنه رجل مليح ولذلك أولوه حاكما عليهم (23) ، وكان في أيام دولته مهما قعد في دار السلطان للحكم لم يدع المصحف من يده وغالب تفرغه يقرأ القرآن ويصوم الاثنين والخميس وبصوم الثلاثة أشهر والأيام البيض ، ورأيته أنا مرة في داره وفي رجله نعل عتيق ، وهو حاكم ، وليس بباب داره حاجب ولا بواب ما عدا نصرانيا (24) أشيب واقفا في الباب لقضاء حاجة داره واعلامه بمن يجيء الى بابه . وكلما وردت عليه حكومة (25) وكان المصحف في يده لم يضعه من يده ، ويفصل تلك الدعاوي والمصحف في يده ، ثم يرجع لقراءة القرآن . ولعمر الله يصدق عليه قول الشاعر :

ما راينا كأمير ظلم الناس وسبح

فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح

فانه رجل ظلوم في أخذ أموال الناس بالباطل غاية وقتل الرقاب .

---

22 ـ لم نعرف شيئا عن ناظم هذه القصيدة الذي يبدو أنه قالها أثناء محنة الكراغلة بتلمسان ، ويؤسفنا أننا لا نملك نسخة كاملة من (الشهب المحرقة) لمراجعة مايشير اليه المؤلف من عبارة « فيما تقدم » ومعرفة المناسبة التي قيلت فيها .

23 ـ عبارة «أهل الجزائر» و «أولوه عليهم» توحى بأن أهل البلاد هم الذين كانوا يولون ويعزلون الحكام ، وهو أمر غير وارد ، لأن الأهالي لا دخل لهم في الموضوع وانما الذي يولى ويعزل الحكام هم العسكر سواء كانوا من طائفة الرياس أو من الانكشارية .

24 ـ كان أرباب السلطة والأعيان يستعملون الارقاء المسيحيين في خدمتهم ريثما يتم افتداؤهم ، ولعل هذا هو المقصود من عبارة «نصراني» التي أوردها المؤلف . وهل كان الباشا ـ وأمثاله ـ لا يثقون في غير النصارى حراسا عليهم ؟ ان تفضيل « الأجانب » ما زال شائعة عندنا الى اليوم !

25 ـ يقصد قضية أو نازلة .

وقبل توجهه الى تونس أول مرة كان قد حفر قبره في تربة الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله الجزايري (26) صاحب القصيدة الجزائرية التي شرحها الشيخ سيدي محمد السنوسي (27) ، نفعنا الله به ، وكان ذلك اليوم يبكي وتصدق بصدقات • ثم بعدها توجه لقتال محمد باي بتونس وعاث فيها بأخذ الأموال وقتل الرقاب حتى كان شؤمه سببا في قتل شيخنا العلامة مصطفى بن عبد الكريم التونسي الحنفي (28) ، رحمه الله ، وكان سابقا مفتيا بتونس •

والغريبة المذكورة التي وقعت من شعبان المذكور وقعت عليه أيضا • ومكتوب في الزبور : يا ابن آدم كما تدين تدان وكما تزرع تحصد وكما تعمل تجز (كذا)، وهي أن سجن أهل الجزاير محل مظلم فيغاية الظلمة ومحل حصين ، ولم تكفهم حصانته حتى أنهم من سجنوه فيه زادوه مع السجن القيد الحديد في رجله ، لكنهم لظلمة المحل جعل أواياهم (29) مصباحا يقد في ذلك السجن ليلا ونهارا • فلما تولى شعبان هذا امارتهم قال : المقصود من سجن الانسان تهويله والتضييق عليه وهذا السراج يضيء عليهم (30) ليلا ونهارا فلم يقع لهم معه ضيق فأبطله ليلا ونهارا ، وبقي مع ذلك مدة مدته •

فلما كان من قدر الله ما كان وقام عليه عسكره أدخلوه أولا ذلك السجن فرءاه محلا مظلما هايلا فقام ونادا (كذا) بنفسه الموكل بذلك

---

26 ـ من علماء مدينة الجزائر في القرن التاسع الهجري (15 م) ، وكان من أهل التصوف أيضا • أنظر عنه كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 ، الجزائر ، الفصل الأول ، وكان لضريحه قبة يختارها بعض مشاهير الجزائر مدفنا لهم ، وللشيخ الجزائري « منظومة » مشهورة بين علماء العصر العثماني تسمى أحيانا بـ « الجزائرية » فقط وهي في علم الكلام (التوحيد) وقد قام بشرحها عدد من العلماء وتدارسها الطلاب في المؤسسات العلمية الى وقت قريب •

27 ـ هو محمد بن يوسف السنوسي ، دفين تلمسان ، من علماء الجزائر خلال القرن التاسع الهجري (15م) أنظر عنه كتابنا السابق ـ هامش 26 ـ وله مؤلفات عديدة أشهرها ما كان في التوحيد ـ العقائد ـ •

28 ـ مات مقتولا سنة 1106 هـ (1694) ، وتولى الفتوى الحنفية بعض الوقت • وكان غير فصيح بالعربية وكانت التركية تتغلب عليه أحيانا • أنظر عنه أحمد بن عبد السلام (المؤرخون التونسيون) ، ص 38 •

29 ـ يقصد الأوائل من أهل الجزائر •

30 ـ يشير الى المساجين •

السجن وقال له : المحل مظلم ، ايتنا بمصباح يضيء علينا . فقال الوكيل : اعلم أنه كان في هذا السجن من أول الزمان الى آخره مصباح يقد ليلا ونهارا ليتأنس به المحبوسون ، الى أن تولى أميرا على الجزاير رجل يقال له شعبان افاندى فقونن فيها قوانين غير الأولى وخرق فيها عوايد وبدل وغير واستقر الأمر عليها ، ولم يخالفه فيها أحد ، ومن جملتها أن قال في أهل هذا السجن ما قال ، وأمر بازالة هذا المصباح . ونحن الآن لا نخالف في شيء مما قونه ولا نرد شيئا أمر بازالته شعبان أفاندي المذكور . وانصرف عنه وتركه . فاذا أدخل يده في جيبه وأخرج منه (....) (31) دراهم وبعث به الى السوق واشترا (كذا) به شمعا وكان يقعد (كذا) بين يديه منه خمس شمعات بين الليل والنهار وهو يقرأ القرآن .

وبقي في سجنه هذا ما يقرب من خمسة عشر يوما ، وضربوه السياط مرتين يطلبون منه المال ، فقال لهم في المرة الثانية ، بعد أن تقطعت ثيابه من الضرب : لست أهلا لأن أضرب ، ولكن ايتوني بوتد انجره بيدي وأقعد عليه ، ولو فعلتم ذلك لما أريتكم من مالي شيئا لأنني كلما دفعت لكم من المال لم تكتفوا به وآخر الأمر تقتلوني (كذا) واذا مت أنا فبماذا يتخلص عيالي من أيديكم ؟ ولكن ان أردتم المال فأعطوني الأمان وأركبوني سفينة أنا وعيالي فاذا وصلت الى محل كذا أخبرتكم أن في المحل الفلاني من المال كذا وفي المحل الفلاني من المال كذا فخذوه .

وقد حكى أول هذه الحكاية ، وهي السراج ، من كان معه من خواص دولته فى السجن (32) وهو رجل مشهور بين أتراك الجزائر يقال له صاغر أحمد ، وهي لفظة تركية (33) معناها الاطروش ، وبعضها (34) من الفقيه

31 — ما بين القوسين كلمة مطموسة لم نستطع قراءتها في الصورة التي أخذناها من المخطوط . وبقية الجملة سقيمة التركيب ولكننا حافظنا عليها كما هي .

32 — هذا دليل على أن التمرد لم يكن ضد الباشا فقط وانما شمل أيضا رجال حكومته والمقربين اليه .

33 — يشير الى كلمة (صاغر) التي ترجمها بالاطروش (كذا) . ولا نعرف شيئا عن دور أحمد صاغر هذا عندئذ .

34 — يشير الى أن حكاية السراج التي وقعت لشعبان باشا في السجن روى جزءا منها أحمد صاغر الذي كان معه وروى الجزء الآخر منها أبو عبد الله محمد الساكوتي .

أخينا العلامة أبي عبد (35) محمد الساكوتي الجزايري وقال لي : لما أرادوا قتله ، وكان قد تكلم مع بعض العسكر بالمال ، وأرادوا القيام له ثانيا (36) ، فبلغ ذلك الحاكم المتولي بعده ليلا ، فبعث خنقه فى تلك الساعة ، ولم يقرب شيء من ماله وذهب الى الآن (37) • قال لي (38):لما أرادوا قتله أختلط ، وكان لا يدري ما يقول ، ولم تظهر عند موته شجاعته التي كان عليها فى حال حياته ، وأصبحوه ميتا فى ضريح ولي عندهم هناك (39) • فلما طلع النهار تسامع الناس وتوجهوا نحوه ينظروه (كذا) فبعض الأتراك بصق عليه ، وبعضهم نتف شيئا من لحيته ، وبعضهم ضربه بسكينة أدخلها في لحمه ، فبلغ ذلك حاكمهم فبعث وأمر باقامته (40)من هناك ودفنه ، فدفن فى قبره الذي كان اتخذه لنفسه •

وله مثالب فى جمع الدنيا لم يرض بها غيره منها أنني سمعت منه مشافهة أنه قال : لو وضعوا ذلك البحر فى بطني (يعني وكان مالا) لم أشبع • ومنها انه بعث يوما واشترا (كذا) ثيابا كثيرة قريبة الثمن وأظهر أنه يريد أن يكسوها الفقراء الشحاذين ، وبعث في طلبهم يجمع منهم جماعة فخلع ما عليهم من ثيابهم وكساهم الجديدة • فلما أرادوا حمل العتيقة منعهم منها وفتشها بيده فوجد في بعضها دراهم وفي بعضها لم يجد شيئا ، على ما سمعت ، ولم أحضر لهذه •

---

35 — كذا (عبد محمد) ، ويبدو أن الناسخ نسي كلمة (الله) ، والصواب في نظرنا قراءة النص هكذا : «العلامة أبي عبد الله محمد الخ . » ولا نعرف عن حياة الساكوتي الآن شيئا ، ولم يذكر المؤلف هل حادثه الساكوتي عن ذلك في الجزائر أو في تونس .

36 — يبدو من التعبير أن الباشا قد أثر على الجنود بحديثه لهم عن المال حتى أنهم عزموا على طاعته من جديد واعادته الى الحكم .

37 — يعني أن المال ضاع ولم يعثر عليه بسبب اسراع الباشا الجديد بقتل شعبان .

38 — أي أخبره الشيخ الساكوتي .

39 — أي وجده الناس صباحا مقتولا في ضريح أحد الأولياء .

40 — أي أمر الباشا الجديد برفع جثمان شعبان من ذلك المكان ودفنه في القبر الذي أعده لنفسه في ضريح أحمد بن عبد الله الذي سبق ذكره .

ومنها أنه حبس بعض الناس بقسمطينة وسافر سفره لتونس (41) فتوجه خلفه بعض فقهائها من أبناء الصلاح يساعده على ذلك المحبوس (42) وقال له : يعطيك خمسماية ريال وخل سبيله ، فامتنع . فلما رجع حبس ذلك الفقيه وأخذ منه الخمسماية ريال الذي سماها له على سراح ذلك الشخص ولم يسرحه وقال له : أدفعها لك بعد أن توجه (43) الى الجزائر وتوجه خلفه الشيخ البركة سيدي محمد بن سيدي عبد الكريم الفكون ، بن عم ذلك الفقيه ، امامها وخطيبها وأمير حجها (44) ، متشفعا في ابن عمه المذكور فلم يقبل شفاعته ، فدفعها على ابن عمه من مال نفسه . وكانت آخر مال أخذه من بلد قسنطينة ، وعزل عقيبه ، فكان فى قضية هذا المال كالحجاج في قتله سعيد بن جبير .

ومنها ما حكى لي من أثق به ، وكان حاضرا لأناس أتوه بهم ، فقيدهم فى الحديد وصادرهم بعد أن فتش فى أوساطهم هل عندهم دراهم فوجد فى جيب بعضهم كيسا فيه ما يقرب من خمسة عشر ريالا فأخذها ، ووجد فى وسط بعضهم هميانا فيه دنانير ذهبا فأخذه ، ثم فتش جيبه فوجد فيه ما يقرب من سبعة أرباع الريال بين نواصر وأثمان (45) ، فأخذها ووضعها فى جيبه ، وهو يجابرهم (46) ، ويقول : رحمة ربي ما كان شر ، هذا حال الدنيـــا !

وكان بعد رجوعه من تونس ، من ظلمه ، تحزب عليه بعض خواصه من الأتراك ، ورئيسهم رجل يقال له محمود خوجة كان قد أحسن اليه شعبان غاية ، وأرادوا قتله فى صلاة الجمعة وهو فى المسجد يصلي فى سنة الجمعة

---

41 ـ أي توجه الحملة العسكرية ضد تونس .

42 ـ «المحبوس» الذي يشير اليه سيرد في نفس الفقرة ، واذا كان يشير بـ « بذلك » الى اسم تقدم فليس في هذا النص ، ويقصد بـ « فقهائها » مدينة قسنطينة ، وعبارة « يساعده على ذلك المحبوس » غير واضحة المعنى .

43 ـ كذا ، ولعل المقصود بعد أن أتوجه أو تتوجه .

44 ـ تعرضنا في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 الى نفوذ عائلة الفكون في قسنطينة والى حياة عبد الكريم الفكون ، وحديث المؤلف هنا عن ابنه وابن عمه .

45 ـ النواصر والأثمان أسماء عملة كانت شائعة ولكنها قليلة القيمة .

46 ـ أي يجبر بخاطرهم او يسليهم .

الأولى ، فرموا عليه بندقة ، فلم تخرج وكذبت ، ثم أخرجوا عليه شاقورا فأخذ أيديهم بعض من حضر ، وخرج شعبان من الجامع هاربا بلا نعل ، ولم يصل الجمعة .

ثم انه أحضر محمود المذكور وقال له : ما حملك على هذا وقد احسنت اليك بما بلغ لك؟ فقال له : فعلته أتقرب به الى الله تعالى . فقال له : لماذا ؟ فقال له : لظلمك لعباد الله . فقال له : أخبرني بمن معك وعليك الأمان . فقال له : الكل معي . فقال له : عين لي من هم . فقال له : لا . ولم يخبره فقتله وواحدا معه أو اثنين . وكانت هذه مبدأ تضعضع الأمر عليه .

فبلغني بعد هذه الحكاية أنه كان يضع تلك البندقية والشاقور بازايه ، فكل من جاءه أراه اياهما ثم يقول : اليهود والنصارا (كذا) هل يقتلون أحدا في كنائسهم ؟

ورأيت له ورقة بالتركية كتبها للعسكر الذين كانوا خارج الجزاير(47) الذين كانوا مبدأ القيام منهم عليه واتفقوا على عزنه . وسببه أنه كان قبل كتب لهم أن يتوجهوا الى تونس لمقاتلة محمد باي ثانيا وهو يدركهم بعد ، فامتنعوا من التوجه وقاموا عليه وتحزبوا متوجهين له . كتب لهم هذه الورقة يقول فيها ، بعد انكاره البعوث الأول : وحق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وروحه الشريفة ، والقرآن العظيم ، وحجه وصلاته ، وحياة السلطان العثماني ، اني ما كتبت لكم بالتوجه الى تونس ولا عندي خبر ، وارجعوا وعليكم الأمان التام ، فلم يلتفتوا اليه .

فبعث لهم القاضي أو المفتي المالكي والحنفي وباشت الوقت(48) فلم يعتبروهم وتحزب معهم عدة أتراك كان نفاهم شعبان المذكور من الجزاير ،

47 ـ يعني خارج مدينة الجزائر ، وواضح من الفقرة [illegible]ها أن المؤلف يربط بين التمرد على شعبان باشا وغزوه لتونس .

48 ـ العهد الذي يتحدث عنه المؤلف يعرف في تاريخ الجزائر بعهد الحكم الثنائي : فشعبان كان الحاكم الفعلي ولقبه الداي ، والى جانبه كان هناك باشا يمثل السلطان العثماني ، وهذا الباشا هو الذي يشير اليه المؤلف هنا .

فوجدوا خارجا ، فالتفوا اليهم • وكان الكل عصبة واحدة ، وساعدهم من كان داخل الجزائر من العسكر وخلعوه وفعلوا به ما ذكرنا ، وكان ذلك يوم الجمعة فى وقت الصلاة، ولم تصل الجمعة ذلك اليوم فى الجزاير •

واجتمع العسكر داخلها فى ذلك اليوم ثلاث مرات ثم تفرقوا ، حتى قام تركي منهم ، جندي هو أدناهم ، يقال أن شعبان المذكور كان ضربه خمسماية سوط ، قال لهم : الى متا (كذا) تتجمعون وتتفرقون ؟ أخفتم من هذا ؟ ثم انه توجه نحو كاهية العسكر • وكانوا كلهم وقوفا بباب دار السلطان (49) ، وقال للكاهية قم ونادى (كذا) لنا هذا الرجل يخرج الينا ، فقام الكاهية ودخل عليه فى محل حكمه وقبل يده وقال له : يا أفاندي ! العسكر يدعوك ! فقام وخرج اليهم بلابرنس • فلما وقف بعتبة باب دار السلطان قال ذلك الرجل المذكور للشواش ارفعوا هذا ! فمد يديهم (50) فيه أربعة منهم ، وشالوه بين أيديهم كالعصفور وتوجهوا به الى السجن •

فكان ، على ما بلغني ، ماشيا فى أيديهم فى أثناء الطريق الى السجن بدراعة الانكشارية عندهم المشهورة عندهم بدار سركاجي ، وهي لفظة تركية معناها الخلال ، وهو يسلم على الواقفين يمينا وشمالا ويقول : سلام عليكم ! سلام عليكم ! ويده على صدره • وهذه هي الدايرة عليه ، والعياذ بالله !

من كتاب « الشهب المحرقة » لأحمد برناز
رقم 18584 ـ المكتبة الوطنية ـ تونس

49 ـ اي مقر الحكم او قصر الداي .

50 ـ كلمة شواس مكتوبة في الأصل (شواس) ، وعبارة (فمد يديهم فيه) تركيب سقيم لكنها مفهومة ، وشالوه يعني رفعوه ، والصورة التي رسمها المؤلف لطريقة عزل الداي صورة تكررت كثيرا في العهد العثماني ، وهي تدل على أن الجنود هم الذين كانوا يتصرفون في ادارة الحكم حسب أهوائهم لا حسب قوانين ونظم .

كتاب (فتح الاله) لأبي رأس الناصر

عاش أبو رأس (محمد بن أحمد الناصر) حياة متقلبة ، ولكنها حياة غنية بالتجارب (1) فقد تنقل فى أنحاء القطر الجزائري من غربه الى شرقه وتجول فى المغرب الأقصى وتونس ومصر والحجاز وبلاد الشام كما كرر الحج بفارق زمني بلغ عشرين سنة • وتحدث الى بعض الحكام (الجزائر وتونس والمغرب على الخصوص) ولكنه لم يخالطهم، ومدح بعضهم مديح الطالب للنوال والمعترف بالجميل ، وأرخ لهم متصورا أن النظام بدونهم ينفرط ، شأنه فى ذلك شأن مؤرخي العصر وشعرائه •

على أن ما يميز حياة أبي راس هو الفقر الدنيوي والغناء • لقد ذاق مرارة الجوع وألم اليتم ، ومارس الشحاذة ومشى بين الناس أكثر من عشر سنوات حافي القدمين عاري البدن وغسل ثياب غيره وفلا القمل وسكن فى خيمة شعر، فذاق شظف العيش والجفاف العقلي، ثم سكن بعض الحواضر ، مثل معسكر فشق طريقه وسط مؤامرات علماء ضعاف النفوس يتقاتلون على الفتات وصادف عهد الباي محمد الكبير الذي انتعشت فيه الحياة العلمية فحماه وقربه كما حماه وقربه الشيخ عبد القادر المشرفي الذي اكتشف فيه تلميذا ذكيا له حافظة نادرة وتعطش للعلم •

وقد أكثر أبوراس من التآليف كثرة لا يضاهيه فيها من الجزائريين أحد حسب علمنا باستثناء أحمد البوني الذي تجاوزت تآليفه المئة • وغلب على أبي راس فى تآليفه جميعا طابع العصر (أواخر العهد العثماني) فشرح المتون وحشي الشروح ، بل جعل للمتن الواحد عدة شروح واعتمد على

1 ـ تناولنا حياة وأعمال أبي راس في كتابنا «تاريخ الجزائر الثقافي» وكتابنا « أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر » فليعد اليهما من يريد التوسع .

حفظه فأكثر فى تآليفه من التكرار والاستطراد وذكر الغرائب والعجائب واللطائف تمشيا مع بضاعة العصر من جهة وترويحا على النفس من جهة أخرى • ولم يركز أبو راس جهده الفكري على تخصص معين بل تناول كل التخصصات تقريبا ، فألف كما يشهد كتابه الذي نقدمه للقراء فى التفسير والحديث والفقه والقراءات والأدب واللغة والعقائد والتاريخ ونحوها • فلا غرابة أن يكون أبو راس مؤلفا موسوعيا •

ومن العجب أن مؤلفات أبي راس على كثرتها ما تزال غير مطبوعة بالعربية ، رغم أن الأجانب قد ترجموا بعضها ونشروه • فقد ترجم السيد أرنو كتاب أبي راس « عجائب الأسفار » الى الفرنسية ونشره فصولا في (المجلة الافريقية) ثم نشره على حدة سنة 1885 بالجزائر وترجم له الجنرال فور بيقى كتابه « الحلل السندسية » ونشره بالجزائر سنة 1903 وقام نفس المترجم بعرض مطول للكتاب الذي بين أيدينا ، وهو « فتح الاله » ونشر ذلك فى « المجلة الآسيوية » سنة 1899 • ان عناية الأجانب بآثار أبي راس وعزوف الجزائريين عنها ما هو في الواقع الا جزءا من المرض الذي نعاني منه ، فى ثقافتنا ، وهو بصراحة ضعف حركة التأليف وتسجيل الآثار • وقد حاولنا من جانبنا أن نسد هذا النقص فدرسنا آثار أبي راس الموجودة فى كتابنا « تاريخ الجزائر الثقافي » غير أن عدم نشر هذه الآثار كاملة يظل هو موقع التعجب •

ومن حسن الحظ أن الدكتور محمد بن عبد الكريم قد أقدم على تحقيق أحد مؤلفات أبي راس ، وهو (فتح الاله ومنته فى التحدث بفضل ربى ونعمته) والدكتور ابن عبد الكريم ليس غريبا عن التحقيق ولا عن الثقافة الوطنية ، فهو بثقافته الواسعة وتجاربه فى ميدان تحقيق المخطوطات خير مؤهل للقيام بنشر هذا الأثر العلمي • فقد سبق لابن عبد الكريم أن نشر حوالي عشرة كتب قديمة خلال العشر سنوات الماضية • وتوسع فى معرفة الثقافة فى العهد العثماني بالخصوص أثناء نشره لآثار محمد بن ميمون وأحمد المقري وعبد القادر المشرفي « شيخ أبي راس » ونحوهم • وها هو يضيف الى ذلك (فتح الاله)

لأبي راس • ولعل ابن عبد الكريم قد تأخر فى نشر هذا الأثر الأن أبا راس فى الواقع من أهم مؤلفي العهد العثماني واذا عرفت جميع آثار أبي راس ودرست دراسة علمية فقد تضاهى أو تفوق آثار أحمد المقري أهميـــة •

لقد قلد أبو راس فى (فتح الاله) قدوته عبد الرحمن السيوطي الذي كتب هو أيضا تأليفا يحمل عنوانا شبيها بالعنوان السابق وهو « نزول الرحمة في التحدث بالنعمة » ولكن أبا راس لم يقتد بالسيوطي في كثرة التآليف والحديث عنها فقط ، بل انه اقتدى به في كونه عاش فقيرا مثله ، وفي ابتعاده عن الأمراء أو عن أصحاب السلطة كما تقول اليوم • ولعل عدم التقيد بموضوع واحد والموقف من أهل التصوف يجعل أيضا من المهم المقارنة بين الرجلين فأبو راس موسوعي كما أن السيوطي كذلك ، وكان أبو راس يخلط بين حرفة الفقيه وحرفة المتصوف كما كان السيوطي فقد ألف أبو راس فى أرهاط الجن وقبائلهم وأنسابهم ، وتحدث عن كرامات الأولياء ومن كان منهم يقريء الجن ويرى المنامات العجاب ، رغم أنه كان من أهل الفقه (أهل الدنيا) منتصبا للتدريس ومفتيا فى المذاهب الأربعة ومتصلا بأهل الجاه • ولعل ما يلفت النظر هو انتصار أبي راس لأهل السلطة ضد أهل التصوف عندما قامت الطريقة الدرقاوية بثورتها المعلومة ضد بايات الغرب الجزائري (2) •

ومهما كان الأمر فان (فتح الاله) كتاب يقدم لنا حياة أبي راس نفسه • فهو نوع من السيرة الذاتية ، تحدث فيه المؤلف عن أهله وبيئته وشيوخه وعلومه وأسفاره ومن لقيهم من علماء المغرب والمشرق ، وما سئل عنه من المسائل العلمية واجاباته على ذلك، وأخيرا يذكر مؤلفاته فى كل فرع من فروع المعرفة الشائعة فى وقته • وما دام أبو راس قد ألفه بعد سنة 1233 (وقد توفي هو نفسه 1238 أو 1239) فاننا نحكم أنه قد كتبه فى أخريات أيامه ــ أي بعد أن عاش حوالي ثمانين سنة ــ

---

2 ــ ذكر أبو راس أنه قاطع الشيخ محمد بن أبي طالب في مازونة لما يدعيه من اشارات غيب • وعاب على سيدي الشيخ ، وهو عبد القادر السماحي صاحب الطريقة الشيخية، مكاشفاته له رغم أن السماحي لم يكن معاصرا لأبي راس •

(ولد حوالي 1165) وهذه السن المتقدمة قد تعطينا المفتاح للسبب الذي جعل المؤلف يثرثر بعض الشيء كما أنها تدلنا على أن الكتاب من أواخر ما ألف أبو راس • ولكن الكتاب يكشف عن أمور أخرى أيضا • فهو يحتوي على معلومات هامة عن علماء العصر والعلاقات السياسية بين الدول العربية والمستوى العلمي السائد آنذاك ، وبعض أخبار المذاهب الدينية •

ان دور المحقق لكبير فى هذا الكتاب • فقد اعتمد على ثلاث نسخ من « فتح الاله » وقارن بينها وأكمل بعضها ببعض وحشى على كثير من الاعلام الواردة فى المتن ، وهي كثيرة وشرح العديد من الألفاظ والمعاني ، وأتوقع أن يضع للكتاب فهارس — كما عودنا في الكتب الأخرى التي حققها • وبذلك يكون الدكتور ابن عبد الكريم قد أسدى خدمة جليلة للثقافةالعربية الاسلامية بنشره لهذا المخطوط،كما يكون أنصف أبا راس بتقديم حياته بقلمه الى قراء العربية عموما والجزائريين على الخصوص • ولعل أحدهم يقتدي بابن عبد الكريم فينشر « عجائب الأسفار » و « الحلل السندسية » وغيرهما من آثار أبي راس التي ما تزال ، والحمد لله موجودة وكذلك « الحلل الحريرية » الذي هو شرحه على مقامات الحريري ، وشرحه على قصيدة الصيد للفجيجي ، وشرحه على عقيقة المنداسي الخ ••

ان (فتح الاله) كتاب موجه الى الباحثين والمختصين فى دراسة التراث العربي الاسلامي • فالقاريء العادي سيجد صعوبة لا محالة فى متابعة أخباره وحوادثه • ولكن هذا لا يعفينا من تبعة نشر ذلك التراث (3) •

فالبحث وراء خدمة الثقافة لا يكون دائما من أجل الجيوب والبطون ، ولكن يجب أن يكون ، أحيانا على الأقل ، من أجل انصاف المثقفين الأموات وبعث النخوة والاعتزاز فى المثقفين الأحياء •

الجزائر : 1982/05/29

---

3 — نشرنا لابي راس أيضا رأيه في الحملة الفرنسية على مصر والشام وهو نص استخرجناه من كتابه « الحلل السندسية» في المجلة التاريخية المغربية (تونس) عدد 1 2— 22 ابريل 1981 . انظر ذلك في كتابنا هذا .

كتاب (نصوص ووثائق جزائرية) لعبد الحميد زوزو

ليس كالوثيقة المكتوبة حجة في الدراسة التاريخية ، ان أية قضية تظل فى ميدان الدراسة معلقة فى الهواء الى أن يعثر الباحث على ضالته وهي الوثيقة التي تؤكد أو تنفي فتقع القضية فى مكانها من البحث وينتهي التردد . والوثيقة سلاح خطير فهي التي تؤكد براءة البريء أو اتهام المتهم ، وقد تتهم البريء ، وتبريء المتهم ولو بعد قرون . وعلى هذا فان الأفراد والشعوب التي لها احساس بالتاريخ وبأحكامه القاسية لا ترتكب ما يدينها ذات يوم ، أما الأفراد والشعوب التي ليس لها احساس بالتاريخ فترتكب أخطاء تستوجب حكم التاريخ القاسي عليها .

وقد كثر الحديث فى بلادنا منذ سنوات عن كتابة تاريخ الجزائر وضرورة تدوينه . لقد اعتنت الشعوب المتقدمة والمتخلفة على السواء بتاريخها تجمعه وتصنفه وتدونه وتقدمه للناس افتخارا به وحفظا له وسدا للثغرات التي يمكن أن يتسرب منها الأعداء والخصوم للنيل من قداسة هذا التاريخ ، أما نحن فقد بقينا طيلة السنوات التالية للاستقلال نبكي ونتباكى عن تاريخنا الضائع فى مكتبات العالم ، وفي دور الوثائق الاستعمارية وفي ذواكر رجالنا ونسائنا ، وفي بطون ديارنا ومتاحفنا . ولكن الميدان لم يبق فارغا من فرسان . فقد تصدى لكتابة تاريخنا أناس لا تربطنا واياهم غالبا سوى رابطة الاستغلال والاستعمار ، فقدموا لأسواقنا ما جادت به قرائحهم وأصبحنا نعود الى هذه الأعمال ونستشيرها بل ونعتمدها وقليل هم الجزائريون الذين نبذوا البكاء والتباكي ، وأقدموا رغم الصعوبات على الكتابة فى تاريخ بلادهم . ومن هؤلاء الأستاذ عبد الحميد زوزو . فقد درس التاريخ طالبا وأستاذا وعرف قيمته الوطنية والانسانية وتخصص فى تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، ونشر كتابا عن دور

المهاجرين الجزائريين بفرنسا فى الحركة الوطنية ونشر بعض الأبحاث عن ثورة بوعمامة ، وهو يهتم بالخصوص بالتطور التاريخي للشرق الجزائري خلال العهد الاستعماري • وقد قاده البحث والاهتمـام الى ضرورة العناية بالوثائق باعتبارها المصدر الأول واكتشف بالتجربة والممارسة أن فهم تاريخنا الحديث والمعاصر يفتقر الى المادة الخام ، وأن تذوق التاريخ واستيعابه والاحساس به يتوقف على قراءة النصوص المعاصرة • ذلك أنه لا يكفي أن يقرأ المرء سردا للأحداث التاريخية أو تحليلا جافا متناقضا لها ، بل لابد من قراءة النص الأصلي فى لغته وعبارته وأساوبه وحرارته الأولى ، وذلك ما يعطي للحادثة معناها ولونها وقوتها •

وقد اجتهد الأستاذ زوزو فى جمع وتصنيف مجموعة من النصوص والوثائق التي تغطي تاريخ الجزائر خلال القرن الماضي • فقد قسمها الى مجموعات بعضها عن الأحوال السياسية والعسكرية وأخـرى عن الأوضاع الاقتصادية والدينية وهكذا • ولم يكتف بالجمع والتصنيف بل انه قدم نموذجا لكيفية دراسة النص فى تصوره وطريقته ، وأثرى عمله ببعض الاحصاءات والخرائط والصور ، وأرهق نفسه بالحاق كل نص بالمراجع المتصلة به والمساعدة عليه ، كما ذكر مصدر كل نـص اختاره • وبعض هذه النصوص كان أصلا بالعربية ، وبعضها كان معربا ولكنه تجشم أيضا تعريب بعضها بنفسه •

وهكذا قدم الأستاذ زوزو للقاريء عموما والطالب الجامعي والأساتذة خصوصا ثروة من النصوص الحيوية فى تاريخ الجزائر يرجعون اليها للتوثيق أو يستهدون بها عند الحاجة • ولاشك أنهم واجدون فيها أيضا المتعة الأدبية وطرافة الكشف عن « غرائب » علاقات الجزائريين بالفرنسيين • على أنه تجدر الاشارة الى أن اختيار النصوص التاريخية ، كاختيار النصوص الشعرية ، يخضع لذوق صاحبه واهتمامه وشخصيته • وقد اجتهد الأستاذ زوزو فى أن تعطي نصوصه مختلف أنماط الحياة فى الجزائر خلال القرن الماضي ، كما اجتهد أن تعكس ذوقه وحكمه الخاص•

انني لا أملك الا أن أهنيء الأستاذ زوزو على جهده الذي سيقدره حق قدره جميع الذين يعرفون الفراغ الذي تعاني منه مكتباتنا في هذا الميدان .

الجزائر : 2 ـ نوفمبر ـ 1981

وثيقة عن التجانية وبوعمامة والفرنسيين

فى احدى زياراتي لوادي سوف (*) زرت متحف الوادي ، فلاحظت وجود رسالة معروضة فى أصلها العربي ومعها ترجمة فرنسية ، كان ذلك فى 28 يناير 1970 • وقد طلبت من بعض الاخوان نسخها لي باللغتين ففعل • وظلت الرسالة عندي منذ ذلك الوقت ولم يتح لي تقديمها للنشر الا الآن ، وفي الشتاء الماضي رخص لي مشكورا الأخ رئيس بلدية الوادي ، السيد عبد الحميد بسرة بتصوير النصين المذكورين (أنظر الصورة) •

والرسالة موجهة من الضابط الفرنسي فيرنان فورو الى محمد العروسي شيخ الزاوية التجانية ببلدة قمار بتاريخ 12 جوان 1895 ومكان تحريرها مدينة بسكرة • وقد كتبها فى الظاهر بخط يده لأن خطها وأسلوبها يدل على خط وأسلوب أجنبي ، وكذلك تعابيرها كما يلاحظ من يطالعها •

وموضوعها هو أن فورو يخبر الشيخ العروسي عن رحلته الى بلاد التوارق وما تعرضت له المنطقة من فتن بسبب هجوم أنصار بوعمامة عليها • وكان فورو يرغب في توصيل رسالتين الى الحاج أخنوخن وكبار الأزجر • فكتب فورو الرسالة وبعث بها الى الشيخ العروسي طالبا منه التوسط فى توجيهها الى وجهتها عن طريق غدامس • ذلك أن للشيخ العروسي سمعة كبيرة لدى أهل الأزجر واحتراما للزاوية التجانية • كما طلب منه أنه اذا تعذر ارسال الرسالة فعلى الشيخ ردها الى فورو عن طريق وكيل فورو فى بسكرة وهو السيد كلومبو •

(*) نشرت فى مجلة (أول نوفمبر) عدد 50 ، سنة 1981 • أنظر الصور فى آخر الكتاب •

ويبدو أن الشيخ العروسي كان على علم برحلة فورو • ذلك أن فورو يشكره على دعائه له ومراسلته فى ذلك بواسطة السيد بيجا • ويخبره فورو أنه معروف (أي فورو) عند الشعانبة والطوارق بأنه من أتباع التجانيـــة •

ونحن لا نعرف من وثائق أخرى ما اذا كان الشيخ العروسي قد وجه فعلا الرسالة الى أهل الأزجر أو اعادها الى صاحبها • كما أن مضمون الرسالة لم يكشف عنه فورو • وكذلك لم يكشف عن الخبر الذي أرسله اليه الشيخ العروسي مع القبطان بيجا • وتكشف الرسالة من جهة أخرى امتداد ثورة بوعمامة الى الهقار وثورة سكان الصحراء عموما ضد الفرنسيين عندما حاولوا فى نهاية القرن الماضي مد احتلالهم الى تلك الجهات ، ونلاحظ كذلك تلك العلاقة الوثيقة بين مناطق وادي سوف وغدامس والهقار فى القرن الماضي ــ فقد كانت هذه العلاقة تقوم على التجارة ، ثم اتسعت فشملت السياسة والأفكار مثل انتشار الطريقة التجانية فيها ــ وهي الطريقة التي انتشرت أيضا الى « بر العبيد » كما جاء فى الرسالة ، أي الى السودان القديم ، بالاضافة الى انتشارها بين الشعانبة •

ويبدو من الرسالة أيضا أن الضابط فورو كان متنكرا فى رحلته على أنه تجاني الطريقة ، فقد قدم نفسه الى الناس الذين اختلط بهم على أنه خوني من اخوان التجانية ، ولولا ذلك لتعرض له الشعانبة والطوارق بالأذى وكثيرا ماانخدع الجزائريون بمثل هذه الأدوار التي يلعبها بعض الفرنسيين ذوي النشاط التجسسي والسياسي لصالح حكومتهم • وما تزال قصة انخداع الأمير عبد القادر بالمغامر ليون روش ماثلة للعيان • غير اننا لا نعتقد أن الشيخ محمد العروسي كان مخدوعا فى الضابط فورو ، فهو يعرف اسمه ومهمته بالضبط •

بقى أن نقول كلمة عن الشخصيات الوارد ذكرها فى هذه الرسالة • فالشيخ محمد العروسي هو محمد العروسي بن محمد الصغير التجاني • كان رئيس الزاوية التجانية بقمار وكان صاحب كلمة مسموعة فى سوف كلها وقد توفى بقمار سنة 1920 (1358 هـ) ودفن بالزاوية المذكورة •

ويذكر كبار قمار وسوف عموما أن خلافا شب بين الشيخ وبين القائد عندئذ وهو الحاج محمد بن خليفة المعروف بالقائد الأحمر • ووصلت الخلافات بين القائد والشيخ الى الولاية العامة بالجزائر فنقلت القائد الى تقرت حوالي سنة 1917 وعينت بدله أحمد بن الهلالي الذي ظل قائدا الى حوالي سنة 1938 • حين تنازل لابنه الاخضر •

أما بوعمامة فهو الثائر المعروف سنة 1881 • وقد توفى فى أكتوبر 1908 م – 1326 هـ وكانت ثورة بوعمامة قد استمرت الى حوالي 1904 • وكان بوعمامة من شيوخ طريقة سيدي الشيخ • وليس معروفا أن ثورته وصلت الى شرقي الصحراء ، كالهقار ، ولكن هذه الرسالة واضحة في ذلك • وبالنسبة الى الحاج اخنوخن فان كلمة (أخنوخن) تعتبر من ألقاب التعظيم عند أهل الهقار وليس اسما • وعلى كل حال فان الحاج اخنوخن كان عندئذ زعيما عند أهل ازجر الذين كانوا على صلة قوية بأهل غدامس وأهل سوف اقتصاديا وفكريا •

أما الأسماء الفرنسية الواردة فى الرسالة فنقصر الحديث عنها فى هذه الكلمات • كان فورو (Foureau) صاحب هذه الرسالة ، من الفرنسيين المكتشفين لمسالك الصحراء ، وكان يحسن العربية ويتظاهر بأنه من اخوان التجانية• وله مؤلفات عديدة حول مهمته فى الصحراء، ومن بين مؤلفاته (بعثة الى تادمايت 1895) • و (بعثة لدى الطوارق ••• من أكتوبر 1894 الى ماي 1895) • والظاهر أن هذا التأليف هو الذي خصص فيه رحلته التي يشير اليها فى رسالته • وله أيضا (تقرير عن بعثتي فى الصحراء وعند طوارق أزجر) وله تآليف أخرى حول نفس الموضوع أما بخصوص كلومبو فلا نعرف عنه أكثر مما جاء فى الرسالة من أنه كان مقيما ببسكرة ويعمل وكيلا أو ممثلا للضابط فورو • وأما بيجا (Pugeat) فقد كان قائدا أعلى لدائرة تقرت فى آخر القرن الماضي • وهذا كل ما عرفنا عنه فى الوقت الراهن •

وفي الرسالة أخطاء املائية وتعبيرية كثيرة كما أن بعض الكلمات فيها تحتاج الى توضيح • والرسالة مختومة بختم كاتبها (فورو) ولكنه ختم غير واضح في الصورة • وقد بدأت ترجمتها الى الفرنسية هكذا : « رسالة من المكتشف فورو وعليها ختمه » •

الجزائر في 15 ماي 1981

نص الرسالة

كتب ببسكرة يوم 12 جوان سنة 1895

الحمد لله وحده

الى المكرم الفاضل الزاكي السيد محمد العروسي ، السلام التام عليك وعلى من تعلق بك ورحمة الله وبركاته •

وبعد ، أيها السيد ، وصلك الخبر على ما صار بي في رحلتي هذه (1) . وما صار بتوارق أزجر المساكين ، فطاح عليهم جيش كبير من بوعمامة (2) وناس العرب مخالطين معهم وغزوا ابلهم وقتلوا بعض من ناسهم •

وأنا يلزمني نرسل خبري الى السيد الحاج اخنوخن واكبار الازجر • فعلى ذلك رسلت لك هذا الجواب ومعه نسختين من بريتي (3) اليهم •

فالمطلوب من كريم فضلك لو كان تحت يدك رجل مليح ومومن ماشي الى غدامس ليقضي حوائجه تعطى الجوابات لعله يجود ثم يبلغهم الى السيد الحاج اخنوخن أو واحد من أعيان الازجر • فانى مثبت (4) ، ان وصلت بريتي بواسطتك ، يقدروها أهل ازجر ، كما يقدروا زاويتكم النافعة والمشهور حتى بر العبيد (5) •

---

1 ـ يشير الى رحلته الى بلاد الطوارق في شهر ماي 1895 .

2 ـ هو الثائر بوعمامة ، دامت ثورته من 1881 الى 1904 وتوفي سنة 1908 ، وكان زعيما للطريقة الشيخية . ويبدو أن فورو يحاول أن يستغل نفوذ الطريقة التجانية ضد الطريقة الشيخية .

3 ـ البرية هي الرسالة .

4 ـ مثبت يعني متأكد أو متيقنا .

5 ـ يعني الى السودان القديم .

هذا هو المرغوب من كريم فضلك ولكن اذا ما صعدك شي (6) الحال من سبة الحمان (7) وغيره فرجعني (8) الجوابات عند سي (كلونب) ، (9) وكيلي فى بسكرة .

وأما أنت أيها السيد كثر الله خيرك على الخبر الى خبرتني بواسطة سيد القبطان (بيجا) ، (10) ودعوتك لي فى شأن رحلتي ، على خاطر قالوا لي ايه (11) ودائما تنشد علي (12) . وأما أنا أطلب من الله تعالى يحفظك من كل بلاء ويقبل دعوتك لمنفع اخوانك المسلمين .

والسلام من حبيبك فورو الفرانسوي المحسوب عند الشعنبة (13) والتوارق خونى (14) من أخوان التيجانية .

« الختم غير مقروء »

---

6 ـ (ماصعدك شي) أي لم يساعدك .

7 ـ سبة الحمان ، أي بسبب الحر .

8 ـ أي ارجع الى .

9 ـ هو ـ كولومبو .

10 ـ القبطان بيجا هو الضابط Pugeat وهو قائد منطقة تقرت .

11 ـ هذه كلمة غير واضحة في النص ، يمكن أن تقرأ أنك ، أنه ، الخ .

12 ـ (تنشد على) أي تسأل عني .

13 ـ هم الشعانبة سكان متليلي ونحوها ، لعبوا دورا بارزا في الثورات ضد الفرنسيين ، خصوصا ثورات أولاد سيدي الشيخ وثورة محمد بن عبد الله (شريف ورقلة) وثورة بوشوشة ، وثورة بوعمامة .

14 ـ خوني أي تابعا من اتباع الطريقة .

وثيقة تونسية لابن مرزوق التلمساني

كان ابن مرزوق التلمساني كثير التردد على تونس (1) • وفى احدى المرات كتب وقفية حبس لبستان كان يملكه أحد أهالي مدينة توزر • وقد نمقها بطريقته وأسلوبه • وكان ذلك بتونس سنة 828 هـ • وقد رأينا تقديم هذه الوثيقة للنشر لأننا لا نعرف ان أحدا قد نشرها من قبل •

وكنا قد وجدنا نص هذه الوثيقة فى مكتبة السيد الصادق قطايم الملاك بمدينة قمار من أعمال الوادي بالجزائر • وهي مذكورة فى آخر نسخة خطية من شرح جوهرة التوحيد لابراهيم اللقاني المالكي المصري • (2) وقد طلبت من السيد قطايم الاذن لي فى نسخها وتصويرها فوافق مشكورا ، وتفضل الشيخ محمد الطاهر التليلي القماري باملائها على من أصلها فنسختها ، ثم قابلنا النسختين ، ونسخة الأصل • وكان ذلك يوم السبت أول يوم من شهر سبتمبر 1979 بمدينة قمار • كما أنني تمكنت من تصوير الوثيقة نفسها •

والوثيقة مكتوبة بخط مغربي واضح ولكنه مخالف للخط الذي كتب به شرح جوهرة التوحيد المذكور • وكاتبها هو عبد الله بن بلقاسم بن الأكحل • ويعود الخط فى الظاهر الى القرن الحادي عشر الهجري (17 م) ونحن نقول « فى الظاهر » لأن الناسخ لم يذكر تاريخ النسخ ، ولكن

(*) – نشرت فى (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 17 – 18 ، يناير 1980 • أنظر الصور فى آخر الكتاب •

1 – هو محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق (الحفيد) العجيسي التلمساني ، 766–842 هـ 1364–1438 • ترجمته في **(البستان)** لابن مريم ، 201–214 ، و (الاعلام) للزركلي ، 228/6 •

2 – ابراهيم بن ابراهيم بن حسن اللقاني ، توفي سنة 1041 هـ ، أنظر **(الاعلام)** 21/1 •

الوثيقة مسبوقة بنص اجازة يعود الى أوائل القرن الحادي عشر • وقد يعود تاريخ نسخ الوثيقة الى ما قبل ذلك لأن الناسخ يذكر أنه عرف خط ابن مرزوق فى الوثيقة عن طريق مالكها بتوزر عن أبيه عن جده ، مما يفهم منه أن جد صاحب الوثيقة كان معاصرا أو قريب العهد من ابن مرزوق • والمعروف أن هذا قد توفي سنة 842 هـ / 1438 م •

وعائلة ابن الاكحل عائلة قديمة فى مدينة الجزائر، وهي تدعي الشرف أيضا • وقد وجدنا فى الأرشيف الجزائري العثماني اشارات الى بعض أفرادها • ومنها فى العهد الفرنسي السيد أحمد الأكحل بن يحي الأمين الذي نشر رسالة هامة سماها روح السعادة وسر الشهادة فى الحسنى وزيادة (3) غير أن ناسخ وثيقة ابن مرزوق مايزال مجهولا عندنا الى الآن • ومن الأكيد انه قد عاش فى العهد العثماني • ومن جهة أخرى فقد ذكر هذا الناسخ نفسه انه أخذ العلم بمدينة الجزائر على « شيخنا الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد الطيب » الذي قرأ عليه القصيدة الخزرجية فى علم العروض بشرح ابن مرزوق عليها • ورغم اهتمامنا بالحياة الثقافية فى الجزائر العثمانية ، فاننا لم نستطع الى الآن أن نحدد عصر ولا قيمة الشيخ محمد الطيب المشار اليه والذي يبدو انه كان من كبار المدرسين فى وقته • (4) ويظهر مما يأتي ان ابن الاكحل الناسخ كان أيضا قد زار تونس •

ومهما كان الأمر فقد ذكر الناسخ الدافع الذي جعله ينسخ ويحافظ على هذه الوثيقة • فهو يذكر انه قد تعرف على خط ابن مرزوق فى الوثيقة من كثرة ورود هذا الخط عليه ، ولا سيما مطالعته المتكررة لشرح ابن مرزوق على قصيدة ضياء الدين الخزرجي فى العروض ، والذي كان بخط ابن مرزوق نفسه • فلما أطلع ابن الأكحل على وثيقة الحبس ، التي ننشرها اليوم ، تعرف على خطها لتكراره أمامه • ثم ان علماء

3 ـ الجزائر ، 1925 ، وقد قرظ هذه الرسالة عدد من علماء الوقت ، منهم عبد الحليم بن سماية ، ومحمود كحول ...

4 ـ لعله هو محمد الطيب بن أحمد الفاسي الذي زار الجزائر سنة 1103 هـ ـ 1691م . انظر مقدمة المهدي البوعبدلي لكتاب **(الثغر الجماني)** ص 75 . فاذا صح انه هو ، فان خط الوثيقة وعصر الناسخ هو القرن الثاني عشر الهجري .

الوقت فى تونس قد شاع عندهم أيضا أن الوثيقة بخط ابن مرزوق نفسه • وأخيرا ذكر الناسخ أن صاحب الوثيقة ، وهو كما سبق من أهل توزر ، قد أخبره أنها فعلا بخط ابن مرزوق • كما ذكر أن هدفه من نقلها هو رغبته فى اشاعتها بين الناس حتى يستفيد منها الموثقون لدقة تعبيرها وحتى ينسخها من يريد الاحتفاظ بنسخة منها ، أي أن هدفه كان ترويجها ونشرها كما تفعل نحن اليوم بمثلها من الوثائق •

غير ان الناسخ قد تصرف قليلا فى نص الوثيقة • وقد ذكر ذلك ، أمانة منه ، فى موضعين : الأول حين أشار الى انه حذف منها أمورا لا تخل ، فى نظره ، بمعناها « لم أسقط من الوثيقة الا ما لا يتعلق به الغرض ، ولا توصف بعد اسقاطه بمرض • » والثاني اشارته الى انه اكتفى بشهادة عمر القلشاني (5) على الوثيقة • ويفهم من هذا ان هناك شهودا آخرين عليها ولكنه استغنى عن ذكرهم « ومن محاسن الوثيقة ان سيدي عمر القلشاني من شهدائها ، ولم أقيد سوى شهادته بعد شهادة ابن مرزوق اذ فى شهادتهما كفاية فى تحصيل غرضنا من الوثيقة • » ويبدو ان الناسخ قد استغنى عن ذكر الأسماء سواء من صلب الوثيقة أو من آخرها ، كالشهود عليها •

فقد كان شائعا فى العهد العثماني نقل وثائق الأقدمين المتعلقة بالأوقاف ونحوها نقلا حرفيا مع الاستغناء عن الأسماء الأصلية وتعويضها بعبارات عامة مثل فلان وكذا ، الخ • وممن فعل ذلك عبد الرزاق بن حمادوش فى رحلته (لسان المقال) (6) • فقد نقل أيضا مجموعة من عقود التحبيس عن أهل الأندلس وغيرهم بطريقة شبيهة بطريقة ابن الاكحل مع الوثيقة التي نحن بصددها ، والسبب فى ذلك هو ظاهرة التقليد التي طغت على علماء العهد العثماني وعدم ثقتهم بأنفسهم • فهم يفضلون صياغة العقود التي نسخ عليها مثلا ابن مرزوق وأمثاله على طريقتهم الخاصة ، وقد ذكر ابن

---

5 ــ عمر القلشاني ، 773–847 هـ ، 1379–1433 م . ولد ببجاية وتولى الافتاء والقضاء والخطابة بجامع الزيتونة ، وقد توفي بتونس ، أنظر **(الحلل السندسية)** للسراج ، 623/3 .

6 ــ قمنا بتحقيقها ونشرها ، الجزائر ، 1983 .

حمادوش عقد زواج كتبه محمد بن عبد المؤمن صار محل تقليد اللاحقين من الموثقين الجزائريين •

ولاشك أن المهتمين بحياة ابن مرزوق سيجدون فى هذه الوثيقة أثرا من آثاره وطريقة من طرقه فى صياغة وثائق التحبيس ، كما أن المهتمين بالعلاقات العلمية بين مثقفي الجزائر وتونس سيجدون فيها دليلا آخر على رسوخ هذه العلاقات وقدمها • (7) وهذا هو ما حدا بنا الى تقديم هذه الوثيقة للنشر •

مقدمة الناسخ :

الحمد لله ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

يقول كاتبه العبد الفقير الى مولاه ، الراجي عفوه وتجاوزه عما أثقل به ظهره من خطاياه ، غريق بحر المآثم عبد الله بن بلقاسم بن الاكحل ، عامله الله بلطفه وأنجاه من عذاب القبر ووحشته ، بعد ما تكرر على خط الامام أبى عبد الله سيدي محمد بن مروزق فى مجلس تدريس شيخنا الفقيه الصالح أبى عبد الله سيدي محمد الطيب بمدينة الجزائر ، حرسها الله تعالى ، وذلك زمان قراءتنا عليه قصيدة ضياء الدين الخزرجي فى علم العروض ، فكان يخرج شرح الامام المذكور بخط يده المباركة — اطلعت على وثيقة له فى مسائل الحبس بخط يده ، أعني خط الامام ابن مرزوق ، فعرفت خطه فى الوثيقة المعرفة التامة ، وعرفت أيضا أن فقهاء العصر بتونس شاع عندهم أن الوثيقة بخط الامام المذكور ، وأخبرني أيضا من هي بيده من أهل بلد توزر أن الامام المذكور كتب الوثيقة في بلد تونس ، وهو مقيم بها فى أثناء سفر له ، ذكر ذلك صاحب الوثيقة عن أبيه عن جده •

---

7 — كان ابن مرزوق ، كما سبق ، يتردد على تونس ، فقد حج منها سنة 790 هـ — 1388 م مع أستاذه ابن عرفة ، كما حج منها مرة أخرى سنة 819 هـ — 1416 م . وها هي الوثيقة تتحدث عن زيارة أخرى له لتونس سنة 828 هـ — 1425 م ؛ وقد كان بين ابن مرزوق وعلماء جنوب تونس صلات ومراسلات ، فقد وردت عليه أسئلة من أبي يحيى ابن عقيبة ، عالم قفصة في وقته ، فأجابه ابن مرزوق عليها بتأليف سماه **اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة** .

فلهذا كتبتها هنا اتحافا لمن يريد العمل بها وأخذ نسخة منها ، ولم أسقط من الوثيقة الا ما يتعلق به الغرض ، ولا توصف بعد اسقاطه بمرض ، ومن محاسن الوثيقة أن سيدي عمر القلشاني من شهدائها ، ولم أقيد سوى شهادته ، بعد شهادة ابن مرزوق ، اذ فى شهادتهما كفاية فى تحصيل غرضنا من الوثيقة ، وهذا نصها :

نص الوثيقة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أشهد على نفسه فلان بن فلان شهدا هذا العقد فى صحته وجواز أمره ، لما رغب فيه من الأجر والثواب ، انه حبس جميع جنانه الكائن له بخارج بلدة توزر المسمى بكذا يحده قبلة جنان كذا وبينهما مجرى ماء ، وشرقا كذا ، وغربا كذا ، وجوفا كذا — بجميع منافع الجنان المذكور ومرافقه وحقوقه الداخلة فيه والخارجة عنه وما عد منه ونسب اليه قديما وحديثا ، وشربه المعلوم له، لم يستثن المحبس المذكور فى الجنان المذكور لنفسه منه شيئا الا أدخله فى التحبيس المذكور على ولده فلان الصغير الكائن في حجره وتحت ولاية نظره ، وعلى كل ولد ذكر يولد له بعد هذا التاريخ ان قدر الله سبحانه وتعالى به ، وعلى بناته شقيقات فلان المذكور ، وعلى كل من سيولد له من البنات أيضا .

يقتسم المحبس عليهم المذكورون غلة الحبس المذكور على فرائض الله تعالى ، الا أن البنات من وجد منهن ومن لم يوجد لاحق لهن الا اذا كن أيامي محتاجات ومن تزوجت منهن أو استغنت فلا حق لها مع الذكور المذكورين. ومن مات من الذكور المحبس عليهم فنصيبه للذكور والاناث من :ولاده الذكور على شرط الاناث المذكور . فان لم يكن له وارث رجع نصيبه لباقي اخوته على الشرط المذكور . فاذا انقرض أولاد صلب المحبس المذكور رجع ذلك الى ولده على الوصف المذكور . وهكذا يكون الحبس على بنيه الذكور والاناث على الشرط المذكور بطنا بعد بطن ما تناسلوا وامتدت فروعهم .

فان انقطع عقبه رجع الحبس المذكور الى أقرب الناس به من العصبة . ثم الى الأقرب فالأقرب منهم ، فاذا انقرضوا رجع الجنان حسبا على مدرس العلم الشريف بالمسجد الجامع من بلد توزر تحبيسا تاما مؤبدا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، ومن سعي في تبديله أو تغييره فالله تعالى حسيبه ومتولي الانتقام منه ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون •

عرف المحبس المذكور قدر الحبس المذكور ومنتهي خطره • قصد بذلك وجه الله العظيم ، ورجاء ثوابه الجسيم ، والله لا يضيع أجر المحسنين • شهد على المحبس المذكور بما فيه عنه ، وهو بحال صحة وطوع وجواز أمر • وعرفه في تاسع جمادي الآخرة عام ثمانية وعشرين وثمانمائة ، محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي وعمر بن محمد بن عبد الله القلشاني •

انتهى ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما •

ري الغليـــــــل
مخطوط لرحالة ليبي في القرن الماضي

منذ سنــوات اطلعت فى المكتبة الوطنية الفرنسية عــلى عدد من المخطوطات المتعلقة بتاريخ ليبيا الحديث • من ذلك كتاب (التذكار) (1) لمحمد بن خليل بن غلبون ، ونسخــة من تاريخ طرابلس (2) لمصطفى خوجة ، كاتب علي باشا القرمانلي ، ونسخة منقولة عن زمام بلد غدامس القديمة (3) على يد مصطفى خوجة بن قاسم المصري ، وخلاصة تاريخ طرابلس الى الفتح العثماني (4) تأليف قنصل فرنسا بطرابلس فى وقته • ولعل أهم هذه المخطوطات بالنسبة لغرضنا هو (ري الغليل) لمحمد بن عبد الجليل الفزاني • ولا شك أن بعض هذه المخطوطات معروف عند الباحثين ، ولعل بعضها قد أصبح مطبوعا متداولا • ويهمني اليوم أن أقدم المخطوط الأخير باختصار شديد • وعنوان هذا المخطوط الكامل هو (ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل) • مضافا اليه عبارة « من سلاطين بلاد الفزان » وهو يقع في مائة وثلاث ورقات (103) ومكتوب

(*) — نشر في (مجلة البحوث التاريخية) ليبيا — عدد 2 ، يوليو ، 1979 •

1 — « التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار » ، فهرس المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية الفرنسية ، اعداد البارون دي سلان de Slane ، رقم 1889 ، أعد بخط جيد في 119 ورقة ولكنه غير كامل •

2 — عنوانه (مستخرج من تواريخ طرابلس) ، معه ترجمة بالفرنسية ، وفيه أخبار عن فزان وهو مكتوب بأسلوب رديء ويوجد تحت نفس المصدر رقم 1890 وهو يقع في 7 ورقات •

3 — منه نسختان الأولى رقم 1891 وفيها ست ورقات ، والثانية رقم 1892 مجموع وفيها سبع ورقات • والى جانب اسم مصطفى خوجة بن قاسم المصري تاريخه «1181» ويظهر انه تاريخ النسخ ، ولمصطفى خوجة ترجمة في «نفحات النسرين والريحان» لأحمد النائب الأنصاري ، ص 56 ، وفيه أن وفاته سنة 1213 هـ •

4 — نفس المصدر ، رقم 1892 مجموع ، وهو بعربية ضعيفة ، تاريخ تأليفه 1224 هـ •

بخط مقروء وبعامية فصيحة ، اذا صح التعبير • وقد انتهى منه مؤلفه سنة 1268 هـ (1852) (5) • والظاهر أن المؤلف قد كتبه أثناء اقامته بباريس كما سنلاحظ •

أما المؤلف نفسه فهو محمد بن (السلطان) عبد الجليل بن غيث (؟) ابن أحمد بن سيف النصر • وهو ، كما جاء في وصف الفرنسيين له ، ابن آخر أمراء فزان • ويبدو من اطلاعنا السريع على الكتاب أن المؤلف قد جذبته السلطات الفرنسية التي كانت قد تركزت في الجزائر وبدأت تبحث لها عن عملاء ومناصرين في شمال وغرب افريقية • ولذلك نجد مؤلف (ري الغليل) لا يخفي اعجابه بأعمال الفرنسيين في مصر ، وهو يشيد بنابليون ، ويعتذر عن بعض أعمالهم في الجزائر ، وينظم شعرا فى مدح باريس • ولا ندري ان كان قد ألف كتابه بطلب من الفرنسيين، وهو ما نرجحه ، لأن تلك كانت هي الطريقة التي سلكوها مع متنوري الجزائر أيضا ليستفيدوا من خبراتهم في السيطرة على البلاد • ومهما كان الأمر فان المؤلف قد تجول في المغرب العربي والسودان القديم ومصر قبل أن يتوجه الى فرنسا حيث أقام مدة لا نعرفها • وقبل مغادرته باريس كتب كتابه الذي نحن بصدده ، ثم سلمه الى الحاج عبد الحميد باي بطلب من هذا ، ليسلمه بدوره الى «ولاة الأمور» الفرنسيين ، ولا نعرف الآن عن ثقافة المؤلف أكثر من هذا • وعلى كل حال فانه لا المعلومات الواردة في الكتاب ولا أسلوبه فيه يدلان على ثقافة واسعة بأحوال العصر ، رغم أن معلوماته عن المناطق التي تحدث عنها مهمة كما سنذكر • ومن جهة أخرى فاننا لا ندري ان كان المؤلف قد كتب أعمالا أخرى لم تصل الينا أم لا •

وشخصية الحاج عبد الحميد باي ، الواردة في الكتاب ، ما تزال مجهولة لنا ، وهو حسب سياق النص فى الكتاب ، كان صديقا للمؤلف ان لم نقل انه هو الذي كان وراء أفكاره أيضا • ذلك أن المؤلف يذكره أثناء تنقلاته ، ولا سيما في مدينة تقرت وباريس ، وهو يلجأ اليه في الملمات • ثم ان عبد الحميد باي هو الذي طلب من المؤلف مخطوطة

5 ـ نفس المصدر ، رقم 1893 .

كتابه وهو أيضا الذي جعل على هذه المخطوطة نسخة وحملها سنة 1853 الى الأب بارجيس (6) Barges ، الأستاذ في السوربون عندئذ ، ليقوم بترجمة (ري الغليل) الى اللغة الفرنسية • وقد عرف عن بارجيس الاهتمام بتاريخ المغرب العربي ، وكان من المستشرقين البارزين في وقته • وما دمنا نتحدث عن الظروف التي كتب فيها (ري الغليل) فلنشر أيضا الى أن النسخة التي اطلعنا عليها كانت في حوزة وزير العدل الفرنسي قبل انتقالها الى المكتبة المشار اليها •

ومن الظروف العامة للكتاب نفهم أيضا أن المؤلف قد وضعه في جزئين كما يصرح بذلك في آخره • ولكن الفرق بين جزء وآخر غير واضح من الخطة العامة للكتاب • ومن جهة أخرى يبدو أن النسخة التي اطلعنا عليها هي النسخة الأصلية • ذلك أن عبارة عبد الحميد باي تشير الى أنه هو الذي جعل عليها نسخة أخرى بعد أن تسلم الأصل من مؤلفه • واذا كنا قد وجدنا على النسخة التي اطلعنا عليها ما يدل على أنها كانت في حوزة وزير العدل فاننا لم نجد ما يدل على أنها هي النسخة التي قدمها عبد الحميد باي الى الأب بارجيس • ونحن نلح على تعدد النسخ من هذا الكتاب لأنه قد يكون في تعددها اختلاف بالحذف والزيادة والتصرف • وهذه قضية مهمة بالنسبة للباحث الذي يرغب في التعرف على جميع أفكار المؤلف الأصلية •

ومهما كان الأمر فان الكتاب يحتوي على معلومات مهمة حول المغرب العربي والسودان ومصر في القرن الماضي • وتظهر أهمية هذه المعلومات في المساحة الجغرافية التي تغطيها والفترة التي عولجت فيها • ذلك أن المؤلف قد زار وتجول في بورنو ومصر والحجاز

6 ـ هو الذي نشر تاريخ بني زيان «سلاطين تلمسان» ، وهو ترجمة جزئية لكتاب التنسي المسمى « نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان » ، باريس ، 1852 ، ثم أكمله (بارجيس) بعمل آخر أوفى عن بني زيان أيضا ونشره في باريس سنة 1887 . كما نشر بارجيس عملا للتواتي عن الصحراء والسودان ، باريس ، 1853 ، وهناك عمل آخر منسوب للادريسي عن بني جلاب ، سلاطين تقرت ، قام بنشره الاب بارجيس أيضا ، باريس 1858 ، كما نشر حياة أبي مدين دفين تلمسان ، باريس 1884 ونحن لا ندري الى الآن ما اذا كان بارجيس قد ترجم فعلا كتاب (ري الغليل) الى الفرنسية أم لا . ولعله فعل .

واسطانبول وتونس والجزائر وفرنسا ، بالاضافة الى ليبيا طبعا ، ونظرا لاهتمامي الشخصي بتاريخ الجزائر من خلال تجربة المؤلف فقد وجدت في عماه آخبارا طيبة عن العلاقات بين الجزائريين والفرنسيين في وقته ، ففيه حديث طويل عن الحروب التي دارت بينهم ، ولا سيما في منطقة الصحراء الشرقية (7) مثل وادي ريغ وتقرت ، ومثل ثورة الشريف محمد بن عبد الله • كما أن فيه وصفا (ولكنه سطحي ومقتضب أحيانا) لمدن بسكره وقسنطينة وباتنة وسطيف ومليانة والمدية والجزائر والبليدة • وجميع هذه المدن قد مر بها المؤلف وأقام في بعضها فترة ، ولا نذكر الآن (وقد مضى وقت على اطلاعي على الكتاب) أحكام المؤلف على بقية الأماكن التي زارها أو عاش فيها (8) •

ونود أن نشير أيضا الى أن عنوان الكتاب لا يتلاءم بالضبط مع موضوعه • فهو ليس عن تاريخ (أو أخبار) بني عبد الجليل ، كما جاء في العنوان ، ولكنه كتاب يتناول موضوعات شتى ومساحة جغرافية واسعة ، كما ذكرنا ، بما في ذلك الحجاز واسطانبول وبورنو ومصر والجزائر • ولا يشكل حديث المؤلف عن أسرة بني عبد الجليل الا جزءا من قصة الكتاب • ثم اننا نلاحظ أن أكثر من نصفه تقريبا مخصص لأخبار القطر الجزائري •

بقي علينا أن نذكر أن دي سلان قال ان المؤلف كتب (ري الغليل) سنة 1862 • والظاهر أن هناك خطأ في هذا التاريخ • ذلك أن المؤلف نفسه يذكر في آخر كتابه أنه أكمله في باريس سنة 1268 هـ الموافق لسنة 1852 م كما أشرنا • وهناك نقطة أخرى جديرة بالذكر وهي أننا لا نعرف مصير المؤلف بعد ذلك التاريخ • فالتعاليق في الكتاب تشير الى أنه قد غادر باريس ولكنها لا تذكر أين ذهب • ولعل الباحثين المهتمين بحياة المؤلف قد حققوا هذه القضية • كما أن الكشف عن حياة

7 ـ صادف تاريخ تأليف (ري الغليل) اهتمام الفرنسيين الخاص «باكتشاف» الصحراء وسكانها وانطلاق البعثات العلمية والحملات العسكرية نحوها •

8 ـ أنظر التعليق الوارد في آخر هذا المقال •

عبد الحميد باي يعتبر خطوة مهمة في هذا السبيل • وقد سألت زميلنا الدكتور عبد القادر زبادية ، الأستاذ بجامعة الجزائر عما اذا كان يعرف من نشر أو بحث في (ري الغليل) فذكر لي أن أحد الطلاب قد سجل فيه بحثا بجامعة الجزائر وأنه (أي الطالب) قد جاء من الكتاب بمصورة عن نسخة باريس • ولا نعرف الآن أين وصل هذا الطالب في عمله • ولعل أساتذة وطلاب ليبيا قد اهتموا أيضا بهذا الكتاب دون أن نطلع نحن على جهودهم •

وحسبنا في هذه الآونة تقديم هذه اللمحة عن (ري الغليل) ولفت الانتباه اليه (9) وحسبنا أيضا أن نقول عنه انه ، رغم أهميته ، ربما لا يكون صالحا للنشر على ما هو عليه •

---

9 — تعليق — كنت أخبرت بعض الليبيين عن وجود (ري الغليل) واطلاعي السريع عليه ، فطلبوا مني تقديمه للقراء • وقد اعتذرت بأن معلوماتي عنه غير كاملة وأن ما أخذته منه كان مجرد معلومات لم يكن القصد منها دراسة الكتاب والحكم عليه وانما تذكرة لنفسي أعود اليها اذا دعت الحاجة عند كتابتي عن تاريخ الجزائر فى القرن الماضي • ولكن هؤلاء الأخوان ألحوا علي فى تقديم « ما عندي » من معلومات عن الكتاب ، ومن هؤلاء الأخ عبد المولي الحرير ، الذي شافهني بذلك في لقاء لنا بمدينة آن آربر (امريكا) سنة 1978 ، ثم أكد لي ذلك برسالة وردتني منه فى الجزائر تاريخها 7 أكتوبر 1979 ، فلم يسعني الا الاجابة وكتابة هذه العجالة عن الكتاب المذكور •

ملاحظة : بعد أن نشرت هذا اطلعت على كتاب الأستاذ على مصطفى المصراتي (مؤرخون من ليبيا) ، طرابلس ، 1977 ، وفيه دراسة هامة عن كتاب (رأي الفليل) ، ص 203 — 218 •

فهــــرس الاعــلام

– ت – ث –

– ج –

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

– غ –

– ف –

– م –

فهــــرس الشعوب والقبائل

— د ، ر ، ز —

— س ، ش —

— ص ، ط —

— ع ، غ —

— ف ، ق —

فهـرس الأماكن والبلدان

ـ ب ـ

– د –

٢٥ ـ ٢

ـ ي ـ

فهـرس المصطلحات المختلفـــة

فهرس الجرائد والمجلات والكتب

(1) تفضل الاستاذ ذمحمد الطيب عقاب بوضع فهارس هذا الكتاب . فله الشكر .

très peuplés, pauvres et abrupts sont sans voie de communication. Des agglomérations importantes sont dépourvues de tout. Comme au temps d'Abraham on y puise l'eau avec des peaux de boucs, dans des citernes ou des puits à ciel ouverts. C'est ainsi qu'en tout et pour tout la part des plus nombreux est la plus faible, et la charge des plus pauvres est la plus forte.

Sous un régime dit Républicain, la majeure partie de la population est régie par des lois spéciales qui feraient honte aux barbares eux-mêmes. Et ce qui est tàypique, c'est que certaines de ces lois qui instituent des tribunaux d'exception (Tribunaux répressifs et cour criminelle) datent des 29 mars 1902 et 30 Décembre 1902. On peut voir là un exemple de la marche régressive vers les LIBERTÉS.

Pour que nous ne soyons pas taxés d'exagération, nous joignons à cette requête deux brochures écrites par deux Français d'Algérie; M. M. François Marneur, avocat à la cour d'appel d'Alger, et Charles Michel conseiller général et maire de Tébessa. Elles sont édifiantes sur l'odieuse injustice de ces lois.

Un autre exemple démontrera la violation de la parole donnée, le voici :

Avant 1912, les troupes indigènes étaient recrutées par voie d'engagement volontaire, moyennant quelques avantages offerts aux engagés. Ces avantages furent supprimés progressivement et on arriva, en 1912, à la conscription obligatoire, d'abord partielle (10 % du contingent), ensuite totale et cela malgré les énergiques protestations des indigènes. L'impôt du sang nous a été appliqué en violation des principes les plus élémentaires de la justice.

Appauvris, asservis et avilis par le droit du plus fort, nous n'avions jamais pu croire cependant, qu'une pareille charge, réservée aux seuls citoyens français, jouissant de tous les droits, viendrait un jour peser sur nos épaules.

Des centaines de mille des nôtres sont tombés sur les différents champs de bataille, luttant malgré eux contre des peuples qui n'en voulaient ni à leur vie, ni à leurs biens.

Les veuves, les orphelins et les mutilés de cette guerre ont

صفحة من عريضة الامير خالد الى الرئيس ويلسون
(أنظر صفحة 49)

que d'aussi belles promesses ne devaient subsister qu'en paroles. En effet comme au temps des Romains, les Français refoulèrent progressivement les vaincus en s'appropriant les plaines fertiles, les plus riches contrées. Jusqu'à nos jours, on continue de créer de nouveaux centres de colonisation en enlevant aux Indigènes les bonnes terres qui leur restent, sous le prétexte intitulé: " Expropriation pour cause d'utilité publique".

Les biens Habous, qui se chiffraient par des centaines de millions de francs, et qui servaient à l'entretien des monuments religieux et à venir enn aide aux pauvres, ont été pris et répartis entre les Européens, chose extrêmement grave étant donnée la destination précise et religieuse qu'avaient assignée à ces biens leurs donateurs.

De nos jours, malgré la loi de sépatation des Eglises et de l'Etat, le peu de biens Habous qui reste est géré par l'administration française sous le couvert d'une cultuelle dont les membres serviles ont été choisis par elle. Inutile d'ajouter qu'ils ne possèdent aucune autorité.

Contrairement à notre religion, l'Administration profite de toutes les occasions, surtout pendant cette guerre , pour organiser dans nos mosquées et nos lieux saints des manifestations politiques. En présence d'une foule composée surtout de fonctionnaires , on fait lire des discours préparés pour la circonstance, par les chefs du culte, et on pousse même le sacrilège jusqu'à faire participer la musique militaire à ces manifestation humiliantes pour l'esprit religieux du musulman.

Voilà ce qu'on a fait des déclarations du Général de Bourmont du 5 Juillet 1830 et de la loi de 1851.

Pendant 89 ans, l'indigène a été accablé sous le poids, des impôts : impôts français et impôts arabes antérieurs à la conquête. (maintenus par les Français inchangés)

En consultant la balance des recettes et des dépenses de l'Algérie, on voit aisément que des indigènes surtaxés, la répartition du budget ne tient presque aucun compte de leurs besoins spéciaux. Plusieurs tribus sont sans route et la grande majorité de nos enfants sans écoles.

Grâce à nos sacrifices, on a pu créer une Algérie française très prospère, où la culture de la vigne s'étend à perte de vue; le pays est sillonné de chemins de fer et de routes entre les villages européens. Pas bien loin d'Alger, on trouve des tribus entières, dont les territoires,

23593

صفحة أخرى من عريضة الامير خالد الى الرئيس ويلسون

(انظر صفحة 49)

Paris, 24 May, 1919.

My dear Sir:

I am writing to acknowledge receipt of the address on behalf of the five representatives of the Arabs of Algeria which has been forwarded to me on your behalf by Lieutenant Noble and I shall be glad to call it to the President's attention.

Sincerely yours,

Confidential Secretary to the President

Mr. L'Emir Khaled El-Hassani,
c/o Lieut. George B. Noble,
Hotel Crillon, Paris.

رسالة كلوز الى الامير خالد حول عريضته الى الرئيس ويلسون .

(انظر صفحة 49)

Paris, 23 May, 1919.

My dear Lieutenant Noble:

I am enclosing herewith a note from L'Emir Khaled El-Hassani, as requested in your letter of May 23rd.

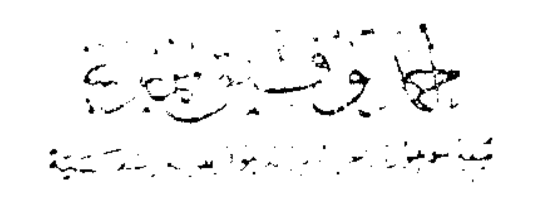
Sincerely yours,

Confidential Secretary to the President.

Lieut. George D. Noble,
Hotel Crillon, Paris.

رسالة كلوز الى الضابط نوبل حول عريضة الامير خالد

(انظر صفحة 49)



AHMED TEWFIK EL MADANI
Ambassador of Algeria

الحمد لله،

أخي الكريم وولدي الحبيب السيد
الأستاذ أ. سعد الله، حفظه الله،

تحية وسلاما وشوقا، وبعد
تلقيت اليوم رسالتكم الكريمة المتعلقة
بنشر الوثيقة التي تحمل إمضائي، وهي بيانه
الإصلاح الذي أدخلناه على منوال سير جمعية
العلماء المسلمين،
ولقد كنت أذنت لكم شفويا، والآن آذن
لكم كتابيا في نشره كما تشاؤون. أبقاكم الله للعلم
والأدب وللتاريخ الصادق الحقيقي،
ولكم مني التحية العاطرة والسلام الزكي،

اذن كتابي من طرف المرحوم احمد توفيق المدني بنشر التقرير الذي
كتبه بيده اثر اجتماع المجلس الاداري لجمعية العلماء .

(أنظر صفحة 63)

ASSOCIATION DES OULAMAS
MUSULMANS D'ALGÉRIE

SIÈGE SOCIAL
12. RUE POMPÉE - ALGER

TÉLÉPHONE 27817
C.C.P. [illegible]

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

مركزها : ١٢ نهج بومبي
الجزائر
الهاتف ١٧ - ٢٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص المحضر — من محاضر المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بالجزائر أيام ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ و ٢٩ سبتمبر ١٩٥١

بناء على استدعاء من الكاتب العام لسائر المشائخ أعضاء المجلس الإداري، وبناء على [illegible] انعقد المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين جلسته السنوية العادية بمركز الجمعية أيام ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ سبتمبر ١٩٥١ تحت رئاسة الشيخ محمد خير الدين النائب الثاني للرئاسة.

الحضور: المشائخ السادة: محمد خير الدين - احمد توفيق المدني - عبد اللطيف سلطاني - حمزة بوكوشة - احمد حماني - احمد سحنون - العباس بن الشيخ الحسين - احمد حسين - نعيم النعيمي - باعزيز بن عمر - علي بن [illegible] - محمد [illegible] - المولود النجار - الطيب المهاجي - السعيد صالحي - عبد القادر [illegible] - [illegible].

الغائبون بسبب [illegible] المشائخ السادة: محمد البشير الابراهيمي - العربي بن بلقاسم التبسي - احمد بوشمال.

المعتذرون: المشائخ السادة: عبد [illegible] بن منصور (مسايس) - السعيد [illegible] (حج)

المتخلفون دون عذر: المشائخ السادة: ابو بكر الاغواطي - الجيلالي الفارسي - عبد القادر حداد - عبد [illegible]

مستقيل: عبد الرحمن [illegible].

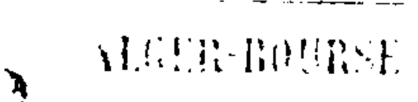
على الساعة [illegible] والنصف افتتح الشيخ محمد خير الدين الجلسة بخطاب [illegible] اعمال الجمعية وآمالها [illegible] الرئيس [illegible] التغيب عن الجلسة، وقال ان اعمالنا يجب ان [illegible] ثم القى الكاتب العام [illegible] تقريره المفصل عن حالة الجمعية منذ انعقاد الجمعية العامة وما قامت به من اعمال في سائر الميادين خلال السنة، وما تريد ان تقوم به خلال السنة المقبلة.

وبعد الانتهاء اقترح الكاتب العام ان يتشكل المجلس لجانا، تبحث كل لجنة مسألة من المسائل [illegible] ثم تعرض [illegible] على المجلس لمناقشتها والمصادقة عليها [illegible] وبعد مذاكرة في الموضوع قبلت الفكرة. وانتخب المجلس من بين اعضائه هذه اللجان:

اللجنة الاولى: لجنة [illegible] والوظائف في الجمعية: رئيسها الشيخ السعيد صالحي.

صورة الصفحة الاولى من محضر الجلسة التي عقدها المجلس الاداري لجمعية العلماء — بخط المرحوم أحمد توفيق المدني.

(انظر صفحة 63)



EXPRÈS



الشيخ الاستاذ محمد البشير الابراهيمي – مكتب جمعية العلماء الجزائريين
شارع شريف رقم ٣٦ القاهرة
دور ٧ – شقة ٥١٠

Monsieur Cheikh Bachir El Ibrahimi
Rue Cherif 36
Le Caire
Egypte

ALGER 13 30 10 1954

avion
Exprès

صورة غلاف الرسالة التي احتوت على التقرير الذي كتبه المرحوم احمد توفيق المدني والذي أرسله الى الشيخ محمد البشير الابراهيمي بالقاهرة .

(انظر صفحة 63)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي احاط بكل شيء علما وانفذ في كل امر قضاء ازليا وحكما ● له الملك الذي ليس له ابتداء ● ولا لمدده انتهاء ● وله الخلق والامر وبيده النفع والضر ● والصلوة والسلام على سيدنا محمد الناهض باعباء الرسالة ● ومالك ازمة المجد والجلالة ● وقائد جيوش النبوة ● وحامل لواء البسالة والفتوة ● وعلى آله واصحابه الذين اتبعوه فيما شرعه وسنه ● وناضلوا منها رعن سنته بالسهام والاسنة ● وبذلوا نفوسهم في اعلاء كلمته ونصرته طلبا لما نالوا من صفوة الله وخيرته ● اما بعد فيقول الفقير الى مولاه الغني محمد بن الامير عبد القادر الحسيني الحسني تغمده الله برحمته ● ولطفه ورضوانه ● بينما شمس امارتنا في المغرب الاوسط طالعة ● وانوارها على جميع اقطاره ساطعة ● واوامرنا مسموعة مطاعة ● ... بالعدل معمورة ● وقصادنا باسوغ

العطايا مغمورة ● اذ فاجأتنا طوارق الدهر ● وجاءتنا جنود فرانسا من البر والبحر ● فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ● ونبذل النفوس والنفيس في حماية الاهل والرعية ● واتصلت بيننا وبينهم حروب ● تظهور قاصمة ● ولدى الحزم والعزم قاصمة فكافحناهم بالخيل والرجل ● وساورونا في الحزن والسهل ● فقابلنا اعمالهم بالمثل ● وقاتلناهم بالسيف والنصل حتى استولى على قلوب الرعية الاضطراب ● واستحكم الوهن عليها بتمكن الاسباب ● ولقي رجالنا اعصارا ● واشرب صفوننا اكدارا ● وآل الامر الى مقارعة اهوال ● ومقابلة ابطال ●

وثم امور تشيب الوليد	وترجع بالاشيب القهقرا

ومع ذلك لم نزل على المدافعة الى ان انقضت المدة ● واستكملت الامارة من ايامها العدة ● فاحاطت بنا جيوش فرنسا وسلموا بضائع راحت نحسا ● وابدلوا سعود تلك الايام نحسا ● ولله في خلقه علم غيب ● وليس في الغلب بعد بذل الوسع عيب ● فالدوائر من شأنها ان تدور ● ولا بد من اعتراء الكسف للبدور

وفي السماء نجوم لا عداد لها	وليس يكسف الا الشمس والقمر

ولما تم للعدو تغلبه على الوطن ● ودخل في حوزته من كان ارتحل من اهله ومن قطن ● ولم يبق في وسعنا ان نثبت في وجهه ● ونقابله في كل امر بمصارعه وشبهه ● راينا التسليم للاقدار اولى ● فان النصر ليس الا بيد المولى ● فالقينا السلاح اليه بشروط مقررة ● وعهود بيننا محررة ● ثم

صورة الصفحة الاولى من مخطوطة (تحفة الزائر) ، نسخة اسطانبول
نسخة (15)

لهو فرع الشجرة الزكية وبدر العصابة الحسينية انسان عين السادة
الاخيار وعقد جيد القادة الابرار صدر الشريعة بل تاجها
بدر الحقيقة بل معراجها نخبة آل بيت اشتهرت بالشرف اوائلهم
واواخرهم واشرقت في افق سماء السعادة فضائلهم ومفاخرهم
من عجزت عن حصر اوصافه الاقلام وتباهت بوجوده الليالى
والايام وتزينت الطروس بغرر مزاياه ومدائحه وتلت النفوس
ايات الحمد والاخلاص في صحائفه واسطة عقد الشرف المقتفى
وغصن شجرة المجد المجتنى كعبة القاصدين حرم الخائفين ناصر
الدين الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن
المختار بن عبد القادر بن احمد المختار بن عبد القادر بن خدة
بن احمد بن محمد بن عبد القوى بن على بن احمد بن عبد القوى
بن خالد بن يوسف بن احمد بن بشار بن احمد بن محمد بن مسعود
بن طاوس بن يعقوب بن عبد القوى بن احمد بن محمد بن ادريس
بن ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط
بن فاطمة الزهراء بضعة خير الانام عليه افضل واكمل السلام .
ولد قدس الله سره في رجب سنة الف ومائتين واثنين
وعشرين بالقيطنة التي اختطها جده بايالة وهران
من اعمال الجزائر في كفالة والده ووالدته السيدة الزهراء بنت
السيد عبد القادر بن دوخه الحسيني تربى في حجر والده وفي مدرسته
حفظ القرآن واخذ العلم عن اهل العرفان وفي سنة مائتين وست
وثلاثين سافر الى وهران وحصل حتى برع في كافة الفنون وكمل وفي
سنة مائتين واحدى واربعون سافر منها مصحبة والده ذى الكمال
والعلوم الباهرة قاصدين مكة المكرمة عن طريق القاهرة وبغداد

النبلا

صورة لصفحة مخطوطة من ديوان (نزهة الخاطر فى قريض الامير عبد القادر) .

(انظر صفحة 115)



صورة الشيخ اي يعلى الزواوي مع بنتيه .

(انظر صفحة 145)

بسم الله

١

سيدي الاستاذ الكامل، والوطني النابغة الفاضل

روابط عديدة، واسباب كثيرة، وشئون جميلة، وفنون جليلة، دعتني الى مكاتبتكم، والتشرف بمخاطبتكم، راجيا من الله ثم من سيادتكم، ان اصادف القبول لديكم، واحظى بالاعتبار عندكم، فاقول معرفا نفسي التي كان الاولى لها ان تبقى نكرة :

اني احد طلبة العلم الزواوة اسمي السعيد بن محمد الشريف بن العربي بن يحيى بن الحاج من ايت سيدي محمد الحاج الشهير. وبما ان العبد اسير الاقدار، مسلوب الاختيار، وجدت نفسي مسوقا لهذه الديار، راضيا وشاكرا وكنت ولم ازل شديد الرغبة للاجتماع بكم، والاخذ عليكم ولكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ❊ تجري الرياح بما لا تشتهيه السفن

أقول وقد عرفتكم اني - وانتم اشهر من ان تعرفوا - الاستاذ الوطني صديقي الحميم الشيخ محمد سعيد المفتي الحالي بمدينة الجزائر، ان حدثني عنكم حينما تشرفتم بلاد الجزائر منذ نحو عشرين سنة ومن سوء الحظ اني اذ ذاك بالقطر التونسي ولم احظ بالاجتماع بكم فحصل لي من الاسف ما حصل، ومن ذلك الحين وانا في الجولان من مكان الى مكان، الى ان صرت بهذا المكان (دمشق) والحمد لله على ما فات،

هذا وان الباعث لي على هذه المكاتبة هو ما اشرنا اليه من روابط الاخا وصلة آل الجنسية وعائد الوطنية، راجيا ان تكون فائدة الصلة تمام الموصول، وفائدة العائد الربط بين الصلة والموصول، وان يطول حبل المودة بيننا

والذي اصرح به لسيادتكم اني اتتلمذ لكم واتمذهب بمذهبكم، واأتمر بأمركم وانتهي بنهيكم، قولاً بالمعروف وتحريا لجانب الصدق في ذلك بيني وبينكم ايام العمر الباقية بحول الله وقوته فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل

أقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل اقترح عليكم واطلب منكم تأليف مختصر في تاريخ بلادنا الزواوة يشتمل على ما يتيسر من خصائصهم ومحامدهم .

---

* الصفحة الاولى من مشروع الزواوي - دار الكتب المصرية - تيمور 956 تاريخ

صورة الصفحة الاولى من مشروع تاريخ زواوة، وهي بخط الشيخ اي يعلى الزواوي

(انظر صفحة 145)

NOTES

OF A

JOURNEY

INTO THE

INTERIOR OF NORTHERN AFRICA

BY

HADJI EBN-ED-DIN EL-EGHWAATI.

TRANSLATED FROM THE ARABIC.

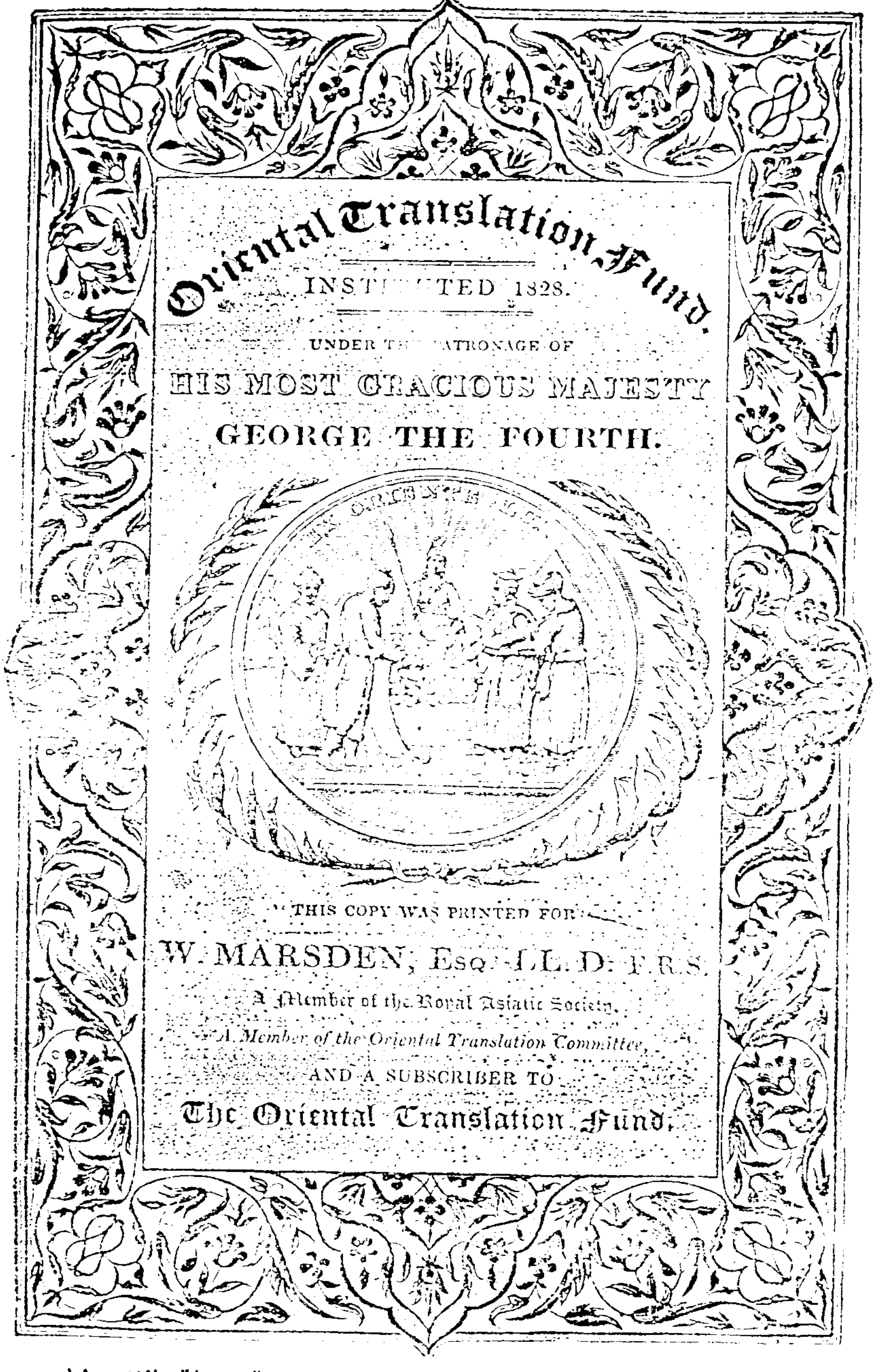
BY

W. B. HODGSON, Esq.

LATE AMERICAN CONSUL AT ALGIERS, AND A FOREIGN MEMBER OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY.

صورة لعنوان رحلة الاغواطي كما ترجمه هودسون .

(انظر صفحة 243)



صورة لعنوان المجموعة التي ظهرت فيها ترجمة رحلة الاغواطي بلندن .

13

(أنظر صفحة 243)

(الصفحة الأخيرة من الوثيقة - نفس المصدر)

صورة الصفحة الثانية من وثيقة ابن مرزوق التونسية .
(انظر صفحة 351)

(بداية الوثيقة ، مكتبة السيد الصادق قطايم بقمار – الجزائر)

الشكل رقم 1 : بداية الوثيقة .

مكتبة السيد الصادق قطايم بقمار — الجزائر

صورة الصفحة الاولى من وثيقة ابن مرزوق التونسية .

(انظر صفحة 351)

الحمد لله وحده — كتب ببسكرة في [illegible] يوم جوان سنة ١٨٩٥

الى المكرم الفاضل الزاكي السيد محمد العروسي السلام التام عليك وعلى
من تعلق بك ورحمة الله وبركاته وبعد ايها السيد وصلك
الخبر على ما صار بي في رحلتي هذه وما صار بتوارق ازجر الهاكين
وطاح عليهم جيش كبير من بو عمامة وناس العرب فخالطين
معهم وغزوا إبلهم وقتلوا بعض من ناسهم .. وانا
يلزمني نرسل خبري الى السيد الحاج اخنوخن واكبار
الازجر وعلى ذلك رسلت لك هذا الجواب ومعه نسختين
من نوبتي اليهم .. والمطلوب من كريم فضلك اوكان
تحت يدك رجل مليح ومومن ماشي الى غدامس
ليقضي حوايجه تعطيه الجوابات لعله يعود ثم
يردهم الى السيد الحاج اخنوخن او واحد من اعيان
الازجر .. ثاني مثبت ان وصلت بريتي بواسطتك
يدروها اهل ازجر كما يعرفوا زاويتكم النافعة و
المشهورة حتى بر [illegible] .. هذا هو المطلوب من كريم
فضلك ولكن اذا ما صعد كي الحال من سببه الجمال
او غيره ترجعني الجوابات عند سي كاوند وكيلي
في بسكرة .. والثالثة ايها السيد كثر الله خيرك
على الخبر الي خبرتني بواسطة السيد [illegible]
ودعوتكم لي في بيان رحلاتي على خاطر [illegible]
ان دايما .. تنشد عني واما انا اطلب من الله تعالى
يحفظك من كل بلا ويقبل دعوتك لمنجح احوالك
المسلمين والنصارى من حبيبك فورو الفرانسوي
المنسوب عند الشعانبة والتوارق خوني من
اخوان تجانية

صورة لرسالة فورو الى الشيخ محمد العروسي التجاني .

(انظر صفحة 345)

محتوى الكتاب

صفحة

كتب أخرى للمؤلّف

في الأدب :

* النصر للجزائر (شعر)، ط 3، 1986 .
* ثائر وحب (شعر) ، ط 2 ، 1977 .
* الزمن الأخضر (ديوان سعد اللّه) ، 1985 .
* سعفة خضراء (قصص) 1986 .
* دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ط 3 ، 1985 .
* شاعر الجزائر : محمد العيد ، ط 3 ، 1984 .
* حكاية العشاق (تحقيق)، ط 2 ، 1983 .
* القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني ، ط 2 ، 1985 .
* تجارب في الأدب والرحلة ، 1984 .
* أشعار جزائرية (تحقيق) 1988 .

في التاريخ :

* الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ط 3 ، 1983 .
* الحركة الوطنية الجزائرية ، ج ، ط 3 ، 1986 .
* الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 1 ، ط 1 (جاهز للطبع) .
* محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) ط 3 ، 1982 .
* حياة الأمير عبد القادر (ترجمة كتاب تشرشل عنه) ط 2 ، 1982 .
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (الجزء الأول) ، ط 2 ، 1982 .
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (الجزء الثاني)، ط 1 ، 1986 .
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ج 3 ، (تحت الطبع) .

* الجزائر وأوروبا (ترجمة كتاب جون وولف) 1986 .
* تاريخ العدواني (تحقيق) في التحضير .
* تاريخ الجزائر الثقافي ، جزآن ، ط 2 ، 1985 .
* شعوب وقوميات ، 1985 .

دراسات وأبحاث عامة :

* **منطلقات فكرية** ، ط 2 ، 1982 .
* رائد التجديد الاسلامي : ابن العنابي ، ط 2 ، (تحت الطبع) .
* رحلة ابن حمادوش الجزائري : لسان المقال ، (تحقيق) 1983 .
* الطبيب الرحالة : ابن حمادوش الجزائري (دراسة) ، 1982 .
* شيخ الاسلام : عبد الكريم الفكون ، 1986 .
* منشور الهداية في كشف حال من ادعى المعلم والولاية ، لعبد الكريم الفكون . (تحقيق) 1987 .
* أفكار جامحة ، 1988 .
* قضايا شائكة (تحت الطبع) .

La montée du Nationalisme algérien, 2e éd. 1985 .

* * *